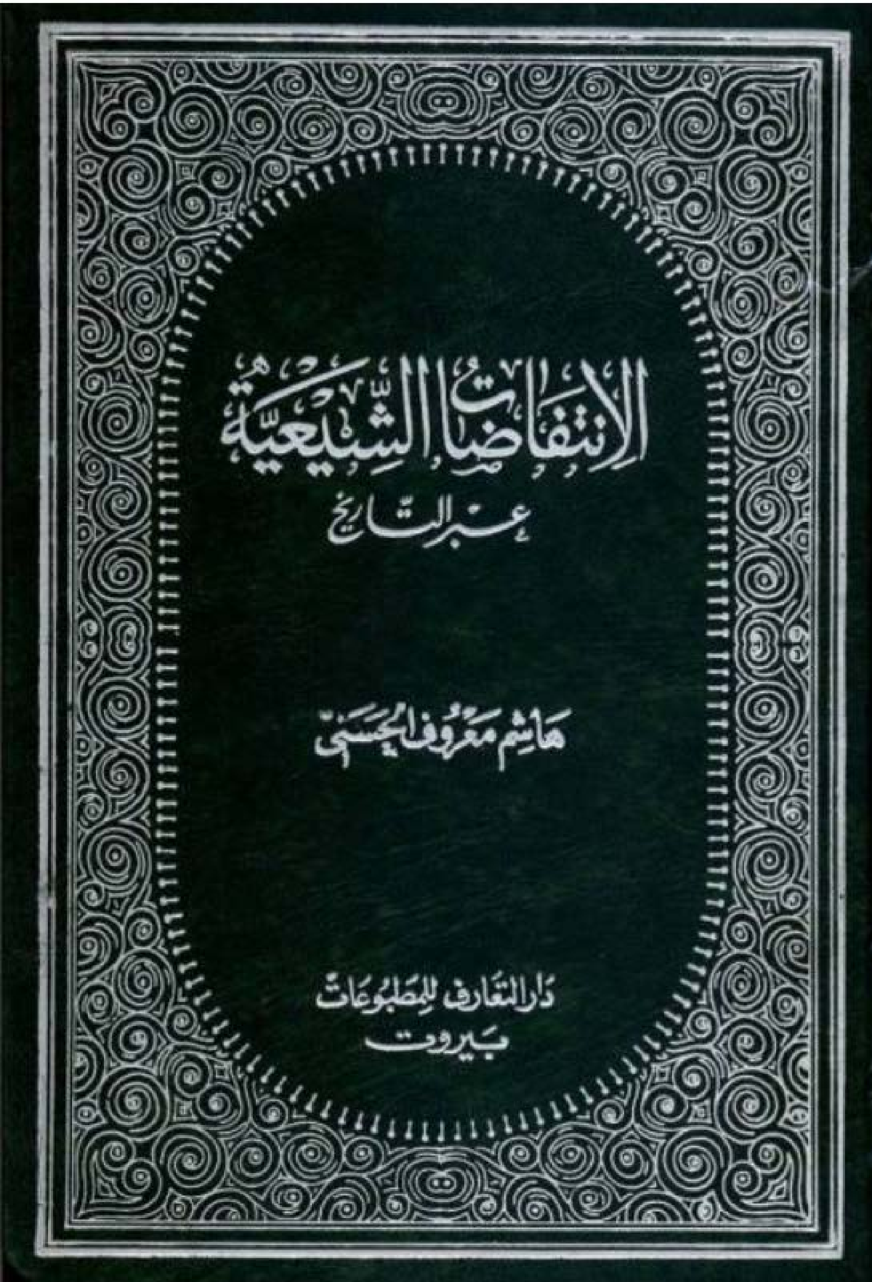

الانتفاضات الشيعية
عبر التاريخ
هاشم معروف الحسني
دار التعارف للمطبوعات
بيروت

السيد هاشم معروف الحسني

سيرة نقيّة، وفكر نقيّ...

نقاء سيرته، ونقاء فكره حقيقتان تواكبان اسمه: حياً وميتاً، حاضراً وغائباً...

ولد السيد هاشم معروف الحسني عام ١٩١٩ في قرية جناتا (قضاء صور - لبنان الجنوبيّ) وفي بيت من بيوت الصلاح والتقوى في جبل عامل، وفي رعاية والده السيد معروف، ذلك الرجل الوقور وقار المؤمن، الوديع وداعة الناس البسطاء، الطيب كطيبة الأرض التي كانت تعطيه من خيرها الوفير بقدر ما يعطيها من جهده الجاهد، وصبره المحتسب، وبركة يديه الخيّرتين.. في ظل هذه المزايا الكريمة لوالده السيد معروف، نشأ السيد هاشم نشأة كريمة اكسبته منذ الفتوّة وقار الرجال، ووداعة المؤمنين، وطيبة الناس الطيّبين كأرضهم جبل عامل.. في ظل هذه المزايا بالذات تمرّس السيد هاشم بأخلاق التواضع والصدق وعفّة اليد واللسان والضمير وببساطة العيش رغم انه عاش فتوّته وشبابه في بيت ميسور الحال موفور النعمة..

ويشهد الذين عايشوه أو عاصروه في النجف الاشرف وهو يطلب علم الدين والشريعة هناك، ان هذه الاخلاق نفسها، وهذه العفة نفسها، وهذه البساطة الطيبة نفسها، ظلت من مميزاته المرموقة التي كانت تكسبه احترام اساتذته وزملائه واصدقائه وتلامذته، بل كانت تمنحه حبهم جميعا.

ونستطيع القول جازمين بأن هذه المميزات التي كانت تزداد ترسّخا في شخصية السيد هاشم، طول اعوام الدراسة في النجف الاشرف، هي اساس ما عُرف به ايام طلب العلم هناك من مثابرة مدهشة على الدرس والمدارسة، ومن انكباب نادر المثال على الكتاب لا تلهيه عنه مغريات المجالس العامرة، يعقدها ايام العطل الاسبوعية، زملاؤه واصدقاؤه ترفيهاً لنفوسهم من عناء الدرس والتدريس . . . هذا لا يعني ان السيد هاشم كان زمّيتاً ، أو انطوائياً ، أو متحرِّجا من مجالس الانس البريئة، أو كان كزّ المزاج لا تطيب له مؤانسة الاصدقاء والزُّملاء. . بل كان أمره على عكس ذلك: كان الوفاً سريع الالفة طيب المؤالفة، تطرب نفسه للقاء الاصدقاء، يهتزُّ جسده كله سروراً ومرحاً للفكاهة اللاذعة الناقدة ويضحك لها مِلْء صدره، بل كثيرا ما كان هو يبادر بها ويرسلها عفوية ضاحكة محببة. . غير انه لم يَدَعْ لنفسه ان تسترسل في الاستمتاع بهذا كله، كيلا يطغى على استمتاعه الروحي بتحصيل المعرفة والعلم. . لذا كان حريصا على ان يقيم التوازن بين هذا وذاك في حياته اليومية، وكان ناجحاً جداً في إقامة هذا التوازن بالفعل. .

السيد هاشم، طالب العلم، كان نموذجاً محترماً للطالب المنظَّم التفكير والعمل. . كان تنظيم عمله اليومي يتناسب مع نَسَق تفكيره الدقيق التنظيم. . فإنه بالرغم من تعدُّد عمله اليومي، كمياً ونوعياً، كان يبدو صافي الذهن، هادىء الاعصاب، متهلّل الوجه، فكأنه يعمل عملاً واحداً سهلاً. . مرجع هذه الظاهرة فيه هو قدرته الفائقة على تنظيم فكره وعمله. . هذه القدرة كانت له عوناً على إنجاز اعماله اليومية كاملة ومتقنة دون أن ترهقه ذهنياً ولا جَسدياً. . بهذا القدر من حسن تصريفه الأمور كانت له الطاقة المدهشة في أن يحضر في اليوم الواحد أكثر من حلقة دراسية، وأكثر من حلقة مذاكرة، وأن يمارس التدريس لأكثر من حلقة وكتاب. . غير أن الأهم من كل ذلك انه كان يتعامل مع زملائه وتلامذته كأنه هو المستفيد دائماً منهم في حين كان هو يفيد أكثر مما يستفيد. . من هنا كان السيد هاشم نموذجاً في التواضع بقدر ما كان نموذجاً في تنظيم عمله وتفكيره. .

كل اخلاقه ومزاياه هذه سواء ما اكتسبه في نشأته برعاية والده السيد معروف، أم ما ترسّخ فيه منها خلال طلبه العلم بالنُجف الاشرف، هي جميعا اخذت تبرز وتتوهّج، أكثر فأكثر، منذ انتهت مرحلة طلب العلم، وعاد الى جبل عامل ليمارس مهمّته كرجل دين. . في مرحلته الجديدة تغيرت كل الظروف السابقة، وجاءت ظروف مختلفة جداً. . وتبدلت شروط الحياة وشروط العمل، بل تبدّلت حتى شروط التفكير. . بمعنى ان شخصيته الانسانية اصبحت عرضة لأن تتكوّن من جديد بصيغة جديدة. وصار من الممكن والمحتمل أن تهتزّ شخصية طالب العلم حين ينتقل فورا الى مرحلة عليه أن يواجه فيها الحياة والناس والأشياء والقضايا بوجه جديد، بشخصية جديدة، بمواقف جديدة، بعادات جديدة، بمزاج جديد الخ، الخ. . .

وهنا الامتحان الكبير، العسير، الشاق. . . هنا التحوُّل من شخصية طالب العلم الى شخصية رجل الدين بكل ما تحتمل شخصية رجل الدين من صفات وصيغ عيش وتفكير، ومن اشكال تعامل، مع الناس، مع الواقع الجديد. . . إنه التحول الصعب. فكيف إذن واجه السيد هاشم ظروفه الجديدة، واقعه الجديد. . . هل اهتزت شخصيته الطالبية النموذجية امام شخصية رجل الدين التي كان عليه إن يتقمّصها بسرعة دون اختلال؟

أسئلة كثيرة من هذا النوع تحتشد في الذهن . . مع أن سيرة السيد هاشم النقية، وفكره التقي، يقدمان لنا الجواب عن كل هذه الاسئلة بارتياح دون مشقة. . فقد بقيا على نقائهما دون انكسار. . وبقي السيد هاشم الطالب النموذجي، هو نفسه السيد هاشم العالم رجل الدين المرتجى. . بل أصبح اكثر نموذجية، اي اكثر توهجا، أي اكثر حضورا في ظروفه الجديدة منه في ظروفه السابقة كطالب علم. . .

كل المزايا التي عرفناها في السيد هاشم طالب العلم في النجف الاشرف، اثبتت حضورها الابهى في العلامة السيد هاشم رجل الدين في جبل عامل:

أخلاق التواضع والصدق وعفة اليد واللسان والضمير وبساطة العيش

رغم وَفْرة اسباب العيش لديه . . كل هذه الاخلاق والصفات فيه، برزت عنده بصيغتها الجديدة منذ بدأ حياته الجديدة كرجل دين.

لكن هذه الاخلاق والصفات ذاتها اتخذت صيغتها الجديدة مسيّجة بسياج حصين منيع من الورع بأعمق معانيه وأكثرها شمولية، إنه الورع الذي يصون صاحبه لا من مقاربة المحرّمات الدينية التعبُّدية وحدها، بل يصونه ـ أولاً وآخراً ـ من مقاربة المحرّمات التعامليّة بخاصة: دينية، واجتماعية، وانسانية ووطنية . . إن هذا النوع التعاملي من الورع، هو ما يضع الفارق الحاسم بين الورع العادي والاستثنائي، أو بين الورع السطحي والعمقي، أو بين الورع الزائف والحقيقي . .

ورع العلاّمة السيد هاشم معروف كان ورعاً ذا طبيعة شمولية، أولاً، وكان ـ الى ذلك ـ ورعاً استثنائياً وعُمقياً وحقيقياً . . نقول هذا لا اعتباطا ولا امتداحا . . وإنما نقوله اعتقادا واستنادا الى الواقع والشاهد والملموس من سيرته النقية . . فنحن نعرف من سيرته هذه أنه:

اولا : كان له من صدق إيمانه الديني حصانة قوية وراسخة تمنع عنه الوقوع في شرك المغريات الآثمة مهما تكن عليه من قوة الاغراء وسحره . . وهذا هو الورع الديني . .

ثانيا: كان له من ادراكه السليم وحدسه الصائب ما يعصمه من كلا الشـرّين: شر العزلة المطلقة عن الناس دون تمييز بعضهم من بعض، وشر الاندماج المطلق بالناس دون الحيطة والحذر من بعضهم دون بعض. بفضل هذه العصمة أمكنه اجتناب اهل الشر منهم، مع الافادة من صلته بالخيّرين فيهم . . وهذا الورع الاجتماعي.

ثالثاً: كان من سماحة القلب ونبل العاطفة ما يضعه قريباً من الناس الصعفاء والبؤساء والمعذّبين . . بفضل هذا القرب الحميم استطاع أن يبلْسم بعض الجراح قدر ما لديه من الممكنات . . وهذا هو الورع الانساني . .

رابعاً: كان له من شرف العقل ونزاهة الضمير ما يبعده عن اهل

الشبهات الذين لا يتورّعون عن بيع الوطن والمواطنين لقاء مكاسب شخصية.. بفضل هذا الشرف والنزاهة فيه كان قادرا ان يمتنع عن الانزلاق الى المنحدرات الموبوءة.. وهذا هو الورع الوطني..

دخل العلاّمة السيد هاشم معروف الحسني عالم الوظيفة كقاضٍ في المحاكم الشرعية الجعفرية في لبنان.. لماذا فعل ذلك؟

نقول واثقين إنه لم يدخل عالم الوظيفة هذه إلا عن ضرورة دفعته الى ذلك.. هذه الضرورة لا يستطيع ان يدركها ويدرك قدرها إلا من عرف ظروف العيش التي يعانيها رجال الدين في جبل عامل، خصوصا منهم اهل العفّة والتواضع وصدق القول والعمل.. هؤلاء يعزّ عليهم أن تضطرهم ظروف العيش احيانا الى الخروج - ولو مقدار شعرة - عن اخلاقية العفة والتواضع والصدق.. من هذا الوجه المشروع اضطر السيد هاشم ان يتجنّب حالة الخروج عن أخلاقيته الاصيلة فدخل عالم الوظيفة كارهاً لا مختاراً.. لكنه فعل حسناً.. لقد أثبت ان الوظيفة ليست شرّاً بذاتها، وإنما هي تتشرّف بمن يصاحبها بشرفه، ويلطّخها بالدنس من يلصق بها دنس يده وضميره.. لقد شرّفها السيد هاشم بالفعل: شرّفها بنزاهة يده وشرّف ضميره، وشرّفها بورعه الصارم.. وبسيرته النقية.

ولقد اثبت السيد هاشم ايضا خطأ الزعم أن الغَرَقْ في حياة الناس أو حياة الوظيفة يلغي فرص النشاط الفكري. أي يلغي ممكنات العمل في مجالات الفكر والعلم..

إن سيرة السيد هاشم وفكره يقولان: لا.. بل إن الاتصال بالناس، مهما يكن واسعا وعميقا يكن باعثاً لنشاط العقل، ومصدرا لاغتناء الفكر، ومُلهماً للعمل والابداع.. فقد برهن السيد هاشم، عملياً، أن فرص الانتاج العقلي اكثر ما تكون توفراً حين يكون العالم والمفكّر بين الناس يتعامل معهم ويتعرف احتياجات عقولهم، ويتفهّم قضاياهم ومشكلات حياتهم.. برهن على ذلك بنشاطه الخصب منذ اخذت تتعدّد وتتشابك علاقاته بالناس، ثم منذ اخذت

مهمات القضاء الشرعي تزدحم وتتكاثر عليه في المحكمة وفي البيت على حد سواء.

وبعد، فليس اقوى دلالة على السيد هاشم معروف الحسني من مؤلفاته العلمية والفكرية.. مؤلفاته وحدها تقول لكم أية سيرة نقيّة، وأي فكر نقيّ، ترك لنا فقيدنا الكبير السيد هاشم معروف الحسني.

صديق المؤلف



السيد هاشم معروف الحسني : إنساناً وباحثاً إسلامياً

الانسان والباحث التقيا في السيد هاشم معروف حتى قبل أن أصبح السيد واحداً من أعلام المؤلفين الباحثين . . . التقى فيه الانسان والباحث ليتكون منهما ـ متلازمين متكاملين ـ هذا البنيان غير العادي: بنيانه الدينامي، العصبي، الخشن الاليف، الانيس، الرومانسي. . ورومانسيّته تكمن في ايمانه وتدينه، وهي تبلغ بحرارتها وصفائها مبلغ الحالة التي اسمها: الورع. . لكن اسمها في حالة السيد هاشم معروف الحسني خصوصاً: الورع العظيم. .

الانسان باحثاً : انسان يطلب الحقيقة. . والباحث انساناً: باحث يعشق الحقيقة. . والسيد هاشم: انساناً وباحثاً، هو: من عرفناه يطلب الحقيقة بشعور مرهف بالعشق وبالصدق. . أقول: الصدق، لأنه لا عشق إن لم يكن الصدق. . ومنذ عرفت السيد هاشم في علاقات البحث والمدارسة في النجف حتى وقف قلمه وقلبه، عرفته يبحث عن الحقيقة بعشق وصدق، لكن ايضا بمنهجيّة منضبطة ومنفتحة على كل جهات الحقيقة. . .

لا بالحدس الصُوفي الغيبي حَدَسْتُ فيه هذه المميزة الباهرة. . كان حدسي واقعيا جمعت عناصره الواقعية من تفاصيل كنت أرصدها في يوميات السيد هاشم الدراسية، حتى كان ذلك اليوم السعيد عام ١٩٣٦. . وهو السعيد بحق لأنني من ذلك اليوم حتى آخر ايام دراستي في النجف وجدت من حلاوة المعرفة ما لم يكن متيسراً لي أن أجد مثله من قبل. . لم يكن السيد هاشم واحداً من حلقة الاصدقاء لنا، ولا واحداً من زملاء الدراسة. . لكنّا جميعا كنا نلحظ كيف

يستخدم وقته بتنظيم بالغ الدقة، ونلحظ أن وقته المُنظم بهذه الدقة موقوف على الدرس والمدارسة.. في حين كان وقتنا يتوزع على مشاغل متعددة متنوعة.. في ذلك العام بالذات (١٩٣٦) كنت قررت قراري الاخير: أن أبرمج وقتي ودراستي برمجة صارمة، وان أمسح من خارطة يومياتي كل شاغل يدخلها غريبا عن برنامجي الذي رسمت... لكن هذا الالتزام كان يقتضي - بالضرورة - التزاما آخر لا غنى عنه في نظام الدراسة النجفية وقتئذٍ... أعني كان يقتضي البحث عن رفيق يستطيع أن يلتزم معي هذا الالتزام، أو عن رفيق يكون له برنامجه الدراسي الصارم، الذي قررت ان يكون لي.. اي رفيق للمدارسة والمباحثة في موضوعات ومسائل علمية كان علينا استيعابها ذاتيا خارج حلقات الدروس مع الاساتذة. وكان قد ثبت عندي بالتجربة، خلال سنوات الدراسة هناك، ان هذا الشكل من الممارسة الذاتية في عملية التحصيل، هو الاجدى في كسب المعرفة، وهو الاكثر قدرة على تكوين الذاكرة المعرفية الغنية، وعلى تحقيق استقلالية الشخصية العلمية للدارسين.. قلت: الممارسة الذاتية لأنها تعتمد لدى كل من طرفيها على التحضير الذاتي الجاد، يحفزه، الى جانب حب المعرفة، حب التكافؤ العلمي مع الطرف الآخر، واحيانا: حب التفوّق.

كان لا بد أن أبحث عن هذا الرفيق، وكان لا بد أن اقتحم اليه كل هذه العوائق... وبعد رصد طويل جاءني ذلك الحدس الواقعي الذي حدست في السيد هاشم معروف الحسني.. وجاءتني اللحظة السعيدة ووجدته كان اختياري مفاجأة له، وكان فرحه بالاختيار مفاجأة لي، وتقاسمنا بالتكافؤ فرح المفاجأة.. وبقي الفرح قسمة بيننا بالتكافؤ ايضا على مدى زمن الرفقة السعيدة هذه التي امتدت حتى عام ١٩٣٨، أي حتى آخر يوم من عمر دراستي في النجف.. كان فرحنا يزداد عمقا كلما ازددنا شعوراً بأن هذه الرفقة تعطينا المعرفة بقدر ما كنا نعطيها من جهد مشترك.

باعتزاز أقول الآن إن رفقة المدارسة والمباحثة مع السيد هاشم، أعطتني نعمة الفَرَحَيْنْ معا: فرح الصداقة، وفرح المعرفة... حتى الصداقة هنا كانت علاقة المعرفة تُرْبَتَها وجذرها اللذين منحاها ذلك الصفاء والنقاء... والمعرفة

ذاتها هنا كان لها تربتها وجذرها الكامنان في أن السيد هاشم معروف الحسني له شخصية الانسان الباحث، او الباحث الانسان، أو طالب الحقيقة بشعور مرهف بالعشق والصدق.. من هنا كان للمعرفة التي نكتسبها معا، مدارسة ومباحثة، معنى آخر وطعم آخر.. كان لها معنى الاقتحام والمغامرة، ثم كان لها طعم الكشف والاكتشاف..

برنامج المدارسة والمباحثة الذي وضعناه موضع التنفيذ فورا، هو نفسه كان شكلا من الاقتحام والمغامرة.. لقد قرّرنا أن نلتزم مُدارسة بعض الكتب الفقهية/ الاصولية غير الموضوعة للدرس وقتئذٍ في النجف، ككتاب «بُلغة الفقيه» مثلا، ومدارسة بعض الموضوعات الصعبة في الكتاب المعتمد والأهم لدراسة اصول الفقه هناك، كتاب «كفاية الأصول» للأخوند (الملا كاظم الخراساني) ، كموضوع «مقدمة الواجب هل هي واجبة»، وموضوع «الأمر بالشيء، هل يقتضي النهي عن ضدّه؟»

لصعوبة في النص كانت الرهبة تسيطر على الطلبة حين تصل بهم الدراسة في كتاب «الكفاية» الى هذين الموضوعين بالاخص، حتى مع حضورهم حلقات الدروس على كبار الاساتذة.. فكيف إذن يقتحمها طالبان وحدهما دون الحضور في حلقات الدروس أي دون معرفة الاساتذة..

لقد اقتحمنا بالفعل، واخترقنا سطوة الرهبة التقليدية.. وكان السيد هاشم معروف، بدأبه العظيم، وبإصراره على طلب الحقيقة بلهفة العاشق، يزيدني ثقة بجدوى الاقتحام، ويزيدني - بذلك توقاً الى متابعة الجهد الطموح للكشف المعرفي بشجاعة تشبه المغامرة..

الانسان والباحث اللذان كأنهما السيد هاشم معروف الحسني، بقيا معا - متلازمين متكاملين - يرهفان رومانسيته الايمانية، ويؤكدان فيه انسانية الباحث عاشق الحقيقة بصدق.. تقياً هكذا مدة المرحلة الدراسية «في النجف» ثم تقياً بصورة أغنى وابهى، في مرحلته الأخرى، أي مرحلة الممارسة العملية المباشرة لصفته كرجل علم ودين، في الوطن، في جبل عامل من لبنان... كنا افترقنا في

هذه المرحلة، لكن ظل السيد هاشم معروف حقيقة نامية نضرة بين أنضر ما غرسته النجف في حياتي من حقائق نبيلة لن يصيبها الذبول ابدا. . كنا افترقنا في هذه المرحلة، لكن لم يفارقني الحنين الى أن أعرف كيف تصير علاقة الانسان والباحث بشخصيته الجديدة: كرجل علم ودين!. . ظل الحنين يتجدد ولا ينقطع، حتى رأيت كتبه تصدر تباعا، وقرأت معظمها، واطمأننت. . أقول: اطمأننت، ولا أزيد. . فالاطمئنان هنا عندي يُغني عن الكلام الكثير، لأنه يعني عندي أن جذوة العشق للحقيقة، أي لمقاربة الحقيقة، أي لاقتحام الصعاب اليها، والمغامرة حتى الوصول، هي لا تزال تلك الجذوة التي عَرَفْتُ من قبل، بل تحولت الى لهب يتأجج، الى مصابيح تتوهج. . وكما عرفت السيد هاشم معروف، في النجف، طالبا يبحث عن الحقيقة بعشق هو الصدق، لكن ايضا بمنهجية منضبطة ومنفتحة على كل جهات الحقيقة، هكذا وجدت السيد هاشم ذاته، وأفضل منه، في كل واحد من مؤلفاته الاربعة والعشرون المطبوعة حتى الآن. . وجدته في المؤلفات ذلك الذي يُقبل على البحث بشوق العاشق، وذلك الذي يقتحم الصعاب بعزم المغامر، وذلك الذي لا تعرفه حماسة العاشق ولا عزيمة المقتحم عن الانصياع الى منهجيته المنضبطة والمنفتحة على كل جهات الحقيقة. .

إذا استقصينا المؤلفات الاربعة والعشرون واستعرضنا الموضوعات التي تعالجها المؤلفات، وجدناها نوعين: نوعا يطرق ابوابا للبحث مطروقة ومألوفة، مثل: «عقيدة الشيعة الامامية» و«سيرة المصطفى» (السيرة النبوية) و«سيرة الأئمة الاثني عشر» و«الحديث والمحدّثون» و«تاريخ الفقه الجعفري». . ونوعا آخر يدخل في باب الاختصاص التشريعي والحقوقي، أو الفكري والنظري، وهذا باب له طابع البحث الاختصاصي العلمي أو الفكري، ومن هذا النوع كتبه التالية: «المبادىء العامة للفقه الجعفري» و«نظرية العقد في الفقه الجعفري» و«المسؤولية الجزائية في الفقه الجعفري» و«الولاية والشفعة والاجارة في الفقه الاسلامي» و«الوصية والوقف والارث من الاحوال الشخصية في الفقه الاسلامي» و«الشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة» و«بين التصوف والتشيع» الخ. . .

لنقرأ ـ أولا ـ في مؤلفات النوع الأول.. هنا نجد السيد هاشم معروف يكتب موضوعه كمن يدخل بابا غير مطروق وغير مألوف.. هنا نجده مقتحماً مقداماً، لأنه واثق أنْ سيضيف جديدا الى الموضوع، أنْ سيقول شيئا يُضفي على المعالجة طابعه هو بالذات.. وهو نفسه يسجّل هذا الموقف الاقتحامي في عنوان كتابه «سيرة المصطفى» حين يضع تحت العنوان بحرف كبير: «نظرة جديدة».. وتسأل أنت: ما عساه يكتب جديدا أو ينظر نظرة جديدة في سيرة النبي.. وأنت تبحث في الكتاب نفسه عن النظرة الجديدة.. وتجدها.. لكن، لن تجدها في اسلوب الكتابة أو أسلوب التأليف.. فلا جديد هنا.. إنما هي تفاجئك منذ تبدأ القراءة.. تفاجئك كامنة في تلك المنهجية ذاتها التي عرفناها قبل.. أعني المنهجية المنضبطة والمنفتحة على كل جهات الحقيقة.. لنقرأ من بداية الكتاب.. فهنا «تمهيد» يفتتحه السيد هاشم بهذا الكلام: «يحاول فريق من الكتّاب، القدامى والمحدثين، أن يصوّروا العرب قبل الاسلام وكأنه بناء أصيبَ بزلزال شديد زعزعه من أساسه، فإذا كل شيء فيه غير قائم في محله، وأصبح الذئب راعيا والجائر قاضيا، والمجرم سعيدا، والصالح محروما، والعادات تتحكم في مصيرهم وتجرُّهم الى الفناء والدمار.. قد تمادى انسان ذلك العصر في الفجور والطغيان ـ على حد زعمهم ـ الى الاستهتار بالقيم ومحاربة الفضيلة، وتعاطى استعمال الربا الى حدود الاغتصاب والسلب، واستحوذ عليه الطمع الجامح والجشع والنهم وبلغت به القسوة الى حدود وأْد البنات وقتل الأولاد.. ومضى هؤلاء في تجريد العرب من جميع القيم حتى من إنسانيتهم، فقالوا: لقد تباهى العربي بالشجاعة والجود والانفة، وافتخر على سواه من أبناء الأمم الواقعة على حدود منطقته، وبرزت هذه الصفات في حياة الانسان العربي، ولكن بعد أن أساء استعمالها في المحل المناسب، عادت وبالاً عليه، فتحولت شجاعته الى الفتك بالابرياء، وجوده الى اسراف وتبذير، وأنفته الى حمية جاهلية، وذكاؤه الى صراع وايجاد الوسائل التي تهيّىء له ارتكاب الجرائم وتوفّر له اشباع شهواته».

يسترسل السيد هاشم هكذا في عرض الصور البشعة لعرب ما قبل الاسلام، كما يتصورها اولئك الكتّاب حتى يستنفد معظم ما كتبوه في هذا الصدد.. وحينئذ يقول موقفه من هذا كله: فلنقرأ موقفه:

«.. وفي عقيدتي أن هؤلاء الذين حاولوا أن يجعلوا من العرب في جاهليتهم الأولى والثانية لا تشبه إلا الوحوش الضارية في متاهات الأحراش والغابات، قد تخطّوا الواقع في احكامهم الى حدود الجور، وبالغوا في تجريحهم الى حدود الغلوّ والاسراف، ذلك لأن الباحث في تاريخهم لا يجد اكثر من بعض الفوارق بينهم، وبين غيرهم من الأمم كالفرس والرومان وغيرهما».. وهنا ينسب السيد تلك الفوارق القليلة الى «طبيعة الصحراء القاسية» من حيث كونها لا توفر لسكانها اسباب الاستقرار التي تستدعي التطور الحضاري.. ثم يتجاوز هذا العامل الطبيعي السلبي ليعرض مقابل ذلك جملة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية التي كانت عوامل ايجابية ساعدت عرب ما قبل الاسلام على الدخول في ظروف التطور والاستفادة من اشكال التطور الحضاري الشائعة وقتئذٍ في العالم المحيط بهم والمتعامل معهم...

يَستوقفنا هنا، خلال هذا النقاش الصدامي، أمران اثنان: أولها، تصدي السيد هاشم معروف للرّد على ذلك الموقف الاعتباطي «اللاتاريخي» حيال عرب ما قبل الاسلام.. وأهمية المسألة هنا أن التصدي للرّد على هذا الموقف يأتي هذه المرة من موقعه الاسلامي نفسه، لا من موقعه القومي، فالسيد هاشم معروف يردّ هنا كمسلم مؤمن بالاسلام حقاً وصدقاً. وهو من هذا الموقع ذاته يتصدى لدفع تلك الخدعة الشائعة عن تاريخ العرب وتاريخ الاسلام كِليهما.. فإن عرب ما قبل الاسلام هم انفسهم عرب الاسلام، وتاريخ هؤلاء هو الجزء الاساس من تاريخ الاسلام..

أما ثاني الأمرين، فهو ان موقف السيد هاشم معروف هنا، يَنهض على قاعدة صلبة راسخة تستمد صلابتها ورسوخها من كونها منطلقاً صحيحاً للتوجه نحو البحث العلمي... في هذا «التمهيد» لكتاب «سيرة المصطفى» يبرز السيد هاشم باحثاً يملك الاداة المعرفية والفهم العلمي للبحث بمنهجية واقعية، ويأخذ بهذه المنهجية بالفعل، ويرفض الأخذ بالأوهام والتصورات الذاتية في قراءة التاريخ... نجد هذه المنهجية الواقعية متبلورة بصفاء حين هو يأخذ، على مدى عشر صفحات من هذا «التمهيد» في تحليل الواقع التاريخي لحياة العرب قبل

الاسلام تحليلاً نقرأ خلاله مختلف الظروف والعوامل والعناصر والجوانب التاريخية المكونة لذلك الواقع بعلاقاته الداخلية والخارجية، وبشروط وجوده التاريخي . .

يستوقفنا السيد هاشم معروف مرة ثانية قبل أن نَصِل الى العالم الداخلي لكتابه «سيرة المصطفى» . . يستوقفنا «بالمقدمة» التي سبقت «التمهيد» . . وهي ليست مقدمة بالمعنى التقليدي المألوف . . إنها الى الابتهال أو المناجاة أقرب . . إنها تنويع ايماني إسلامي، ومنهجي واقعي في آن . . هنا أيضا موقف اقتحامي جديد، أو مواقف اقتحامية عدّة في مساحة تقل عن ثلاث صفحات . . والأفضل لنا أن نُنصت اليه يناجي النبي المصطفى بهذا الصوت المضمَّخ بتراب الارض . .

«ليست سيرتُك يا رسول الله، إلا قصة إنسان قد اتّسع قلبه لآلام البشر ومشكلاتهم، فناضل وجاهد، ووقف بحزم وثبات وقوة، في وجه القوى الغاشمة المفترسة، من أجل الإخاء بين الناس، ومن أجل العدالة والحرية، ومن أجل المحبةِ والرحمة ومن أجل مستقبل أفضل لجميع الناس بلا استثناء: الذين يؤمنون بك بنبوّتك ورسالتك، والذين لا يؤمنون بها على السواء».

«إن الملايين من المسلمين لا يعرفون عن سيرتك ورسالتك التي تشدّهم الى الارض وخيراتها في آن واحد . . إنهم لا يعرفون عنها إلا ما ألصق بها من القشور والخوارق والاساطير . . وهم إذ يعظمونك ويصلّون عليك ويسلّمون، يفعلون ذلك من تقليدٍ موروث بكلمات تدور على ألسنتهم في كل يوم مئات المرّات، ويحسبون أنهم عظّموك وقدّسوك إذا صلّوا وسلّموا عليك حتى ولو انحرفوا مع اطماعهم وشهواتهم عن تعاليمك وسيرتك ورسالتك التي تحدد الاسلام بالعمل لا بالقول وحده، وبالواقع لا بالشعارات الجوفاء، وبالتعاون مع الآخرين والعمل المخلص لخير الناس لا بالاستئثار واستغلال الانسان لأخيه الانسان».

« لقد اتخذوا من سيرتك قصة يَتلونها يوم ميلادك ومبعثك صاغوها بكلمات ونعوت جوفاء تمتلىء بها حناجر أولئك الذين يتاجرون بميلادك ومبعثك ومعراجك لأغراض لا تمت الى الدين بصلة من الصلات، وانصرفوا عن واقعها

وجوهرها وما فيها من دروس وعظات. . كما انصرفوا عن اوامر قرآنك ونواهيه ومضامينه وما فيه من دعوة للجهاد والكفاح والصبر والتضحيات في سبيل الحق، والتمسك بمكارم الاخلاق. . لقد انصرفوا عن ذلك أو أكثر. . الى التغنّي به في الإذاعات من شرق الارض وغربها، وحتى من إذاعة اسرائيل وصوت بريطانيا وغيرها ممن يحاربون رسالتك وقرآنك لأنهما يشكلان خطراً على وجودهم واطماعهم ومصالحهم».

«لقد ضحيت كثيرا في سبيل الله وخير الانسان، وتحمّلت ما لا يطيقه احد من الناس، لتضع حداً للجشع والاستغلال والعنصرية، واستطعت بعد جهاد طويل ومرير أن تسيطر على تلك الأوضاع الفاسدة التي كان يعاني منها انسان ذلك العصر، ووضعت الحلول لكل ما يعترض البشرية من صعاب، ويعرقل مسيرتها نحو مستقبل أفضل يضمن لكل انسان عزّته وكرامته وسعادته في الدّارين (. . .) ونهيت الى الركون والاطمئنان الى الظالمين».

ذلك نموذج للنهج الاقتحامي الذي سلكه السيد هاشم معروف حتى في النوع الأول من مؤلفاته، أي نوع المؤلفات التي تكتب في موضوعات كثرت الكتابة فيها إلى حد الاشباع. . فكيف، إذن، سيكون نهجه الاقتحامي في النوع الثاني من مؤلفاته، أي نوع المؤلفات ذات الطابع التخصصي في العلم والمعرفة؟

ناخذ أولاً ـ من هذه المؤلفات كتاب «المبادىء العامة للفقه الجعفري».

الجانب الاستعراضي التاريخي لا يعنينا هنا من أمر الكتاب. وحده المنهج يعنينا، منهج البحث، والموقف الصدامي الاقتحامي الذي يتواصل مع المنهج. . ونحن نبدأ نرى هذا الوجه من الكتاب، منذ يبدأ المؤلف يعرض لمحة عن الوضع السياسي في عصر الامامين: محمد الباقر وجعفر الصادق. . خلال عرضه هذه اللمحة يلحظ أن المستشرق نيكلسون حين يضع فرقاً بين ثورة الخوارج الشهيرة وبين ثورة الموالي، يضع هذا الفرق على اساس أن الشيعة والخوارج لديهم حجّة تمنع الامويين من استخدام السّيف في وجههم، وهي المحافظة على القانون والنظام أو الاسلام. . أما الموالي فليس لهم هذا الحق. لذا

هم (أي الموالي) لا يملكون حجة تمنع الأمويين من استخدام السيف. . .

يتصدى السيد هاشم هنا لهذا النحو من التفريق، بالنقد والرد، لأنه يرى فيه خطأ، ويرى مصدر الخطأ جهلا بالنظام الذي فرضه الاسلام وأوجب على الحكام تطبيقه. . يعني بذلك «إن الاسلام لم يفرق بين لون ولون، ولا بين عنصر وعنصر، ولا بين السادة والعبيد، من حيث القانون والنظام العام، أو المبادىء الإسلامية، إلا في بعض الحقوق الخاصة بين الأسياد والعبيد. أما القانون أو الاسلام الذي كان الأمويون يستهترون بهما، فمن حق كل مواطن أن يحافظ عليهما ويرعاهما، لأنهما للجميع من غير فرق بين عنصر وعنصر. . . والحجة التي يملكها الخوارج والشيعة في وجه الأمويين يملكها الموالي ايضا»

هذا إذن موقف يتصل بالمنهج ويتواصل معه، فهو هنا يضع اساسا للدفاع عن المبادىء الثوابت للشريعة، وللدفاع ـ في الوقت نفسه ، ضمناً ـ عن حقوق الانسان التي هي المرجع والمصدر لتلك المبادىء الثوابت للشريعة. . وعلى هذا الاساس ذاته يأخذ الكتاب شرائح من الوضع السياسي في دولة الامويين ومن الظاهرات الاجتماعية، السلبية التي كان ينتجها هذا الوضع السياسي، والتي يقول السيد هاشم انه «كان لها أسوأ الأثر في نفوس الملايين من أبناء الشعب الذي كان الحكام يمتصّون دماءهم إذا نفذت اموالهم، وما ذلك إلا لإشباع شهواتهم». ثم يقول السيد: «وإذا اضفنا الى ذلك حرمان الموالي حقوقهم المشروعة المفروضة لهم كمواطنين قد ساواهم الاسلام بغيرهم في الحقوق والواجبات وأضفنا ايضا اضطهاد الذمّيين ومعاملتهم بالعنف والقسوة، مع أن الاسلام قد ضمن لهم كرامتهم وحفظ دماءهم وأعراضهم وأموالهم، ثم اضفنا كذلك انغماسهم (أي الحكام الأمويين) بالشهوات والملذات حتى بلغ بهم الحال أن ينصرفوا عما هو مألوف عند العرب والمسلمين من العادات والتقاليد. . »، يقول: إذا اضفنا كل ذلك، وجدنا هذه الاسباب وغيرها هي الاساس في أن «شاع الاضطراب وعمّت الفوضى وانتشرت الفتن (. . .) واندلعت الثورة في انحاء البلاد شرقا وغربا. . .»

هنا يدخل السيد هاشم في عملية البحث الجادّ من طريق رَصده الاستقصائي لحركة الفعل ورد الفعل التاريخيين، أي المعبّرين عن حركة الصراع الاجتماعي في السطح وفي العمق... بهذه المنهجية الواقعية، ذات النفس التاريخي، يؤسس للبحث الاقتحامي في المبادىء العامة للفقه الاسلامي الجعفري. وحين يصل الى هذه المبادىء ذاتها بالتحديد والتعيين، نجده قد أكمل عملية التأسيس، بحيث أصبحت كل المبادىء العامة هذه محكومة بالمبدأ الاساس: مصلحة المجتمع... نرى ذلك يتجلى ـ مثلا ـ بمبدأ تحريم الاحتكار... يقول السيد هنا إن الفقه الاسلامي الجعفري قد تعرّض الى كل ما يتصل بحياة الانسان ويضمن له الراحة والسعادة» ... ثم يبادر الى وضع اعتراض يتعلق بنظرية الحرية آتياً من الفئات الاجتماعية التي يُضر مبدأ تحريم الاحتكار بمصلحتها، أي فئات التجار الاحتكاريين. والاعتراض هو أن مبدأ تحريم الاحتكار يتنافى مع مبدأ تشريعي آخر يقول بحق كل انسان في حرية التصرف بنفسه وبماله...

السيد هاشم يدفع هذا الاعتراض بأنه «إن كان الاسلام يعلن أن للانسان حُرّيته على نفسه وماله، هو ـ من جهة أخرى ـ يحد من حريته وسلطته على ماله وتصرفاته حين تكون هذه الحرية «مزاحمة لحقوق الآخرين في الحياة»، وهو ـ أي الاسلام ـ ينكر أشد الانكار أن يندفع بعض الافراد بدافع من أنانيتهم وشرههم الى استغلال الغير والاثراء من أقوات الشعب وضرورياته... من أجل ذلك نَهى الاسلام عن الاحتكار، وحدد موقف التجار من الاسواق» .

وانطلاقا من موقف الدقة في البحث، ومن موقف الورع الفقهي، حَرَص السيد على تحديد المفهوم التشريعي الاسلامي للاحتكار. فإذا هو يحدده على النحو الآتي: ... «أن يقوم فرد أو جماعة بشراء نوع من الحاجيات التي هي في معرض الاستهلاك، وبعد شرائها ينتظر في بيعها الربح الفاحش، مما يؤدي الى ايقاع الضرر بالمستهلكين، وعلى الاخص الطبقات الفقيرة»

على أن هناك اختلافا في الحكم بالاحتكار يرجع الى اختلاف في تقدير نسبة حاجة الناس الى المادة المحبوسة عنهم، ومبلغ تأثير احتكارها على الحالة

العامة. قد يكون الاحتكار مكروها وقد يكون كرماً... وفي بعض الحالات يجب انتزاع المادة المحتكرة من مالكها قهراً لسدّ حاجة الناس اليها... أما الحكم بكراهية الاحتكار دون تحريمه، فذلك في حالة كونه لا يوجب الاضرار بالغير، وكون المادة الاستهلاكية موجودة في السوق، بمعنى انها مبذولة ولا يؤدي إمساكها الى ارتفاع سعرها والاضرار بالمستهلكين... يقول السيد هاشم هنا إن فقهاء الشيعة يجمعون انه يجب على الحاكم أن يجبر المحتكر مع الحاجة على عرض الطعام في الاسواق. ومصدر هذا الحكم الاجماعي هو أن الإمام علياً مرّ بالمحتكرين فأمر بحكرتهم أن تخرج الى الاسواق... وبعض فقهاء الشيعة يرى أن على الحاكم أن يضع سعراً محدداً يتفق مع مصلحة المستهلك والمستورد في مثل هذه الحالات، ولا يكفي مجرد عرض البضاعة في الاسواق، لأن ذلك وحده لا يرفع الضرر عن المستهلكين، بجواز أن يتحكم التجار في الاسواق بما يحقق لهم جشعهم ويضر بالمجموع

وفي معرض الكلام على مبدأ الزواج من الكتابيات، يعرض السيد هاشم اجتهادات عدة لفقهاء الشيعة في هذا الباب، ثم يستطرد الى قضية الاجتهاد نفسها، فيرى ان الاجتهاد عند الشيعة فسح المجال لكل فرد أن يحكم بما يفهم من النصوص الاسلامية، ولا يتقيّد برأي أحدٍ وفهمه، مهما بلغ من العظمة في العلم، وقد كان الحال على ذلك بين الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الاربعة (المصدر السابق).

وفي كتابه «نظرية العقد في الفقه الجعفري» يعود السيد الى مسألة الاجتهاد عند الشيعة فيؤكد كلامه السابق، ويضيف اليه - أولاً - تحديد مفهوم الاجتهاد بأنه بذل الجهد في سبيل تحصيل العلم والظن بالأحكام بطريق التتبع والدراسة واستقصاء الأدلة على نحوٍ يصبح الانسان قادرا على استنباط الاحكام من أدلّتها. ويضيف - ثانياً - مسألة وجوب الاجتهاد على كل مسلم يناله التكليف الشرعي، أي أن الوجود هنا وجوب عيني يتوجه الى كل فرد بعينه دون استثناء، لكن تمنع من الوجوب العيني هذا أن تنفيذه يؤدي الى العسر والحرج للناس، والى اختلال النظام الاجتماعي العام، لأن طلب الاجتهاد يستلزم التفرغ من

سائر الأعمال المنتجة وغيرها. . في حين أن التفرّغ هكذا يعطل حركة العمل والنشاط الاجتماعي، فيقع العسر والحرج ويختلّ نظام الحياة. . . فينتج إذن أن الاجتهاد واجب وجوباً كفائياً أي أن قيام البعض به يكفي في تحقيق الغاية منه، وهي استمرارية حركة التشريع مع استمرارية تجدد الحياة (راجع نظرية العقد. . .).

كتاب «نظرية العقد في الفقه الجعفري» يطرح مسألة أخرى ذات شأن كبير في هذه المرحلة من عصرنا يقف السيد المؤلف منها موقفا اقتحامياً بحق، حين هو يعرضها بطريقته الاستقصائية الواثقة والمتعاطفة مع موضوعها. . . المسألة هنا هي مسألة «العقود المستحدثة»، أي عقود التعامل بين الناس في العصر الحاضر خصوصا «التي لا ينطبق عليها أحد العناوين المدونة في كتب الفقه الاسلامي». . إشكالية المسألة تتحدد بوضع السؤال الآتي:

ـ هل العقود المدونة في كتب الفقه هي المرجع في عصرنا، بحيث يكون كل عقدٍ أو تعامُل باطلاً لمجرد كونه لا ينطبق عليه واحد من العقود أو اشكال التعامل المقررة سابقا في فقه المسلمين الأولين؟

هذه الاشكالية يضعها السيد هاشم معروف مقتحما مجالها بسلاح العلم وسلاح الثقة بالعلم. . يبدأ معالجة الاشكالية بوضع الجانب الآخر من السؤال: هل العقود المقررة سابقا قد أقرّها التشريع الاسلامي: كتاباً وسنة، ودوّنها الفقهاء في مجاميعهم، لا لخصوصيته بها، ولا لأن الطريق الى التعامل والاتجار والتكسب يجب أن لا يتخطاها، بل لأن التعامل بين الناس في الغالب، في عصور التشريع وما بعده، لم يتعدَّ هذه الأنواع من العقود، ولازم ذلك أن الظروف والحضارات التي تختلف باختلاف العصور، إذا اقتضت نوعا آخر للتعامل والاتجار لا يخل بالنظام ولا بالآداب العامة، يكون مصداقا للعقود التي أقرّها التشريع الاسلامي في الكتاب والسنّة. . .

إن وضع المسألة بهذه الصيغة/ السؤال، يضعنا على طريق حل الاشكالية باتجاهه الاقتحامي. . فالسيد المؤلف ـ بادىء الأمر ـ يجد المبدأ العام في القوانين

المدنية المعاصرة يقضي بأن جميع الاتفاقات والالتزامات، مهما كان نوعها وبأي شكل وجدت، هي من العقود، وتصبح نافذة لدى المتعاقدين، إذا لم تخالف القانون والنظام العام.. ثم يجد السيد هاشم «من المستصعب أن ننتزع هذا المبدأ العام من الفقه الاسلامي» لعدم وجود النصوص والقواعد العامة التي تسمح بإدخال كل ما هو مستحدث في النصوص التي أقرّت العقود السابقة وأقرّت بالوفاء بها... لكن، بعد هذه التحفظات في المسألة، نجد السيد هاشم يتجه الى التيسير، أي الى العمل بما تقتضيه طبيعة ظروفنا المعاصرة، أي الى اثبات مشروعية العقود المستحدثة، استنادا الى أن النصوص الاسلامية لم ترد فيها ما يقتضي حصر العقود في نوع أو صنف بخصوصه، ولم تعيّن نوع العقد والبيع والتجارة، بل أمَرت بالوفاء بالعقود، وأحلت التجارات، وفرضت على المسلمين أن يلتزموا بشروطهم والتزاماتهم، من غير أن تتعرض لأنواع تلك العقود واصنافها، ولا لماهية التجارة وكيفيتها، ولا لشكل الالتزام وموضوعه».. هذا الموقف الاجتهادي الآخذ بعمومية النصوص كتابا وسنة، يدعمه السيد المؤلف بالتوجه السمح الذي يقول هكذا:

«... ومعلوم أن الناس، قبل عصر التشريع، كانوا يتعاملون بينهم بالبيع والشراء، ويتعاقدون بجميع الأنواع الشائعة في ذلك العصر وقبله، فلا بد أن يكون الذي يجب عليهم الوفاء به، والبيع المحل لهم، والتجارة المسوّغة لأكل المال، والالزام الذي يجب تنفيذه، وهو ما يسمّيه الناس عقداً وبيعاً وتجارةً والتزاماً في عصرهم، وفي جميع العصور، حسب حاجات الزمن ومقتضيات الحياة... وكل ما في الأمر أن الحاجة لم تدع في عصر التشريع وقبله الا لتلك الاصناف من العقود، فإذا دعت في عصر من العصور الى صنف من العقود، كما حدث بالفعل في عصورنا المتأخرة، يكون المستحدث فردا (مصداقاً) للعقد الذي يجب الوفاء به بمقتضى نصّ الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾، ثم يلخّص السيد موقفه الاجتهادي في المسألة قائلاً:

«... وبتعبير أكثر وضوحا، إنه بعد أن فرضنا ان المشرّع لم يخترع أنواعا وأصولا للتعامل تسمّى بيعاً وعقداً وتجارة. وما دام الأمر متروكا الى العرف، لكل

ما تفرضه حاجة المجتمع ويستعمله الناس ويسمّونه عقداً، يكـون مشمولا لتلك الأدلة العامـة التي جاءت لامضـاء ما هـو متعارف بـين الناس في مقـام التعامـل والاتجار» (راجع كتاب «نظرية العقد في الفقه الجعفري»

أطلنا الوقـوف عند هـذه المسألـة، لاهمية المسـألـة بـذاتها في زمننـا هـذا بالاخص، أولا . . . ولأهمية الموقف الاجتهادي الاقتحامي للسيد هاشم معروف من هذه المسألة، ثانيـا . . . ولأهمية مـا يقدمـه السيد هنـا من منهجيته المنضبـطة والمنفتحة على كل جهات الحقيقة ثالثا . .

والسيد هاشم معـروف: انسـاناً وبـاحثاً، هو طـالب الحقيقة وهـو عاشق الحقيقة . . . ولأنه يجمع بين الطالب والعاشق في موضوع واحد، هو الحقيقة، لم يكن محايدا، لأن الحياد يناقض العشق، لأن الحياد نفي للعشق، لأن الحياد نفي للذات . . . نفي للقضية . . أي نفي للحقيقة نفسها . .

لم يكن السيـد هاشم معـروف، كإنسـان وباحث، محـايدا، كـان منحـازا لـموضوع عشقـه الذي هـو موضـوع علمه . . . كـان منحازا لحقيقتـه التي وضـع بتصرّفها كل حالات الانسان والباحث فيه . . . حقيقته هذه اثنان في وحـدة . . . وحـدة متكاملة وصلبـة . . . الاثنان همـا: الشيعة والمعرفة . . كـل كتبه الأربعة والعشرون المطبوعة: دفـاع عن الشيعة، وعـطاء سخيٌّ للمعرفـة . . هو هكـذا، واكـثر سطوعـا، في كتابيـه: «الشيعة بـين الاشاعـرة والمعتزلـة» و«بـين التصوّف والتشيُّع» . . الأول منهما: دفاع عن استقلالية الشيعة بالنسبة لكل من الاشاعـرة والمعتزلة، ردّاً على خطأ شائع يساوي الشيعة بـالمعتزلـة . . . لكن الكتاب نفسـه دَفق غزير وشهيّ من المعرفة، معرفة الفِرق الاسلامية السياسية وعوامل نشأتهـا، مع توسع في بحث تاريخ المعتزلة والاشاعرة والمرجئـة وسائـر الفِرَق والمـذاهب، وبحث آرائهـا ومعتقداتهـا، مع بحث مستفيض في مقـارنة كـل من هـذه الآراء والمعتقدات بآراء الشيعة الامامية ومعتقداتها . .

أما كتاب «بين التصوف والتشيع» فهو كذلك: دفاع عن استقلالية الشيعة بالنسبة للمتصوفة وللفكر الصوفي، ردا أيضا على خطأ شائع بأن التشيع رافد من

أوسع الروافد التي انطلق منها التصوف وانتشر في الاوساط الاسلامية... لكن الكتاب مع ذلك يشكل مرجعاً غنياً وموفقاً وأميناً لدراسة حركة التصوف في الاسلام والمجتمع العربي ـ الاسلامي خلال العصر الوسيط وما بعده.. وهو كتاب يقدم فيضاً من المعرفة يوفّر حتى للباحثين مادة معرفية في الموضوع معروضة بمنهجية واقعية وبتعميق بحثي مثير.

السيد هاشم معروف: انساناً وباحثاً اسلامياً، هو من عاش فيه كل من الانسان والباحث بورع عظيم.. كان ورع الباحث فيه عظيماً بقدر ما كان ورع الانسان فيه عظيماً.

سلام عليك أبداً أيها الصديق الذي مَنَحتني رفقته نعمة الفرحين معاً: فرح الصداقة، وفرح المعرفة.. وهذه كتبك تمنحني اليوم فرح اللقاء بك من جديد في زمن لا يزال ـ كعهدك ـ زمن المقاومة الوطنية زارعة النار والنور في تراب الجنوب لدحر العدوّين: اسرائيل، واليأس من دحر اسرائيل... إنه الفرح الساطع أن نلقاك اليوم من جديد في زمن لا يزال ـ كعهدك ـ زمن انتفاض التراب الجنوبي دفاعا عن شرف الانسان في لبنان، وفي كل مكان.

رفيق الدراسة

صديق المؤلف

الانتفاضات الشيعية في التاريخ

يقدم هذا الكتاب صورة صادقة عن تاريخ التشيع بما تعنيه هذه الكلمة من ان النبي (ص) قد اختار علياً اماماً وخليفة من بعده بأمر من ربه. واصالة التشيع بهذا المعنى اصالة غيره مما جاء به محمد بن عبدالله (ص) من أصول ومبادىء وتشريعات، كما يقدم صوراً عن مسيرة الخلافة الاسلامية وآراء الشيعة وغيرهم في الحاكم الجائر وما ارتكبه الامويون منذ استيلائهم على السلطة من الجرائم وما قاموا به من محاولات جادة لتحريف الاسلام وتشويه معالمه، وعن الانتفاضات الشيعية بقيادة العلويين وغيرهم التي رافقت العهد الاموي من مطلعه حتى لفظ آخر أنفاسه، وحاولت جهدي ان اكون حياديا ومجردا للحق والواقع، وأرجو ان اكون قد وفقت لذلك.

هاشم معروف الحسني

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد الرسول الامين وعلى آله الائمة الهداة الميامين الذين اجتباهم الله من خلقه وجعلهم الدعاة الى طاعته ورحمته وبركاته.

لقد كان التشيع لعلي (ع) بالمعنى الذي تعنيه كلمة الخليفة، لا يعدو كونه المختار لاتمام المسيرة بالاسلام في انحاء هذه الدنيا الواسعة وبهذا الاعتبار كان جزءا من الرسالة التي أنزلت على محمد بن عبدالله ليبلغها الى البشر كغيرها من الاصول والمبادىء والتشريعات ما دام بين الاحياء، ويتولاها من بعده من اختاره الله لها، ولا تعني شيئا آخر وراء متابعة المسيرة بالاسلام لتحرير الانسان من الوثنية ومن سيطرة الاهواء والميول والشهوات، وتخليص الضعفاء والمعذبين والمستضعفين من سلطان السادة والحاكمين والمستغلين.

ولما اختار الله رسوله اليه وانحرفت الامة عن الخط الرسالي باختيارها لإدارة شؤون الامة اولئك الذين تعاقبوا على الحكم واستخدموا سنة الرسول (ص) التي كان الكذبة من انصار الحاكمين يعيثون بها، ستارا تخفي وراءها ما كانوا يضمرونه من سوء للرسالة ومسيرتها، وراحوا يعملون على اظهار التشيع لعلي وآله وكأنه

حزب من الاحزاب ويذهب كل فريق مذهبا في تاريخ ولادته يختلف عن مذهب الآخرين، ولو أنصف الباحثون وتجردوا عن نزعاتهم وأحقادهم الموروثة واستخدموا العقل والمنطق في بحوثهم بدلا من اجترار ما تناقلته المجاميع من مصنوعات ابي هريرة وابن جندب وابناء الزبير والزهري وغيرهم لاتجهوا الى البحث والتنقيب عن مصدر التسنن وكيف نشأ وترعرع في ظل اولئك الذين استخدموا السنة لتضفي على عروشهم صفة الاصالة والتبعية لدعوة الرسول ورسالته، وجذبت اليهم تلك الاموال التي كانت تتدفق على المدينة من غنائم الحروب جماهير المسلمين طمعا في برهم وصلاتهم، ولكن القسم الاكبر من تلك الاموال كان يذهب الى القرشيين وحاشية الخليفة ولا يصل لغيرهم من عامة الناس وسوادهم الا النزر القليل وبخاصة عندما انتهت الخلافة الى عثمان واستغل الحزب الاموي خلافته وجميع موارد الدولة ومقدرات الامة، وأصبح مع ذلك يتجاهر بالاستهتار بالقيم والمقدسات ويكل مظاهر الاسلام، مما أثار غضب الجماهير وشعورهم بالحرمان، وأخذ ذلك الشعور يتفاعل في الحجاز وخارجه، وبدلا من ان يقابل الخليفة تلك النقمة العارمة بمحاولة الاصلاح والحد من اسراف اسرته في الاستغلال والاستهتار وعدم المبالاة، بدلا من ذلك وقف الى جانب اسرته وحواشيه ومضى يتتبع قادة المعارضة ويلاحقهم بالضرب والتعذيب والطرد الى خارج المدينة كما فعل مع جماعة من وجوه الصحابة وأعيانهم، مما دعا المسلمين في خارج المدينة الى اعلان الثورة عليه واحتلال المدينة الذي انتهى بمصرعه، وكان الرابح الاول من تلك الثورة معاوية بن هند وأبي سفيان الذي يجسد أحلام أمية وعداءها السافر للبيت الهاشمي وللرسالة التي انطلقت منه لتجميع الناس على صعيد واحد وهو الايمان بالله والعمل لخير الجميع، تلك الرسالة التي كان يمثلها علي (ع)، والتف حوله العرب والموالي يومذاك لانهم كانوا يرونه المنقذ الوحيد من تسلط القرشيين واستغلالهم. ولكنهم سرعان ما بدأوا ينفضون من حوله بعد ان ساوى بينهم وبين الموالي والعبيد وأراد ان يطبق الاسلام بدون تفضيل او محاباة فكانت سيرته السياسية والاجتماعية بداية نضال جديد، نضال المؤمنين بالقيم الاسلامية والشعارات التي رفعها الاسلام ضد الجاهلية الجديدة التي كان يجسدها الحزب الاموي وأعلنها حربا لا هوادة فيها على أنصع الوجوه في مسيرة الثورة ضد الشرك الذي تستر بالتوحيد وبطلاء خفيف من الاسلام.

لقد وقف طلحة والزبير وعائشة الى جانب معسكري الشرك والجاهلية

الجديدين اللذين قادهما الامويون واشتركوا في حرب علي، وكان ما كان من امر تلك المعارك في البصرة وصفين والنهروان وكانت نتائجها لمصلحة الامويين فانتقلت السلطة اليهم يتداولونها تداول الكرة كما كان يتمنى لهم ابو سفيان بن حرب. ورآهم النبي (ص) من وراء الغيب ينزون على منبره نزو القردة، فراعه ذلك المشهد وجاءت الآية الكريمة لتؤكد له رؤياه:

وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن.

واتجه الامويون بكل طاقاتهم ينفسون عن احقادهم على بيت محمد بن عبدالله الذي قهرهم وضعضع كبرياءهم خلال معاركه معهم فتتبعوا ذريته بالقتل والاسر والتشريد وسبه بسب ابن عمه علي (ع) الذي قال له اكثر من مرة بحضور حشد من صحابته: يا علي من سبك فقد سبني ومن سبني فقد سب الله ومن سب الله فقد كفر بالله، فكانت المجازر وقوافل الشهداء في العراق وغيره تتلاحق على أيديهم وسيوفهم المصلتة على المطالبين بالحق وتطبيق العدالة التي دعا اليها الاسلام وضحى علي وبنوه بأنفسهم وبكل ما يملكون من اجلها ومن اجل الانسان وكرامته وتطبيق العدالة التي تحفظ لكل انسان حقه وكرامته وكانوا القدوة الخيرة المعطاء لكل ثائر على الظلم والظالمين وفراعنة العصور وتستر بهم حتى اولئك الذين قاوموا الحكم الاموي والعباسي لمصالحهم الخاصة وطمعا في السلطة كالزبيريين وابن الاشعث والعباسيين وغيرهم. وقد عرضت في كتابي هذا المراحل التي مرت بها الخلافة الاسلامية ومواقف الشيعة وأئمتهم منها وآراء المسلمين في الحاكم الجائر وموقف الشيعة منه والاسباب التي قضت على الشيعة ان يكونوا مستهدفين للحكام في مختلف العصور، وانتفاضات الشيعة في وجه الحاكمين منذ ان أتيح للحزب الاموي ان يتسلم مقاليد السلطة وحتى لفظت الدولة الاموية آخر أنفاسها. وما احدثته مجزرة الطف من الهزات العنيفة في جميع الاوساط الاسلامية، وما الى ذلك مما يتصل بموضوع الكتاب. واعتمدت في جميع ذلك على المصادر التي تعتمد في بحوثها على المنطق والمحاكمة أكثر من العرض والنقل، وأرجو ان اكون قد وفقت الى حد ما لاعطاء صورة صحيحة عن تلك الانتفاضات التي رافقت العهد الاموي حتى لفظ أنفاسه الاخيرة بسواعد الشيعة الذين انتزعت منهم ثورة الحسين روح التواكل والخضوع للظالمين وعلمتهم كيف يعيشون احرارا ويموتون كراما في مملكة الجلادين. ومنه سبحانه أستمد العون والتوفيق والسلامة في الدين والدنيا وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم انه سميع مجيب.

اصالة التشيع ومرافقته للدعوة منذ مطلعها

لقد تحدث القدامى والمحدثون من الكتّاب والمحدثين والمؤرخين عن التشيع وتاريخه، وأسرفوا في احاديثهم عن تاريخه اسرافا أقل ما يقال فيه انه يعتمد على التحيز العقائدي والانجراف مع التيارات المذهبية المعادية للشيعة منذ أقدم العصور الاسلامية التي تداول القرشيون فيها الخلافة بعد النبي (ص) قرونا طوالا، معتمدين في بداية معركتهم مع الانصار الذين تطلعوا اليها بعد ان وجدوا ان كفة الرجحان اوشكت ان تكون الى جانب المهاجرين المتآمرين على انتزاعها من اصحابها الشرعيين، معتمدين مبدأ القرابة القرشية التي كانت تشدهم من ناحية النسب لا غير الى النبي (ص)، في مقابل الانصار الذين تسلحوا بصلتهم بالرسول عن طريق العقيدة والايمان والجهاد والتضحيات التي بذلوها في سبيل الاسلام والمسلمين.

لقد تسلح المهاجرون بقرشيتهم التي كانت تشدهم الى الرسول وتجمعهم واياه على صعيد واحد، صعيد الاسرة والقبيلة التي حاربها الاسلام في عشرات المناسبات وألغى جميع ما لها من الامتيازات العرقية ليجمع المسلمين كلهم على اختلاف اجناسهم وألوانهم وقبائلهم وما الى ذلك على صعيد واحد هو الايمان بالله ورسوله والعمل لخير الناس اجمعين.

لقد استخدم المهاجرون في مقابل الانصار لغة القرابة البعيدة المتشعبة الفروع والاهواء والنزعات، وتجاهلوا الاقرب الى الرسول (ص) في النسب والروح والعقيدة والجهاد وكل ما جاء به من عند الله، وظل القرشيون من امويين وعباسيين

بعد انقراض عهد الراشدين الذي لم يتجاوز الثلاثين عاما، يتداولونها لمئات السنين يستخدمون الحديث المزعوم في مقابل من يدعيها من غيرهم، ويعملون بكل ما لديهم من جهد وامكانيات هائلة للتعتيم على التشيع بكل وسائل الارهاب، وبشراء الضمائر وتسخير المحدثين وغيرهم للكذب والافتراء، ووضع الاحاديث التي تصور التشيع لعلي وبنيه (ع) وكأنه من اسلحة الهدم والتخريب لكل ما جاء به الاسلام من قيم ومبادىء وتشريع وتنظيم شامل لكل نواحي الحياة ومراحلها.

وكان من جملة ما افرزته جهود الحاكمين والحاقدين على التشيع انهم اعتبروه ظاهرة طارئة في المجتمع الاسلامي، وقطاعا من جسم الامة الاسلامية تكون على مرّ الزمن نتيجة لاحداث وتطورات اجتماعية معينة أدت الى تكوين أفكار وآراء في جزء من ذلك الجسم الكبير. ومن ثم اتسع ذلك الجزء في ظل ظروف معينة وأصبح مذهبا لفريق في عداد المذاهب والفرق التي افرزتها الاحداث والتقلبات خلال القرون الاولى من التاريخ كما يزعمون.

وبعد هذه الافتراضات المزعومة راح جماعة من الباحثين يبحثون عن تلك الاحداث والتطورات التي انتجت تلك الظاهرة، وولادتها من ذلك الجسم الكبير يمينا وشمالا، واختلفت آراؤهم في ذلك اختلافا لا يعتمد على المنطق ولا على دليل يمكن الاطمئنان اليه، فأسندها بعضهم الى اليهودي المزعوم عبدالله بن سبأ مدعيا بأن السبئية قامت بنشاط لهدم الاسلام وتخريبه، وهتفت بأحقية علي في الخلافة عن طريق الوصاية. وتكتل حول السبئية جماعة من المسلمين ومن هؤلاء تكونت ظاهرة التشيع بين المسلمين الاوائل.

وهناك من يرد تلك الظاهرة الى الفترة القصيرة التي انتهت فيها الخلافة الى الامام علي (ع) وما هيأته تلك الفترة من أحداث وحروب ومشاكل كادت ان تستوعب سني خلافته القصيرة، وجاء التشيع فيها لعلي كرد على مواقف الناكثين والقاسطين والمارقين وما رافق ذلك من افكار ظهرت في تلك الفترة عن طريق الخوارج كقولهم بأن امامة المسلمين لا تختص بفئة دون فئة ولا بفريق من الناس دون فريق، ولا هو من الواجبات على الله وعلى الناس الى غير ذلك من افكارهم ومقالاتهم بما فيها ما ينسب اليهم من تكفير علي (ع)، ودعوته الى التوبة من خطيئة التحكيم، وكان مما لا بد منه بنظر الدكتور احمد صبحي وغيره من الدكاترة وجماعة من المستشرقين، ان يقابل ذلك بتقديس علي (ع) ورفع مقامه الى مرتبة وصي النبي وخليفته بالنص الالهي.

ويمضي أنصار هذا الرأي في إسفافهم ومغالطاتهم الى القول: بأن الذين ارجعوا بداية التشيع الى وفاة الرسول (ص) ليس لديهم ما يعتمدونه سوى انهم وجدوا من بعض المهاجرين القلائل كأبي ذر وعمار وسلمان الفارسي ونفر قليل غيرهم تصلبا في مناصرته وموالاته وتأييدهم له، كما وان الذين ارجعوه الى الفترة التي استولى بها على الخلافة يعتمدون في ذلك على وقوف اكثر المسلمين بجانبه في المعارك التي نشبت يوم ذاك بينه وبين الخارجين عليه في البصرة وصفين والمنشقين من جيشه في النهروان وكان هو يسمي المناصرين له في تلك المواقف بالشيعة، في حين ان المناصرين له في تلك المعارك على كثرتهم لم تكن تجمعهم عقيدة واحدة ولم تكن مواقفهم من اخصامهم نتيجة لهدف واحد، فلقد كان من هؤلاء الذين وقفوا الى جانبه مع المؤمنين بحقه في الخلافة جماعة يخشون على مصيرهم من الامويين فيما لو استقامت لهم الامور. ولعل اكثر الانصار الذين وقفوا الى جانب علي (ع) كانوا يحسبون ان الامويين سوف لا يقفون موقفا كريما من كل من ناصر محمدا بعد هجرته الى المدينة خوفا من قريش وقادتها، والامويون يوم ذاك من ابرز القادة المناوئين لمحمد (ص) ودعوته وظلوا على موقفهم المعادي لها طيلة القرون التي أتيح لهم فيها ان يتسلطوا على الناس في الشرق والغرب باسم الاسلام.

وهناك من يرد ظاهرة التشيع الى مصرع الحسين (ع) في كربلاء، وهؤلاء كما يبدو من كلماتهم حول هذا الموضوع يزعمون ان استشهاد الحسين (ع) كان نقطة تحول عامة في التاريخ الفكري والعقائدي للتشيع، لان آثار تلك المجزرة لم تقتصر على اذكاء نار التشيع في نفوس الشيعة وتوحيد صفوفهم، حيث انهم كانوا قبل مقتله متفرقي الكلمة والاهواء، كما وان التشيع قبل مقتله لم يكن سوى رأي سياسي لم يمتزج بدمائهم، فلما قتل (ع) امتزج بدمائهم وتغلغل في أعماق نفوسهم وقلوبهم وأصبح عقيدة راسخة عميقة الاثر دفعتهم الى التضحية والجهاد في سبيله.

ومضى أنصار هذا الرأي الى القول: إن دم الحسين (ع) قد ترك فيما تركه من الآثار ما جعل التشيع بعد مقتله حركة انشقاقية على نطاق واسع بين المسلمين، ومن ثم انفصل الشيعة عن الاسلام السنة انفصالا يكاد ان يكون تاما في الآراء والمعتقدات.

وقد أيد هذا المضمون جماعة من المستشرقين، والدكتور علي الخرطبولي في كتابه: تاريخ العراق في ظل العهد الاموي.

ونحن لا ننكر على هؤلاء ولا على غيرهم ان دماء الحسين بن علي (ع) أحدثت في الكوفة وحتى في العالم الاسلامي يومذاك هزة من أعنف الهزات ما كانت لتحدث لولاها بالرغم من النقمة العارمة على حكومة الامويين الذين استغلوا الخلافة الاسلامية لاعادة سيطرتهم وتسلطهم وعدائهم السافر للاسلام وعودة الروح الجاهلية الاولى باسم الاسلام، وقد مهدت دماء الحسين (ع) للشيعة وهيأتهم للثورة على الظلم والظالمين متخذين من مصرع الحسين مثلا كريما للصبر على البلاء والاستشهاد في سبيل الحق والمظلومين والمستضعفين في الارض بالرغم مما أحيط بالمسلمين من اضطهاد فكري وسياسي بلغا اقصى الحدود في العصرين الاموي والعباسي، وكانت الانتفاضات الشيعية التي نمهد لها في هذا الكتاب تستمد شرعيتها وقوتها خلال القرون التي تلت مصرع الحسين من مبادىء الاسلام ودعواته الى الاستشهاد والتضحيات لانقاذ المستضعفين والمعذبين من تسلط الحاكمين وجورهم، وفي الوقت ذاته فان موقف الحسين (ع) في كربلاء كان ولا يزال المثل الاعلى لكل ثائر ومناضل في سبيل حرية الانسان وكرامته.

ولكن الذي ننكره على هؤلاء وأمثالهم ممن يرون ان التشيع من الاحداث الطارئة الدخيلة على الاسلام كغيره من الفرق التي ظهرت في عهد متأخر عن وفاة الرسول وفي ظل ظروف معينة لم تكن اصابع الحاكمين بريئة منها لاسباب تمكن لهم الاستقرار وتقيهم شرور الهزات والانتفاضات التي كانوا يتعرضون لها بين الحين والآخر ممن كانوا يطالبون بتطبيق العدالة واصلاح شؤون الدولة وأنظمتها الفاسدة.

الذي ننكره عليهم هو ادعاؤهم بأن التشيع لم يكن قبل مصرع الحسين وان كلمة التشيع لم تكن تعني المفهوم والمحتوى الذي ظهر لها بعد ذلك وانه قد انفصل عن الاسلام السني انفصالا تاما في الآراء والمعتقدات ونصر على انه قد رافق الاسلام منذ مراحله الاولى بمقتضى نصوص الرسول (ص) على علي للقيام بمهمات الخلافة وشؤونها من بعده تصريحا تارة وتلميحا اخرى في عشرات المناسبات والمواقف منذ بعثه الله وحتى اللحظات الاخيرة من حياته، وقد جعل له كل ما جعله الله له من الصلاحيات الروحية والاجتماعية والسياسية وانه لا يختلف عن الاسلام الذي جاء به محمد بن عبدالله في شيء لا من الاصول ولا من الفروع، وعلى اساس ذلك نقول ونصر على انه أصيل اصالة الاسلام وغيره كان من الاحداث الطارئة التي فرضتها الاهواء والمصالح.

وفيما أظن ان الذي دعا اكثر الباحثين في هذه المواضيع الى افتراض التشيع من الظواهر الطارئة في المجتمع الاسلامي، هو ان الشيعة لم يكونوا يمثلون في صدر الاسلام الا مجموعة محدودة من الجسم الاسلامي لان الاكثرية الغالبة من المسلمين بعد وفاة النبي قد وقفت الى جانب الحاكمين، والذين ثبتوا الى جانب علي (ع) كانوا محدودي العدد بالنسبة الى غيرهم، وبعد ان تعاقب الطامعون في الحكم على الخلافة من أمويين وغيرهم وصرفوها عن اصحابها الشرعيين، خلق الحاكمون بمساندة انصارهم من الفقهاء والمحدثين والمرتزقة فكرة التسنن التي تعني الانتساب لسنة الرسول، فيما رجع الفريق الثاني الشيعة الى الائمة الشرعيين باعتبارهم يجسدون الاسلام وسنة نبي الاسلام، ليس ببعيد ان يكون ذلك هو الذي دعاهم الى افتراضه من الظواهر الطارئة، فراحوا يبحثون عن اسبابه من خلال ما طرأ على الاسلام من أحداث وتطورات أدت الى ولادة التشيع لعلي (ع) ومن بعده للأئمة الاحد عشر حسب التسلسل المعروف لدى الامامية.

وبلا شك فليس من المنطق ولا من المألوف في معرض البحث والفحص عن واقع الاشياء الاعتماد على الكثرة العددية او قلتها واعطاء الاكثرية صفتي الاصالة والواقعية، والاقل عددا صفة الظواهر الطارئة المنشقة عن ذلك الجسم الكبير لاسباب وأحداث كما يدعيها بعضهم زورا وبهتانا في حين انها لا تمتّ الى الاسلام والدين بصلة من الصلات، ولا يجوز بحال من الاحوال ان يكون ذلك من جملة التصورات التي نبني عليها بحثنا عن الانقسام العقائدي في الرسالة الاسلامية الى شيعة وغير شيعة، كما لا يجوز ان نقرن ولادة التشيع في اطار الرسالة الاسلامية بولادة كلمة الشيعة كمصطلح او اسم لفرقة معينة من المسلمين، لان ولادة الاسماء والمصطلحات لا ترتبط بنشوء المحتوى والاتجاه، فاذا لم تكن هذه الكلمة متداولة في عهد الرسول وعند وفاته كما يزعم اولئك الذين يتعلقون بالاوهام والافتراضات ليفصلوا التشيع عن الاسلام كغيره من الاحداث الطارئة والفرق التي انتشرت في مطلع القرن الثاني لاسباب وظروف معينة، اذا لم تجدها كما يزعمون فلا يعني ذلك ان النبي (ص) قد اهمل هذا الجانب من جوانب رسالته ولم يهيء من يتابع المسيرة بها الى جميع انحاء العالم الذي ارسل لانقاذه مما كان يتخبط فيه انسان ذلك العصر وغيره.

وحينما نستعرض تلك الثورة التحررية التي قادها محمد بن عبدالله (ص) خلال ثلاثة وعشرين عاما من حياته بجميع نواحيها الروحية والاجتماعية

والاقتصادية والعسكرية والادبية والتي تشمل جميع جوانب الحياة الانسانية في شبه الجزيرة وخارجها من بقاع الارض، وما عاناه في هذا السبيل من قومه وغيرهم قبل ان تنتقل رسالته الى ما وراء شبه الجزيرة التي كانت تحكمها بالاضافة الى الدول الكبرى يوم ذاك دويلات تتاخم حدود الحجاز منطلق الدعوة، وفي الوقت ذاته كان الكثير من عرب الحجاز وقبائله قد دخلوا مع المسلمين وانخرطوا في صفوفهم ولما يدخل الاسلام قلوبهم وكان هو نفسه (ص) يحاذر من انقلابهم على الدعوة بعد وفاته كما تؤكد ذلك طائفة من المرويات الصحيحة. حينما يستعرض الباحث كل ذلك وما كان يحاك لعرقلة مسيرتها حتى في حياته يخرج وهو على يقين من انه (ص) منذ مراحلها الاولى كان يهيىء لها من يتابع السير بها كما اراده الله لها ويعده اعدادا صالحا للقيام بكل ما تفرضه الظروف والمناسبات وما يخبئه المستقبل من تطورات وأحداث على جميع الاصعدة التي تعرقل مسيرتها، ولعل المناسبات التي كان يشير فيها الى من اختاره الله لتلك المهمة تارة ويصرح باسمه ووصفه للجمهور الاعظم وبحضور من كان يطمع فيها بالذات تارة اخرى، لعل تلك المناسبات التي كانت من هذا النوع تعد بالعشرات كما احصتها مجاميع التاريخ والحديث السنية والشيعية.

وقد تحدثت عن التشيع ومراحله وما قيل فيه من الآراء والافكار الحديثة منها والقديمة في الفصل الاول من كتابي (بين التشيع والتصوف) وعرضت فيه مجموعة من الارقام التي تؤكد ان الولاية التي جعلها النبي (ص) لعلي (ع) من بعده هي عين الولاية التي جعلها الله له وعلى اساسها كان يمارس جميع الشؤون الدينية وغيرها ويخطط لانقاذ العالم من الوثنية ومما كان يعانيه من ظلم الحاكمين والمتسلطين خلال المدة التي اقامها في المدينة بعد هجرته اليها من مكة، بل هي في واقعها امتداد لولايته لتبقى المسيرة التي استقطبت ثلاثة وعشرين عاما من حياته في مكة والمدينة لتحرير العالم بأسره مما كان يتخبط فيه في طريقها الصحيح، ومن هذه الولاية ولد التشيع لعلي منذ ان جعلها له النبي (ص) بمعنى اسناد الزعامة اليه من بعده واعطائه الصلاحيات التي كان يمارسها ويقوم بها من روحية واجتماعية وسياسية وما الى ذلك من الشؤون والمهمات التي لا مجال لتجريد الولاية عنها وأصبح اكثر المسلمين لا يرون لقيادته بديلا، وظلت فكرة الولاية تتفاعل في نفوس المسلمين الى جانب غيرها من أصول الاسلام ومبادئه والنبي (ص) يتعاهدها ويغذيها بوصاياه ونصوصه بين الحين والآخر في مختلف المناسبات.

ونتيجة لتلك المواقف التي وقفها النبي (ص) ظهر الشيعة على المسرح منذ

وفاته مباشرة متمثلا في المسلمين الذين خضعوا لقيادته عمليا منذ اللحظة الاولى لوفاته في مواقفهم من الطامعين في الخلافة ومن تحركاتهم للاستيلاء على السلطة، والنبي لا يزال جثة هامدة في بيته بين اهله وذويه، ولم يكن اجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة الا نتيجة لتلك المساعي التي كانت تبذل حينذاك لانجاح تلك المؤامرة، وكان بالامكان ان يكون له تأثير مباشر على مسيرة المؤامرة التي كان من ابرز أبطالها ابو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح لولا انهم استطاعوا اثارة النعرات القبلية والاحقاد الكامنة بين الحيين الأوس والخزرج والتي كادت ان تتلاشى بعد دخول النبي (ص) الى المدينة وانتشار الاسلام فيها وقد وقف جماعة من اوس الانصار الى جانبهم لا لشيء الا لان سعد بن عبادة الخزرجي من ابرز مرشحي الانصار وأقواهم، ولم ينته مؤتمر السقيفة على النحو الذي انتهى اليه الا بعد ان نسب ابو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح الى النبي (ص) انه قال: الخلافة لا تكون الا في قريش. لقد نسبوا الى النبي هذه المقالة بعد ان عجزوا عن مقارعة الانصار بالحجج التي كانوا يتبارون بها، وكان الانصار يحتجون بجهادهم وبخدماتهم وتضحياتهم في سبيل الاسلام فهل تجديهم الحجج والحديث المزعوم ينادي بأن الخلافة لا تصلح الا لكل من يفترض فيه ان يكون قرشياً ينتسب الى فهر بن كلاب كما يرى ذلك اكثر المؤلفين في احوال العرب قبل الاسلام. ولعل اكثر المسلمين من الانصار وغيرهم يعرفون ان الحديث غريب وبعيد عن منطق الاسلام لانه يؤكد مبادىء الجاهلية القائمة على التفوق السلالي والعصبيات القومية والقبلية ويتناقض مع المبدأ الاسلامي الذي الغى جميع هذه الامتيازات وحاربها فيما حاربه من نظم وأفكار ومعتقدات لم تكن لخير الانسانية التي جاءت الشرائع السماوية من اجل عزتها وكرامتها وسعادتها وحمايتها من جور الحاكمين وجشع المستغلين والمتسلطين.

وكان النبي (ص) في اكثر مواقفه يؤكد على الغاء الفوارق والامتيازات التي تصنف الناس الى فئات وطبقات، وشريف ووضيع، داعيا الى وحدة اسلامية عروتها الوثيقة الايمان بالله والعمل بما جاء به من عنده، وكان آخر تلك المواقف التي كان يقفها من اجل تلك الوحدة لاجتثاث تلك النزعة الجاهلية من نفوس المسلمين، موقفه في حجة الوداع بين عشرات الالوف من مختلف انحاء شبه الجزيرة، حيث قال: ايها الناس ان ربكم واحد وأباكم واحد ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب ان اكرمكم عند الله اتقاكم.

ومما يؤيد عدم صحة الحديث بهذه الصيغة ان الذين احتجوا به في مقابل الانصار وكان من اوفر أدلتهم حظا في التغلب على الانصار قد تجاهلوه بعد ان استتبت لهم الامور وسارت كما يريدون، وكأنه لم يكن بين المرويات عن الرسول (ص) فلقد روى اكثر المؤرخين ان عمر بن الخطاب قبيل وفاته وبعد ان أحس بخطر الموت كان يقول لمن يراجعه بشأن من يتولى الخلافة من بعده: لو كان سالم مولى ابي حذيفة حيا لوليته، ولو كان ابو عبيدة حيا لوليته، مع العلم بأن سالما ليس بقرشي ولا عربي وانما هو من الموالي.

ان الذي كان يحتج به بالامس القريب لتثبيت البيعة لابي بكر لقد تراجع عنه بعد سنوات معدودات وقال ان بيعة ابي بكر كانت فلتة لم تقم على اساس سليم وتمنى لو كان سالم بين الاحياء ليسلمه خلافة كانت بعد وفاة صاحب الرسالة لا تصح لقادة الانصار الذين بذلوا الغالي والرخيص وحتى دماءهم في سبيل الاسلام لانهم لا ينتسبون لقريش، والخلافة لا تصح لغير القرشيين كعثمان بن عفان ومعاوية بن ابي سفيان ويزيد بن معاوية والوليد بن يزيد وأمثال هؤلاء ممن يمثلون الشرك ويجسدونه بكل اعمالهم وتصرفاتهم ومعتقداتهم.

ولو افترضنا صحة الحديث وصدوره عن النبي فلا بد وأن يكون اشارة الى اشخاص معروفين عنده بصفاتهم وأسمائهم بنحو القضية الخارجية وهم الذين عناهم بقوله كما تؤكد المرويات عنه: الائمة بعدي اثنا عشر كلهم من ولد علي وفاطمة كما روى ذلك جماعة من المحدثين المعروفين بالتثبت والوثاقة، كما روى حديث الاثني عشر البخاري وغيره من محدثي السنة، وجاء في بعض مرويات البخاري للحديث ان النبي (ص) قال: لا ينقضي هذا الامر حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة، وفي بعضها انهم من قريش. ورواه غيره من اصحاب الصحاح بصيغ متشابهة وأكثرها صريح في انهم من ولد علي وفاطمة فتكون كلمة قريش ان صح انها قد وردت على لسان النبي عنوانا للأئمة الاثني عشر الذين اجتباهم الله من بين خلقه واختارهم لقيادة الامة من بعده بالتسلسل الذي ذهب اليه الامامية ونصت عليه مروياتهم عن اهل البيت (ع) لانهم يجسدون سيرته الكريمة وتعاليمه الخيرة بسيرتهم وسلوكهم وجميع تصرفاتهم، لا لانهم من قريش ليكون الحديث مناقضا لما كان يأمر به ويدعو اليه من الغاء الفوارق القبلية والعنصرية وما الى ذلك من الامتيازات التي تضع الحدود والفوارق بين الناس.

ونظرا لشيوع الحديث وشهرته عند محدثي السنة وشيوخهم بنحو لم يجدوا

سبيلا لتجاهله ذهبوا يمينا وشمالا بعد ان تجاوز عدد الخلفاء العشرات من الامويين والعباسيين وكانوا من اسوأ خلق الله في سيرتهم وسلوكهم وتعاطيهم لكل انواع المنكرات ذهبوا يبحثون عن اثني عشر خليفة بين خلفاء الامويين والعباسيين واختلفوا في تعيينهم أشد الاختلاف، في حين ان اكثر الاحاديث التي تعرضت لهذا العدد قد اقترنت بما يؤكد انه (ص) لا يعني سوى الائمة الاثني عشر من ولد علي وفاطمة (ع).

ومهما كان الحال فلقد وقف جماعة من المسلمين منذ اللحظات الاولى موقفا سلبيا من خلافة ابي بكر وأصروا على بيعتهم لعلي (ع). وجاء في الاحتجاج للطبرسي عن ابان بن تغلب انه قال: قلت لجعفر بن محمد الصادق (ع) جعلت فداك هل كان احد من اصحاب رسول الله (ص) أنكر على ابي بكر فعله؟ فقال نعم لقد أنكرها جماعة وعد منهم اثني عشر رجلا من أعيان المهاجرين والانصار، ومن مجموع ذلك يتبين ان بيعة ابي بكر بالشكل الذي تمت عليه وبتلك السرعة لم تكن لتدخل في حساب اكثر المسلمين لا سيما والنبي لا يزال مسجى بين اهله وذويه.

وبعد النصوص الكثيرة من النبي (ص) على خليفته من بعده وبعد موقفه الصريح في غدير خم قبيل وفاته بأشهر معدودات الذي لا يزال ماثلا لهم، ونبرات ذلك الصوت الكريم الذي يعبرّ عن ارادة الله سبحانه في وسط تلك الحشود الهائلة من مختلف انحاء شبه الجزيرة لا يزال صداه يعاودهم بين الحين والآخر.

ولم يشأ الانصار ان يبقى سبب موقفهم من خلافة ابي بكر سرا يمكن تفسيره على غير واقعه، بل كشف عنه احد اقطابهم زيد بن ارقم بحضور تلك الحشود المجتمعة لتشييع الجثمان الطاهر الى مقره الاخير وقال: اما والله لو انها كانت لعلي ابن ابي طالب لم يخالف منا احد كما جاء في رواية ابن ابي الحديد في شرح النهج عن الزبير بن بكار، وكما نصت رواية الطبري في المجلد الاول من تاريخه صفحة ١٩٨ على انه خلال الحوار الذي جرى بين ابي بكر ومن معه من المهاجرين وبين الانصار من جهة اخرى لما اقترح على المجتمعين في السقيفة ان ينسحب لابي عبيدة او لعمر بن الخطاب لاتمام ما اتفقوا عليه من انتزاع الخلافة من اصحابها الشرعيين، قال الانصار: لا نبايع الا علي بن ابي طالب.

ورجح الاستاذ توفيق ابو علم في كتابه اهل البيت ان سعد بن عبادة لم

يرشح نفسه لها الا بعد ان أيقن ان المتآمرين من المهاجرين مصممون على انتزاع الحق من اصحابه.

وبلا شك فان موقف الانصار هذا لم يكن لمجرد ان عليا (ع) كان افضل من غيره وأصلح لها من جميع اولئك الطامعين بها، بل لانهم بالاضافة الى ذلك سمعوا النبي في عشرات المناسبات يؤهله لقيادة الامة من بعده تارة وينص عليه بصراحة لا تقبل التأويل تارة اخرى. ويؤكد على المسلمين ان يسمعوا له في ظل قيادته الحكيمة لنشر الاسلام وارساء أصوله وقواعده في شبه الجزيرة وخارجها، ولم يكن باستطاعة احد ان يحد من حماسهم ويمنعهم من اذاعة ما يعلمون من امر الخلافة، فلقد وقف سهل بن حنيف بين المهاجرين وفيهم ابو بكر وعمر بن الخطاب بكل ما يملك من جرأة وصراحة وقال: يا معشر قريش اشهد لقد رأيت رسول الله في مسجده وقد اخذ بيد علي (ع) وقال: ايها الناس هذا علي إمامكم بعدي ووصيّ في حياتي وبعد مماتي وقاضي ديني ومنجز وعدي وأول من يصافحني على حوضي فطوبى لمن اتبعه ونصره والويل لمن تخلّف عنه وخذله.

كما وقف نفس الموقف ابو ايوب الانصاري وقال: اتقوا الله عباد الله في اهل بيت نبيكم وردوا اليهم حقهم الذي جعله الله لهم. فلقد سمعتم مثل ما سمع اخوانكم في مقام بعد مقام ومجلس بعد مجلس من النبي (ص) وهو يقول: اهل بيتي أئمتكم بعدي ويومىء الى علي (ع) وهو يقول هذا امير البررة وقاتل الكفرة مخذول من خذله ومنصور من نصره.

ووقف ابو الهيثم بن التيهان من المهاجرين الموقف نفسه وقال: اشهد ان رسول الله (ص) اقام عليا في غدير خم وان الانصار قالوا: لقد اقامه خليفة، وقال جماعة من المهاجرين: انه اقامه ليعلم الناس انه مولى من كان رسول الله مولاه، ولما سألوا رسول الله (ص) عن مراده فقال: انه ولي المؤمنين بعدي وأنصح الناس لأمتي، الى غير ذلك من المواقف الجريئة التي تؤكد ان الذين وقفوا الى جانبه في المدينة كانوا من أعيان المسلمين ووجوههم ويقدرون بالمئات لا بالعشرات، اما في خارجها فالقسم الاكبر ممن وصفهم المؤرخون بالارتداد من القبائل والأحياء العربية قد اذهلهم موقف تلك الفئة من المهاجرين وتجاهلهم للخليفة الشرعي وهم حديثو عهد بموقف النبي (ص) قبل اشهر معدودات من وفاته في غدير خم، وجلهم يومذاك قد باركوا لعلي (ع) قيادته للأمة بعد رحيل قائدها الأعظم عن دنياهم المليئة بالشرور والآثام، ووقفوا من خلافة ابي بكر موقفا سلبيا حينما بلغتهم

اخبارها. وفي الوقت ذاته كانوا يمارسون فرائض الاسلام وأحكامه سوى ما يعود منها الى المصالح العامة التي يتولاها خليفة النبي كالزكاة ونحوها كما يشير الى ذلك اكثر المؤرخين.

وجاء في صفحة ٢٢٩ من المجلد الثالث من تاريخ الطبري ان جماعة ممن وصفوهم بالارتداد كانوا يقيمون الصلاة وامتنعوا عن تسليم الزكاة الى الجباة يومذاك، وأضاف ان عشائر اسد وفزارة قالوا: والله لا نبايع ابا الفضيل ابدا يعنون بذلك ابا بكر، كما وقف بنو حنيفة الموقف نفسه بقيادة زعمائهم.

وجاء في بعض المرويات انهم قالوا: لا نسلم الزكاة الا لمن أمرنا رسول الله بمبايعته، فأرسل اليهم ابو بكر جماعة بقيادة خالد بن الوليد وكانت المجزرة التي قتل فيها مالك بن نويرة وجماعة من أنصاره وتزوّج خالد بزوجة مالك بالاسلوب الذي لا يقره الاسلام مما أحدث ضجة في اوساط المسلمين وهالهم ان يحدث ذلك على حساب الاسلام في مستهل عهد جديد بعد دفن النبي بأيام معدودات. وكان لابن الخطاب من مقتل مالك واستحلال خالد لزوجته موقف كريم تفرضه أصول الاسلام مهما كانت دوافعه كما يرى ذلك اكثر المؤرخين.

ومجمل القول ان عددا كبيرا من المسلمين في المدينة وخارجها ظلوا أوفياء لبيعة علي (ع) ووقفوا من الحكومة الجديدة موقفا سلبيا كاد ان ينفرج عن ثورة عارمة في العاصمة وخارجها يستغلها اعداء الاسلام كأبي سفيان وأمثاله من المنافقين وبخاصة طلقاء مكة الذين اسلموا بعد الفتح، وكان الاسلام لعق على ألسنتهم لم يخالط قلوبهم ولا اطمأنت اليه نفوسهم بل حملت قلوبهم هما وحزنا مما انتهى اليه امر الاسلام في شبه الجزيرة من الانتشار، فكانوا في حياة النبي (ص) يتربصون بالمسلمين الدوائر ويكيدون لهم ما وسعهم الكيد ويمليه عليهم الحقد وتنفرج نفوسهم لكل ما تصاب به الدعوة من انتكاسة او هزيمة في معركة من المعارك.

هؤلاء وأمثالهم قد استغلوا موقف المسلمين في داخل المدينة من الخلافة وراحوا يعملون بكل ما لديهم من الوسائل لتأزيم الموقف وتعقيده، وبعد ان ظهرت وتسربت انباء هذا الصراع الى خارج المدينة، خرج مسيلمة بمن معه من بني حنيفة في اليمامة، وطليحة بن خويلد بمن اجتمع اليه من غطفان واسد وطيء وكنانة وغير هؤلاء ممن لم تبلغ الدعوة درجة الاختمار في نفوسهم. بعد ان رأى علي كل ذلك وأدرك الاخطار التي بدأت تلوح في الافق هنا وهناك، وان اصراره على

موقفه يحقق للمنافقين والطلقاء وغيرهم ممن لم يكن الاسلام قد اختمر في نفوسهم وخالط قلوبهم وعقولهم، يحقق لهؤلاء وغيرهم ممن اعلنوا العصيان والتمرد كل ما يصبون اليه ويعملون من اجله في الظلام، تراجع عن موقفه وترك الخلافة لادعيائها لان مصلحة الاسلام هي أعز وأغلى عنده من كل شيء وقد وهب حياته لها وهو في مطلع شبابه، واذا كان يطالب فيها فذاك لاجل الاسلام ولإتمام المسيرة في طريقها الصحيح السليم الذي لم ير النبي (ص) اهلا لها غيره، وهو القائل: والله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة. والقائل في حديث له يصف فيه الموقف بعد وفاة الرسول (ص): فما راعني الا انثيال الناس على ابي بكر يبايعونه فأمسكت بيدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون الى محق الدين فخشيت ان لم أنصر الاسلام وأهله ان ارى فيه ثلما او هدماً تكون المصيبة فيه اعظم من فوت ولايتكم التي هي متاع ايام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب او كما ينقشع السحاب. وحينما وضع يده في يد ابي بكر ليقطع الطريق على مثيري الفتن والمنافقين في الداخل والخارج الذين راحوا يندسون بين الحزبين الموالين والمعارضين وحتى بين المرتدين كمسيلمة وأمثاله حينما وضع يده في يده لم تشأ له نفسه الكبيرة وصراحته في الحق الذي لم يترك له صديقا ان يقف منه موقف الضعيف المهزوم او موقف من يستجدي رضا المخلوق بمعصية الخالق بل صارحه بما انطوت عليه نفسه بدون مواربة او محاباة وقال له: يا ابا بكر لم يمنعنا عن مبايعتك اننا نناقسك على خير ساقه الله اليك، ولكننا نرى ان هذا الامر هو حقنا وقد استبددتم به علينا وحلتم بيننا وبينه وقد فرضت علي مصلحة الاسلام ان أتغاضى عنه لدرء ما يعترضه من أخطار.

لقد تحدث معه بتلك الصراحة ليعلم هو ومن حوله ممن تعاونوا معه على الاستيلاء على السلطة انه اذا كان يطالب بحقه في الخلافة فذاك لمصلحة الاسلام واذا تغاضى عن حقه فيها فلمصلحة الاسلام ايضاً وعليهم ان يتحملوا مسؤولية ما اقدموا عليه عند الله سبحانه.

وطويت بذلك صفحة من الصراع على الخلافة كانت من اغلى اماني المنافقين كأبي سفيان وأمثاله الذين قهرهم الاسلام على الخضوع له والتظاهر بقبوله، وكان علي (ع) على صلة وثيقة بما كانوا يضمرون له من سوء بتحركاتهم المعادية لخلافة ابي بكر وصارحهم بذلك اكثر من مرة فقال لابي سفيان احد قادتهم: والله ما زلت تكيد للاسلام يا ابا سفيان ان المؤمنين ينصح بعضهم بعضا والمنافقين قوم غششة

بعضهم لبعض وان قربت ديارهم وأبدانهم.

وقال له مرة وهو يعرض عليه ان يناصره على ابي بكر: والله ما اردت بها الا الفتنة وانك والله طالما بغيت للاسلام شرا لا حاجة لنا في نصرتك، فانطوى على نفسه بعد هذه الصفعات القاسية ولم يعد له من سبيل الا ان يتملق للحاكمين ويتمرغ على أعتابهم ليحقق ولو شيئا من أمانيه، وكان القوم يعرفون بأنه لا يضمر الخير لاحد ولا يتعامل مع احد الا على اساس منفعته، فقال ابن الخطاب لابي بكر: انا لا نأمن شر ابي سفيان فاترك له الصدقات التي كان النبي (ص) قد كلفه بجبايتها في الايام الاخيرة من حياته، فلم يتردد الخليفة في تركها له كما نصت على ذلك رواية شرح النهج لابن ابي الحديد في المجلد الاول منه، وبمضي أقل من سنتين تيسر له ان تكون بلاد الشام تحت سلطة ولديه يزيد ومعاوية على التعاقب، وبوفاة ابن الخطاب انتهت السلطة بكاملها الى بيته، بيت أمية، وعلى رأسها قريبه عثمان بن عفان، فأحس بأن مجد أمية قد عاد الى الحياة من جديد وان ما كان يراود احلامه بالامس وهو يحارب الاسلام ويثير الفتن والازمات بين المسلمين انفسهم وبخاصة بعد وفاة الرسول (ص) ليحصل ولو على ثغرة في صفوف المسلمين ينطلق منها للعمل لصالح الشرك والوثنية، تلك الاحلام التي كانت تراوده قد توفرت لديه بعد ان اصبحت السلطة بيد قريبه بشكل اوسع مما كان يتمناه ويعمل من اجله، وطغت عليه نشوة من الفرح والبهجة لم يعد يملك معها السيطرة على المطويات في نفسه من شرك وحقد على الاسلام وقادته، فمضى الى المسجد يدب على عصاه وصاح بصوته الرفيع: تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة فوالذي يحلف به ابو سفيان ما من جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب، وطلب من قائده ان يمضي به الى مقابر الشهداء في أحد حيث الحمزة بن عبد المطلب سيد من استشهد بين يدي رسول الله (ص) فيها وما ان اوقفه قائده عليه حتى راح يركله برجليه ويقول: انهض يا ابا عمارة لقد صار الينا الملك الذي حاربتنا عليه، وفي رواية ثانية ان الذي تقاتلنا عليه لقد اصبح تحت أقدامنا، وأيا تكن كلماته في ذلك الموقف فلقد قالها في نزوة جاهلية لا تعرف النزوات اولغ منها بالحقد والتشفي.

ومهما كان الحال فقد ظهر الشيعة على المسرح السياسي بعد وفاة النبي (ص) ووقفوا الى جانب علي (ع) في المدينة وخارجها باعتباره هو الخليفة الشرعي للنبي الذي اختاره لقيادة الامة واتمام المسيرة بالاسلام الى ما وراء حدود الجزيرة العربية من بلاد الله الواسعة، ولم يكن موقف من وقف الى جانبه من مهاجرين وأنصار

وغيرهم ممن امتنعوا عن بيعة ابي بكر بانتظار ما يصدر اليهم من توجيهات وتوصيات من الخليفة الشرعي مرتجلا ومن نتاج تلك الفترة من التاريخ، ومن غير المعقول ان تكون الساعات القلائل التي افرزت خلافة ابي بكر هي نقطة الانحياز لعلي (ع) والتشيع له كما يحاول بعض المحدثين من الكتاب تحديده بتلك الفترة لبعض الاعتبارات لان الذين وقفوا الى جانبه في المدينة وخارجها كانوا يدعمون تشيعهم له بالمنطق والحجج البالغة مما يؤكد انه قد اختمر في اذهانهم نتيجة لعشرات المواقف التي وقفها النبي من اختيار خليفته وكان آخرها يوم الغدير قبيل وفاته بأقل من ثلاثة اشهر بحضور حشد من المسلمين من مختلف انحاء الحجاز ينتمي الى عشرات القبائل التي رافقت النبي (ص) في طريق عودته من مكة بعد انتهاء موسم الحج حيث جمعهم الطريق لفترة من الزمن، فاستغل تلك الصدفة التي جمعته بتلك الحشود قبل ان تتفرق عنه كل الى بلده وناحيته ليعهد الى خليفته من بعده بلهجة الواثق بدنو أجله وكأنه كان على موعد مع الموت.



التشيع الروحي والتشيع السياسي

لقد ذهب فريق من الكتّاب الى تصنيف التشيع الى الصنفين التاليين:

تشيع روحي لا يتعدى الشؤون الدينية كالعبادات والتشريع والارشاد وما الى ذلك مما لا صلة له بادارة شؤون الامة من سياسية واقتصادية وادارية وغير ذلك مما تدعو اليه الحاجة في جميع المجالات حسب الزمان والمكان.

وتشيع اوسع من ذلك يتسع بالاضافة الى النواحي الروحية لكل متطلبات القيادة من سياسية واقتصادية وغيرهما، وأضاف هؤلاء الى ذلك ان التشيع الروحي أقدم عهدا من السياسي، وان الذي جعله النبي (ص) لعلي (ع) ومنه انتقل الى الأئمة من ولده هو التشيع بمعناه الروحي، وقد انصرف أئمة الشيعة بعد مذبحة كربلاء الى الارشاد والعبادات والتوجيه الديني، وأضاف بعضهم الى ذلك ان المتشيعين لعلي (ع) في عهد الخلفاء الثلاثة الذين تعاقبوا على الحكم بعد وفاة الرسول (ص) كان تشيعهم روحيا ولا صلة له بالسياسة وشؤونها، ومضى يقول: ان التشيع الروحي لعلي اقدم عهدا من السياسي وهو يقوم على الاعتقاد بامامة علي (ع) المفروضة من الله، وقد تطور هذا الاعتقاد وتبلور في عقيدة الامامة المعصومة من الخطأ بعد ان اسند كلاميا بقضية القول بالنص على تلك الامامة من النبي وبأمر من الله.

وظهرت بوادر التشيع السياسي والولاء لعلي في سقيفة بني ساعدة حين وقف الى جانبه جماعة من المسلمين مؤيدين لحقه في الخلافة الاسلامية أمثال الزبير بن العوام والعباس بن عبد المطلب وعمار بن ياسر وابن التيهان وغيرهم ممن وقفوا الى

جانبه، وبلغ التشيع السياسي لـه اقصى مداه حين بويع له بـالخلافـة بعد مقتـل عثمان، وكان رواد التشيـع الروحي يلتزمـون بآراء عـلي الفقهية الى جـانب الالتزام بمساندته سياسيا، وقد نمت بذور الفقه الشيعي ثم تطورت وعرفت في القـرن الثاني للهجـرة بالفقـه الجعفري، الى غـير ذلك ممـا يحاولـه بعض الكتّاب من المغـالطات والانحراف به عن معناه الاصيل الذي لا يقبل التصنيف ولا التجزئة[1].

بهذا النوع من التصنيف القائم على الحدس والنظرة السطحية للنصوص التي وضعت مبدأ التشيع وما رافقها من الاحداث والتطورات ينظر جماعـة من الدكـاترة الى التشيع وتجريده من محتواه الذي يتسع لجميع الصلاحيات التي كانت للنبي منذ وضع نواته يوم الدار وظل يتعاهده ويـرعاه حتى النفس الاخـير من حياتـه ولم يكن يستعمـل في سبيل تنميـة هذه البـذرة سـوى كلمـة «علي خليفتي فيكم من بعـدي فاسمعوا لـه وأطيعوا» ونحـو ذلك من الصيـغ التي لا يستعملهـا المتكلم في مقـام التعبير عن ارادته الا فيمن يخلفه في القيادة التي كان يمارسها في جميع المجـالات من فكـرية وسيـاسية وادارية وغير ذلـك لتبقى الدعـوة في طـريقهـا تقتحم الصعـاب وعروش الطغاة والجبابرة وتستلهم منها الاجيال كل مـا تصبو اليـه من عزة وكـرامة وسعادة، ولا يمكن للتشيع ان يتجـزأ الا اذا فقد معنـاه كأطـروحة لحـماية مستقبـل الـدعوة بعـد النبي (ص) الذي هـو في أمسّ الحاجـة الى من يخلف النبي فيهـا من الناحيتين المترابطتين.

وكـان لعلي (ع) ولاء واسـع النطاق في صفـوف المسلمين بـاعتباره الشخص الجدير بمواصلة الدور الذي كان يقوم به النبي (ص)، ولعل هذا الـولاء هو الـذي جـاء به الى الحكم بعـد مصرع عثمان عـلى يد المهـاجرين والانصـار والوافـدين الى المدينة من بقية الامصار بعـد ان انحرفت بـه بطانتـه عن سيرة سلفـه الذين اتبعـوا طريقا ونهجا اقرب الى الاسلام من طريقه ونهجه.

ولكن الولاء الذي جاء به الى السلطة ليس تشيعا سياسيا ولا روحيا وان نمـا التشيع الروحي والسيـاسي الذي اراده لـه النبي داخل اطـاره، ولم تنشأ في الـواقع النظرة الى تجزؤ التشيع الى روحي منفصل عن السياسي ولم تولد في ذهن الانسان الشيعي الا بعد ان استسلم للواقع وانطفأت جذوة التشيع في نفسـه كصيغة محـددة لمـواصلة القيادة الاسـلامية في بنـاء الامة وانجـاز عملية التغيـير الكبيرة التي بـدأها الـرسول (ص) وتحـولت الى مجرد عقيـدة يطوي الانسـان عليها قلبـه ويستمد منهـا سلوته وأمله.

(١) أنظر تاريخ الإمامية للدكتور عبد الله فياض ص ٤٤ ونظرية الإمامة للدكتور أحمد محمود صبحي.

وبخصوص ما قيل من ان أئمة الشيعة من ابناء الحسين (ع) بعد مجزرة كربلاء قد اعتزلوا السياسة وانصرفوا بكل امكانياتهم وطاقاتهم الى النواحي الروحية تاركين السياسة وغيرها مما يتصل بشؤون الدولة للحاكمين، فهو من الاخطاء ايضا، ذلك لان التشيع الذي وضع نواته النبي (ص) وظل يغذيه ويؤكده حتى النفس الاخير من حياته بعد ان كان لا يعني سوى القيادة الاسلامية التي كان يمارسها النبي لاتمام بناء الامة على اساس الاسلام بمعناه الواسع الشامل لجميع نواحي الحياة من روحية وسياسية واقتصادية وما الى ذلك من متطلباتها حسب الزمان والمكان، وبعد ان كان التشيع الذي وضعه النبي لعلي والأئمة من بنيه بأمر من الله سبحانه لا يعني سوى القيادة الاسلامية بمعناها الواسع. فمن غير المعقول ان يتنازل الأئمة عن الجوانب السياسية او اي جانب منها الا اذا تنازلوا عن اصل القيادة مع العلم بأنهم لا يملكون الحق بالتنازل عنها كما لا يملك النبي ان يتنازل عن نبوته والامام عن إمامته، ولم ينصرف الائمة بكل طاقاتهم الى الجوانب الروحية والفكرية من القيادة التي جعلها الله لهم الا لعدم تمكنهم من ممارسة السلطة التي حالت قوى الشر والبغي بينهم وبينها، لا لانهم تنازلوا عنها ولا يصح ان يسمى ذلك تنازلا، كما وان عدم قيامهم بعمل مسلح ضد الحاكمين الذين عاصروهم من الامويين والعباسيين لا يعني تنازلهم عن بعض جوانب القيادة التي جعلها الله لهم واختصهم بها، بل كان نتيجة لعدم توافر الاجواء المناسبة لاي عمل من هذا النوع، وبامكان الباحث في سيرة الأئمة ومبادئهم ان يستخلص منها ان كل إمام في عصره كان مستعدا لخوض جميع المعارك اذا توافرت لديه القناعة بوجود من يناصره على استلام السلطة بنحو يستطيع ان يحقق الاهداف الاسلامية عن طريقها، ذلك لان السلطة وحدها لم تكن من اهدافهم بل كانت وسيلة وطريقا للسير بالاسلام في طريقه الصحيح.

ولاكثر من مناسبة كان علي امير المؤمنين (ع) يقول يوم كانت جهود الحاكمين متجهة لنشر الاسلام ما وراء حدود الحجاز: والله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة. وبعد ان انتهت اليه الخلافة وهبت في وجهه الأعاصير من هنا وهناك كان يقول: والله ان امرتكم لأهون عندي من هذه النعل الا ان أحق حقا أو أبطل باطلا.

وبما ان السلطة التي تحقق الاهداف الاسلامية تتوقف على القواعد الشعبية الواعية التي تعي تلك الاهداف وتصمد في وجه الاعاصير لحمايتها. وهذا النوع من

القواعد الشعبية لم يتوفر لاحد من الأئمة (ع) بعد ان نشأت أجيال مائعة في ظل تلك الحكومات التي انحرفت في سيرتها وسلوكها عن سيرة النبي (ص) وجرفتها الاهواء والشهوات والاحقاد اللئيمة الى نزوات طائشة لم يعرف التاريخ أشرس وألأم منها.

وفي ظل هذا الواقع الذي اصطدمت به القيادات الشيعية كان لا بد لتلك القيادات من عملين احدهما العمل الهادىء من اجل بناء القواعد الشعبية الواعية التي تهيء أرضية صالحة لتسلم السلطة، ومن اجل تحقيق هذه الناحية انصرف الأئمة (ع) بكل الوسائل الى تربية الجماهير والاجيال تربية اسلامية توفر لهم القاعدة الشعبية التي لا يمكن لهم ان يعطوا النتائج المطلوبة بدونها.

والعمل الثاني هو تحريك ضمير الامة الاسلامية وارادتها والاحتفاظ للضمير الاسلامي والارادة الاسلامية بدرجة من الصلابة والحياة في مقابل اولئك الحكام المنحرفين، وقد مارس هذه الناحية ثائرون من العلويين وغيرهم كانوا يحاولون بتضحياتهم اليائسة ان يحافظوا على الضمير الاسلامي والارادة الاسلامية خلال القرون الثلاثة الأوائل من تاريخ الاسلام، وفي الوقت ذاته كان الأئمة (ع) يساندون اكثر اولئك الثائرين على جور الحكام وطغيانهم وانحرافهم عن الاسلام وأصوله ومبادئه.

وقد جاء في رواية عن الامام الرضا (ع) في حديث له مع المأمون عن ثورة زيد بن علي بن الحسين (ع) انه قال: لقد كان زيد بن علي من علماء آل محمد غضب لله فجاهد اعداءه حتى قتل في سبيله، ومضى الامام الرضا يقول: لقد حدثني ابي موسى بن جعفر انه سمع اباه جعفر بن محمد يقول: رحم الله عمي زيدا، انه دعا الى الرضا من آل محمد ولو ظفر لوفى بذلك ولقد كان يقول لمن يأتيه من الناس: اني ادعوكم الى الرضا من آل محمد.

وجاء في السرائر لابن ادريس الحلي ان جماعة ذكروا في مجلس الامام الصادق (ع) من خرج من العلويين على الحاكمين، فقال: لا ازال انا وشيعتي بخير ما خرج الخارجي من آل محمد (ص) ولوددت ان الخارجي من آل محمد خرج وعلي نفقة عياله.

وجاء في رواية داود المدني انه قال: حدثني علي بن الحسين عن ابيه عن علي (ع) انه يخرج في ارض الكوفة رجل يقال له زيد في أبهة الملك لا يسبقه الاولون

ولا يدركه الآخرون الا من عمل بمثل عمله يخرج يوم القيامة هو وأصحابه معهم الطوامير او شبه الطوامير حتى يتخطوا أعناق الخلائق تتلقاهم الملائكة فيقولون هؤلاء خلف الخلف ودعاة الحق ثم يستقبلهم رسول الله (ص) فيقول: يا بني قد عملتم ما امرتم به فادخلوا الجنة بغير حساب.

وجاء عن سدير السيرفي انه قال: كنت في مجلس الامام الباقر (ع) فدخل زيد بن علي (ع) فضرب ابو جعفر الباقر على كتفه وقال: هذا سيد بني هاشم اذا دعاكم فأجيبوه واذا استنصركم فانصروه.

الى غير ذلك من المرويات الكثيرة التي تؤكد ان الأئمة (ع) كانوا يساندون اولئك الثائرين ويدعون الناس الى مناصرتهم على الظلم والجور والطغيان، وفي الوقت ذاته كانوا يتمنون عليهم التريث والعمل الصامت لتصبح ثوراتهم اكثر انتشارا وعطاء كما يبدو ذلك للمتتبع في مواقف الأئمة من تلك الانتفاضات المتوالية على امتداد العصور التي اقلقت الحاكمين.



الخلافة بين النص والاختيار

لعل اعتبار الامامة من الواجبات الرئيسية بعد النبوة من الامور المفروغ منها والمسلمة لدى عامة المسلمين، ويرى اكثرهم بأن ما كان من عقل ونقل على النبوة بالذات يصلح لان يكون من الادلة على الامامة، لان النبوة بدونها لا تتفق مع جوهر الاسلام، ولانها استمرار حي للنبوة فيما جاءت به وانطلقت من اجله، فلو جوزنا ان تكون الرسالة محدودة ولفترة لا تتعدى حياة الرسول ولم يحتط لها من بعده بوصي امين وخبير بأهدافها وأسرارها يعمل بأمانة واخلاص وخبرة وتجرّد على انتشارها الى حيث اراده الله لها بحسب الزمان والمكان لم تحصل الغاية منها ولم يقدر لها البقاء والانتشار الواسع الذي يوفر للبشرية على امتداد العصور ما اراده الله لها من الكرامة والسعادة وجميع مقومات الحياة، وقد صح عن النبي (ص) انه كان يقول: في كل خلف من أمتي عدول من اهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وزيف المفترين، ومؤدى قوله هذا ان عدول اهل بيته هم الذين يحرسون الدين وينفون عنه تحريف الضالين والملحدين والمشعوذين وينقلونه الى الاجيال على واقعه حيا سليما جيلا بعد جيل الى ان يرث الله الارض ومن عليها. وبناء لذلك فالامامة بمعناها الصحيح السليم ليست الا امتداداً للنبوة في واقع الامر جيلا بعد جيل، من اجل ذلك كانت من الاصول الاسلامية التي رافقت مطلع الاسلام وقد نص النبي عليها كما نص على غيرها من الاصول منذ فجر الدعوة وظل يؤكدها على المسلمين الى قبيل وفاته كما أكدت ذلك النصوص الكثيرة المنتشرة في مجاميع الحديث وعلى لسان الثقات من الرواة والمحدثين، وبالاضافة الى ذلك فالعقل يؤكدها لدى ابسط تأملاته لواقع النبوة وأهدافها التي تريد من الانسان ان يكون

خليفة لله في ارضه يمثل ارادته ومشيئته التي جاءت الرسالات من اجلها.

ولقد اختلف المسلمون بعد وفاة النبي (ص) فيمن يخلفه في الحكم لإتمام المسيرة بالدعوة وادارة شؤون الامة متجاهلين جميع مواقفه بشأن من أعده لهذه المهمة ووصاياه التي كان يكررها بين الحين والآخر. وكاد الصراع بينهم ان يؤدي الى حروب دامية لا يفيد منها سوى طواغيت قريش من أمية وغيرها، وانتهى الصراع بانتزاعها من اصحابها الشرعيين واستيلاء ابي بكر عليها، وبعد جدال وحوار داما بضعة اشهر رأى علي (ع) ان مصلحة الاسلام التي كان يطالب بالخلافة من اجلها تفرض عليه بعد الاخطار التي احدقت بالاسلام ان يقف الى جانب غيره ويتعاون معهم لدفع تلك الاخطار التي أطلت على المسلمين من داخل المدينة وخارجها، فترك السلطة لغيره ومضى مع القوم بكل ما لديه من جهد وقوة ليقطع الطريق على المنافقين والمرتدين الذين استغلوا معارضته للحاكم الجديد، واتجه المسلمون بعد القضاء على المرتدين وبعد ان وضعوا حدا لتحركات المنافقين اتجهوا لخارج الحجاز وخلال سنوات معدودات استطاعوا التغلّب على أعتى الدول وأقواها ومضى الاسلام في طريقه يقتحم الصعاب والاهوال ليدك عروش الجبابرة والطغاة ويضع حدا لاستعباد الانسان واستغلاله الذي استمر آلاف السنين.

وبالرغم من اتساع رقعة الاسلام بالشكل الذي انتهت اليه واتصال المسلمين بغيرهم من الامم التي كان لها تاريخها الحافل بالصراعات الفلسفية والعقائدية ولها اديانها ومعتقداتها المختلفة والمتباينة، بالرغم من كل ذلك، ومن تجدد الحوادث والتقلبات التي طرأت على حياة المسلمين التي كان يفرضها الزمن، واختلاط عرب الجزيرة بغيرهم من تلك الامم فقد استمر المسلمون على ما كانوا عليه في عهد الرسول (ص) يتجنبون الخوض والصراع في المعتقدات وفي ذاته سبحانه وصفاته وخلق الافعال وعصمة الانبياء والخلفاء وما الى ذلك من الصراعات التي شاعت وتشعبت في اواخر القرن الاول ومضت تتسع وتتشعب خلال القرن الثاني حتى تناولت كل ما له صلة بالدين، وذهب الشعوبيون الى أبعد من ذلك في تفسيرهم للدين بما يتفق مع المعتقدات التي ورثوها عن أجدادهم البوذيين والمانويين والزرادشتيين وغيرهم من الامم التي لم تستطع الصمود في مقابل الزحف الاسلامي، هذا التطور الفكري في الاوساط الاسلامية كان من ابرز نتائجه ذلك الصراع العقائدي الذي تحول فيما بعد الى احزاب وفرق لا عهد للمسلمين الاوائل ولا لإسلام محمد (ص) بها.

لقد كان النبي (ص) يحرص على ان يصرفهم عن الجدل الديني والنزاع العقائدي لان هذا النوع من الصراع والجدل يفرق ولا يؤلف ولا يزيدهم الا حيرة وضلالاً، وكل ما كان يهمه خلال تلك الفترة من حياته ان ينظم علاقة الانسان بربه وبالآخرين وما يجب عليه لنفسه وأسرته ولمجتمعه.

لقد اتجه الرسول العظيم (ص) الى اصلاح النفوس وتطهيرها من أدران الجاهلية ومن بذور النفاق والاحقاد اصلاحا عمليا يستمد قوته وأصالته من المبادىء التي وضعها القرآن الكريم وأكدها هو قولا وعملا في سنته وسيرته، وبهذا التماسك والترابط الذي اوجده النبي (ص) بين أتباعه وأصحابه والذي يشكل وحدة متراصة استطاع بسببها ان يتغلب على الصعوبات التي كانت تعترضه ويرفع لواء الاسلام عاليا خفاقا في شبه الجزيرة وعلى الحدود بينها وبين أعتى الدول وأقواها يومذاك لينتقل به الى ما وراء تلك الحدود عندما تحين الفرصة لذلك، وكان قد أعد جيشا جهزه بكل الامكانيات المتوفرة لديه بقيادة اسامة بن زيد لهذه الغاية، وتشاء الاقدار ان ينتقل الرسول الى الرفيق الاعلى قبل ساعات من تحرك الجيش نحو الحدود الشمالية وأن يرجع الجيش الى قواعده لمراقبة ما سيحدث في الداخل ولغير ذلك مما لا يعنينا امره في المقام، وبعد ان تغلبوا على الصعوبات التي اعترضتهم في داخل البلاد اتجهوا لخارجها واستطاعوا خلال سنوات معدودات ان ينشروا الدعوة ويرفعوا لواءها في عواصم الدول الكبرى التي كانت تسيطر على اكبر مجموعة من العالم يومذاك.

اما الجدل الديني والصراع العقائدي على اختلاف أشكالهما ومواردهما فلم يحدّث التاريخ عن وجود لهما في تلك الفترة من تاريخهم الحافل بالعمل لخير الاسلام، ولم تصل الينا عن تلك الفترة سوى بعض الافكار والتساؤلات العابرة التي كانت تدور بينهم عن القدر وبعض الغيبيات القرآنية احيانا ولكنها كانت تمر ولا تلبث ان تتلاشى وكأن شيئا من هذا النوع لم يعترض تفكير احد من الناس.

وجاء في المجلد الرابع من خطط المقريزي ان من أمعن النظر ووقف على آثار السلف يخرج وهو على يقين في انه لم ترد قط من طريق صحيح او سقيم عن احد من الصحابة على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم انهم سألوا رسول الله (ص) عما وصف به الرب نفسه في القرآن وعلى لسان النبي (ص) او عن غير ذلك مما شاع النزاع به بعد عصر الصحابة واختلفت فيه الآراء والاهواء في مختلف المواضيع، وبعد عصره ساروا على الطريقة التي رسمها لهم في حدود كتاب الله

وسنته واجتهاداتهم فيما لا نص فيه من كتاب او سنة، ولم تظهر بوادر الصراع الفكري والعقائدي فيما ظهرت فيه الا بعد ان انتهى عصر الصحابة واستمر يتسع مع الزمن حتى بلغ اقصى حدوده في العصر العباسي الاول وجرهم ذلك الصراع الى التراشق بالتفسيق والتكفير مما اتاح للحاكمين ان يوفروا الاجواء لتلك الصراعات والخلافات التي مزقت المسلمين الى عشرات الفرق والمذاهب.

ومجمل القول ان عصر الصحابة كان أشبه بعصر الرسول من ناحية انصراف المسلمين عن الصراعات العقائدية والمذهبية ولم يحدّث التاريخ الا عن نتف من الخطرات والافكار كانت تعرض لبعضهم بين الحين والآخر حول القدر والاختيار والصفات، ومدى صلتها بذاته تعالى، ولكنها خطرات وأفكار عابرة ما كانت لتولد حتى تموت في مهدها لانها لم تجد استعداد من احد للجدل والخوض فيها وحتى في غيرها من المواضيع العلمية والفكرية، عدا بعض المسائل التي كانت تفرضها الاحداث المتجددة والتي لم يعرفوا لها نظيرا من قبل، ذلك لان المسلمين الاوائل بكل طبقاتهم قد انصرفوا لتأسيس الدولة الاسلامية وجندوا كل امكانياتهم وطاقاتهم للقضاء على الدولتين الكبيرتين الواقعتين خارج الحدود الحجازية، لان الدعوة الاسلامية لا يمكن ان ينتظم امرها ما دام الفرس والرومان يظهران العداء لها ويعملان للقضاء عليها.

وفي ظل هذه الظروف التي احاطت بالمسلمين بعد وفاة النبي (ص) لم تكن أجواء المسلمين بكل فئاتهم وطبقاتهم مهيأة للعمل والتفكير بغير النواحي السياسية والعسكرية والادارية، ولكنهم بعد ان اطمأنوا على مصيرهم واجتاحوا المناطق المتاخمة لحدودهم واتصلوا بغيرهم من الامم خلال العصر الاموي واطلع العرب على معتقدات تلك الامم وآرائهم في الاديان والمعتقدات وأصبح كل انسان يعبّر عما لديه من الافكار والآراء بدون حرج، ظهرت معتقدات تلك الامم في اوساط المسلمين وأخذ اصحابها يقارنون بين عقيدتهم الجديدة وبين ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم.

وكان من نتيجة هذا الاختلاط الواسع وغزو الشعوبيين للعقيدة الاسلامية بفلسفاتهم وأفكارهم وما الى ذلك مما ادخلوه بين تعاليم الاسلام كان من نتائج ذلك ان اتجه المسلمون الى دراسة القرآن والحديث وتفسير بعض المبادىء الاسلامية وما الى ذلك من المواضيع والاصول بما يلتقي مع نزعات الفلاسفة ومع بعض

الآراء والافكار الغربية التي انتشرت في الاوساط الاسلامية للتوفيق بينها وبين الاصول الاسلامية.

وفي ظل هذه الانتفاضات العلمية الواسعة التي اجتاحت اكثر المواضيع وعرضت الكثير منها للتحريف والتشويه، وقف أئمة الشيعة مواقفهم الحازمة الرشيدة من كل ما يسيء الى الاسلام ويعرّض ولو بعض جوانبه للخطر، وقفوا يناظرون اولئك الغزاة والمنحرفين وصنائع الحاكمين ويدحضون آراء الملاحدة والزنادقة والفرق الاسلامية التي انحرفت في أصولها وفروعها عما جاء في كتاب الله وسنة نبيه، ولم تكن مواقف الأئمة والمتخرجين من مدارسهم وجامعاتهم بأقل اثرا من ناحية خدمة الاسلام من جهاد الكفرة والظالمين، وفي الوقت ذاته كانت مواقفهم في مجموعها تشكل تحديا ثوريا لاولئك الحكام وتكشف للملأ الاسلامي عن زيف حكمهم وأنظمتهم التي تحمل شعارات الاسلام ولا تختلف في واقعها عن غيرها من الدول والحكومات التي اطاح بها الاسلام.

لقد كان الحكم الاموي والعباسي في تلك الفترة من تاريخ الاسلام يشكل خطرا على الخط الرسالي الذي جاء به محمد بن عبدالله (ص) لا يقل عن الاخطار التي تحيط به من الشرك والوثنية ولذا فقد كان النبي (ص) في حياته متحسبا ومتحسسا بتلك الاخطار وحريصا على ان يولي أمور الامة من بعده من يتابع المسيرة بدون انحراف والتواء واختار لها الامناء على شرع الله ووحيه كما أمره الله، وقد بلغ عن ربه ذلك في عشرات المناسبات كما كان يبلغ بقية التشريعات ويؤكدها عليهم حسب المناسبات حتى لا يبقى عذر لمعتذر يوم يقف الناس بين يدي الله سبحانه، ولكنهم ومع الاسف الشديد رفضوا اختياره وتجاهلوا وصاياه (ولم ينج منهم الا مثل همل النعم) على حد تعبير البخاري في صحيحه، واختاروا لانفسهم فكان ما كان وبخاصة في ظل العهد الاموي من انتكاسات في النظام والتواء في المبادىء وما نجم عن ذلك من ردة اعادت المجتمعات الاسلامية الى احياء العصبيات وتجاهل الكفاءات واحتكار الصلاحيات ونسخ التعاليم الاسلامية او مسخها وتشويهها واستبدالها بالانظمة الطبقية والرأسمالية المستغلة.

هذا بالاضافة الى الفرق التي انتحلت الاسلام وراحت تفسر نصوصه وحتى أصوله بما يلتقي مع نزعاتها واتجاهاتها. وكان للشعوبيين الذين دخلوا في الاسلام بعد انهيار حكوماتهم دور ملموس في تأسيس تلك الفرق وامتداد الصراع وشموله لاكثر المواضيع الاسلامية بما في ذلك الخلافة التي امتدت اليها الايدي وتباينت

حولها الافكار والآراء والاتجاهات، فالخوارج كانوا يرونها من الحقوق المشروعة لكل الفئات التي تتألف منها القوميات وجميع الطبقات فيما كان الجمهور بمساندة الحاكمين يحاولون اضفاء الشرعية والديمقراطية على الشكل الذي جرت عليه بين الصحابة الاوائل ويرون انها لا تصح الا للقرشيين الاوائل بالنص عليها من الرسول وبعد ان ذهب اكثرهم على وجوبها على الامة للقرشيين وحدهم في مقابل الشيعة الذين يرونها كالنبوة يختار لها الله من يشاء ولا رأي للأمة فيها، وفي مقابل الخوارج الذين يرون انها من حقوق جميع الفئات وكل من توفرت فيه المؤهلات سواء كان من العرب او الموالي، بعد ان ذهبوا الى ذلك اختلف الجمهور فيما تعنيه كلمة الامة وانها تعني جميع المسلمين او فئة معينة منهم وذهب الى ان أقل عدد يتم به الاجماع وتنعقد به الخلافة خمسة من المسلمين وقيل بأربعة وباثنين وبواحد، الى غير ذلك من الاقوال التي لا مصدر لها سوى فعل الصحابة الاوائل والاسلوب الذي اعتمدوه في استيلائهم على السلطة بعد النبي (ص). وأضافوا الى ذلك شروطا اخرى يرجع بعضها الى الخليفة والبعض الآخر الى الكيفية التي يتم فيها اختياره كما سنتعرض لها بعد هذا العرض الموجز للشكل والاسلوب الذي تمت عليه خلافة الراشدين التي انتهت بمصرع الامام علي (ع) بعد اربعين سنة من هجرة النبي (ص) الى المدينة، وبعد المقارنة بين تلك الشروط وبين الشكل الذي تمت عليه الخلافة بمراحلها الاولى كما وصل الينا بواسطة ثقات المؤرخين تبدو المسافة على واقعها بين خلافة الاوائل وبين تلك الشروط وان اولئك الذين صاغوها بالصورة التي وصلت الينا كانوا يتملقون الى الحاكمين في صياغتها ويستوحونها من رغباتهم وعصبياتهم لا من الواقع الذي مضت عليه بعد وفاة النبي (ص).

مصير الخلافة

لقد ذكرنا فيما سبق لأكثر من مناسبة ان الشيعة يرونها كالنبوة لا رأي ولا اختيار لاحد فيها، وأمرها يرجع الى الله وحده فهو الذي يختار للامامة من يراه صالحا لها كما يختار لرسالاته، وليس للأمة شأن او رأي في ذلك لان مهمة الامام امتداد لمهمة النبي من حيث المسيرة بها وتنفيذها الى حيث يمكن من بلاد الله الواسعة بما فيها من انظمة وتشريعات تحد من طغيان الانسان وتسلطه على المستضعفين واستهتاره بالقيم والمقدسات، وتمده بكل المقومات لبناء الانسان الصالح والمجتمع الصالح حسب الزمان والمكان، ومهمة هذا شأنها لا يمكن ان تترك للأمة او لفئة منها لان الامة مهما بلغت من الحيطة والحذر والتجرد للصالح العام والتنكر للأهواء والمصالح الخاصة لا تسلم في الغالب من الخطأ في الاختيار الذي يعرضها لأسوأ المخاطر كما نشاهد ذلك لدى أرقى شعوب العالم في مختلف العصور، وقد اختار النبي (ص) لها بأمر من ربه عليا والأئمة من بعده منذ بعثه الله بشيرا ونذيرا وظل النبي يؤكد خلافة علي (ع) تصريحا وتلميحا في عشرات المناسبات وحتى النفس الاخير من حياته كما اشرنا الى ذلك خلال الفصل الاول من هذا الكتاب، ولكن المتآمرين والطامعين فيها من بعده استطاعوا التغلب عليها لا بالعدد الكبير والقوة التي لا طاقة لغيرهم بها بل بأساليبهم الخاصة المدروسة بالرغم من المعارضة القوية في العاصمة التي يمثلها اكثر الانصار الذين كانوا يرددون اسم علي (ع) ويقولون: لو كانت لعلي لا يختلف عليه منا اثنان، هذا بالاضافة الى عدد ليس بالقليل من اعيان المهاجرين، بما في ذلك الحزب الاموي الذي تظاهر بالوقوف الى جانب علي (ع) ولكن من زاوية اخرى، وحتى في خارجها ممن

وصفهم واضعو التاريخ الاسلامي في اواخر العهد الاموي بالارتداد لاسباب سياسية كان من اهمها الغاء الصبغة الشرعية عن معارضتهم واعتبارهم من المتمردين على النظام العام كبني حنيفة وغيرهم، في حين ان الذين وصفوهم بالارتداد قد اعترفوا فيما رووه عنهم بأنهم كانوا يمارسون جميع الطقوس والواجبات التي فرضها الاسلام ما عدا الزكاة التي امتنعوا عن تسليمها للجباة من حيث انها من شؤون الولاية التي جعلها النبي لعلي (ع) في منطقة تعرف بالغدير قبل وفاته بأقل من ثلاثة اشهر، وظلت المعارضة تمتد وتتسع بالرغم من جميع الوسائل التي استعملها الحاكم الجديد وأنصاره لاستقطاب الجماهير، وكاد الموقف ان يتفجر لولا ان عليا (ع) رأى ان ذلك قد يؤدي الى انتكاسة تسيء الى الاسلام وتؤثر على مسيرته لا سيما وان الاسلام لا يزال فتيا ورواسب الجاهلية لا تزال تسيطر على الكثيرين ممن قهرهم الاسلام على الخضوع والتسليم لسلطانه، والمنافقون في المدينة الذين مردوا على النفاق كما وصفتهم الآية الكريمة من سورة التوبة يتلهفون على فرصة تتيح لهم ان ينفسوا عن حقدهم المكبوت على الاسلام ونبي الاسلام وقادته المخلصين.

لقد وضع علي (ع) في حسابه كل ذلك وتجسدت لديه الاخطار الجسيمة المحدقة بمواقفه السلبية من الحكومة الجديدة وما سينجم عنها من ردة يمكن ان تعيد المجتمع الحجازي الى وثنيته وجاهليته، بعد ان وضع في حسابه كل ذلك آثر ان يستسلم للواقع الجديد بصفته اهون الشرين ومضى في الطريق الذي يتفق مع مصلحة الاسلام التي وهبها حياته وجميع طاقاته كما يشهد له بذلك العدو والصديق متجاهلا جميع ما اقترفته تلك الايدي معه ومع زوجته سيدة النساء لا يدخر شيئا من امكانياته في مختلف الميادين بل يجود بها لصالح الاسلام وللقضاء على المرتدين وعلى الذين حاولوا ان يستغلوا الوضع المتأزم كأبي سفيان ومن على شاكلته من المشركين والمنافقين، لقد كان يجود بكل امكانياته بنفس طيبة مطمئنة وهو يردد (والله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة) وظل على موقفه هذا مشرق النفس بمسيرة الاسلام وانتصاراته المتتالية على أعتى الدول يومذاك ويتمنى لو يتاح له الاشتراك في تلك المعارك ولو بصفة جندي من جنود المسلمين، حتى مضى الاول لسبيله وجعلها لابن الخطاب من بعده وكأنها من أملاكه التي يباح له ان يتصرف بها كما يشاء ولمن يشاء متجاهلا رأي الخاصة وقادة الفكر في المدينة عاصمة الدولة، وكان في طليعة المعارضين والناقمين على العهد

الجديد عبد الرحمن بن عوف في حديث له مع ابي بكر في الساعات الاخيرة من حياته بعد ان علم بأنه قد جعلها لابن الخطاب من بعده، وقد عبر ابن عوف في موقفه هذا من اختيار ابي بكر لعمر بن الخطاب عن رأي الاكثرية من قادة المهاجرين والانصار، وكان طلحة أشد عنفا وصراحة من عبد الرحمن بن عوف وقال له جماعة من المهاجرين بعد ان شاع بينهم نبأ استخلافه لعمر: لقد استخلفت علينا ابن الخطاب وأنت تعلم بوائقه فينا وماذا تقول لربك وهو يسألك غدا عن عملك هذا؟ وقال بعض المهاجرين لعمر: أمرته عام اول وأمرك هذا العام، وبالرغم من تلك المعارضة الشديدة من أعيان المهاجرين والانصار فقد مضى في طريقه وكأن ذلك مفروض عليه وكتب له كتابا أكد على المسلمين فيه ان يسمعوا له ويطيعوا امره وسلمه الكتاب، وخرج عمر بن الخطاب من مجلسه وهو يصارع الموت وبيده الكتاب المختوم، وكان اذا سئل عن محتواه يقول: لا أدري لقد أمرني بأن لا أفضه الا بعد وفاته، فيقولون له نحن نعلم ما فيه: لقد أمرته عام اول وأمرك هذا العام، الى غير ذلك من المواقف التي تؤكد ان استخلافه لعمر لم يقابل بارتياح قادة الفكر والرأي يومذاك وانه كان نتيجة لاتفاق سابق وعهود ملزمة بينهما على ان يتداولوها على هذا النحو ولو لم يكن لاحد من المسلمين رأي في ذلك.

ومع انه لم يستشر احدا فيمن يخلفه في ادارة شؤون الامة وان اختياره لابن الخطاب لم يقابل بالارتياح وقد تعرض لاعنف الهجمات والاتهام من بعض القادة ووجوه الصحابة كما تؤكد ذلك المرويات التي تحدثت عن أحداث تلك الفترة من التاريخ، مع ذلك فقد استسلموا للواقع الجديد على مضض كما استسلمت المعارضة القوية لسلفه بعد اشهر من خلافته كما ذكرنا، ولم يفكروا بالخروج عليه ولا بمعارضته.

ولعل الحروب الطاحنة التي كانت على أشدها يومذاك بين المسلمين خارج الحدود وبين الفرس والرومان والانتصارات التي كانت توفر لهم الاموال ولذائذ العيش ومتع الحياة كانت من وراء ذلك الهدوء الذي رافق سني خلافته من المعارضين لها والموالين، ومع ان المسلمين على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم قد استسلموا للامر الواقع ووقفوا صفا واحدا طيلة سني خلافته، فلم ينس للمعارضة موقفها من اختياره وكان رده عليها ان فرض على وجوه الصحابة وقادتهم الاقامة الجبرية الى جواره في العاصمة خاضعين لرقابته لئلا يفتنوا الناس ويفتتنوا بالناس على حد تعبير ابي بكر في وصيته اليه بعد ان اطلع على مواقفهم الغاضبة لأختياره.

لقد كان يخشى ان يفتتنوا بالناس ويستغلوا ثقة الجماهير للخروج عليه والعمل من اجل السلطة، ولكنه لم يكن يصارحهم بما كان يخشاه، بل يقول لهم عندما يطلبون منه الخروج من المدينة ولو للاشتراك في المعارك، اني لا استغني عن توجيهاتكم فيما يعود لشؤون الدولة وتفقيه الناس، وكان موفقا في ادارته وحازما في سياسته، ولقد ساعدته الظروف على فرض هيبته على الجميع فالموالون والمعارضون قد ساهموا في بناء الدولة وتوطيد الحكم الاسلامي في جميع انحائها، وعلي (ع) منصرف إلى تفقيه الناس وحل مشاكلهم والسير بهم على طريق الاسلام في جميع الميادين والاتجاهات، وهو قرير العين ما دام الاسلام يسير بخطا واسعة الى الامام.

ومضى ابن الخطاب في سني خلافته حازما كبير الحظ بتلك الانتصارات التي حققت ما كان النبي (ص) يلوح لهم به وهم يحفرون الخندق حول المدينة وكانوا يومذاك ما بين ساخر ومستسلم لما لوح لهم به حين اخذ المعول ليقتلع تلك الصخرة البيضاء التي اعترضتهم ولم تصنع بها معاولهم شيئا، وحينما ضربها الضربة الاولى خرج منها بريق كأنه المصباح في البيت المظلم وفي الضربة الثانية والثالثة قضى عليها وخرج منها بريق اضاء ما وراء المدينة فكبر النبي (ص) وأشرقت له نفسه الكبيرة وراح يتحدث للمسلمين بعد ان سألوه عن اسباب تكبيراته الثلاث، فقال: لقد رأيت في البريق الاول قصور الحيرة ومدائن كسرى وأخبرني الامين جبرائيل بأن أمتي ستظهر عليها وفي البريق الثاني رأيت قصور الحمر من ارض الروم وفي الثالث رأيت قصور صنعاء، وقد استبشر يومذاك المؤمنون لانه لا ينطق عن الهوى، وسخر منه المنافقون كما كانوا يسخرون من احاديثه عن مستقبلهم، وراحوا يتحدثون فيما بينهم ويقولون: ألا تعجبون من هذا الرجل يخبرنا بأنه قد ابصر من يثرب قصور الحيرة وصنعاء ومدائن كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه لقضاء حاجته فنزلت الآية بهذه المناسبة كما جاء في اكثر مجاميع التفسير.

﴿واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا﴾.

المصير المحتوم على يد الهدامين

وظل ابن الخطاب ممسكا بزمام الامور والدولة تسير كما ينبغي لها ان تسير وعلي ومن يأوي اليه من شيعته المخلصين للاسلام يساهمون بكل طاقاتهم وامكانياتهم في دفعها الى الامام، اما الهدامون من المنافقين كأبي سفيان وكعب الاحبار وابن العاص والمغيرة بن شعبة وأمثالهم فقد اعتصموا بالهدوء وأرجأوا مطامعهم وما يضمرونه للاسلام ولشخص ابن الخطاب بالذات بانتظار الاجواء المناسبة وراحوا يفتشون عن وسيلة تتيح لهم التخلص من الخليفة، لانهم كانوا يحسبون بأنه سيجعلها من بعده لعلي (ع) بعد ان تزوج بابنته أم كلثوم وقد سمعوه اكثر من مرة يقدر جهاده وتضحياته في سبيل الاسلام ويقول لولاه لما قام للاسلام عمد، الى غير ذلك من الكلمات التي تنطلق منه على ملأ من المسلمين، هذا بالاضافة الى ما كان بينه وبينهم من نفور وملاحاة جعلتهم يحقدون عليه، وكان المغيرة في طليعة الحاقدين عليه لاسباب كثيرة لعل من ابرزها انتزاع ولاية البصرة منه وتسليمها لغيره بعد ان اتهم بالرقطاء وشهد عليه ثلاثة بالجرم المشهود، وقد سلم من الحد الشرعي بواسطة الشاهد الرابع لانه حاباه ولم يكن صريحا في شهادته وكان عمر بن الخطاب يقول له: كلما رأيتك خفت ان يرجمني الله بحجارة من السماء. اما ابن العاص فلقد كان كارها له وحينما ولاه بعض المقاطعات، كان يقول كما يحدث عنه التاريخ: لعن الله زمانا صرت فيه عاملا لعمر بن الخطاب، والله لقد رأيته وأباه وعلى كل واحد منهما عباءة قطوانية لا تتجاوز ركبتيه وعلى عنقه حزمة حطب، والعاص بن وائل في قرارة الديباج، كما كان بينه وبين طلحة التيمي نفور كانت تظهر ملامحه بينهما بين الحين والآخر، وقال له ابن الخطاب يوما بعد

وفاة الرسول (ص): لقد مات رسول الله وهو ساخط عليك للكلمة التي قلتها يوم نزلت آية الحجاب وكان كما يروي المؤرخون قد قال: وما يغنيه حجابهن وسيموت غدا وننكحهن من بعده.

اما ابو سفيان فمواقفه من الاسلام وقادته المخلصين لا يجهلها احد ولم يستطع حتى التاريخ المحابي للامويين والذي اختطته أيدي عملائهم وصنائعهم ان يضعوا ولو خبرا يستر حقده على الاسلام ونبي المسلمين وقادة المسلمين الذي رافقه منذ ظهور الاسلام وحتى النفس الاخير من حياته، وكان من أشدهم حماسا ضد خلافة ابي بكر، ولعله لم يهدأ الا بعد ان اخذ وعدا من القوم بالشكل الذي سارت عليه الخلافة الاسلامية، ولكنه كما يبدو قد استطال خلافة ابن الخطاب وخاف ان تتحول الامور لغير مصلحة بيته لا سيما بعد المصاهرة التي تمت بينه وبين علي بن ابي طالب (ع) وبعد التصريحات التي كان يعلنها ابن الخطاب في مجالسه ومحاوراته بحقه.

واما كعب الاحبار فقد كان يعمل لصالح كل من يريد هدم الاسلام، والحزب الاموي من ابرز العاملين لهذا الاتجاه، وكان له ولامثاله من الهدامين والمخربين المكان الاول في قصور خلفائهم ومجالسهم ولم يكن سعد بن أبي وقاص بعيدا عن هذه الفئة لانه يتصل بالامويين عن طريق أمه حمنة شقيقة ابي سفيان، هذا بالاضافة الى انه في اسلامه لم يكن افضل من هذه الفئة التي كانت تسيّرها الاهواء والمصالح، لذا فان اشتراكه في المؤامرة مع ابي سفيان والمغيرة وابن العاص وكعب الاحبار على حياة الخليفة عمر بن الخطاب لم يكن بعيدا لا سيما وأن غلامه جفينة كان على صلة وثيقة بأبي لؤلؤة صانع الجريمة والهرمزان ايضا الذي اتهم بالاشتراك فيها او التحريض عليها، وقد قتله مع الهرمزان وابنة ابي لؤلؤة عبيد الله ابن عمر بدافع الثأر لابيه الذي قتل بخنجر ابي لؤلؤة، وأنى لغلام كأبي لؤلؤة ان يجرأ على من أذل جبابرة العصور الاكاسرة والقياصرة اذا لم يكن مدعوما بقوة عظمى او مدفوعا بخصوم ابن الخطاب الأشداء في داخل المدينة. ولم تكن أسطورة الضريبة التي فرضها عليه مولاه ابن شعبة كما يدعي اكثر المؤرخين الا من وضع الامويين وصانعي الجريمة، ولماذا لم يحقد ابو لؤلؤة على من وضع عليه الضريبة وكان يستغلها لمصلحته لا لمصلحة الدولة التي كان يمثلها ابن الخطاب.

وليس ببعيد على المخططين للجريمة ان يكونوا هم الذين دفعوا عبيد الله بن عمر على قتل جفينة والهرمزان وابنة ابي لؤلؤة بتلك السرعة الخاطفة حتى لا تتضح

معالمها وأبعادها بعد التحقيق الواسع معهم بشأنها.

والذي يرجح ذلك ان الحزب الذي تولى الحكم بعد الخليفة الراحل قد حماه من القضاء العادل بالرغم من مطالبة عدد كبير من قادة الصحابة وذوي الرأي والدين بمحاكمته لاقدامه على قتل طفلة لا يشك احد ببراءتها ولا يجوز ان تأخذ بذنب ابيها.



مهزلة الشورى

ومهما كان الحال فلقد لقي ابن الخطاب هذا المصير الذي كان ينتظره، وانصرف في الايام الثلاثة التي كان يصارع الموت فيها بعد تلك الطعنة الى اختيار من يخلفه في ادارة شؤون الامة والدولة وراح يتلهف على الاموات ويتمنى بقاءهم أحياء ليولي احدهم شؤون الامة كسالم مولى ابي حذيفة وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وغيرهم، وفي الوقت نفسه يقول: لو سألني ربي كنت اقول له سمعت نبيك يقول: ان ابا عبيدة امين هذه الامة، وان سالما شديد الحب لله.

لقد تمنى بقاء ابي عبيدة وسالم بين الاحياء ليستخلف احدهما لا لشيء الا لانه قد سمع النبي يثني عليهما، ولم يتمن لها عليا (ع) وقد سمع النبي (ص) في عشرات المناسبات يثنى عليه ويصفه بأطيب الصفات التي كان يحسده ويغبطه عليها القريب والبعيد والعدو والصديق وحتى هو نفسه يوم قال له: بخ بخ لك يا علي لقد اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، ونسي ما قاله هو لابن عباس اكثر من مرة: لو وليها علي لحمل الناس على المحجة البيضاء وعلى كتاب الله وسنة نبيه، ولولا سيفه لما قام للاسلام عمد الى كثير من أمثال هذه الكلمات والتصريحات التي كانت تبدر منه بين الحين والآخر من حيث يريد او لا يريد.

لقد تجاهل كل ذلك وتجاهل معه ما كان يصول به ويجول في مقابل الانصار الذين كانوا يرون انفسهم أحق بها منه ومن مرشحه ابي بكر اذا كان ولا بد من صرفها عن اصحابها الشرعيين، لقد كان يحتج عليهم يومذاك بحديث نسبه الى رسول الله (ص) انه قال: الخلافة لا تكون الا في قريش وقد صال وجال به على

معارضيه من غير القرشيين ولم يكن لديه غيره يومذاك، وها هو اليوم يذهب بعيدا ويتمنى لها غير العرب من الموالي والعبيد الدخلاء لا لشيء الا لانهم يحبون الله. ان امر هذا الرجل لغريب ولا شيء اغرب من انه وهو في الساعات الاخيرة من حياته يعمل في حدود سياسة مدروسة ومتفق عليها منذ الايام الاولى لانتزاع الخلافة من اصحابها الشرعيين بشكل واضح جاء يتلهف على الاموات من الموالي وغير القرشيين ويتمنى حياتهم ليستخلفهم من بعده لتضليل الرأي العام عن تلك المؤامرة المتفق عليها والتي التزم بها منذ انتزاع الخلافة من اصحابها الشرعيين كما يبدو.

وقال الاستاذ عبد الفتاح عندما انتهى به الحديث الى موقف ابن الخطاب وتمنياته في تلك اللحظات الحاسمة قال: ان ابن الخطاب حينما تمنى حياة ابي عبيدة ابن الجراح وأسامة بن زيد تذكر عليا وتذكر معه كل ما حدّث به هو عنه من قبل ثم ذكر الى جانب هذا وذاك قدره لا كما جرت به سيرته على شفاه محبيه فحسب بل كما علمه هو وغيره وقدّره القدر الذي يعلو به على الآخرين. ولكنه في الوقت ذاته ذكر السياسة العليا التي استنتها لنفسها قريش وقد ترسّمها برغبته او دفع الى ترسّمها مستكرها وقد عداه في كلا الحالين التوفيق ولم يلتزم النهج الاقوم.

ومجمل القول، لقد تمنى ابو حفص حياة الاموات ليوليهم الخلافة وكأنها ارث له من ابيه الخطاب وهو يعلم ان عليا (ع) لا يعدله احد من الاموات والاحياء، ومع كل ذلك فلم يتمناه لها ولا خطر له على بال لانه يسعى ويعمل من اجل تنفيذ مخطط كان قد التزم به من قبل، وسمى ستة من المسلمين زعم ان عليا احدهم، وفي الوقت ذاته وضع للانتخاب قيودا وشروطا تجعل عثمان بحكم المتعين ولا خيار لاحد فيها وكأنه يناوله اياها في عهد مكتوب كما ناولها ابو بكر من بعد لابن الخطاب ومن غير فرق بينهما الا بالشكل والمظهر.

لقد جعلها في ستة، وجعل لابي طلحة الانصاري بصفته رئيسا للشرطة الحق في الاشراف عليهم مع خمسين من اعوانه وفرض عليهم الخضوع لاوامره وتوصياته، كما امره بأن لا يمهلهم اكثر من ثلاثة ايام وقال له: اذا اتفق خمسة وخالف واحد منهم فاضرب عنقه واذا اتفق اربعة وخالف اثنان فاضرب عنقيهما واذا انقسما شطرين متساويين ثلاثة وثلاثة فهي لاحد الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، وعلى الثلاثة الباقين الطاعة واذا خالفوا فاضرب أعناقهم. بهذا النوع من المداورة والتضليل جعلها لعثمان بن عفان تنفيذا لمخطط قد التزم به هو

ورفاقه للحزب الاموي من قبل.

وهذا النوع من الانتخاب المقرون بتلك الشروط لا بد وأن يؤدي الى تلك النتيجة وإبعاد علي (ع) عنها من غير ان يستخدم لفظا معينا لابعاده لاسيما وقد جعلها لمن يختاره لها عبد الرحمن بن عوف، وهو يعلم بأن عبد الرحمن لا يفضل احدا على صهره ابن عفان، كما وان سعد بن ابي وقاص قريب لعبد الرحمن وأموي النزعة من ناحية امه، فلم يبق من الستة سوى طلحة والزبير وعلي بن ابي طالب، ويعلم ابن الخطاب بأن طلحة كان يطمع بها لنفسه وإذا يئس منها فمن غير الممكن ان يختار لها عليا لاسباب كثيرة، كما يعلم بأن عليا سوف لا يحصل على غير صوت الزبير وليس لهما الا السيف اذا خالفا من يختاره ابن عوف بمقتضى وصيته لابي طلحة الانصاري. وكان الامر كما قدره وخططه، فلقد وقف الزبير الى جانب علي (ع) ووقف طلحة الى جانب عثمان بعد ان يئس منها، كما وهب سعد بن ابي وقاص نصيبه فيها الى قريبه عبد الرحمن، وانتهت بذلك الجولة الاولى من مهزلة الانتخاب ولعبد الرحمن صوتان كغيره وزاد عليهما ان صوته يعادل صوتين بحكم المرسوم العمري، ثم اخرج نفسه منها على ان يجعلها لاحد الاثنين علي وعثمان بشروطه التي لا يقبلها سوى عثمان.

ومن غير البعيد ان يكون الواضع لتلك الشروط هو ابن الخطاب نفسه، ومضى ابن عوف في الطريق المرسوم له فعرضها على علي (ع) بشروطه التي منها ان يعمل بسيرة الشيخين، وهو يعلم ان عليا لا يمكن ان يخضع لرأي او شروط ولا يناقض نفسه، وكان من الطبيعي ان يرفضها مع هذا الشرط وأن يقبلها ابن عفان بشوق ولهفة ويفتح لها عقله وقلبه، وانتهت اخيرا كما اراده لها الخليفة الراحل بهذا الاسلوب من التضليل والتمويه على الجماهير التي لم تكن ترى لعلي بديلا ولا ترى لعثمان ما يؤهله لابسط القيادات في ماضيه وحاضره، فضلا عن دولة فتية قد اكتسحت أعتى الدول وأقواها وأصبحت بحاجة لمن يجسد الاسلام في سيرته وسلوكه تجاه تلك الامم التي استجابت لنداء الاسلام باعتباره الدين الذي يحقق لها كل آمالها وأمانيها ويعيد لها كرامتها.

ومما يدعو الى الغرابة بالاضافة الى ما تقدم هو انه قال للملأ الذين كانوا يتدافعون على بابه ليعرفوا مصيره ومصير الخلافة من بعده: لقد اخترت لكم احد هؤلاء الستة لان رسول الله (ص) رحل عن هذه الدنيا وهو راضٍ عنهم وحينما استدعاهم اليه قال لهم أفلا أخبركم عن انفسكم فقالوا له قل ما تشاء، فالتفت

الى الزبير وقال: أما انت يا زبير فوعق تعس مؤمن الرضا كافر الغضب يوما انسان ويوما شيطان لو افضت اليك الخلافة ظلت يوما تلاطم في البطحاء على مد من الشعير، فلعمري من يكون للناس يوم تكون شيطانا ويوم تغضب. والتفت الى طلحة وقال له: اقول ام اسكت؟ فقال له: قل فانك لا تقول من الخير شيئا، فقال له: اني اعرفك منذ أصيبت اصابعك يوم أحد والبا بالذي حدث لك، ولقد مات رسول الله (ص) ساخطا عليك للكلمة التي قلتها يوم نزلت آية الحجاب، كان قد قال يوم ذاك: وما يغنيه حجابهن وسيموت غدا وننكحهن من بعده.

وقال لسعد بن ابي وقاص: انما انت صاحب مقنب من هذه المقانب تقاتل به وصاحب قنص وقوس وأسهم وما لزهرة والخلافة، وقال لعبد الرحمن: اما انت فلو وزن نصف ايمان المسلمين بايمانك لرجح ايمانك به ولكن ليس هذا الامر لمن فيه ضعف كضعفك وما لزهرة وهذا الامر، واتجه الى عثمان وكأنه يناوله الخلافة بكلتا يديه وقال: كأني بك وقد تقلدت هذا الامر وحملت بني أمية وبني ابي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء فسارت اليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك، والله لئن فعلوا لتفعلن ولئن فعلت ليفعلن بك. ثم التفت الى علي (ع) وقال: اما انت فوالله لو وليتها لحملتهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء.

والغريب في هذا الموقف الذي وقفه من الستة انه كان قد قال للحشود الواقفة على بابه لتعرف مصير الخلافة: لقد مات رسول الله وهو راضٍ عن هؤلاء الستة في حين انه وصف اكثرهم بصفات لا يمكن لرسول الله ان يرضى عنها وبخاصة تلك التي وصف بها الزبير وعثمان بن عفان وطلحة. ووصف عليا (ع) بما يجب ان يكون عليه من يخلف النبي في اتمام مسيرته وقيادة الامة، ولم يستطع ان يلصق به عيبا ومع ذلك فقد وضع في طريقه الصعاب والعراقيل التي تحول بينه وبينها، ومهد طريق ابن عفان اليها بكل ما لديه من الوسائل بعد ان وصفه بأقبح الصفات كالتلاعب بمقدرات الامة وايثار العصاة والمردة من شياطين بني أمية على غيرهم من صلحاء المسلمين وذوي الرأي والفكر من أقطابهم مع انه وصفه بتلك الصفات وأقسم بالله عليها فقد مهد له طريق الوصول اليها كما ذكرنا، هذا بالاضافة الى ما وصف به طلحة من تحديه لرسول الله (ص) وغضبه عليه للكلمة التي قالها يوم نزلت آية الحجاب وما وصف به الزبير وابن ابي وقاص من الصفات القبيحة وكان قبل ذلك بلحظات قلائل قد قال بحضور حشد كبير من الناس: لقد مات رسول الله وهو راض عن هؤلاء الستة وأقل ما يصح ان يوصف به هذا

الموقف هو الهذيان والهجر، ومع ذلك لم يقل احد ممن سمع هذه المتناقضات منه ان الخليفة يهجر، وقد غلب عليه الوجع كما قال الخليفة نفسه عن النبي (ص) حينما طلب دواة وكتفا ليكتب للمسلمين كتابا حتى لا يضلوا بعده وقد ايقن الجميع يوم ذاك ان الكتاب الذي كان سيكتبه لا يعدو ان يكون عهدا مكتوباً بالخلافة لعلي (ع) لكي يفوت على المتآمرين والطامعين ما اتخذوه من التدابير لاقصائه عنها وتلاعبهم بالنصوص والمراسيم التي اصدرها يوم الدار وفي غدير خم وغيرهما من المناسبات، ولما أدرك ابن الخطاب الغاية من الكتاب وأهدافه، قال: ان نبيكم ليهجر، وفي رواية ثانية انه اضاف الى قوله هذا لقد غلبه الوجع حسبنا كتاب الله.

لم يقل ذلك احد من تلك الجماهير التي سمعت كل اقواله في تقريظ الستة وهجائهم وذمهم في حين ان موقفه مما يسمونه بالشورى ومدحه وذمه لاعضائها في وقت واحد بالشكل الذي يرويه اكثر المؤرخين والمحدثين عنه لا يصح تفسيره منطقيا الا بالهجر والهذيان والغرابة حتى عن منطق السياسيين ومحترفي السياسة.

وانتهت مهزلة الشورى بخلافة عثمان واستسلام علي (ع) للواقع الجديد وهو يأمل ان تسير الامور ولو الى حد ما كما ينبغي لها ان تسير بانتظار ما سيحدث وما يتوقعه اكثر المسلمين في المدينة وخارجها من الحزب الحاكم بشخص ابن عفان، ولم يكن الانتظار طويلا فما هي الا اشهر قليلة حتى بدأت معالم السياسة العمرية تقترب من الأفول وظهرت بوادر الاستغلال على اسرة الخليفة وحاشيته مما دعا وجوه الصحابة بقيادة عمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري والمقداد بن الاسود وغيرهم من الحريصين على مصلحة الاسلام الى التحرك، وكان عليا (ع) فرض عليهم التريث في المعارضة ريثما تتضح الصورة على واقعها للجميع.

وكانت البادرة الاولى التي قام بها الحزب الاموي ان حملوا الخليفة على أكتافهم من غرفة الشورى بعد البيعة الى داره ليشرب نخب النصر مع خاصته وحاشيته بدلا من المسجد الذي اعتاد من سبقه من الخلفاء ان ينتقل اليه بعد تقلده السلطة ليعلن منه على المهاجرين والانصار وعامة المسلمين الخطوط العريضة لسياسته وادارته لشؤون الدولة ليشاركوه الرأي فيما يخطط في مستقبل عهده، هذه البادرة لم تقابل بالارتياح من المسلمين وراحوا يتحدثون فيها حديثا لاغطا للمقربين من الخليفة وحاشيته على امل ان تبلغه احاديثهم ليرجع الى الناس ويعتذر اليهم بما يعيد الى نفوسهم الثقة والطمأنينة، ولكن لم يحدث شيء من ذلك بل اقترن تصرفه

هذا بحادث آخر كان وقعه على المسلمين أشد وأوجع فلم ينصرف هذا الاجتماع العائلي المحتفل بالنصر وبأحلام هذا البيت منذ عشرات السنين حتى دخل عليهم ابو سفيان وهو اعمى يوم ذاك يقوده غلامة ليضع المنهج للحكم الذي وضع تصميمه منذ زمن لعله حين استطاع ان ينتزع وعدا او ما يشبه الوعد بعد حوادث السقيفة بوصول الخلافة الى بيته، فدخل على القوم وقال: هل في مجلسنا احد نتقيه؟ فقيل له انطلق لحاجتك يا ابا سفيان، فقال: تلقفوها يا بني أمية فوالذي يحلف به ابو سفيان ما زلت ارجوها لكم ولتصيرن الى صبيانكم ولم يحدث التاريخ عن احد ممن كان في مجلسه ان عارضه بشيء مما تكلم به، ولم يكتف بذلك بل هشت به أحقاده القديمة التي لم يستطع ان يظهر شيئا منها بعد ان تظاهر بالاسلام لا في عهد الرسول ولا في عهد الخليفتين الراحلين، ومشت به تلك الاحقاد التي تأسست من انتصار هاشم على أمية وتمكنت في نفسه من انتصارات سليل هاشم في بدر والاحزاب وحنين وغيرها من انتصارات الاسلام، على الشرك والوثنية مشت به الى قبر الحمزة بن عبد المطلب احد اقطاب البيت الهاشمي الذي انتصر على ابي سفيان وحزبه، فركله برجله وقال: انهض يا ابا عمارة فقد صار الينا الملك الذي حاربتنا عليه، لقد قال ذلك في نزوة جاهلية لا تعرف النزوات أولع في التشفي والحقد والانانية منها كما ذكرنا من قبل.

وواجه الخليفة الجديد في السنة الأولى من خلافته مشكلة كانت من مختصات القضاء الاسلامي الذي احاطه الاسلام بقيود وحدود ووضع له من الموازين والشروط ما جعله مرجعا امينا وكفيلا باعطاء كل انسان حقه بدون محاباة او تمييز وبخاصة في مشاكل الدماء والاعراض والاموال.

بعد اغتيال ابن الخطاب اقدم ولده عبيدالله على قتل الهرمزان احد امراء الفرس الذين وقعوا اسرى في يد الفاتحين من الجيش الاسلامي من غير ان يحاكمه بذنب ارتكبه او بجريمة ادانه بها القضاء، ولم يكن الهرمزان يعرف لنفسه ذنبا يوجب العقاب، كما لم ينسب اليه احد الاشتراك في الجريمة، وكل ما في الامر ان احد المسلمين قد ادعى بأنه قد رآه قبل حدوث الجريمة مع جفينة وأبي لؤلؤة، وهذا لا يكفي للادانة ولا يعد مؤشرا اليها، وكما يبدو فان عبيد الله لم يقدم على قتله الا لانه مدفوع على ذلك حتى لا تظهر معالم الجريمة فيما لو بقي حيا وخضع للتحقيق العادل بها، وبعد قتله التجأ الى عثمان الذي حول القضاء لمصلحته ولمصلحة حزبه فحماه من القضاء بالرغم من مطالبة الجمهور الاعظم بمحاكمته وكان على رأس

المطالبين بذلك علي (ع) وذوو الرأي والبصيرة من وجوه الصحابة، ولكن الخليفة لم يبال بغضب الجماهير ولا بنصح الناصحين وأصر على حمايته من القضاء العادل وظل عبيد الله في رعاية الخليفة وأعوانه محبواً مدللا كأعز ما يكون عليه لا يأبه للوم لائم ولا لنقمة ناقم ولا لحرمة العدالة والقضاء حتى اشتد الحصار وكانت نهايته، فأيقن عند ذلك ان لا شيء يحميه من العدالة بعد ان اصبح القضاء بيد علي امير المؤمنين (ع) فالتحق بمعاوية مع من التحق به من الامويين الذين كانوا يعبثون بالقيم ومقدرات الامة وكانت نهايته في صفين مع الفئة الباغية كما تؤكد ذلك جميع المصادر التاريخية.

كما واجه المسلمين في مطلع خلافته بمشكلة اخرى لعلها أسوأ مما سبقها، فأثارت القلق والخوف في نفوس الخاصة من ذوي الفكر والرأي والمخلصين للاسلام العاملين على انتظام مسيرته ولو بالنحو الذي كان عليه في عهد الخليفتين ولم تكن هذه المشكلة تحديا للقضاء فحسب بل تحديا لرسول الله (ص). وفي الوقت ذاته تتعلق بأمن المجتمع المدني الذي كان يعبث فيه آل الحكم من بني ابي العاص، وكان النبي (ص) قد حاول اصلاحهم وتحديد نشاطهم بكل الوسائل، فلم يجدهم جميع ما بذله في هذا السبيل لان فسادهم كان اعمق من ان تؤثر فيه النصائح والارشادات والتفاوض وجميع المحاولات لاتصاله بأحقاد قديمة موروثة تحولت الى مرض لا يزيده الدواء الا انتكاسا.

وبالاضافة الى هذا الداء واستفحاله فلقد كانوا يعملون على نشر الفوضى والسفه واللامبالاة وبلغ من غوغائيتهم ان أقدم الحكم اكثر من مرة على تمثيل النبي في مشيته ومحاكاته في تحركاته محاكاة ساخرة دنيئة فكان اذا مشى خلفه يتغامز ويتخلع وأحيانا يدلع له لسانه، الى غير ذلك من التصرفات الشاذة التي تنم عن مرض خبيث في النفس لم يجد النبي سبيلا لاستئصاله بالحكمة والتوجيه والموعظة الحسنة.

وقد التفت اليه مرة وكان يمشي خلفه فوجده يتغامز ويتخالج ويتخالع وكأنه يمثله في تحركاته فلم يزد النبي (ص) على ان قال له: كن كما انت فبقي على الهيئة التي كان عليها وهو يمثل النبي كالمجنون، وظل الناس بعد ذلك يسمونه الخالع والخليج ويسخرون منه، وأحيانا كان يتجسس على النبي وهو في غرفته مع احدى زوجاته ورآه مرة يتطلع عليه من نافذة تطل على الغرفة فغضب وقال: من عذيري من هذه الوزغة، ولما شاعت مقالته هذه كان الناس اذا تحدثوا عنه وعن ابنه مروان

قالوا الوزغ ابن الوزغ الى غير ذلك من ألوان السفة التي لم يـرتدع عنهـا الحكم ولا اولاده من بعده ولا عما هو أسفه منها وأقبح.

ولما رأى النبي (ص) ان بقاءه في المدينة ربما يجر العـدوى والفساد لغـيره نفاه هو وأسرته من المـدينة الى مكـان في الطائف معـزول عن الناس (يـدعى بطن وج) ونهى المسلمـين عن معاشرتـه والاجتماع اليـه حرصـا على النفـوس الـبريئـة من ان تتلوث بمـرضه ولم يقبـل فيه شفـاعة احـد من الناس كـما جاء في أنسـاب الاشراف للبلاذري وشرح النهج للمعتزلي وغيرهما، وافتتح عثمان بن عفان خلافته بـارجاعـه هـو وأسرته الى المـدينة فـأثار ارجـاعهم غضب المهـاجـرين والانصـار لا سيـما وان الشيخين من قبله لم يقبلا بهم شفاعة احد كما نص على ذلك عبد الكريم الخـطيب في كتـابه عـلي بن ابي طالب، ولم يكتـف ابن عفـان بذلـك بل ولّى الحكم الـطريـد الذي كان يؤذي رسول الله ويتجسس عليه، ولاه صدقات قضاعة فبلغت ثـلاثمائـة الف درهم فوهبها له ولما توفي الحكم ضرب عليه عثمان فسطاطـا فقال عبـد الرحمن ابن حسان بن ثابت لولده مروان:

ان الـلعـين أبـاكَ فـارم عـظامـه ان ترم ترم مخلجا مجنونا
يضحي خميص البطن من عمل التقى ويظل من عمل القبيح بطينا

وقـال المحدثـون والمؤرخون كـما جاء في شرح النهج وغيره: ان رسـول الله تصدق بموضع سوق في المدينة يعرف بنهرون عـلى المسلمين فـأقطعـه ابن عفان الى الحـرث بن الحكم شقيق مروان، وأقـطع مروان بن الحكم فـدكا وكـانت لفاطمـة الزهراء (ع) وأخذت منها قسرا بعد وفاة ابيها، ولما افتتح المسلمون أرمينيـة استولى ابن عفان على خمسها وأعطاه لمروان بن الحكم طريد رسول الله، فـأرسل اليـه عبد الرحمن بن جنيد الجهمي أبياتا جاء فيها:

ولـكـن خـلقـت لـنـا فـتـنـة لكي نبتلي بك او نبتلى
وأعـطيـت مـروان نـفس الـبـلاد فهيهات سعيك فيمن سعى

وجاء في مجاميع التاريخ أنه كان للمدينة حمى مباح لجميع المسلمين ترعى بـه مـواشيهم وتركـه النبي والخليفتان من بعـده لجميع المسلمـين عمـلا بمبـدأ المسـاواة وحرصا على الثروة الحيوانية التي يعـود خيرهـا على الجميـع، فأقـدم الامويـون على تصوينه واستغلاله لمواشيهم ومنعوا اهل المدينة وغيرهم من الانتفـاع به فـأثار هـذا الحادث غضب اهل المدينة وعـلى رأسهم عمار بن يـاسر، ورأى الناس في الحـادث

وان كان صغيرا بالنسبة الى ما ارتكبوه من الفظائع، رأوا فيه غزوا يهدد أموالهم وممتلكاتهم وموارد الدولة بالاغتصاب والاحتكار لمصلحة تلك الطغمة من حاشية الخليفة، ولم يخطئوا النظر ولا التقدير فخلال السنين الاولى من استيلائهم على السلطة رأى المسلمون قصورا للخليفة في داخل المدينة اشبه ما تكون بقصور كسرى وقيصر، ورأوا لمروان الوزغ بن الوزغ مثلها في ذي خشب تطل على سوق يضارب به عماله بما اختلسه من اموال المسلمين والفقراء والمجاهدين وبالاضافة الى ذلك الجواهر والحلي تتوهج في ضوء الشمس كالجمر المتقد ولكن على صدور بنات عثمان ونسائه ونساء الامويين لا في ساحة المسجد كما كانوا يرونها في عهد الخليفة الراحل حيث كان يضعها ويأمر خازنه بتوزيعها على الجميع حسب المقادير التي خصصها لكل فئة من الفئات، وقد هالهم ان يروها بالامس القريب مبعثرة على رمال المسجد ليأخذ كل واحد من المسلمين نصيبه منها، ويروها الان مجمدة في تجسيد هازىء مخيف في ايدي الاسرة الحاكمة وعلى صدور بناتهم ونسائهم يتباهون بها على نساء المسلمين والمجاهدين الذين غنموها بسيوفهم ودمائهم خلال معاركهم الضارية مع الفرس والرومان، وأينما اتجه المسلمون في المدينة وخارجها خلال العهد العثماني كانوا يرون الحزب الاموي وحاشيته خارجا على تعاليم الاسلام وسيرة الرسول والشيخين من بعده.

لقد رأوا الكثير الكثير مما لم يعهدوه ولم يألفوه ولم يستطيعوا السكوت عنه والصبر عليه، لقد رأوا الخليفة يغدق في العطاء على اخيه من الرضاعة عبد الله بن ابي سرح فأعطاه جميع ما افاء الله عليه من الغنائم حينما فتح المسلمون افريقيا في المغرب وهي المنطقة التي تعرف اليوم بالمغرب العربي، ولم يشرك احدا معه في تلك الغنائم على حد تعبير المعتزلي في شرح النهج وغيره من المؤرخين، وابن سرح هذا كان قد اسلم قبل ان يدخل النبي (ص) مكة فاتحا والتحق بالنبي في المدينة، ونظرا لانه كان يحسن الكتابة فقد اتخذه النبي كاتبا لمدة من الزمن، ثم ارتد عن الاسلام ورجع الى قومه في مكة وجعل يحدث قريشا بأشياء لا عين لها ولا اثر ويفتري على رسول الله، ومما قاله لهم: ان رسول الله كان يملي عليه من الوحي احيانا فاكتب ما يخالف قول الرسول ثم اعرضه عليه فيقره الى غير ذلك من الافتراءات التي كان يتقرب بها من المشركين فأنزل الله فيه كما جاء في انساب الاشراف.

﴿ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً وقال اوحي الي ولم يوح اليه شيء ومن

قال سأنزل مثل ما انزل الله ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو ايديهم اخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾.

ولما كان عام الفتح اهدر رسول الله (ص) دمه فيمن اهدر دماءهم من المشركين والمنافقين فتشفّع فيه عثمان وألح على رسول الله في امره والنبي ساكت لا يتكلم ولما ادناه من النبي صرف وجهه عنه وهو يأمل ان يسرع احد المسلمين الى قتله، ولما استمر ابن عفان في الحاحه لم يزد رسول الله على قوله نعم، ولما انصرف به عثمان قال النبي لمن كان حوله: أما كان فيكم من يقوم الى هذا الكلب ويقتله، فقالوا لو أومأت الينا لفعلنا، فقال اني لا اقتل بالاشارة.

ومع ان رسول الله (ص) قد وصفه بالعداء لله ورسوله وأمر بقتله ولو كان متعلقا بأستار الكعبة فقد كان الخليفة يغدق عليه العطاء وولاه مصر من سنة ٢٥ الى سنة ٣٤ وخلال ولايته على مصر استغلها للاستئثار بخيرات النيل وثروات العمال والفلاحين وموارد الدولة مما أثار غضب الجماهير المصرية بقيادة محمد بن ابي حذيفة ففر منها الى عسقلان وأقام فيها الى ان قتل عثمان.

ومضى ابن ابي الحديد خلال شرحه للخطبة المعروفة بالشقشقية يقول: لقد اعطى ابا سفيان بن حرب مائتي الف من بيت المال في اليوم الذي أمر فيه لمروان بمائة الف بعد ان زوجه ابنته ام ابان، وجاءه ابو موسى بأموال كثيرة من خراج العراق فوزعها على الامويين كما اعطى مبلغا كبيرا من المال للحرث بن الحكم بعد ان زوجه من ابنته عائشة.

ولما وجد زيد بن ارقم المسؤول عن بيت المال ان موارد الدولة جلها يذهب لحساب البيت الاموي جاءه بمفاتيح البيت ووضعها بين يديه وبكى فقال له: أتبكي لاني وصلت رحمي، فقال له: والله لو اعطيت مروان بن الحكم مائة درهم لكانت كثيرة عليه، وبالاضافة الى كل ذلك فلقد كان مروان بن الحكم وأبوه واخوته في المدينة يأمرون وينهون وعنهم تصدر الاوامر والمراسيم للداخل والخارج ومعاوية يحكم بلاد الشام بلا حسيب او رقيب، وابن ابي سرح الذي انزل فيه﴿ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا﴾على مصر، والوليد بن عقبة شقيق الخليفة لأمه على الكوفة، وقد تولاها قبله جماعة من أجلاء الصحابة كعمار بن ياسر وابن مسعود وسلمان الفارسي وابن ابي وقاص وغيرهم، فولاها عثمان في مطلع خلافته لشقيقه

الوليد الذي كان يعرف هو واخوته بصبية النار، لان النبي (ص) عندما أمر بقتل ابيهم عقبة بعد معركة بدر قالوا له: من للصبية يا رسول الله فقال: لهم النار، فسماهم المسلمون بعد ذلك (صبية النار) وعقبة والد الصبية كان جده ابن ابي عمرو عبدا لأمية بن عبد شمس وتبناه أمية، وقد تزوج من اروى بنت كريز فأولدها عثمان وتزوجها من بعده عقبة فأولدها الوليد وخالد وعمارة وبنتا تدعى ام كلثوم، فنشأ الوليد في أحضان عثمان، وكان سكيرا فاجرا لا يصحو من السكر حتى في ايام ولايته على الكوفة، وقد بلغ به الحال ان سهر ليلة مع قيانه وندمائه يشربون ويعبثون حتى الصباح، وخرج من مجلس الشراب الى المسجد ليصلي بالناس كما كانت عادة الامراء فصلى صلاة الصبح اربع ركعات، فأدرك المصلون انه فاقد لعقله وادراكه، وراح ينظر بعضهم بعضا، فالتفت اليهم وقال: اذا شئتم زدتكم، وتوالت جرائمه حتى صجت الكوفة من سوء تصرفاته وتوافدت حشودها على الخليفة شاكية فلم يجد بدا من استدعائه اليه، وما ان دخل المدينة حتى احتوشه المسلمون من كل جانب وهم يطالبون باقامة الحد عليه. ولما اشتد اللغط وتصاعدت النقمة سمح لهم الخليفة بجلده وتحركت شفتاه بذلك وكأن احدا كان يقبض عليهما ولكن ملامح وجهه كانت تأبى عليهم ذلك فلم يجرؤ احد على القيام بهذه المهمة وراح كل واحد ينظر الى الآخر، هذا والخليفة مطمئن الى انه سوف لا يجرؤ على القيام بهذا الواجب احد منهم، وفاته ان عليا (ع) الذي لا يرهبه غضب الحاكمين ولا يهادن احدا على حساب الحق مهما بلغ شأنه، وكان الفاسق الذي وصفه الله في كتابه بهذه الصفة كما تشير الى ذلك الآية التي نزلت على النبي في حادثة تتعلق بالوليد نفسه ﴿ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة﴾ لقد كان يراقب عليا الذي تولى قتل ابيه عقبة بن ابي معيط بعد معركة بدر ولا يخشى احدا سواه، ولما أحسّ بأن عليا تحرك لاداء هذا الواجب بنفسه بعد ان تهيب الحضور اداءه قام يحاول الهرب وكأنه احس بوقع السياط قبل ان تمس جسده فتناوله علي (ع) وجلد به الارض وانهالت سياطه عليه وظلت تتساقط وتهوي عليه حتى بلغت الثمانين فتركه عند ذلك يتململ ويتلوى من ألمها، هذا والخليفة المسؤول الاول عن تنفيذ حكم القضاء في مرتكبي هذا النوع من الجرائم قد أربد وجهه واعتبر ذلك تحديا لخلافته فأدار وجهه نحو الجماهير المحتشدة فوجد بوادر الاغتباط والارتياح بادية على كل وجه، ومع ذلك فلم يستطع ان يكتم ما في نفسه من مرارة وألم، فاحتج على علي (ع) مدعيا بأنه قد تجاوز العقوبة المفروضة لمثل هذه الجرائم،

لانه قد جلد به الارض، ولكن احتجاجه لم يقابل بغير السخرية من الجميع.

وظلت الاحداث المخالفة لانظمة الاسلام ومبادئه تتوالى من جميع الاجهزة الحاكمة وتعرض فريق من أعيان الصحابة كعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وابي ذر الغفاري وزيد بن ارقم، وحتى عبد الرحمن بن عوف الذي سلمه الخلافة كما ارادها له الخليفة الراحل هؤلاء وغيرهم من اعيان الصحابة تعرضوا لاقسى العقوبات وأسوأ المعاملات كما تؤكد ذلك جميع المصادر التاريخية التي احصت أحداث تلك الفترة من التاريخ. لقد تعرض أجلاء الصحابة المقربين من رسول الله (ص) لغضب عثمان وحاشيته والتنكيل الوحشي بهم لا لشيء الا لانهم انتقدوا مساوىء العهد واسراف حواشيه في المنكرات والطغيان وامتدت ايديهم الى ابن مسعود وتعاقبت سياطهم عليه حتى كسروا ضلعا من أضلاعه وظل يضطرب بين ايديهم حتى غاب عن الدنيا وحمل الى بيته وهو يصارع الموت، فمنعوا الناس من الاتصال به وعيادته، ولما أحس بدنو أجله اوصى عمارا بالصلاة عليه ودفنه حتى لا يحضره الخليفة أو احد من حواشيه، ونفذ وصيته عمار بن ياسر كما اراد فصلى عليه ودفنه هو وجماعة من المهاجرين في جو هادىء بعيد عن الخليفة وحواشيه.

كما تعرض ابو ذر الغفاري لاسوأ المعاملات، واستمر في معارضته غير مبال بتهديد الخليفة ووعيده فنفاه الى الشام وأوكل امره الى معاوية وأمره بالشدة عليه والعنف في معاملته ولكن تهديدات معاوية لم ترهبه وظل يمارس نشاطه ضد الحكم الاموي المنحرف واحتار معاوية في امره بعد ان وجد ان الشدة لا تثنيه ولا تحد من معارضته بل تزيده صلابة، وقد هاله ان يزج به في سجونه او يقتله لان ذلك لا يعصمه من نقمة المسلمين الذين سمعوا النبي اكثر من مرة يقول: ما احلت الخضراء ولا اقلت الغبراء أصدق لهجة من ابي ذر، وسمعوه يقول له: يا ابا ذر تموت وحدك وتحشر وحدك وتدفن وحدك ويسعد بك قوم من اهل العراق يتولون غسلك ودفنك.

وحينما وجد ان لا سبيل لإسكات ابي ذر وتغاضيه عن جرائم الامويين كتب الى عثمان يستغيث به ليخلصه منه فكتب اليه أن يرده الى المدينة على اخشن مركب، وكان ذلك من أعز أمانيه فأرجعه كما يريد الخليفة ولم يصل اليها الا بعد ان اكلت الاقتاب لحم فخذيه وتكسرت عظام ظهره من العنف الذي استعمله معه مرافقوه، وفي المدينة عرضه ابن عفان على الجلادين فأغمي عليه اكثر من مرة وسياطهم تتوالى على جسمه النحيل بدون شفقة او رحمة، وأخيرا نفاه الى الربذة وترك امر

اخراجه من مدينة الرسول لمروان بن الحكم الطريد بن الطريد، ولم يجرؤ احد من المسلمين على وداعه خوفا من سياط الجلادين غير علي والحسن والحسين وعمار بن ياسر وودعه علي (ع) بكلمات هون عليه فيها ما يلقاه من القوم وسوء صنيعهم، وبعد غياب ابي ذر عن المسرح بقي عمار بن ياسر على موقفه المتصلب من الخليفة وحاشيته واتفق هو وجماعة من المهاجرين والانصار على كتاب لعثمان يعددون فيه مساوىء العهد وما تعانيه الامة من اسرته وحواشيه، ويطلبون فيه ان يرجع الى الاسلام او سيرة سلفه على أقل تقدير او اعفاء الامة من بيعته التي ارهقت المسلمين وجرعتهم ألوانا من العسف والجور، ولم يجرؤ احد على حمل الكتاب للخليفة غيره، وبعد حوار دار بينهما تدخل فيه مروان بن الحكم وقال لعثمان: الى متى تصبر على هذا العبد الاسود الذي جرّأ الناس عليك وحملهم على ما ترى، فلو قتلته ارهبت من وراءه وجعلته نكالا وعبرة لغيره من المتمردين عليك، ومضى يشحنه عليه ويهون على الخليفة ما يخشاه من عواقب التنكيل به حتى استبد به الغضب واشترك هو وغلمانه بجلده وظلت سياطهم تتهاوى عليه حتى أصيب بفتق وأغمي عليه فحملوه وألقوا به في الطريق، ولما اصبح الناس ووجدوا عمارا بتلك الحالة ارتفع الضجيج والصراخ فأطلت زوجة النبي (ص) أم سلمة من غرفتها المجاورة للطريق لترى اسباب الضجيج فوجدت عمارا مغشيا عليه فأسرعت اليه وكلفت من يحمله الى غرفتها وهو في غيبوبة مطبقة فاتته خلالها ثلاثة من فرائضه اليومية، ولما أفاق من غشيته وملك وعيه واستعاد شيئا من نشاطه اسرع ليؤدي ما فاته من الفرائض، وبعد ادائها جعل يستعيد ويردد ما لاقاه من ابي جهل وأبي سفيان وغيرهما من عتات قريش حين آمن برسالة محمد (ص)، وقال لئن ضربت وعذبت اليوم على يد سليل أمية فلقد لقيت من أسلافه اذى كثيرا وعذابا مرا يوم آمنت بمحمد ورسالته وأنا الان ألاقي ما لاقيت من اجل رسالته وعند الله أحتسب ما ألاقيه من عثمان وحاشيته.

وظلت الاحداث تتوالى حتى بلغت النقمة في المدينة وخارجها من تلاعب الامويين وأحلافهم بأموال الامة ومقدرات الدولة واستهتارهم بالقيم والمقدسات اقصى حدودها، وبخاصة بعد ان امتدت الايدي الاثيمة الى اعيان الصحابة كعبد الله بن مسعود وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر وغيرهم ممن بلغوا القمة في جهادهم وتضحياتهم في سبيل الاسلام وخير المسلمين، ولم يعد صبر المسلمين في المدينة وخارجها يتسع لما حدث ولما كانوا ينتظرون حدوثه من الخليفة وحواشيه بعد

مواقفهم المستهترة الساخرة وعدم الاعتداد والتقدير لما بذله علي (ع) وظل يبذله حتى اللحظات الاخيرة من النصائح والارشادات للخليفة وحزبه ليرجعوا لرشدهم وينظروا الى الموقف المتفجر من زاوية العقل ومصلحة الاسلام قبل فوات الاوان، وعبثا كان يحاول ويكرر المحاولة بين جميع الاطراف المعنية بالامر كالبريد الساعي، فما كان يتبناه من مطالب الثوار العادلة كان اذا وافق عليها الخليفة ترفضه حاشيته وتعمل بتوجيهات الوزغ بن الوزغ على تأزيم الموقف. وانتهى الصراع القائم بين المهاجرين والانصار ووفود الامصار من جهة وبين عثمان بن عفان وحزبه الاموي من جهة اخرى، بمصرع الخليفة الذي خذله عامله القوي من اسرته معاوية بن ابي سفيان عن قصد متعمد بعد ان استنجد به اكثر من مرة وكأنه كان مطمئنا لانتقال الدولة اليه اذا اتخذ من دم عثمان سببا لذلك كما فعل، وانتهى بمصرعه عهد ثلاثة ممن يسمونهم بالراشدين.

وجاء دور الخليفة الرابع صاحبها الشرعي الذي اتفق عليه المهاجرون والانصار بالاضافة الى تلك الحشود الهائلة التي زحفت على المدينة معلنة عن سخطها على الحزب الحاكم، وقد حاول علي (ع) ان يتهرب، ولكن محاولاته اصطدمت باجماع جميع الفئات الذين انهالوا عليه من كل جانب واجتمعوا حوله كربيضة الغنم على حد وصفه لموقف المسلمين على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم من خلافته كما جاء في خطبته المعروفة بالشقشقية، ذلك الاتفاق الذي يعبر عن اجماع الامة بما لهذه الكلمة من المعنى الذي يتسع لجميع أفراد الامة او لاكبر عدد منها كما اشارت الى ذلك اكثر النصوص التاريخية التي وصفت موقف المسلمين منه يومذاك.

وجاء في انساب الاشراف للبلاذري ان عليا (ع) قد لزم منزله بعد ان يئس من اصلاح الامر بين الفريقين فلما قتل عثمان وفرغ الناس من امره جاؤوا كلهم الى علي يهرعون ويقولون: اميرنا علي بن ابي طالب فدخلوا عليه الدار وقالوا: امدد يدك حتى نبايعك، فقال: ليس ذلك لكم وانما هو لاهل بدر فمن اختاره البدريون فهو الخليفة، فلم يبق احد من البدريين الا اتاه وهم يقولون: لا نرى احدا أحق بها منك.

ووصف الطبري موقف المسلمين من خلافته كما جاء في الجزء الخامس من تاريخه بما حاصله ان عليا (ع) بقي مصرا على رفضها والناس محدقون بداره ويتوسلون اليه بالاشتر النخعي وغيره من أعيان المسلمين الذين خوفوه من وقوع الفتنة اذا بقي مصرا على رفضها وبعد حوار طويل بينهما وافق عليها بحضور جميع

الطبقات والفئات ثم دخل المسجد والناس محدقون به فأول من بايعه وجوه الناس من الصحابة وغيرهم بما فيهم طلحة والزبير وانثال عليه الناس من كل جانب.

كما وصف ابن قتيبة في كتابه الامامة والسياسة وغيره ممن تحدثوا عن أحداث تلك الفترة موقف المسلمين من خلافته بمثل ذلك، وأضاف ابن قتيبة الى ما تقدم براويته عن ابي ثور انه حاول ان يتهرب من الناس فدخل حائطا من حيطان بني مازن فلحقوا به وألجأوه الى نخلة وأخذوا ذراعه وجعلت الايدي تختلف عليها وما زالوا يتدافعون عليه حتى ادخلوه الجامع فبايعه طلحة والزبير وأصحاب النبي وجميع من في المدينة من المسلمين، وكانت تغص بالجماهير التي زحفت عليها من مختلف العواصم والمقاطعات الاسلامية لانقاذ العباد من الحزب الحاكم.

ومهما كان الحال فالذي تؤكده المصادر الموثوقة ان المدينة بقيت بعد مصرع عثمان بن عفان خمسة ايام بدون خليفة وفي عهدة الغافقي بن حرب زعيم الثوار المصريين، والمسلمون بكل فئاتهم متفقون عليه ولا رأي لهم في غيره، وخلال تلك الفترة كان يتهرب منهم ويفضل ان تؤول الى غيره حتى آل امره ان التجأ الى البساتين واعتصم بها وكانوا يلاحقونه أينما ذهب، وبعد الالحاح الشديد عليه من عامة الصحابة والثوار، والخوف على مصير الاسلام ان هو ظل مصرا على رفضها، لم يجد بدا من قبولها، ولم يتخلف عن بيعته سوى معاوية بالشام ونفر من الامويين وأحلافهم لا يتجاوزون عدد الاصابع قد استعفوه من البيعة فتركهم وشأنهم، وأحس المسلمون في المدينة وخارجها بالانفراج وباتوا يتطلعون الى غد مشرق، ومجتمع افضل ينعم بالحرية وسيادة الحق والعدالة.

وانصرف علي (ع) بكل طاقاته وامكانياته منذ الايام الاولى لخلافته يضع الخطط لاصلاح ما افسدته بطانة عثمان في جميع شؤون الدولة وأجهزتها وكانت الاولويات تستأثر بامكانياته وطاقاته ومن بينها مشكلة الولاة والسياسة الاقتصادية التي كانت متبعة قبله وأثارت غضب الجماهير في الحجاز وخارجه، والتي استجاب واضعوها لمصالحهم وعواطفهم وعنصرياتهم لا لمبادىء الاسلام وسماحته، ووقف بين تلك الجماهير الملتفة حوله ليعلن على الملأ تلك الخطوط العريضة لسياسته فقال: ألا وان كل قطيعة أقطعها عثمان بن عفان وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود الى بيت المال، فان الحق لا يبطله شيء ولو وجدته قد تزوج به النساء وملكت به الإماء وفرق في البلدان لرددته الى اهله، وأيما رجل استجاب لله ورسوله فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الاسلام

وحدوده فأنتم جميعا عباد الله والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية ولا فضل فيه لاحد على احد الى غير ذلك من بيانه التاريخي الذي وضع فيه جميع الفئات بما فيهم الموالي والعبيد في مستوى من كانوا يتمتعون بالامتيازات السياسية والاقتصادية على حساب غيرهم من الطبقات الكادحة والمستضعفين.

وعز على جماعة من المهاجرين والانصار ان يكونوا كغيرهم من سائر الطبقات وان تصادر ممتلكاتهم لمصلحة الدولة وبخاصة طلحة والزبير اللذين كانا يملكان ما تقدر قيمته بملايين الدنانير كم تؤكد ذلك جميع المصادر التاريخية وكانا بالاضافة الى أطماعهما الاقتصادية يطمعان في هذا العهد الجديد في ولاية المصرين البصرة والكوفة، وحينما طلبا منه ذلك اجابهما برفق ولين: احب ان تكونا معي أتجمل بكما وأستأنس برأيكما، لان أطماعهما التي كانت تتسع لطلب الخلافة لم تكن لتخفى عليه وقد عرفهما صغيرين وكبيرين، وبالرغم من ان ابن عفان كان يغدق عليهما العطاء فقد رآهما بالامس القريب يحرضان على قتله لا غضبا لله ولا حرصا على مصلحة الاسلام بل طمعا في السلطة من بعده، اما وقد سمعا بيانه ورفض ان يجعل لهما ميزة على غيرهما وحتى في العطاء الذي سوف لا ينالان منه الا الشيء المزيل اليسير، هذا بالاضافة الى الاقامة الجبرية التي لوّح في فرضها عليهما وعلى غيرهما من ذوي الاطماع وطلاب الجاه.

لقد أيقنا انهما لن يحققا شيئا من امانيهما ما داما خاضعين لحكمه، منضمين الى لوائه، وما عليهما بعد ان تسرب اليأس الى نفسيهما الا ان ينضما الى الحزب الاموي المعارض، وقد بدأ معاوية يغازلهما منذ الايام الاولى لمصرع الخليفة الراحل ويعدهما بالاموال وبكل انواع الدعم ان استمرا في معارضتهما لعلي بن ابي طالب واتمام البيعة لهما بالشام.

وجاء في كتاب كتبه الى الزبير بن العوام كما في رواية شرح النهج جاء فيه لعبد الله امير المؤمنين الزبير بن العوام من معاوية بن ابي سفيان لقد بايعت لك اهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب فدونك الكوفة والبصرة قبل ان يسبقك اليهما ابن ابي طالب وبايعت لطلحة من بعدك واستمر يشحنهما بوعوده ومغرياته ويضعهما في جو الخلافة وكأنها سهلة المنال لكل طامع فصمما على الثورة والتمرد على الخليفة الشرعي الذي بايعاه بالامس طائعين غير مكرهين واستغلا عداء عائشة لعلي (ع) المتحكم في نفسها منذ الايام الاولى لزواجها من النبي (ص)، وقد بلغ من عدائها له ان فقدت وعيها وخرجت عن المألوف حينما بلغها

ان المسلمين قد اجتمعوا على علي (ع) وأصبح قريبها طلحة صفر اليدين منها وقالت ساعة بلغها امر الخلافة: ليت هذه اطبقت على هذه، لقد قتل عثمان مظلوما، وقبل قتله بأيام قلائل كانت من اكثر المسلمين عداء له وتحريضا على قتله وتسميه باسم يهودي قذر خسيس كان يسكن المدينة وتقول اقتلوا نعثلا فقد كفر، وتعني عثمان بهذا الاسم الى كثير من مواقفها المعادية له ولما بلغها مصير الخلافة راحت تندبه وتبكيه وأخيرا ترجلت واشتركت مع الطامعين والمفسدين في حرب امير المؤمنين فأركبوها جملا حملوها عليه الى البصرة، وراحوا يعيثون في الارض فسادا ويقتلون الابرياء والصلحاء من عباد الله، فاضطر الامام (ع) للخروج في أثرهم قبل ان يستفحل خطرهم وكانوا قد دخلوها من قبله واستولوا على بيت المال بعد ان قتلوا حراسه وجماعة من أنصار الامام، وبعد وصوله الى البصرة ومحاولاته الكثيرة بارجاعهم الى رشدهم وانضمامهم الى عامة المسلمين التي باءت بالفشل لم يجد سبيلا سوى مقابلة تلك الطغمة بالمثل وكانت المعركة الحاسمة المعروفة بمعركة الجمل حيث نسبت الى جمل كانت تركبه عائشة في وسط المعركة والمقاتلون من أنصارها محدقون بها، ولم تنته المعارك الضارية بين الطرفين الا بعد ان أصيب الجمل وسقطت عائشة مع هودجها في ارض المعركة وتفرق عنها من بقي حيا من أنصارها بعد مصرع طلحة والزبير، وبدلا من ان يقف منها ومن الذين غرروا بها الى هذا المصير السيء موقف المنتصر الذي تأخذه نشوة النصر على اعدائه، وقف موقف الحزين الكئيب لانه لم يكن يتمنى لهم هذا المصير السيء الذي لا يتمناه لاحد، وأرسل الى صاحبة الجمل اخاها محمد بن ابي بكر ليتولى رعايتها حتى لا تمتد اليها ايدي الذين وترتهم حربها باخوانهم وعشائرهم. واتجه بعد معركة الجمل الى حرب معاوية الذي استغل مصرع قريبه عثمان بن عفان وراح يطالب بدمه وبالثأر له في حين انه قد خذله في احرج ساعات المحنة وهو يستغيث به ويستنصره على الثائرين من داخل المدينة وخارجها.

لقد اتجه علي (ع) الى حربه بعد تبادل الرسل والرسائل بينهما يدعوه فيها الى الدخول فيما اجتمع عليه المسلمون، ومعاوية يتمحل في أجوبته ويتذرع بدم عثمان وهو يعلم ان عليا بريء منه براءة الذئب من دم يوسف، وبعد حوار عن طريق الرسل والرسائل دام اشهرا وبعد ان تكشفت نوايا ابن هند للملأ على واقعه اضطر الى قتاله في المكان المعروف بصفين، وجرت بين الجيشين معارك ربما تكون من اشرس المعارك وأشدها ضراوة كادت ان تلحق الهزيمة بمعاوية وجنده لولا ان ابن

العاص اشار عليه برفع المصاحف والدعوة الى الاحتكام اليها، فأدرك الامام (ع) اهداف هذه العملية وما يكمن وراءها من الغايات الدنيئة المبيتة.

وكان من الطبيعي ان يرفضها ويكشف لاهل العراق ما تنطوي عليه، ولكن اكثر القادة في جيشه المشتركين في وضعها رفضوا الانصياع لاوامره فاضطر الى قبول التحكيم بعد ان وجد ان المضي في القتال لم يعد لمصلحته، وكانت الهدنة التي انتهت بالتحكيم نتيجة لمؤامرة واسعة بالاشتراك مع الاشعث بن قيس وجماعة من قادة الجيش ورؤساء القبائل، نتج عنها ان تمرد جماعة من الجيش وراحوا يعيثون ويفسدون حتى اضطروه الى قتالهم والقضاء عليهم في مكان يعرف بالنهروان ولم يفلت منهم سوى نفر قليل كانوا النواة الاولى لمن يسمونهم بالخوارج الذين نشطوا فيما بعد وأقضوا مضاجع الامويين والحاكمين قرابة قرن من الزمن، وبعد القضاء على المنشقين عن جيشه في النهروان رجع الى الكوفة وعلامات التفكك والتخاذل بادية على اهل الكوفة، فاستغل معاوية ذلك ونشط أتباعه في التحرش بالحدود العراقية وبالمناطق الاخرى الموالية للحكومة الشرعية في بقية المقاطعات حتى بلغت الحجاز واليمن وقتلوا الابرياء من الاطفال والشيوخ واعتدوا على الممتلكات والاموال فضج الناس من جرائمهم واستغاثوا بأمير المؤمنين (ع) فاستنفر الناس وحرضهم على الدفاع عن حدودهم والخروج لحرب معاوية بن هند، وفيما هو يعد العدة لهذه الغاية، واذا به يخر صريعا في محراب مسجد الكوفة في فجر اليوم التاسع عشر من شهر رمضان بالذات سنة احدى وأربعين للهجرة بسيف عبد الرحمن بن ملجم المرادي تنفيذا لمؤامرة اتفق عليها معاوية وابن العاص والمغيرة بن شعبة مع جماعة من رؤساء العشائر وقادة الجيش في الكوفة أغراهم معاوية بالاموال كما اثبتنا ذلك في كتابنا سيرة الأئمة الاثني عشر.

وطويت بمصرعه صفحة نقية بيضاء من ابرز صحائف الاسلام العظمى يمتد جوهرها الى كافة الابعاد الانسانية وتمثل اضخم طاقة من طاقات الفكر الاسلامي والاخلاق والمبادىء الاسلامية تاركا للتاريخ وللعالم دروسا في المعرفة والاخلاق والعدالة وفي جميع الميادين الانسانية والاسلامية والفكرية لا تزال عباقرة العصور تستلهم منها الكثير من غوامض الحياة وأسرار الكون.

كما انطوى بقتله عهد الخليفة الاول من الخلفاء الاثني عشر الذين اختارهم الرسول الاعظم بأمر من الله لقيادة الامة من بعده، ولو قدر للأمة ان تنفذ فيهم امر الله ورسوله وتختارهم لقيادتها لوجد المسلمون في قيادتهم ضمانة لحياة اسلامية

سعيد. ما عرف تاريخ البشرية أسعد منها وظهر وجه الاسلام للعالم على واقعه المشرق الذي يستولي على العقول النيرة والقلوب الصافية ويشدها الى أنظمته ومبادئه وتعاليمه السمحاء، وبدلا من ذلك فقد انتقلت الخلافة وقيادة الامة الى الامويين اعداء الاسلام اولاد ابي سفيان وأحفاده وأحفاد الوزغ الحكم طريد رسول الله يتوارثونها خلفا عن سلف كما يتوارثون متروكات آبائهم وممتلكاتهم، وراحوا يعملون باسم الاسلام لاعادة الوثنية والجاهلية بكل أشكالها في شرق الارض وغربها وتركوا وراءهم وبخاصة في الاندلس وجهاتها صورا من حكمهم باسم الاسلام لعلها من اقبح ما عرفته البشرية في تاريخ الحاكمين وانقرضت دولتهم بعد ستة قرون او اكثر على تأسيسها في المغرب وتلك البلاد لا تعرف صورة للاسلام غير الصورة التي تراءت لها من خلال حكم الامويين وسيرتهم، ولو انهم اعطوا العالم ولو صورا محدودة عن الاسلام وتعاليمه وسماحته لكان الاسلام كغيره في الغرب ان لم يكن اكثر انتشارا وشيوعا.

ومهما كان الحال فلقد قدمت للقراء بهذا العرض الموجز صورة عن الخلافة الاسلامية في المرحلة الاولى من مراحلها كما وصفتها المراجع المعتمدة في تاريخ السلف وآثارهم بقصد المقارنة بين الواقع الذي سارت عليه الخلافة وبين الصورة التي وضعوها للخلافة الاسلامية في عصر الصراع العقائدي والمذهبي لإضفاء الشرعية على خلافة الثلاثة الذين تعاقبوا على الحكم بعد وفاة الرسول (ص).

شروط الخلافة في المذاهب الاسلامية

ومجمل ما قيل حولها كما جاء في المذاهب الاسلامية لابي زهرة وغيره، هو ان جمهور اهل السنة بعد ان اتفقوا على وجوبها على الامة واختلفوا فيما تعنيه كلمة الامة، أجميعها ام اهل الحل والعقد منها او غيرهما؟ بعد ان اختلفوا في ذلك اتفقوا على ان الخليفة لا بد وأن تتوفر فيه اربعة شروط لتكون امامته خلافة نبوية ولا تكون ملكا عضوضا، القرشية والبيعة العامة والشورى والعدالة، واستدلوا للشرط الاول بما رواه الشيخان ابو بكر وعمر في سقيفة بني ساعدة حينما ادعاها الانصار لانفسهم في مقابل الحزب القرشي الذي رشح لها أبا بكر فنسبا له انه قال: الخلافة في قريش وأضافا الى ذلك انه كان يقول: لا يزال هذا الامر في قريش ما بقي في الناس اثنان، والناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم، وجاء في رواية البخاري عن معاوية بن هند انه سمع النبي (ص) يقول: ان هذا الامر في قريش لا يعاديهم احد الا أكبه الله على وجهه ما اقاموا الدين، وروى الشيخان هذه الرواية بعد ان احرجهما الانصار وكثر اللغط والتهريج بعد ما نسبوا الى النبي ذلك استغل الموقف عمر بن الخطاب وصفق هو وأبو عبيدة على يد ابي بكر وساد الموقف جو من الفوضى وهتف جماعة من العامة باسم ابي بكر على سبيل المحاكاة التي تندفع الجماهير في مثلها غالبا، والباقون من ذوي الرأي والفكر لم يجدوا مجالا للتعبير عن آرائهم في تلك البيعة التي تمت على هذا النحو الذي لا يخفى ما وراءه من التخطيط لها منذ زمن لعله يعود الى ما قبل وفاة النبي (ص).

وأغرب ما في الامر ان الذين استطاعوا الهيمنة على الانصار بما رووه عن

النبي (ص) من انه نص على ان الخلافة للقرشيين مع انهم كانوا يدعون ان امرها لا يعود للنبي وقد رحل عن هذه الدنيا وترك للأمة ان تختار لنفسها من تراه لم يجدوا سبيلا للاستيلاء عليها الا بهذا النص الذي يجسد الروح القبلية التي حاربها الاسلام بكل الوسائل ورجعوا الى النص الذي انكروه على اهل بيته ولكن بهذا الشكل المشين.

ويبدو ان الحزب القرشي قد اضطره الانصار لان ينسب الى الرسول هذه المقالة كما اضطر الخوارج معاوية لأن ينسبها الى الرسول بتلك الصيغة التي تهدد وتتوعد غير القرشيين ان تعرضوا لها لان الخوارج كانوا يرونها من الحقوق المشروعة لكل مسلم عربيا كان او من الموالي، وقد تعرضنا لهذه الرواية في اوائل هذا الفصل وقلنا بأن الصيغة التي وردت على لسان الشيخين على تقدير صدورها من النبي (ص) جاءت لتأكيد ما تواتر عنه من ان خلفاءه اثنا عشر وانهم من ولد علي وفاطمة، كما يجوز ان تكون على تقدير صدورها منه اخبارا عما يقع في المستقبل من استيلاء الامويين والعباسيين عليها كما أخبر عن غيرها من الاحداث بما في ذلك ارتداد اصحابه من بعده وليست في معرض الجعل والتأكيد على انها من حقوقهم التي لا يجوز الاعتداء عليها والتفريط بها كما حاول الشيخان التمويه على الجماهير بذلك.

اما الصيغة التي رواها البخاري عن معاوية بن ابي سفيان الذي كان يتحدث بها في مقابل الخوارج الذين كانوا يرونها من الحقوق السائغة لكل من تتوافر فيه المؤهلات لادارة شؤون الامة حتى ولو لم يكن عربيا فلا سبيل الى افتراض صحتها وصدورها من النبي (ص) بعد اشتمالها على تلك الفقرة «ولا يعاديهم احد الا أكبه الله على وجهه في النار».

وقد ذكرنا ان الشيعة يدعونها لعلي والأئمة من بنيه (ع) ولا يدعون ذلك على اساس قرشيتهم او قرابتهم القريبة من الرسول اللذين يرجعان الى تحكيم النظام القبلي الذي حاربه بكل الوسائل ولا على اساس بنوتهم له والعمل بمبدأ الوراثة، بل على اساس الجعل الالهي الذي بلغه النبي الى الامة بأمر من ربه كما بلغها غيره من التشريعات والفرائض والسنن وغير ذلك مما يتعلق بشؤون الدين والدنيا. لذلك كان التشيع لعلي بمعنى الإلتزام بامامته وخلافته من بعده اصيلا اصالة غيره من التشريعات وجزءا من الاسلام، وكانت خلافة غيره وما تشعب عنها من الاحداث الطارئة التي فرضتها الاهواء والاطماع والخروج عما خطط له الرسول

وظل يؤكده منذ ارسله الله الى ان فارق الدنيا كما تؤكد ذلك اكثر مجاميع الحديث والتاريخ . وما ادري كيف جوز هؤلاء ان يذهب النبي الى مثواه الاخير بدون ان يستخلف من يقوم مقامه ليتابع مسيرته مع انه كان يرى الاخطار محدقة برسالته من الداخل والخارج والوصي يحذره منهم وينذره بارتدادهم من بعده كما نصت على ذلك الآية .

﴿وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا﴾ .

وهل يجوز عليه مع ذلك ان يتركها مشاعة لذوي الاطماع والاهواء وشياطين بني أمية بدون وصي امين يتمتع بالخصال والمزايا نفسها التي كان يتمتع بها النبي حتى لا تتعرض للتلاعب والتشويه من اعدائها الألداء الذين انضموا الى المسلمين خوفا وطمعا من غير ان يخالط الاسلام نفوسهم وقلوبهم، هذا بالاضافة الى ان أعتى الدول وأقواها يومذاك كانت ترابط على حدود الحجاز وتنتظر الوقت المناسب لغزو المسلمين في ديارهم وأوطانهم قبل ان يتحركوا برسالتهم الى ما وراء حدود بلادهم وقد حاولوا ذلك اكثر من مرة في حياة الرسول (ص) وكانت غزوته التي جمع فيها اكبر عدد من المسلمين لتبوك ردا على بعض تلك المحاولات كما تؤكد ذلك اكثر المصادر التي تحدثت عن سيرته، وفيها قد استخلف عليا على المدينة، وعزّ عليه ان تفوته غزوة على رأسها النبي لمقابلة دولة من اكبر الدول يوم ذاك وأغناها بالعدد والعتاد، وقد وضع علي (ع) في حسابه ان النبي (ص) سيكون مستهدفا اذا حصل صدام بين الطرفين وليس باستطاعة احد ان يقوم بدوره ويفديه بنفسه كما كان يصنع هو في معارك النبي مع العرب وقريش في بدر وأحد والاحزاب وحنين وغير ذلك من معارك الاسلام مع الشرك والوثنية، ومع انه (ع) كان يتململ بين يدي النبي (ص) ليكون معه في تلك الغزوة، فقد أصر النبي على بقائه في المدينة وقال له: أما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى ولا ينبغي ان أذهب الا وأنت خليفتي كما جاء في مسند احمد بن حنبل وسنن النسائي وفي الموافقات للحافظ الدمشقي ومجمع الزوائد للهيثمي وغير ذلك من المصادر التي اشتملت على هذا النص.

ومن كان يرى ان الاخطار المحدقة برسالته لا تسمح له ان يتغيب عن عاصمته لايام معدودات بدون ان يستخلف عليها من يقوم مقامه ويتابع مسيرته فكيف جوّز عليه هؤلاء ان يرحل عن دنياهم ويتركها لذوي الاطماع والاهواء ولا

يختار لها من يحميها من التحريف والتخريب والتشويه او يجعلها من الحقوق المشاعة لجميع القرشيين بما فيهم مروان بن الحكم ومعاوية بن ابي سفيان وأمثالهما من شياطين بني أمية.

الشرط الثاني من الشروط الاربعة البيعة العامة من أولي الحل والعقد وذوي الرأي، اي ان اهل الحل والعقد والجنود وجماهير المسلمين يعطون الخليفة عهدا على السمع والطاعة راضين غير مكرهين، وهو بدوره يعاهدهم على اقامة الحدود والفرائض وإحقاق الحق والقيام بمصالحهم في مقابل طاعتهم وإلزامهم بكل ما تفرضه مصلحة الدولة، وأضاف الى ذلك الشيخ ابو زهرة في الجزء الاول من كتابه تاريخ المذاهب الاسلامية: ان علماء المسلمين في ظل الفترة الاسلامية المستقيمة والنظم الاسلامية المقررة في الاسلام قد انتهوا الى هذا العقد وجعلوه واقعة عملية ولم يكن فرضا مفروضا، ومضى يقول في صفحة ٩٧: ان المسلمين تتابعوا على بيعة ابي بكر عندما قال له عمر بن الخطاب في السقيفة: امدد يدك أبايعك وكان الامر كذلك عندما عهد ابو بكر من بعده لعمر بن الخطاب وأخذ البيعة له وتتابع الناس على بيعته، وكذلك كان الحال عندما اختار الستة عثمان بن عفان، وأضاف ان بيعتهم كانت تقوم على الرأي الحر والتزام الطاعة اختيارا الى غير ذلك مما جاء في مؤلفات السنة عن الخلافة الاسلامية لاعطائها الصفة الشرعية في مقابل الشيعة الذين ذهبوا الى انها لا تكون الا بالنص عليها من الله، لان الخليفة كالنبي يجب ان تتوافر فيه كل صفاته ومميزاته، والذي يرسل النبي ويحمله تلك المسؤولية الكبرى التي تقرر مصير الانسانية بأسرها هو الذي يختار لها من يتابع المسيرة بها بعد تكاملها بواسطة الرسول (ص).

ولو افترضنا ان خلافة الثلاثة الذي تقمصوها بعد النبي على التوالي وقعت على النحو الذي اشترطوه للخلافة في العصور المتأخرة بعد مضي اكثر من مائة عام على وفاة النبي (ص)، لو افترضنا انها قامت بالاختيار الذي يمثل الرأي الحر والرضا من الجميع او من ذوي الرأي والفكر والحل والعقد، وبعد افتراض ان النبي (ص) قد رحل عن هذه الدنيا وترك للمسلمين حرية الرأي في اختيار من يتولاها ويتابع المسيرة بالرسالة في انحاء الدنيا، لو افترضنا ان النبي لم يعين خليفته من بعده وان الأمة قد التزمت طريق الاختيار والانتخاب القائمين على الرضا وحرية الرأي، وانها تمت بناء لرغبة الاكثرية المطلقة، لكانت خلافة الثلاثة شرعية ولا سبيل للاعتراض عليها، ولكن ذلك مجرد افتراض بعيد عن الواقع بُعد السماء

عن الارض والحق عن الباطل بشهادة التاريخ الذي احصى أحداث تلك الفترة من حياة المسلمين وتحدث عن خلافة ابي بكر والاسلوب المرتجل الذي تمت عليه ولم يكن نتيجة لتمحيص الآراء ولا لاستفتاء شعبي ضم اكثر الفئات الشعبية وذوي الرأي والبصيرة في الدين، لقد تمت والنبي لا يزال مسجى في بيته بين اهله، وفريق من الصحابة من مهاجرين وأنصار كانت وفاته قد اذهلتهم عن كل شيء وانصرفوا الى تجهيزه الى مقره الاخير لا يعرفون شيئا مما كان يجري حول خليفته من مقررات وتدابير، ولانها لم تقم على أسس ديمقراطية صحيحة ولم تكن نتيجة لتمحيص الآراء والافكار ولا لاستفتاء شعبي، ورافقتها مع ذلك موجة من الارهاب والتضليل كما تحدثنا عنها في الفصول الاولى من هذا الكتاب وفي غيره من كتبنا، ولانها كانت على هذا النحو قال عنها عمر بن الخطاب الذي كان من ابرز العاملين من اجلها، قال عنها بعد ان انتهت الخلافة اليه كما نص على ذلك ابن ابي الحديد في شرح النهج وغيره من المؤرخين: كانت بيعة ابي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها وأقل ما تعنيه كلمة الفلتة انها كانت مرتجلة وفي غير محلها.

وبعد الدراسة الواعية لظروفها وملابساتها قال عنها الاستاذ علي عبد الرزاق في كتابه الخلافة وأصول الحكم: واذا رأيت كيف تمت البيعة لابي بكر تبين لك انها كانت بيعة سياسية ملكية عليها كل طوابع الدولة الجديدة المحدثة وانها قامت كما تقوم الحكومات الجديدة على اساس القوة والسيف.

وقد تنبه جماعة من المؤلفين الى النتائج المترتبة على اعتبار هذا الشرط، وأدركوا ان اعتباره لاجل تصحيح خلافة الثلاثة يؤدي الى عدم هذه النتيجة لعدم توافر هذا الشرط في خلافتهم كما تؤكد ذلك الارقام التاريخية التي لا يمكن تجاهلها او التهرب منها، ومن هؤلاء الايجي في مواقفه حيث قال: ان اجماع اهل الحل والعقد على الخليفة لم يقم عليه دليل من العقل او السمع بل يكفي في صحة الخلافة وانعقادها الواحد والاثنان لعلمنا بأن الصحابة مع صلابتهم في الدين قد اكتفوا بذلك فقد عقدها ابو بكر لعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف لعثمان ابن عفان، ولم يشترطوا اجماع من في المدينة ولا غيرها[1].

كما جاء في المذاهب لابي زهرة وغيره، ويعنون بها ان خلافته لا تكون شرعية ونافذة الا اذا كان اختياره ناتجا عن تمحيص الآراء بنحو لا تستقل باختياره فئة دون

(١) أنظر صفحة ٣٥٣ من المواقف.

اخرى ولا فرد او أفراد دون غيرهم، واستدلوا على ذلك بالآية ﴿وشاورهم في الامر﴾ وبالاية الثانية ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، وبأن النبي كان يستشير اصحابه احيانا في بعض الامور التي لا وحي فيها، واذا كان الحكم الاسلامي يقوم على اساس الشورى فاختيار الحاكم لا بد وأن يكون بعد التشاور وتمحيص الآراء اذ لا يمكن ان يكون الحكم عن طريق الشورى والخليفة مفروضا بحكم الوراثة على حد تعبير الشيخ ابو زهرة في صفحة ٩٩ من كتابه تاريخ المذاهب الاسلامية، وأضاف الى ذلك ان عمر بن الخطاب قال: من بايع رجلا بغير مشورة المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه، ومضى يقول: ان القرآن قد امر بالشورى وألزمتها السنة ولكن لم يبين طريقة الشورى ولا اهلها وترك للناس تنظيمها وتعرّف طريقها. واستطرد يقول: ان المسلمين في اختيار خلفائهم استعملوا ثلاثة طرق من طرق الشورى.

الاول الاختيار الحر بدون عهد من احد، ويتمثل ذلك في اختيارهم لابي بكر بعد النبي (ص) مباشرة، الثاني ان يعهد الخليفة لشخص لم تكن بينه وبينه قرابة ويتمثل ذلك في اختيار ابي بكر لعمر بن الخطاب، فقد كان عهده اليه بمثابة اقتراح منه لم يكن الدافع اليه نسب او سبب بل الاخلاص لدينه وللمؤمنين، وقد بايعه المؤمنون طائعين مختارين.

الثالث من طرق الشورى ان يعهد الخليفة لواحد من ثلاثة او اكثر يعدون افضل القوم ويتمثل ذلك على حد تعبير الشيخ ابو زهرة فيما فعله ابن الخطاب حيث جعلها في ستة من المسلمين يختارون واحدا منهم وقد اختاروا لها عثمان بن عفان، ونقل عن ابن حزم انه قال: ان هذه الطرق الثلاثة هي التي ينحصر فيها طريق اختيار الخليفة ولا يجوز لاحد ان يبتدع طرقا غيرها لانه يكون خروجا على اجماع الصحابة.[1]

والذي يدعو الى الدهشة والاستغراب ان الذين وضعوا شروط الخلافة الاسلامية في عصور الصراع العقائدي واعتبروا الشورى من الشروط الاساسية وفسروها بالرجوع الى اهل الحل والعقد وذوي الرأي والفكر ليختاروا لانفسهم من يرونه صالحا لها بعد التداول وتمحيص الآراء بنحو لا تستقل بالامر فئة دون اخرى واستدلوا لها بمقالة عمر بن الخطاب التي تتضمن عدم شرعية البيعة اذا لم تكن برأي المسلمين وموافقتهم، وبعد ان فسروها بما ينسجم ومعناها ذلك المعنى الذي

(١) أنظر ص ١٠١ من المذاهب الإسلامية.

يعرض شرعية الخلافة الاسلامية في مراحلها الاولى للانهيار لان المعارضين لخلافتهم من ذوي الرأي والفكر ووجوه الصحابة كانوا اكثر من الراضين بها والمقتنعين بجدواها. هذا بالاضافة الى ما كان يرافق استيلاءهم عليها من الاساليب التي لا تخفي ما وراءها من تخطيط مدروس للوصول اليها سواء رضي المسلمون ام كرهوا، ويدل على ذلك ما رواه في شرح النهج خلال وصفه للكيفية التي تمت عليها خلافة ابي بكر فقد جاء في روايته انه بينما الناس خارج السقيفة واذا بأبي بكر ومعه ابن الخطاب وأبو عبيدة وجماعة من اصحاب السقيفة معتمرون بالازر لا يمرون بأحد الا خبطوه وقدموا يده ومسحوها على يد ابي بكر ليبايعه شاء ذلك ام ابى، كما لم يحدث التاريخ بأن ابا بكر قد استشار احدا في اعطائها لعمر بن الخطاب، والذين اطلعوا على ما كان قد صمم عليه قد انكروا عليه كما تحدثنا خلال هذا الفصل عن ذلك وعن الشورى التي تستر بها ابن الخطاب لإيصال الخلافة الى البيت الاموي وكأنها عهد مكتوب.

لقد اعتبروا الشورى من شروطها الرئيسية بما لها من المعنى الصحيح، ولكنهم بعد ان وجدوا ان الجمود على معناها الصحيح يعرض خلافة الثلاثة للانهيار وعدم الشرعية توسعوا في معناها محتجين لذلك بأن القرآن والسنة لم يجعلا لها معنى معينا ولا كيفية محددة بل تركا للناس تنظيمها وتعرّف طريقها، وبما ان خلافة ابي بكر تمت باختيار عمر بن الخطاب وأبي عبيدة وبعض المهوشين، وخلافة عمر تمت باختيار ابي بكر وحده، وخلافة عثمان باختيار عبد الرحمن بن عوف، لم يعد لهم من مجال لتفسير الشورى الا بما يتلاءم مع الشكل الذي تمت عليه خلافة الثلاثة حتى ولو لم يتفق ذلك مع اللغة والاعراف والمناسبات التي كان النبي (ص) يشاور فيها اصحابه ليطلع على آرائهم، ويستخلص منها الاصلح لمصلحة الاسلام والمسلمين.

لقد كان النبي (ص) يشاور ذوي الرأي والفكر ووجهاء الصحابة في بعض الاحيان حتى في الأمور الصغيرة لاسباب تفرضها المصلحة ويستقطب العدد الاكبر منهم، ومن هنا انطلقت فكرة الشورى كما يدعي واضعو هذه الشروط في عصر الصراع العقائدي ولكن الشورى عندهم تتم باختيار الخليفة لشخص لم يكن بينه وبينه قرابة لأن ابن الخطاب قد اختاره ابو بكر واختار هو عبد الرحمن بن عوف ليسلمها لابن عفان كما ذكرنا.

صحيح ان ابا بكر وعمر لم يسلماها لاحد من اولادهما وأحفادهما كما كان

يصنع الامويون والعباسيون ولكنهما لا يختلفان عنهم من ناحية الاستقلال والاستبداد بآرائهم وعدم الاعتداد بآراء المشيرين والناصحين وتجاهل ذوي الفكر والرأي من الحريصين على مصلحة المسلمين ومسيرة الاسلام.

لقد اشتهر عن عمر بن الخطاب انه كان يقول في مختلف المناسبات: لولا علي لهلك عمر ولا أبقاني الله لمعضلة ليس لها ابو الحسن ونحو ذلك مما كان يصدر منه بين الحين والآخر عندما كان لا يرى للمشاكل التي يستعصي حلها على الجميع غير علي (ع) ومع انه كان لا يرى لمشاكله غيره ويتمنى لنفسه الموت اذا اعترضته مشكلة وأبو الحسن غائب عنه، فلم يرد عنه في حديث صحيح او ضعيف انه فكر في مراجعته وتداول الرأي معه في مشكلة الخلافة التي يرتبط بها مصير الامة ومصير الرسالة، وقد فوجىء علي (ع) حينما بلغه انه اختار لها هذا الاسلوب وأدرك كل نتائجها وما سينجم عنها ولكنه آثر ان يمضي معهم الى النهاية ليكشف للملأ زيفها وأهدافها.

الشرط الرابع من الشروط التي يجب ان تتوافر فيمن يخلف الرسول في ادارة شؤون الامة العدالة. وجاء في تحديدها كما يدّعي الشيخ ابو زهرة وغيره من المؤلفين في هذه المذاهب والمعتقدات الاسلامية، انه لا بد وأن يكون عدلا في ذاته بحيث لا يؤثر قرابة في حق من حقوق الله ولا يقدم احدا على احد لهوى في نفسه من صحبة ونحوها وما الى ذلك من جهات القرب والبعد بنحو يكون مصداقا للآية الكريمة **﴿يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا او ان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا﴾**.

وأضافوا الى ذلك ان عدالة الامام تفرض عليه ان يولي الامور من يصلح لها من اهل العدالة والرفق لان النبي (ص) كان يقول: من ولي من امر أمتي شيئا فأمر احدا محاباة فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ولا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، وأضاف (ص): من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو ارضى منه لله فقد خان الله ورسوله والمؤمنين.

ومضى الشيخ ابو زهرة في عرضه لرأي الجمهور ان على الامام ان يعامل حتى اعداءه بالعدل كما تؤكد ذلك الآية **﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى﴾**، وتتسع عدالة الامام عندهم للعدالة الاجتماعية التي تنظم التكافل الاجتماعي، والعدالة الاقتصادية التي تمكن كل قادر من العمل

وتوفره له، فمن تجوز له الامامة هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم وينقاد له ويقودهم وهو كالاب الحاني على ولده يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته، وكالام الشفيقة الرفيقة بولدها حملته كرها ووضعته كرها وربته طفلا تسكن بسكونه وتفرح بعافيته وتغتم لشكايته، وكالقلب بين الجوانح تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده، الى غير ذلك مما ذكروه فى تحديد عدالة الامام الذي يخلف الرسول ويتولى ادارة شؤون الامة.

لقد اشترط اهل السنة في الخليفة العدالة في مقابل الشيعة الذين يشترطون عصمة الامام لان الدواعي التي اقتضتها للانبياء المرسلين تقتضي ثبوتها لمن يتولى شؤون الامة وتنفيذ الرسالة، وفسروها بما لا يختلف عن العصمة التي اثبتها الشيعة للأئمة والانبياء زاعمين بأنها بكل أبعادها وشروطها ومقوماتها كانت من ابرز صفات الخلفاء الثلاثة، في حين ان اكثر تلك الشروط لم تتوافر فيمن تعاقبوا على السلطة بعد النبي وبخاصة ثالثهم الذي قرب اعداء الاسلام الذين لعنهم النبي (ص) وطردهم من جواره وساهم الاوزاغ، ولم يكتف بارجاعهم مكرمين مخالفا وصية رسول الله فيهم بل جعل لهم من الامتيازات ما لم يجعله لاحد من قادة المهاجرين والانصار وأغدق عليهم العطاء من بيت المال، وولى أرحامه (صبية النار) أمور المسلمين في المقاطعات الاسلامية وكانوا يتجاهرون بالمنكرات ويعذبون الصلحاء بأوامره بالضرب والتشريد والقتل لا لشيء الا لانهم كانوا ينكرون عليه اسرافه في تبذير الاموال على اسرته وذويه وحاشيته من الحزب الاموي، وكان في سيرته وسياسته لا يختلف عن حكام الامويين المتأخرين في شيء.

في حين ان مجاميعهم تروي عن النبي (ص) انه لعن الولاة والحكام الذين يحابون احدا في توليته او يستعملونه على عصابة وفيهم من هو ارضى منه لله ولرسوله، ومع كل ذلك فقد وصفوه بالعدالة والقداسة كما وصفوا معاوية ومن خرج لحرب امام المسلمين في البصرة وغيرها بذلك، وبدلا من ان ينزلوا على حكم الكتاب فيمن بغى وأفسد في الارض وخالف الحق وأهله ذهبوا يمينا وشمالا يتلمسون الاعذار والمبررات لعثمان وحزبه وللناكثين والقاسطين لتغطية جرائمهم فقالوا: بأن ما صدر عنهم من نوع الاجتهاد الذي لا يضر في عدالتهم وقداستهم، وذهبوا في أصولهم الى ابعد من ذلك وقالوا ان الصحابة كلهم مجتهدون والمجتهد لا يخطىء في شيء لان الواقع مرهون باجتهاده، إما لانه لا شيء في الواقع وراء ما

يؤدي اليه اجتهاد المجتهدين، او لانقلاب الواقع الى ما يتوصلون اليه باجتهادهم كما هو مذهبهم في التصويب.

وعلى اساس ذلك فلا مجال لوصفهم بالعصيان مهما احدثوا وغيروا وبدلوا حتى ولو كانت أحداثهم من النوع الذي اقترفته حاشية الخليفة الثالث وقريبه معاوية بن ابي سفيان وغير هؤلاء ممن حاربوا إمام المسلمين في البصرة وقتلوا الالوف من الابرياء والصلحاء وممن عرضوا سنة رسول الله (ص) للتحريف والتزوير واستخدموها لمصالحهم وأهوائهم.

وقد ادرك جماعة ممن تأخروا عن العصر الذي وضعت فيه هذه الشروط للخليفة ان اشتراط العدالة في الخليفة لا يمكن تغطيته بشيء ولا الدفاع عنه بعد المخالفات الفاضحة والتجاوزات المنكرة التي حصلت من عثمان وحواشيه ومن معاوية ومعاونيه، ولازم اشتراطها بطلان خلافته وعدم شرعيتها فيتعين القول بعدم اشتراط العدالة في الخليفة، وجاء في الفصل بين اهل الاهواء والبدع لابن حزم ان الصحابة وفقهاء التابعين وأحمد والشافعي لم يشترطوا العدالة في الخليفة، وممن صرح بعدم اشتراطها وشرعية امامة الفاسق صاحب العقائد النسفية، حيث قال: لا ينعزل الامام بالفسق والخروج عن طاعة الله والجور على عباده لان الفاسق من اهل الولاية عند ابي حنيفة على حد تعبيره، وأضاف الى ذلك ان الفسق والجور لقد ظهرا من الخلفاء والامراء بعد الراشدين ومع ذلك فالسلف كانوا ينقادون لهم ويقيمون الجمع والاعياد باذنهم ولا يرون الفسق مبررا للخروج عليهم ومخالفتهم.

وممن التزم بهذا المضمون من علمائهم ومؤلفيهم الباجوري في حاشيته على شرح الفزي حيث قال وهو يعدد شروطها، ثالثها استيلاء شخص مسلم ذي شوكة على الامامة ولو لم يكن اهلا لها كصبي وامرأة وفاسق وجاهل فان امامته تنعقد لينظم شمل المسلمين وتنفذ أحكامه وتجب طاعته على الرعية ولو كان فاسقا، وممن أكد هذا المضمون كل من الدهلوي في كتابه حجة الله البالغة وزين بن نجيم في كتابه الاشباه والنظائر والشربيني في كتابه المغني المحتاج.

وكما قلنا من قبل ان هؤلاء بعد ان وجدوا ان الالتزام بتلك الشروط التي نسبها ابو زهرة لجماعة من المسلمين الاوائل يعرّض خلافة عثمان وغيره للخطر وعدم الشرعية، لم يجدوا بدا من الغائها واقتصر بعضهم على اشتراطها ابتداء عند استلامه للخلافة بمعنى ان الخلافة لا ترتبط ببقائها فلو فسق بعد انعقادها واستعمل جميع المنكرات وجار وتمادى في البغي والجور لا ينعزل ولا يصح الخروج عليه.

وكـان معاويـة كما ذكـرنا قـد سخر جماعـة ممن وضعـوا انفسهم في صفـوف الصحابة والرواة لاحاديث الرسول لوضع طائفة من الاحـاديث تحذر المسلمين من الثورة على الحكام مهما بالغوا في الجور والظلم وتزين لهم الرضوخ والانقياد للحكام مهما كان حالهم وتوهمهم بأن الثورة على الظلم والسعي لاقامة نظام سليم وعادل لا يتفق مع الدين.

ومن تلك الاحاديث التي وضعها له المرتزقة من المحدثين ما رواه جماعـة عن عبدالله بن عمر كما جاء في البخاري وغيره من مجاميع احاديث السنة ان رسول الله (ص) قال: انكم سترون بعدي اثرة وأمورا تنكرونها، قالوا: فماذا تأمرنا يـا رسول الله؟ قـال: أدوا اليهم حقهم وسلوا الله حقكم، ومن رأى من اميره شيئـا يكـرهـه فليصبر عليه فان من فارق الجماعة شبرا ومات مـات ميتة جـاهلية، ورووا عنـه انه قال: ستكون هنات وهنات فمن اراد ان يفرق امر هذه الامة وهي جمـع فاضربـوه بالسيف كائنا من كان.

وحدث العجاج عن ابي هـريرة انـه قال لـه: ممن انت؟ فقال لـه: من اهل العراق، قال: يوشك ان يـأتيك بقعـان اهل الشام فيأخـذوا صدقتـك فان اتـوك فتلقهم بها فاذا دخلوها فكن في اقاصيهـا وخل عنهم وعنهـا واياك ان تسبهم فـانك ان سببتهم ذهب اجـرك وأخذوا صـدقتك، وان صـبرت جاءتـك في ميزانـك يـوم القيامة الى غـير ذلك من الاحـاديث التي تدعـو الى الخضوع للظالمين والصبر عـلى جورهم وطغيانهم.

ومجمل القول ان الشروط التي وضعها المسلمون السنـة للخلافـة الاسلاميـة يوم تفرق المسلمون شيعا وأحزابا بعد عصر الخلافة الراشدة بما يقرب من مائـة عام لتصحيح خلافة الاوائل في مقابل القائلين بأن النبي (ص) قد نص على خليفته من بعده، هذه الشروط لا تتفق بحال من الاحوال والواقع الـذي مضت عليه خـلافة الثلاثة كما تؤكد ذلـك جميع المصـادر التي تعرضت لاحـداث تلك الفترة من تـاريخ الاسلام، كما تؤكد تلك المصادر ان تلك الشروط بكاملها قـد توافـرت على الـوجه الاكمل في خلافة علي (ع) ذلك لان القرشية التي تعني الاتصال بالنبي نسبا هو من ابـرز المتصفين بهـا وبالاضـافة الى ذلـك لقد كـان من اقرب النـاس الى النبي نسبا وروحا، ولذلك فقد قال حينما بلغه ان الطامعين بالخلافة قد اعتمدوا القرابة خلال مواجهتهم للانصار قال: لقد احتجوا بالشجرة وتركوا الثمـرة وينسب اليه انـه قال مخاطبا لابي بكر:

فـان كنت بـالقـربى ملكت أمـورهم فـغـيرك أولى بـالـنـبـي وأقـرب
وان كنت بـالشورى ملكت أمـورهم فـكيـف بهـذا والمشـيرون غـيب

وأمـا البيعة العـامة التي لا تتحقق الا بـاعطاء اهـل الحـل والعقـد وجمـاهـير المسلمين عهدا بالسمع والطاعة في المنشط والمكـره على حـد تعبير الشيـخ ابو زهـرة فالبيعة بهذا المعنى لم تحصل لاحد من الثلاثة كما ذكـرنا ولقـد كان اكـثر اهل الحـل والعقد كارها لخلافتهم كـما تؤكد ذلـك اكثر المصـادر السنية، واستسـلامهم للواقع المرير على ما بينهم من الاختلاف في داوفعه لا يعـبر عن الاختيار الحـر الذي تعنيـه كلمة المبايعـة ولم تتحقق بمفهومهـا الصحيح الـواسع لغـير علي (ع) كـما ذكرنـا وقد بقيت المدينة بعد مصرع عثمان خمسـة ايام بـدون خليفة والمسلمـون بكل فئـاتهم لا رأي لهم بغيره وهو يتهرب منهم حتى التجأ الى احد بساتـين المدينـة وهم يلاحقـونه أينما حلّ وذهب، وقـد وصف هو (ع) اجتماع الناس عـلى بيعته كـما جاء في شرح النهج بقوله: وبسطتم يـدي فكففتها ومـددتموهـا فقبضتها ثم تـداككتم علي تـداك الهيم عـلى حياضهـا حتى انقطعت النعـل وسقط الرداء ووطىء الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم اياي ان هـدج اليها الكبـير وتحامـل نحوهـا العليل وحسرت اليها الكعاب وابتهج بها الصغير.

والكلام نعنيه بالنسبة للشورى التي يجب ان يترك فيها الرأي الحر لأهل الحل والعقد وذوي الرأي والفكر من اقطاب المسلمـين وقادتهم المخلصـين، لا بالشكـل الهزيل الذي وقعت عليه وكانت في واقعها لا تختلف عن العهد المكتوب لعثـمان الا بالشكل والمظهر كما ذكرنا خلال حديثنا عنها من قبل. ولـو ان ابن الخطاب استفتى المهاجرين والانصار وقادة المسلمين استفتاء حرا نزيهـا بعيدا عن الهيمنـة والتشويش لم يكن لعثمان نصيب في غير اصوات الحزب الامـوي ولا احسب ان احدا غـيرهم كـان يقدّم عـلى علي احـدا، ومن المؤكد انـه كان سيفـوز بـالاكـثريـة المطلقـة من الاصوات ان لم يكن بجميعها. اما العدالة التي يرونها من اهم شروطها كما يـدعي ابو زهرة وغيره فالمسلمون بكل فئاتهم وطبقاتهم بين قائـل بعصمته وانـه كالنبي من هذه الناحية في جميع أدواره ومراحل حياته وبين من وضعه في القمة وأثبتوا له مرتبة من العدالة ليست لاحد سواه، وحتى ان ألد اعدائه وأشرس خصومه لم يستطيعـوا ان يجدوا ولو ثغرة في تاريخه الحافل بالاحداث الجسام في حين ان اكثر المسلمـين قد وقفـوا من غيره مـوقفا مليئـا بالحـذر والتشكيك بـل أدانهم جمـاعـة من المهـاجـرين والانصـار ولم يجدوا سبيـلا لتبريـر ما ارتكبـوه من أخطاء ومخـالفـات صريحـة لسنّـة

الرسول وسيرته وراح المتأخرون يتعللون لتغطيتها بالاجتهاد والمجتهد بزعمهم لا يؤاخذ على شيء من تصرفاته مهما بلغ حجمها ومن هذه الزاوية عدوا معاوية وطلحة والزبير وابن العاص وابن شعبة وغيرهم من عدول الصحابة مع العلم بأنهم قد ساهموا في اكثر الجرائم والمفاسد التي وقعت في تلك الفترة من التاريخ كما يؤكد ذلك تاريخهم المليء بالاخطاء والمخالفات والمنكرات.

وفي مقابل هذه الشروط التي لا تتم الخلافة بدونها عند الجمهور ذهب الامامية الى ان الامامة من أصول الاسلام لا من فروعه والمرجع الاول والاخير في أصول الدين هو الله ورسوله ولا رأي للأمة في ذلك ولا يتعين الامام الا بالنص عليه من النبي او من الامام الذي نص النبي عليه وله السلطة نفسها التي كانت للنبي (ص) وقد نص النبي على الأئمة بأسمائهم كما نص كل امام على خليفته ولا بد مع ذلك من كونه افضل من غيره في جميع الصفات الكريمة كالعلم والشجاعة والحلم والزهد والكرم وما الى ذلك من الصفات التي يتفاوت الناس بها ويتفاضلون على اساسها وانه لا بد وأن يكون معصوما من صغار الذنوب وكبارها بنحو يكون الامام في مرتبة من السمو النفسي والخلقي يجعله قدوة لتابعيه ورمزا حيا للشريعة التي يمثلها ومثلا اعلى لمن يمثلهم ويحكمهم، ولو جاز عليه ان يفعل المنكرات والقبائح وأن يظلم ويعتدي كان في حاجة لمن يرشده ويرده الى الطريق الصحيح والنهج السليم، هذا بالاضافة الى ان الدعوة التي جاء بها وجاهد من اجلها جهادا مريرا لما كانت بحاجة لمن يتابع المسيرة بها الى حيث اراده الله لها لا بد وأن يكون لمن يمثله بهذه المهمة من الصفات ما يؤهله لان يملأ الفراغ الذي أحدثه برحيله عنها، ومن لم يكن بهذا المستوى من السمو النفسي والخلقي اللذين يجعلان منه قدوة لتابعيه ورمزا حيا للشريعة لا يملأ فراغ النبي ولا يحقق الغاية من اختياره.

وليست العصمة التي يدعيها الشيعة للنبي والامام من الأمور التي تجعل منه انسانا آخر لا يحس بما يحسون من لذات وآلام ولا يلتقي مع غيره من بني الانسان في الخصائص والآمال والاحلام، بل هي عبارة عن ملكة نفسية قوية تمكنه من التغلب على ما يختلج في نفسه من أهواء وشهوات ونزوات وتدفعه لفعل وتحركه على فعل الطاعات والطيبات في حال كونه قادرا على ارتكاب ما يختلج في نفسه من لذة زائلة او نزوة طائشة، ولعل هذا هو الذي يعنيه الامام زين العابدين (ع) بقوله في جواب من سأله عن العصمة، انها الاعتصام بحبل الله، ثم تلا الآية الكريمة: «واعتصموا بحبل الله جميعا».

والعصمة بهذا المعنى ليس فيها من الشذوذ والغرابة ما يبرر تلك الحملات المسعورة على الشيعة والاتهامات القاسية التي يذهبون فيها الى ان الشيعة يرفعون أئمتهم الى مرتبة الآلهة بإلصاق العصمة بهم على حد تعبير بعضهم، ذلك لان عصمتهم لا تعني اكثر من انهم يملكون قوة تتغلب على ما يختلج في نفوسهم ويتحرك فيها، وهذه القوة تستمد فعاليتها من وعيهم الكامل بما للطاعة من خير وصلاح، وبما للمعاصي والمنكرات من عيوب ونقائص يجب ان يتسامى عنها كل من يشعر بكرامته كإنسان وبمسؤولياته تجاه أوامر الله ونواهيه ونعمه التي لا تحصى، وفي الوقت ذاته لا يخرج عن كونه انسانا كعامة الناس يحس بما يحسون من لذة وآلام وتعترضه أحلام وأماني وخطرات لا تتفق مع الخلق والدين ولكنه يستطيع التغلب عليها في جميع الحالات ويملك القدرة والسيطرة على جميع ما يعترضه وما يمر في خاطره في حالات الرضا والغضب والحب والكراهية وغير ذلك.

لقد أنكروا العصمة واستغربوها على علي والأئمة من بنيه الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا وجعلهم النبي (ص) كالكتاب وكسفينة نوح لا يضل من تمسك بهم ومن التجأ اليهم، هذا بالاضافة الى تاريخهم الغني بالادلة والشواهد على انهم فوق مستوى المخلوقات بكل صفاتهم ومواهبهم وحتى ان ألد اعدائهم وأنكد خصومهم كما ذكرنا لم يستطيعوا ان يلصقوا بهم عيبا مشينا او سيئة من السيئات، لقد أنكروها على علي والأئمة من ذرية النبي الذين كانوا يجسدون الاسلام بكل فصوله وخطوطه في تصرفاتهم وتحركاتهم السياسية والاجتماعية والتربوية والخلقية وغيرها وأثبتوها من حيث يريدون او لا يريدون لاعداء الاسلام ممن أسموهم بالصحابة كالمروانيين والعثمانيين والناكثين والامويين ومن كان يدور في فلكهم كالمغيرة وابن العاص وغيرهما من الكَذَبة على الله ورسوله والمتسترين بالاسلام الذين وصفهم النبي بالارتداد عن الاسلام من بعده في عدد من الاحاديث رواها عنه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما كما رواها غيرهما. لقد وصفوا جميع هؤلاء وغيرهم ممن رأى النبي وسمع حديثه حتى ولو رآه قبل التكليف وهو في سن الطفولة بالصحبة، وكل صحابي عادل ومعذور في أخطائه ومنكراته لانه مجتهد والمجتهد لا يتصور في حقه الخطأ كما ذكرنا خلال الصفحات السابقة.

ان هذا الافراط في الغلو بالصحابة بما فيهم معاوية ومن على شاكلته يفوق مستوى العصمة التي يؤمن بها الشيعة للانبياء والأئمة الاثني عشر بمسافة لا يكاد

يدرك حدودها وخطرها على الاسلام ومسيرته الا من كان رائده الحق والحقيقة من الباحثين المجردين، وما أقل هذا النوع من البشر في كل زمان.



موقف المسلمين من الحاكم الجائر

بعد هذا العرض لشروط الحاكم فاذا لم تتوافر فيه تلك الشروط كما لو استولى على السلطة بالقوة والغلبة وكان من غير القرشيين وجائرا في حكمه فقد ادعى الشيخ ابو زهرة في كتابه «المذاهب الاسلامية» ان الجمهور لا يعتبرون ولايته خلافة نبوية بل ملكا دنيويا، ومن هؤلاء يزيد بن معاوية وغيره من الامويين على حد تعبيره وأضافوا الى ذلك كما نسب اليهم ان هؤلاء الملوك ان كان في مقابلهم إمام عادل قد استوفى شروط الولاية والخلافة والتف حوله جماعة من الناس وبايعوه عليها مبايعة حرة يجب اطاعته ويكون المتغلب على الملك في مقابله باغيا يجب قتله او إرجاعه الى الحق وتجب مساعدة العادل عليه لقوله تعالى:

﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله﴾.

غريب امر هؤلاء انهم يذهبون الى انه اذا كان في مقابل من لم تتوافر فيهم شروط الولاية إمام عادل قد استوفى شروط الولاية والإمامة يجب على المسلمين مساعدته على المتسلط على الامة بدون رضاها واختيارها بمقتضى الآية التي تعده باغيا ظالما، ويعترفون في الوقت ذاته بأن عليا (ع) قد توافر لخلافته من الشروط ما لم يتوافر لمن سبقه فضلا عن معاوية الذي استولى عليها بالقوة والاحتيال ولم يتوافر له شيء من شروطها، وقد خرج على الخليفة الشرعي وقتل آلاف الابرياء والصلحاء وكان من الباغين بحكم الآية وقد جعلها لولده يزيد من بعده بالمال والسلاح وهو وحده يتحمل مسؤوليتها ومسؤولية من جاء بعده من طواغيت بني

أمية، مع انهم يعترفون بأن معاوية لم يتوافر فيه شيء من الشروط وكان في مقابله إمام عادل توافرت فيه جميع الشروط وتم اختياره للخلافة بإجماع الصحابة والوافدين على المدينة من مختلف الامصار، وقد بغى عليه معاوية وقاتله ومع ذلك لا يعتبرونه باغيا وظالما، بل عدّوه من الصحابة الذين عناهم النبي (ص) بقوله: اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم كما نسب اليه ابو هريرة راوية معاوية وقريبه عثمان بن عفان.

ومهما كان الحال فاذا جار الحاكم وخرج عن العدالة فقد ذهب جمهور السنّة الى وجوب الصبر على ظلمه وجوره وعدم جواز الخروج عليه، ونسبوا القول بذلك لكل من الفقهاء الثلاثة الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل. لان الصبر على طاعة الجائرين اولى من الخروج عليهم لما في الخروج عليهم من استبدال الخوف بالامن وإهراق الدماء وشن الغارات والفساد وذلك اعظم من الصبر على جورهم وفسقهم، وأضافوا الى ذلك ان الاصول تشهد والعقل والدين ان اقوى المكروهين أولى بالترك.

ومضى ابو زهرة يقول: إن الإمام أحمد صرّح بوجوب الصبر عند الجور ونهى عن الخروج على الجائرين والانتهاء الى الخارجين نهياً صريحاً وقال: لا يجوز الخروج على الامراء بالسيف وان جاروا، لان النبي (ص) قال كما جاء في صحيحي مسلم والبخاري: انكم سترون بعدي اثرة وأموراً تنكرونها قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم، وقال ومن ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدا عن طاعة.[1]

ونسب النسفي في شرح العقائد الى ابي حنيفة عدم جواز الخروج على الجائر ايضا لانه من اهل الولاية، ومضى يقول: لقد ظهر الفسق واشتهر الجور من الأئمة والامراء بعد الخلفاء الراشدين والسلف كانوا ينقادون اليهم ويقيمون الجُمع والاعياد معهم ولا يخرجون عليهم.

وجاء في نظام الحكم والادارة في الاسلام ان الباجوري في حاشيته على شرح الغزي وأحمد الدهلوي في كتابه حجة الله البالغة، وابن نجيم في الاشباه والنظائر، والتفتازاني في شرح جامع المقاصد وغيرهم صرحوا بعدم جواز الخروج على الجائر

(١) أنظر ص ١١١ من المذاهب الإسلامية.

ووجوب الصبر على ظلمه وجوره مهما بالغ في الظلم وأسرف في الجور والعدوان، وأضاف الى ذلك الدهلوي في كتابه حجة الله البالغة ان الخليفة لا يعزل الا بالكفر وبانكار ضروري من ضرورات الدين، فلو فسق وظلم وتعدّى حدود الشريعة لا يضر ذلك في خلافته[1] الى غير ذلك من النصوص التي تعبّر عن اتفاقهم تقريبا على ان الخليفة لا ينعزل اذا ظلم وجار وارتكب جميع المعاصي والمنكرات، ولا يجوز الخروج عليه بحال من الاحوال، وأكثرهم يصرح بأن الخارج على الخليفة الذي تتم خلافته ولو بالقهر والغلبة والاحتيال يجب قتاله حتى ولو كان الخارج عليه عادلا لإحقاق الحق، وقد ذكرنا بعض المرويات المنسوبة الى النبي (ص) حول هذا الموضوع في الفصل السابق.

اما الإمامية وأكثر المعتزلة فقد ذهبوا الى وجوب منازعة الجائر ومقاومته بكل الوسائل اذا لم يضع حدا لجوره وجور عماله وحواشيه بالطرق السلمية، ولا يجوز السكوت على ظلمه وجوره والتغاضي عنه مهما كانت النتائج ولو أدى ذلك الى قتاله وإراقة الدماء؛ والدماء على حرمتها وكرامتها ترخص في سبيل إحقاق الحق والعدل على حد تعبيرهم، ولأن القتال في سبيل الحق والعدالة من جملة أبواب الجهاد الذي اعتبره الاسلام ركناً من أركانه وأصلاً من أصوله، وقد بني عليه الاسلام وحثّ عليه القرآن والحديث بمختلف الاساليب التي اقترنت في الغالب بالترغيب عليه والترهيب على تركه.

وجاء في الآية من سورة التوبة﴿**ان الله اشترى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾.

الى غير ذلك من الآيات التي أكدت رجحانه ووجوبه في سبيل الحق والمستضعفين في الارض من الرجال والنساء والولدان.

وقال الشيخ النجفي في كتاب الجهاد من موسوعته الفقهية المعروفة بالجواهر: بعد ان تحدث عن موارده وعد منها جهاد الكافرين بالله وبرسالاته والباغين والجائرين من الحاكمين على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم، بعد ان تحدث

(١) أنظر ص ٩٨ و ٩٩ من نظام الحكم والإدارة للشيخ محمد مهدي شمس الدين.

عن مـوارده قال: وهـو ذروة سنام الاسـلام ورابع أركـان الايمان وبـاب من أبواب الجنة وأفضل الاشياء بعد الفرائض وسياحة امة محمد التي جعل الله عزها بسنـابك خيلها ومراكز رماحها، ومضى يقول: لقد جعل الله الجهاد من أفضل أعمال البرّ ولو قتل المجاهـد في سبيل الله فليس فـوق ذلك بـرّ أو معروف، والخـير كله في السيف وتحت ظـل السيف ولا يقيم النـاس الا السيف، وأضـاف الى ذلـك ان السيـوف مقـاليد الجنـة، وللجنة بـاب يقال لـه باب المجـاهدين يمضـون اليـه وهم متقلدون سيوفهم، ومن غزا غزوة في سبيل الله فما أصابه قطرة من السماء او صداع الا كـان ذلك له شهادة يوم القيامة، وان الملائكة تصلي على المتقلد بسيفـه في سبيل الله حتى يضعـه، واستطرد يقـول: ان الآيـة ان الله اشـترى من المؤمنـين أمـوالهم وانفسهم، والآية لا يستوي القاعدون، والآية كتب عليكم .... وهو كره لكم، وغيرهـا من الآيات التي فرضت الجهـاد اكثرهـا وارد في قتال الكفـار على الـدخول في الاسـلام وألحق الفقهاء به قتـال من داهم بلاد المسلمـين من الكفار، وقتـال الباغـين ابتداء لـيرجعوا الى الحق، ويتسـع لفظ الباغي للظالم ولكـل من خرج عن الحق وطـاعـة الامـام (ع)، ومضى الشيخ النجفي يقـول: ان رسـول الله (ص) قـال ان الله قـد كتب على المؤمنين ان يجاهدوا في الفتنة كما كتب عليهم جهاد المشركين معي، فقـال لـه السائـل: يا رسـول الله، وما الفتنـة التي كتب فيهـا الجهـاد؟ قـال: فتنـة قـوم يشهدون ان لا اله الا الله واني رسول الله وهم مخالفون لسنتي منحرفون عن ديني، فقال له: يا رسول الله فعلام نقاتلهم وهم يشهدون ان لا اله الا الله وانـك رسول الله؟ قال: تقاتلونهم على احداثهم في ديني وفراقهم لأمري واستحلالهم دم عترتي، وقال (ص): ما من مسلم يظلم مظلمة فيقاتـل فيقتل الا قتـل شهيدا، وقـال: اذا رأيت أمتي تهاب الظالم ان تقول له انك ظالم فقد تودع منها.

ونص الفقهاء كما جاء في جواهـر النجفي على انـه لو كـان لأهل البغي فئة يرجعون اليها جاز الإجهاز على جريحهم وقتل أسـيرهم وملاحقـة مدبـرهم، واذا لم يكن لهم فئة يرجعون اليها فقتالهم انما هو لتشتيت امرهم وتفريق جمعهم وكلمتهم، ولا يجوز ملاحقة مدبرهم ولا الإجهاز عـلى جريحهم وأسـيرهم بلا خـلاف في ذلك على حد تعبير الشيخ في جواهره.

وفيما جاء عن الأئمة (ع) فيمن خرج على حكام الجور، جاء عن الإمـام أبي عبدالله الحسين (ع) انـه قال: حـدثني ابي انه سيكـون منا رجـل اسمه زيـد يخرج ويقتل فلا يبقى في السماء ملك مقرّب ولا نبي مـرسل الا يتلقى روحـه ويبعث هو

وأصحابه يتخللون رقاب الناس فيقال هؤلاء دعاة الحق.

وجاء عن الامام علي بن الحسين (ع) انه قال: حدثني أبي عن أبيه علي (ع) انه قال: يخرج بظهر الكوفة رجل يقال له زيد بن علي في أبهة الملك لا يسبقه الاولون ولا يدركه الآخرون الا من عمل بمثل عمله يخرج يوم القيامة هو وأصحابه معهم الطوامير او شبه الطوامير حتى يتخطوا أعناق الخلائق فتتلقاهم الملائكة فيقولون هؤلاء خلف الخلف ودعاة الحق ثم يستقبله رسول الله (ص) فيقول يا بني قد عملتم بما أمرتم به فادخلوا الجنة بغير حساب.

وجاء في رواية عن الامام الصادق (ع) انه كان يقول: من خرج على هؤلاء وقتل فعلي نفقة عياله ويريد بهؤلاء حكام الجور من العباسيين والامويين وغيرهم ممن يستهترون بالاسلام ومقدساته وحقوق الانسان وكرامته.

كما جاء عنه انه قال: من أرضى سلطاناً جائراً بسخط الله خرج من دين الله، وقال الامام الباقر (ع) لا دين لمن دان بطاعة من عصى الله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي عهد الرشيد كان صفوان الجمال أحد أصحاب الإمام وثقاته يملك عدداً من الجمال ويكريها لهارون الرشيد حين يذهب لحج بيت الله فدخل يوماً على الإمام موسى بن جعفر (ع)، فقال له: يا صفوان كل شيء منك حسن وجميل ما خلا شيئاً واحداً، فقال: جعلت فداك، أي شيء هو؟ فقال: كراء جمالك من هارون، فقال: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ولا لصيد أو لهو ولكني أكريته إياها لطريق مكة ولا أتولاها بنفسي بل أبعث معها غلماني، فقال: يا صفوان أيقع كراؤك عليهم؟ قال: نعم جعلت فداك، قال: أولست تحب بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟ قال: نعم، قال: من أحب بقاءهم فهو منهم ومن كان منهم فهو في النار، فذهب صفوان وباع جماله عن آخرها، فبلغ ذلك الرشيد فاستدعاه اليه وقال له: بلغني انك بعت جمالك، فقال: نعم ان الغلمان لا يقومون بالاعمال وأنا شيخ كبير لا أطيق خدمتها، فقال له: هيهات، اني لأعلم من أشار عليك بذلك انه موسى بن جعفر، فرد عليه قائلاً: ما لنا ولموسى بن جعفر يا أمير المؤمنين، فقال له: دع عنك هذا والله لولا حسن صحبتك لقتلتك.

وكتب المنصور الى الامام الصادق (ع) لِمَ لا تغشانا كما يغشانا الناس؟ فأجابه الامام: ليس لنا من الدنيا ما نخافك عليه ولا عندك من الآخرة ما نرجوك به ولا

انت في نعمة فنهنئك ولا في نقمة لنعزيك، فكتب اليه المنصور: تأتينا لتنصحنا، فأجابه الامام (ع): من أراد الدنيا لا ينصحك ومن أراد الآخرة لا يصحبك، فقال المنصور: والله لقد ميّز عندي منازل من يريد الدنيا ممن يريد الآخرة.

وجاء في رجال الكشي عن عبد الرحمن بن سبابة انه قال: دفع الي الامام الصادق مبلغا من المال وأمرني بتوزيعه على عيالات من أصيب مع عمه زيد بن علي (ع) فقسمتها عليهم وأصاب عيال عبدالله بن الزبير الرسان أربعة دنانير وكان الامام الصادق يقول: ويل لمن سمع داعيته ولم يجبه.

وأحاديث الامامية في هذا الباب لا يبلغها الاحصاء ومن أجل ذلك نجد السر في مقاطعة علماء الامامية في مختلف العصور لرجال الحكم وابتعادهم عن السياسة وتجارها فلقد توارثوا ذلك خلفاً عن سلف عن الأئمة الاطهار (ع).

لقد قاطع علماء الامامية الحاكمين وأفتوا بتحريم التعامل معهم ولم يستثنوا الا ما فيه النفع للمؤمنين ودفع الحيف والظلم عن المظلومين، ولم يكتفوا بذلك بل أفتوا بأشياء تتصل مباشرة بأعمال الحاكم، فلقد اشترطوا العدالة في امام الجمعة والجماعة وكان الحاكم في الغالب هو الذي يؤم الناس وبخاصة في يوم الجمعة ولازم ذلك ان صلاة المؤتمين به باطلة لا يتقبلها الله مع علمهم بفسقه وجوره، هذا بالاضافة الى ان اشتراط العدالة في امام الصلاة يشعر بأن القيادة في كل شيء وبخاصة في ما يتعلق بقيادة الامة وادارة شؤونها لا تصلح الا لمن كان معروفا بالاستقامة والامانة والاخلاص. ومجمل القول: ان الخروج على الظالم الجائر من أفضل أنواع الجهاد الذي فرضه الله وان الجائر الظالم المتستر بالاسلام اسوأ حالا من الحاكم المشرك اذا كان معتدلا في سيرته وسياسته.

وجاء عن أمير المؤمنين حول هذا الموضوع انه كان يقول: الكافر العادل خير من المسلم الجائر، ولعل هذا الموقف السلبي من الحاكمين في جميع المراحل من تاريخ الشيعة كان أبرز الاسباب التي جعلتهم يتجهون بكل ما لديهم من قوة للتنكيل بالشيعة ومطاردتهم وزجهم في السجون والمعتقلات وبلغ الحال بهم ان صفة التشيع ولو كانت منحولة تجر على المتهم بها اسوأ أنواع التعذيب والقتل أحياناً ومصادرة كل ما يملكه المتهم بالتشيع. وبلغ بهم الحال في مطلع العهد الأموي كما ذكرنا من قبل أنّ الرجل كان يتمنى أن يوصف بالزندقة والكفر ولا يوصف بالتشيع، الى كثير من أنواع العسف والجور التي لا نظير لها في تاريخ الأمم

والحاكمين، وتوالت عليهم النكبات والأحداث ممن تعاقبوا على الحكم من أمويين وعباسيين ولم تكن مواقف الأمويين بأشد وأقسى من مواقف غيرهم.

وروى الرواة عن المنصور الدوانيقي انه كان يقول: قتلت من ذرية فاطمة الفا او يزيدون وتركت سيدهم وإمامهم جعفر بن محمد.

وجاء في كتاب التخاصم بين أمية وهاشم عن المقريزي وغيره، ان المنصور في سفرته الاخيرة قال لزوجة خليفته المهدي ريطة: اذا انا مت في سفرتي فلا تفتحي تلك الغرف، (وأشار الى بعض الغرف في قصره) الا بحضور زوجك المهدي، ثم سلمها مفاتيح الغرف فظنت انها تحتوي على كميات كبيرة من التحف والاموال والمجوهرات. وتشاء الصدف ان يتوفى المنصور في رحلته تلك، ولما اخبرت زوجها المهدي بوصية والده اليها تقدم الى الغرف ليفتحها وهو يظن انها مملوءة بالاموال، ولكن أمانيه وآماله العراض قد خابت عندما وجد مئات القتلى من العلويين في تلك الغرف وفي أذن كل قتيل منهم رقعة من النحاس بنسبه واسمه، فأمر المهدي جماعة من خاصته وحواشيه بأن يحفروا لهم حفيرة واحدة تتسع للجميع ودفنهم فيها، وتوالت الاحداث على العلويين وشيعتهم من العباسيين وأعوانهم في مختلف العواصم والمقاطعات بنحو لم يعرفوا له مثيلا من قبل وقال قائلهم:

يا ليت جور بني مروان دام لنا ... وليت عدل بني العباس في النار

وقال ابو فراس الحمداني مخاطبا حكام العباسيين وأعوانهم:

ما نال منهم بنو حرب وان عظمت ... تلك الجرائم الا دون نيلكم

وقد بلغ من جورهم على العلويين والشيعة ان المتوكل العباسي قد استعمل على المدينة ومكة عمر بن الفرج الراجحي وفيها عدد كبير من العلويين وأوصاه بالشدة عليهم والتنكيل بهم. ونفذ الراجحي أوامر الخليفة فمنع الطالبيين من سؤال احد كما منع الناس من البر بهم والاحسان اليهم، وبلغ به الحال انه كان اذا بلغه عن احد أحسن الى علوي او طالبي عاقبه ونكل به ليكون عبرة لغيره حتى بلغت الحاجة اقصى حدودها وأصبحوا لا يملكون ما يستر نساءهم، وأعد النسوة ثوبا للصلاة يصلين فيه الواحدة تلو الاخرى ثم يرفعنه ويجلسن على مغازلهن حواسر ليلهن ونهارهن.

ولما انقضى عهد المتوكل وقام من بعده ولده المنتصر كتب الى واليه على مصر ان لا يلزم ضيعة لعلوي وأن يمنعهم من ركوب الخيل واتخاذ العبيد، ومضى يقول

في وصيته اليه: ومن كان بينه وبين احد من الطالبيين خصومة فاقبل قوله بدون بيّنة ولا تسمع لطالبي بيّنة أو قولاً، وكتب الى عماله في مختلف الاقطار بذلك.[1]

وكان المتوكل قد منع الناس من زيارة الحسين وهدم قبره وحرث محله حتى لا يبقي له أسم ولا اثر وفي ذلك يقول البسامي احد شعراء الشيعة:

تـا الله ان كـانـت أمـيـة قـد اتـت	قـتـل ابن بـنت نـبـيـهـا مـظلومـا
فـلقـد اتـاه بـنـو ابـيـه بمـثـلـه	هـذا لـعـمـرك قـبره مـهـدومـا
أسفـوا عـلى ان لا يكـونـوا شـاركـوا	في قـتـلـه فـتـتـبـعـوه رمـيـما

لقد وجه الامويون والعباسيون كـل إمكانيـاتهم وجل طـاقاتهم من سياسية وأقتصادية واعلامية للقضاء على العلويين وشيعتهم وأوسعوهم ارهاقاً وعسفاً وجوراً وسخروا فريقا من العلماء والمحدثين لوضع الاحاديث التي تخدم عروشهم وتحريف النصوص التي تحملهم مسؤولية تماديهم في البغي والظلم والجور. ومسخ الاسلام من خلال الاحاديث التي وضعها أبو هريرة وعروة بن الزبير وسمرة بن جندب ومحمد بن شهاب الزهري وغيرهم ممن كانت تتدفق عليهم هبات الحاكمين بـدون حساب، حتى اصبح الاسـلام وتعاليم الاسلام آلة يستعملها المجرمون لخدمة الجاهلية السفاحة التي يمثلها الحاكمون من العباسيين والامويين، ورجالات الاسلام قد تطوعوا لخدمة الحاكمين في صور من الزهد والتعبد والعفة والحشمة ليس لها ادنى حظ من الصدق والشرف، وساحة الدفاع عن الحقيقة والعدل والحرية والاسلام الحق خالية الا من المتطوعين لخدمة الحكام باسم الدين والاسلام فالمنابر تخاتل وتخادع وتزوّر في دنيا الاسلام شرقها وغربها، والزهاد والرواة اشبه بعجل السامري يتحلون ويزوّرون، والمساجد أشبه بمسجد ضرار محطات للمؤامرات والجماعة المصلية كالاضاحي بيد الجهاز الحاكم يصنعها كالانعام تردد في المحاريب مسبة علي وآل علي (ع) وتحرض على قتل شيعته ومحبيه، ولم يكن بمقدور الأئمة الذين اختارهم الله للقيادة والذين رافقوا تلك الظروف التي بلغت اقصى حدود البغي والجور والطغيان القيام بأي محاولة عسكرية للاطاحة بتلك الانظمة الجائرة، لان كل محاولة من هذا النوع ستؤدي الى استشهادهم، والشهادة اذا لم تجعل من دماء الشهداء ثورة على الجلادين والجائرين كما صنعت ثورة الحسين (ع) لا تكون شهادة بالمعنى المطلوب من الشهادة، بل تصبح ميتة لا تعطي الثمار المطلوبة من دماء الشهداء ولا يستفيد منها سوى الاعداء الذين يسمونهم أمراء

(١) عن الخطط للمقريزي ج ٤ ص ١٥٣.

المؤمنين، وهم في واقعهم لا يختلفون عن أمراء الكافرين الا في المظاهر والطقوس والشعائر الشكلية، وكانوا مع ذلك محاطين بالفقهاء والوعاظ والمحدثين الذين يؤيدونهم في كل ما يفعلون ويدعون لهم بطول البقاء وينتحلون لهم المبررات والمسوغات لكل عمل من أعمالهم حتى ولو كان دنيئاً وجائراً، واذا اصطدموا مع عالم او واعظ احيانا وصارحهم بالحقيقة وحذرهم مما يتخبطون فيه من الجرائم وظلم العباد كما حصل للرشيد مع سفيان الثوري وغيره يتظاهرون بالخطأ والندم ولا يغضبون لانهم يجدون غيره من مئات الوعاظ والفقهاء يتزلفون اليهم بتزكية جميع تصرفاتهم وإسرافهم في البغي والمنكرات.

لقد كان الأئمة يدركون كل ذلك ويعلمون ان الثورة الثقافية أنفع للإسلام وأجدى له من جهادهم بالسيوف والرماح، لذلك فقد انصرفوا الى الجهاد الفكري والعقائدي ليقطعوا الطريق على مخططات العاملين على تشويه الاسلام في الداخل والخارج من الشعوبيين وغيرهم، وبلا شك فان مواقفهم هذه كانت أنفع وأجدى من استشهادهم في تلك الفترة من التاريخ، كما كان استشهاد الحسين في وقته هو العلاج الوحيد للحد من استرسال الامويين في جورهم واستهتارهم بالاسلام وقيمه ومقدساته.

ولولا مواقف الأئمة وشيعتهم وتجسيد التشيّع للاسلام كانت نهايته محتومة، لان جهود الحاكمين من امويين وعباسيين كلها كانت متضافرة للقضاء عليه، ومع كل ذلك فقد ظل شامخاً يناطح جميع الحكام دون ان يخمد له اوار وثورة على الظلم والظالمين، والثوار في كل زمان ومكان يعرفون بأن فساد المجتمع ينشأ في الغالب عن فساد حكامه ولا سبيل الى الإصلاح الا اذا تولى أمور الأمة أناس صالحون يحسون بآلام الأمة ومشاكلها ويعملون من أجلها.

ويقول الاستاذ علي الوردي في كتابه «وعاظ السلاطين»: ان التشيع في وضعه الراهن اشبه بالبركان الخامد، وكان ثائراً ثم خمد على مرور الايام وأصبح لا يختلف عن غيره من الجبال الراسية الا بفوهته والدخان المتصاعد منه، والبركان الخامد لا يخلو من الخطر رغم هدوئه الظاهر، انه يمتاز عن الجبل الأصم بكونه يحتوي في باطنه على نار متأججة لا يدري احد متى تنفجر مرة اخرى، ومضى يقول ان عقيدة الامامية التي آمن بها الشيعة جعلتهم لا يفترون عن انتقاد الحكام ومعارضتهم والشغب عليهم في كل مرحلة من مراحل تاريخهم الطويل وهم يرون كل حكومة ظالمة طاغية غاصبة مهما كان نوعها ولا تتصف بالشرعية الا اذا تولى امرها إمام عادل او معصوم من آل علي بن ابي طالب (ع) وعلى اساس ذلك كانوا

ثورة متصلة لا يهدأون ولا يفترون ويقيسون كل حاكم بما عندهم من مقاييس الامامة المعصومة ويرونه ناقصا وغاصبا، وأدت هذه العقيدة الى استفحال العداء بين الشيعة والفئات الحاكمة منذ فجر الاسلام وحتى عصرنا الحالي واتهموهم بالزندقة والالحاد والرفض لهذا السبب وأصبحت صفة الرفض تؤدي ضمنا معنى الرفض للدين وللدولة معا، ولكثرة ما مر عليهم من الاضطهاد والتعذيب كانوا يفضلون ان يقال لاحدهم زنديق او كافر ولا يقال له شيعي او رافضي، ولم يترك معاوية ومن تلاه من الحاكمين الامويين والعباسيين أسلوبا من أساليب الاضطهاد والقهر والتنكيل الا وجربوه للقضاء عليهم وباءت جميع محاولاتهم وجهودهم بالفشل، وصمد التشيع في وجه تلك الاعاصير الهوجاء وسيبقى يتحدى الجبابرة والطغاة والعابثين بحقوق الانسان وكرامته، في حين ان التاريخ تحدث عن فرق ظهرت في القرون الاولى وانتشرت يومذاك بين ذوي الفكر والرأي كما تحدث عن مذاهب فقهية وغيرها راجت في شرق البلاد وغربها برعاية فريق من أقطاب الفكر والعلم ومساعدة ذوي النفوذ من الحاكمين وأتباعهم، ولكنها اندثرت وذابت وكأنها لم تكن لمجرد رفض الحاكمين لها وتبنيهم لغيرها من الافكار والمذاهب، ولم يحدّث التاريخ عن افكار وآراء ومذاهب ثبتت في وجه الاعاصير السياسية والضغوط الجائرة او العادلة ولو لفترة طويلة من الزمن، كما جرى للتشيع الذي اصطدم بتلك الاعاصير الهوجاء العاتية منذ ولادته تقريباً، ولا يزال ينمو ويسير بخطى واسعة وكأن جميع القوى التي حاربته بكل أسلحتها كانت تعمل على نشره وتسهيل مسيرته، وبلا شك فان ذلك لم يكن عفوياً وعن طريق الصدفة بل لا بد لذلك من اسباب اقوى من تلك الضغوط والاعاصير الهوجاء التي رافقت ولادته تقريبا ولا تزال، وهذا ما سنحاول بيانه في الفصل التالي.

الاسباب التي ساعدت على بقاء التشيع

لقد ظهرت في القرون الاولى الاسلامية فرق وأحزاب كان من ابرز اسبابها اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب التي غزاها الاسلام واضطرها للاستسلام والخضوع لسلطانه، وغالى المعنيون بالحديث عن تلك الفرق غلواً مفرطاً في وصفها واحصاء مقالاتها حتى وكأنهم لا يلتقون الا في عدد محدود من أصوله ومبادئه يتراشقون بالتفكير والتفسيق وتبادل التهم وما يمزق شملهم ووحدتهم التي بناها الاسلام بتعاليمه السهلة السمحاء، وقد انهى اكثر المؤلفين في الفرق والمذاهب ما يسمونها بالفرق الشيعية الى سبعين فرقة او اكثر وحسب تقديري ان الباحث المنصف اذا درس المجاميع التي تعرضت لاحصاء تلك الفرق ومما ينسب اليها من الاقوال والمعتقدات سيجد ان اكثرها من نسج أخيلة اولئك الذين تظاهروا على التشيع وكانوا يكيدون له بجميع ما لديهم من الامكانيات لمسخه وتشويه أصوله ومعالمه، وراحوا يلحقون به الغلاة والحلوليين وما الى ذلك من الفرق الضالة الدخيلة على الاسلام بواسطة الشعوبيين والحاكمين الذين كانوا يسهلون انتشار تلك الافكار والآراء ليصرفوا الانظار عن جورهم واستهتارهم بالاسلام وتعاليمه وإلهاء المسلمين بتلك الصراعات الجانبية.

هذا في حين ان أئمة الشيعة يوم كان المندسون بين شيعتهم يتظاهرون بأفكارهم الشاذة ويلصقون بالأئمة ما لا يليق بغير الله سبحانه، كانوا يعلنون براءتهم منهم وكفرهم في مجالسهم بجميع المناسبات، وظل الغلو بالأئمة وما يستلزمه من الحلول والتناسخ والاتحاد من اسوأ أنواع الكفر والالحاد عند الشيعة

منذ ظهور تلك الفرقة او الفكرة وحتى يومنا هذا كما يبدو ذلك من أوضح الواضحات في مؤلفات الشيعة في الاصول والفروع منذ اقدم العصور.

اما بقية الفرق الاخرى التي تنسب الى التشيع، فلو افترضنا وجود بعضها في عصر من العصور فقد كانت لفترة او فترات محدودات لاسباب سياسية او لناحية استتار الامام الشرعي من حيث الضغوط التي كانت ترافق حياة الأئمة (ع) وتفرض عليهم التستر والتكتم حتى على المعروفين بالتشيع لهم، وقد انقرضت تلك الفرق خلال أعوام قليلة من ولادتها ولم يبق منها سوى البعض من فرق الزيدية والاسماعلية وهؤلاء ليسوا من الشيعة بالمعنى الذي تعنيه كلمة التشيع التي ترادف كلمة الامامية اي امامة الاثني عشر حسب الترتيب الذي ورد النص فيه من النبي والائمة (ع).

هذا بالاضافة الى ان للاسماعيلية والزيدية في ماضيهم وحاضرهم من الاصول والمعتقدات والطرق وبخاصة بعض فرق الاسماعيلية ما لا يتفق مع أصول الاسلام فضلا عن التشيع الذي يراها اقرب الى الالحاد منها الى الاسلام. ولو تغاضينا عن كل ذلك فالفرق المنسوبة الى الشيعة بما فيها الغلاة ليست بأسوأ حالا وأبعد عن الاسلام وأصوله ومبادئه من الفرق الاسلامية السنية كالمجبرة والمفوضة والمجسمة والمرجئة والصوفية وغير ذلك من الفرق التي ليست بأقل خطرا على الاسلام من الغلو المنسوب لأدعياء التشيع. هذا بالاضافة الى الفرق الكبرى التي ظهرت في اوساط اهل السنة كالخوارج والمعتزلة والاشاعرة وغير ذلك من الفرق التي كان لها اثرها في تاريخ المسلمين الاوائل وتوجيه معتقداتهم وآرائهم في أصول الاسلام وفروعه وادخال بعض الآراء والافكار الغريبة عن أصول الاسلام ومعتقدات المسلمين التي تجر من ورائها ابشع انواع الكفر والالحاد والزندقة كما سنشير الى ذلك.

وقد تفرق الخوارج والمعتزلة والاشاعرة والمرجئة والجهمية والبكرية والضرارية والكرامية الى اكثر من تسعين فرقة كما احصاها البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق وغيره من المؤلفين في الفرق والمذاهب.

ونص البغدادي في صفحة ٩٣ من كتابه الفرق بين الفرق ان المعتزلة قد افترقوا الى اثنتين وعشرين فرقة منهم فرقتا الحابطية والحمارية على حد تعبيره ألحقهما بالغلاة مع انهما من فرق المعتزلة والباقي وهو عشرون فرقة كل فرقة منها تكفر

الاخرى على حد تعبيره، ومضى يقول: ان جميع تلك الفرق قدرية محضة يجمعها كلها في بدعتها أمور نفيها عن الله سبحانه الصفات الازلية وقولها انه ليس لله علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر ولا صفة أزلية ولم يكن له في الازل اسم ولا صفة ولا يرى نفسه ولا يراه غيره.

وأضاف الى ذلك البغدادي انه مع اتفاقهم على ذلك فقد اختلفوا في انه هل يرى غيره ام لا فأجازه قوم منهم ونفاه آخرون، ومضى يعدد آراءهم وسيئاتهم حتى انتهى الى الهذيلية أتباع ابي الهذيل محمد بن الهذيل المعروف بالعلاف، وعد من فضائحه التي يوجب اكثرها كفره عشرة فضائح منها فناء مقدوراته تعالى بنحو يكون بعد فناء مقدوراته غير قادر على شيء، وان نعيم اهل الجنة وعذاب اهل النار يفنيان ويبقى اهل الجنة وأهل النار خامدين لا يقدرون على شيء ولا يقدر الله عز وجل في تلك الحال على إحياء ميت ولا على اماتة حي وتحريك ساكن او تسكين متحرك ولا على إحداث شيء او افنائه.

ومضى البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق يتحدث عن فضائح المعتزلة التي عدها من موجبات الكفر والزندقة حتى انتهى الى ابراهيم بن سيار المعروف بالنظام ووصفه بالكفر تارة وبالفسق اخرى ونسب اليه الادمان على شرب الخمور والفجور وعدّ له اكثر من عشرين رأيا خالف فيها الاسلام والمسلمين على حد تعبيره.

وجاء في العشرين من فضائحه كما يدّعي البغدادي وأكثر المؤلفين في الفرق والمذاهب، جاء فيها ان العقارب والحيات والخنافس والذباب والجعلان والكلاب والخنازير وجميع السباع والحيوانات والحشرات تحشر يوم القيامة وتدخل الجنة وان ابراهيم ابن رسول الله وغيره من اطفال المؤمنين كغيرهم من الحيات والحشرات والخنافس والكلاب والخنازير في الجنة، ولا فضل لاطفال المؤمنين من الانبياء وغيرهم على تلك المخلوقات على اختلاف انواعها، ونسب الى الله العجز وعدم القدرة على تمييز اولاد المؤمنين والانبياء على الحيوانات والحشرات لتساوي الجميع في عدم العمل، وأضاف كما يدعي البغدادي ان الله لا يتفضل على الانبياء الا بمثل ما تفضل به على البهائم.

كما نسب لبشر بن المعتمر احد زعمائهم في معرض حديثه عن فضائحه وآرائه المنافية للاسلام نسب اليه انه كان يقول: ان الله سبحانه قد يغفر للانسان ذنبه ثم يعود فيما غفر ويعذب الانسان عليه اذا عاد لمعصية ثانية، وانه سئل عن كافر تراجع عن كفره وآمن بالاسلام ثم شرب الخمر بعد توبته من كفره من غير

استحلال لشربه، وقبل توبته من شرب الخمر عاجله الموت، فقال: ان الله يعذبه على الكفر الذي تاب منه.

وكان يلتزم بأن عذاب الكافر لا يختلف عن عذاب المسلم اذا عصى الله ولا يزيد عليه، وان الله قد يعذب الطفل الصغير ظالماً له في تعذيبه اياه وانه لو فعل ذلك يلزم ان يكون الطفل بالغا عاقلا مستحقا للعذاب.

كما نسب الى المردارية أتباع عيسى بن صبيح المعروف بأبي موسى المردار الذي كان يلقب براهب المعتزلة انه كان يقول: ان الناس قادرون على ان يأتوا بمثل هذا القرآن وبما هو أفصح منه كما يدعي استاذه النظام.

ومن مقالات الحابطية أتباع احمد بن حابط القدري احد اصحاب النظام وكان هو وفضل الجدثي يذهبان الى ان للخلق ربين وخالقين احدهما قديم والآخر مخلوق وهو عيسى بن مريم، وزعما ان المسيح هو الذي يحاسب الخلق في الآخرة وهو الذي عناه الله بقوله: وجاء ربك والملك صفا صفا وهو الذي خلق آدم على صورته وهو الذي عناه الله بقوله: ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر وان عيسى هو العقل الذي خلقه الله وقال له اقبل فأقبل وأدبر فأدبر وانه هو الذي يحاسب الخلق في الآخرة.

وأما الحمارية من القدرية فيدعي البغدادي انهم من معتزلة عسكر مكرم وقد اختاروا من بدع أصناف القدرية ضلالات مخصوصة فأخذوا من ابن حابط قوله بتناسخ الارواح في الاجساد والقوالب، وأخذوا من عباد بن سليمان الضميري قوله: بأن الذين مسخهم الله قردة وخنازير كانوا بعد المسخ ناسا على حد تعبيره وكانوا معتقدين للكفر بعد المسخ وزعموا بأن الانسان قد يخلق انواعا من الحيوانات كما لو دفن اللحم في التراب او وضعه في الشمس فان ما يتولد من الحشرات هو من خلق الانسان، الى غير ذلك من المقالات والآراء التي نسبها البغدادي وغيره من المؤلفين في الفرق والمذاهب للمعتزلة[1] والتي تتنافى مع الاسلام وأصوله ومبادئه مما لا يعنينا احصاؤها في كتابنا هذا ولعلنا بعون الله وتوفيقه نضع جميع مقالات الفرق الاسلامية السنية من معتزلة وأشاعرة ومرجئة وقدرية وكرامية وشطحاتهم بين أيدي القراء في كتابنا «نظرات في الفرق الاسلامية ومقالاتهم» ونترك للقراء الكرام تقدير المسافة التي تفصلها عن الاسلام، ومما يلفت النظر في المقام وان كانت جميع مواقف السنة من الشيعة بكل فئاتهم من محدثين ومؤرخين

(١) أنظر ص ٩٣ وصفحة ١٥١ وص ٢٦٠ و٢٦١ و٢٦٢ من الفرق بين الفرق للبغدادي.

وحاكمين تتسم بالحقد والعداء والتحيز الذي لا مبرر له ولا تفسير له الا بالعداء السافر والمحاولات اليائسة للقضاء على الشيعة.

ومما يلفت النظر ان الباحثين والمؤلفين من القدامى والمحدثين قد تجاهلوا جميع بدع المرجئة والمعتزلة والقدرية والكرامية التي تتسم بالكفر الصريح والتحوير لتعاليم الاسلام وأصوله وتكذيب القرآن كما جاء في مقالات عيسى بن صبيح راهب المعتزلة ومقالات الحابطية والعلافية الى غيرها من مقالات بعض فرقهم، لقد تجاهلوا وتركوا وراءهم جميع تلك المقالات وراحوا ينسبون الى الشيعة فرقا وأحزاباً لا واقع لاكثرها والواقع منها لا صلة له بالتشيع من قريب او بعيد، وقد اعلن أئمة الشيعة كفرهم وخروجهم عن الاسلام في عشرات المناسبات كما تؤكد ذلك جميع المرويات عنهم ومواقف علماء الشيعة في مختلف العصور والمناسبات، في حين ان مقالات تلك الفرق المزعومة وحتى ما ينسب منها الى الغلاة ليست بأسوأ ان لم تكن أقل سوءا وخطرا من مقالات الحابطية والهذيلية والقدرية والمردارية والصوفية، كما يبدو ذلك من الفرق بين الفرق للبغدادي وغيره من المجاميع التي أعدت لاحصاء مقالاتهم وآرائهم وما ادخلوه على الاسلام من البدع والتفاسير التي تجر من ورائها اسوأ انواع الكفر والالحاد والزندقة.

والذي يعنينا الان من هذا العرض اليسير لبعض الفرق والمذاهب الاسلامية التي اشتد الصراع بينها وبلغ اقصى حدوده خلال القرنين الثاني والثالث هو التمهيد لبيان الاسباب التي ساهمت في بقاء التشيع بالرغم من مطاردته في حين ان اكثر تلك المذاهب قد نشأت في أحضان الحاكمين وحصلت على تأييدها ومساندتها وبخاصة منها مذاهب الاعتزال والارجاء والجبر وعدالة الصحابة، وظل الاعتزال برعاية الحاكمين اكثر من ثمانين عاما تعرض فيها أخصام المعتزلة لاسوأ أنواع البلاء وأصبحت تعرف تلك الفترة بعهد المحنة.

وظل الاعتزال يتسع وينتشر حتى ظهر ابو الحسن الاشعري وراح يفند أفكار المعتزلة وآراءهم بمساندة الحاكمين الذين مثلوا مع أنصار الاعتزال الدور نفسه الذي مثله الحاكمون قبلهم مع الفقهاء والمحدثين ومن كان يرى رأيهم.

وكما انتشرت وتعددت المذاهب العقائدية ظهرت المذاهب الفقهية في كل قطر ومدينة وأصبح لكل مذهب أنصار وأتباع وكثرت المذاهب حتى اصبحت تعد بالعشرات في مختلف الاقطار فكانت اكثر رواجا من المذاهب الاربعة التي احتفظ بها الحاكمون الذين فرضوا الغاء بقية المذاهب الفقهية والعقائدية وعلى رأسها

الاعـتزال، وظلت المذاهب الاربعـة الفقهية والمذهب الاشعري من بـين المذاهب العقائديـة هي المذاهب الـرسمية للدولـة في الاصول والفـروع، اما بقيـة المذاهب الفقهية والعقائدية فقد اندثـرت وذابت وكأنها لم تكن، في حـين لم يتعرض مـذهب من تلك المـذاهب التي لم تثبت امام ضغط الحـاكمين لمثل ما تعـرض لـه المـذهب الشيعي بأصوله وفروعه وظل قويا ينتشر ويتسع في جميع المراحل التي مرّ بها بالرغم من الصعـاب والعقبات والمحن التي اعـترضت طريقـه وطريق المتسببـين اليه، كـما اشرنـا الى بعضها خـلال الفصول الـسابقة لا يبـالي بكل مـا يعـترضـه من ارهـاق وعسف وجور متمردا على جميع تلك الادوار الصاخبة العاتية وعـلى كل مـا ألصقوه به من الخرافات وما رموه به من المفتريات والاضـاليل التي لا تـزال تجترهـا الالسن وتزخر بها المؤلفات ويستغلها المتزلفون الى الحاكمين من الكتاب والـدكاتـره في هذا القرن لقاء المبالغ التي تتدفق عليهم من مدعي الاسلام وأعداء التشيع.

وكان من المفروض بالقياس الى غيره من عشرات المذاهب الفقهية والعقائدية والفـرق التي كانت منتشرة هنـا وهناك وانـدثرت بتلك السرعـة الخاطفـة، كان من المفـروض بعد ان كـان مستهدفـاً بكل الاسلحـة وفي جميع مـراحله من الحـاكمـين والمؤلفين وغيرهم ان ينـهار في ظل تلك الاعـاصير الهـوجاء المـرهقة العصبيـة التي احتوشته من كل جانب وأن يصبح أثراً بعد عين ويتلاشى كما تلاشت بقية المذاهب والفرق وبخاصة تلك التي كانت تستمد قوتها وأصالتها من الحكام أنفسهم.

لقـد امتاز التشيـع لعلي والأئمـة من بنيه بهـذه الظاهـرة التي تكاد ان تكـون فـريدة في تـاريخ الاسلام وحتى في تاريـخ غيره من الشعـوب والامم، فلم يحدث التاريخ عن امـة من الامم ولا عن فرقـة من الفرق تعـرضت للمطاردة والارهـاق والتعذيب والقتل وكل أنواع التنكيل لمجرد الاتهـام بالتشيـع طيلة قرون من الـزمن ومع ذلك فقد ظل يسير الى الامام بطابعه الوهاج وفتوته المتدفقة بالحياة متمردا على الحـاكمين وأجهـزتهم وعلى كـل ما حيـك حولـه من مؤامرات وخـرافات وأبـاطيل ومفتريات.

ويمكن تعليل ذلك بأن التشيع لعلي (ع) أصيل أصالة الاسلام ولا يختلف في شيء عما جاء به في كتابه وسنه نبيه ورافق مع ذلك الدعـوة الاسلاميـة منذ بـدايتها ابتداء من يوم الدار الذي أعلن النبي (ص) فيه استخلاف علي من بعده ومـا تلاه من المواقف التي كان النبي (ص) يقدم فيها علياً على جميع أصحابـه ويعده للقيـادة

من بعده، وكان مع ذلك في جميع مواقف الاسلام وحروبه مع الشرك والوثنية القوة الضاربة والفاعلة في جميع الانتصارات التي حققها الاسلام مع خصومه الألداء والاشداء، وليس بامكان أحد من خصومه ومناوئيه ان يتجاهل هذه الناحية من نواحي عظمته، ولاكثر من مرة كان عمر بن الخطاب يردد على ملأ من الصحابة: لولاه لما قام للاسلام عمد.

وحتى ان معاوية نفسه الذي فرض سبّه على المنابر وعاقب على تركه كان يعترف له بالفضل الذي لم يستطع أحد مجاراته فيه من حيث لا يريد كما حدث له مع ضرار والاحنف بن قيس وبعض الوافدات عليه بعد عام الجماعة من النساء اللواتي اشتركن في معارك صفين وغيرهن.

وقد حدّث الرواة عن عبد العزيز بن عبد الملك بن مروان كما جاء في شرح النهج وغيره انه كان عندما يأتي الى ذكر علي (ع) وفي خطبة الجمعة ليشتمه كما كان يفعل الأمويون في خطبهم ومناسباتهم الدينية، كان يتعثر في حديثه ويتلعثم وكأنه من أعيا الناس، وكان ولده عمر بن عبد العزيز يراقب فيه هذه الظاهرة ويستغرب ذلك منه، فقال له يوما بعد ان فرغ من خطبته: انك من أفصح الناس وأبلغهم فما لي اراك اذا مررت بذكر هذا الرجل صرت ألكن عييا، فقال له: يا بني ان من ترى تحت منبرنا من اهل الشام وغيرهم لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه ابوك لم يتبعنا منهم احد[1].

وفي رواية ثانية انه كان يلعب مع الصبيان عندما يخرجون لقضاء فترة من الوقت خارج المكان الذي يتعلمون فيه، وكانوا يلتهون بسبّ علي وشتمه كما فرض معاوية ذلك ليشب على هذه السنّة السيئة الصغير ويشيب عليها الكبير، فمر عليه معلمه كما حدث هو عن ذلك وهمس في أذنيه قائلا: يا بني متى غضب الله على اهل بدر بعد ان رضي عنهم؟ فقال له الصبي: وهل كان علي من أهل بدر؟ فردّ عليه بقوله: وهل قامت بدر الا بسيف علي.

وظلت هذه الصور عالقة في ذهن الغلام الى حين استيلائه على الخلافة فراح يعيد النظر في كل ما أحدثه أسلافه من ظلم وجور وأنظمة كانت الامة بكل فئاتها تضج منها وكان في واقعه ثائراً بالمعنى السليم لهذه الكلمة على الأنظمة الفاسدة أكثر منه خليفة بالمعنى التقليدي لهذه الكلمة، وكان مما غيره من مخلفات آبائه وأجداده ان أصدر أوامره الى ولاته وخطباء المنابر في الأمصار بعدم التعرّض في خطبهم

(١) المجلد الأول صفحة ٣٥٦ من شرح النهج طبع مصر.

ومجتمعاتهم لعلي وآله بسوء واستبدال الكلمات التي كان الخطباء يستعملونها عند ذكر علي وبنيه (ع) بالدعاء للمسلمين بأن يجمع كلمتهم على الحق والهدى، الى كثير من الشواهد التي تؤكد بأنه قد كان لعلي (ع) في نفوس عامة المسلمين من شخصيته وعلمه الواسع ومواقفه الخالدة في سبيل الاسلام والمسلمين ما يفرض على المسلمين بكل فئاتهم وفي مختلف العصور تقديسه وإكباره في قرارة نفوسهم، وفي الوقت ذاته لقد كانت مصالحهم السياسية وحقدهم الموروث على الرسالة وعلى الإمام والأئمة من بنيه الذين كانوا يجسدونها بكل فصولها ومراحلها ويحمونها من حقد الحاكمين وعبث المخربين تفرض عليهم تلك المواقف العدائية الظالمة، فالأئمة الذين هم قادة الشيعة والمحور لنظرية التشيع، لهم من نواحيهم الشخصية أمثلة قدسية تسمو بطاقاتها ومستواها على جميع من سواهم ولم يستطع الحكام بكل ما بذلوه من جهود ان يغيروا من هذا الواقع الذي استحوذ على النفوس والقلوب، مع ما لنظرية التشيع من الطابع السلبي بالنسبة لاولئك الحاكمين الذين كانوا يمارسون جميع المنكرات والشهوات على حساب الاسلام، تلك النظرية التي كانت بقيادتهم الرشيدة تحامي وتدافع دفاع الزاهدين في الحياة عن بيضة الاسلام والوحدة الاسلامية العامة في ظل اولئك الحكام الذين كانوا يتخذونه اداة للحكم والتسلط وممارسة جميع المنكرات، وليس أدل على ذلك من قول الامام (ع) بعد مؤامرة السقيفة: ان سلامة الدين أحب الينا من كل شيء، ووقوفه الى جانب غيره من الحاكمين متجاهلا كل ما مضى منهم لسحق المرتدين ومطاردتهم، وقوله بعد ان عهد ابو بكر الى ابن الخطاب بالخلافة تاركا وراءه آراء المشيرين الناصحين: والله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة، الى غير ذلك من مواقفه التي كان مسيرا فيها لمصلحة الاسلام.

ومن أمثلة ذلك وما اكثر الامثلة على عظمة علي والأئمة من بنيه وتفانيهم في خدمة الاسلام، ان عليا كاد ان يقطع يد ابنته ام كلثوم لانها استعارت عقداً من بيت المال لثلاثة ايام عارية مضمونة برضا المسؤول عن تلك الاموال، وأحمى حديدة لاخيه عقيل ولذعه بها ليذكره بحرارة جهنم وأهوالها لا لسبب الا لانه طلب منه اكثر مما يستحق من العطاء. ومن أروع الأمثلة على مثاليته التي رافقته حتى النفس الأخير من حياته انه كان يعنى العناية الكاملة بتوحيد الصف وحفظ الدماء والعمل الجاد المخلص للمصلحة العامة ولو أدى ذلك الى القضاء على جميع اعتباراته الشخصية وحقوقه الخاصة وحقوق بنيه من بعده، ولقد قال وهو على فراش الموت بعد تلك الضربة الغادرة التي كانت من نتائج التآمر على حياته قال:

يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضا تقولون قتل امير المؤمنين الا لا يقتل بي الا قاتلي، فكان يتخوف من اسرته الاقربين اليه ان يتخذوا من قتله وسيلة للتشفي والتذرع به الى المطامع الدنيوية وطلب الجاه والسلطان ويستغلون بقتله تلك الاهداف التي لا تخدم مصلحة الاسلام كما فعل معاوية بن هند، حين استغل مصرع عثمان الذي وقع على أيدي المهاجرين والانصار، وسيلة لتحقيق ما كان يحلم به هو وأبوه وأسرته من قبل، في حين انه كان في طليعة الذين خذلوه في أحلك ساعات المحنة بالرغم من الاستغاثات التي وجهها اليه لينقذه من الحصار المضروب عليه.

وما اكثر الامثلة على مثاليات الإمام والأئمة الاثني عشر الذين ينتسب اليهم التشيع وأروعها، تلك الامثلة التي لا نظير لها في جميع ما سطره لنا التاريخ وتناقله الرواة من السير الاخرى والتي تدل على ان الثقة بهم كانت متكاملة الحدود زاخرة بالمحبة والتقديس والتفاني في سبيلهم على نحو لم يتوافر لغيرهم من القادة وذوي الرسالات كما تؤكد ذلك مواقف الكثيرين من أصحاب الإمام والأئمة من بنيه كحجر بن عدي الكندي وميثم التمار ورشيد الهجري وسعيد بن جبير وعمرو بن الحمق الخزاعي والغفاري وعمار بن ياسر وغيرهم من اعيان الصحابة والتابعين كأصحاب الحسين والتوابين وألوف الثائرين من المسلمين الذين ألهبت العقيدة نفوسهم وغلت فيها دماؤهم فآثروا الموت في سبيلها وأقبلوا عليه بنفوس مطمئنة وكأنهم يعانقون غادة حسناء، في حين انه كان من أيسر الاشياء عندهم ان يدفعوه عنهم ولو بكلمة لا تتجاوز ألسنتهم ويتسترون بكل ما يعتقدون ولكن نفوسهم أبت الا أن تجهر بكل ما تؤمن وتعتقد، فلقد حدث الرواة عن ابن السكيت اللغوي المشهور انه كان المعلم لولدي المتوكل العباسي فأراد ان يختبره المتوكل بعد ان اشتهر بتشيعه وولائه لاهل البيت، والمتوكل يومذاك من الغالين في عدائه للعلويين، فقال له في بعض مجالسه معه: أولداي هذان أحب اليك ام الحسن والحسين؟ فغلت العقيدة الصادقة في دمه ولم يعد يملك دفعها، فقال له: ان قنبرا خادم الحسن والحسين خير عندي منك ومن ولديك. وبذلك كانت نهايته بعد ان استخرج لسانه ومثل به، الى كثير من أمثاله الذين كان الحاكمون يسومونهم سوء العذاب على ولائهم لاهل البيت (ع)، في مختلف العصور، ومن غير اليسير استئصال الولاء عندما يكون بالغاً أقصى حدوده وقائماً على أسس متينة من العقيدة والعلم والمعرفة لا على الدوافع العاطفية النابعة من بغضاء الهاشميين للامويين من جهة، والعلويين

للعباسيين من جهة اخرى، ولا على الدوافع المصلحية النابعة من الصراع على السلطة بما هي سلطة وتسلّط كما جرت عليه سيرة الحاكمين كما يبدو ذلك للمتتبع في التاريخ الثابت للقيادات الشيعية وعلى رأسها أئمة اهل البيت (ع) الذي ينفي عنهم هذا الاتهام ويثبت ان حياتهم كانت سلسلة من التضحيات في سبيل الصالح العام وانهم انما غلبوا مع خصومهم الامويين والعباسيين وغيرهم من الحاكمين في معاركهم السياسية والعسكرية لانهم كانوا يتبعون في تعاملهم مع الامة ومع أنصارهم مبادىء ومقاييس تنبع من شعورهم بمسؤوليتهم الاسلامية وحرصهم على الإسلام ومبادئه وتعاليمه في الدرجة الاولى.

ويكفي للدلالة على ذلك بالاضافة الى ما ذكرناه من الامثلة، ان الإمام علي ابن الحسين زين العابدين الذي شهد بنفسه فاجعة كربلاء وعاشها بجميع مراحلها ويكل آلامها وأحزانها ساعة بعد ساعة على يد الامويين، كان يدعو لاهل الثغور جنود النظام الاموي الذي ارتكب جريمة كربلاء، والذي أسره مع عماته وأخواته وغيرهم من نساء الانصار وأطفالهم الى الكوفة ومنها الى الشام عاصمة الامويين بناء لطلب يزيد يومذاك، ولم يكن دعاء الامام زين العابدين كما ورد في المجموعة المعروفة بالصحيفة السجادية الا وعيا وتقديرا منه لدور تلك الجيوش التي ترابط على الثغور الاسلامية لحفظ المجتمع الاسلامي من اعداء الاسلام الذين كانوا يجمعون فلولهم وقواهم للتسلل الى المناطق الاسلامية المتاخمة لحدودهم للتنكيل بالمسلمين وإيقاع الاذى في صفوفهم.

لقد كان يدعو لتلك الجيوش لهذه الغاية وبهذا الدافع وان كانت في الوقت ذاته تحمي النظام الاموي وتعمل تحت لوائه، ولكن ذلك لم يكن ليثني قادة الشيعة وعلى رأسهم الأئمة الاطهار عن العمل الجاد المخلص لمصلحة الاسلام حتى ولو كانت فيه نهاية حياتهم اذا كانت التضحية بها تجدي الاسلام والمسلمين نفعا كما فعل الحسين بن علي (ع) الذي بذل نفسه وكل ما يملك من اسرته عندما رأى تيار الجاهلية بكل اشكالها يهدد رسالة الاسلام وتعاليمه.

هذا بالاضافة الى ان التشيع يمثل جوهر الاسلام وصفاءه تمثيلا صادقا وسليما في جميع أصوله وفروعه ولم يكن شيئا آخر وراء الاسلام، وقد سبقت دعوة النبي (ص) الى ولاء علي وقيادته من بعده اكثر التشريعات التي جاء بها الاسلام كما تؤكد ذلك اكثر المصادر الموثوقة، وما أحدثه المهاجرون بعد وفاة النبي (ص) كان من الاحداث الطارئة التي فرضتها السياسة والاحقاد الجاهلية، ولم يكن لدى علي وبقية

الأئمة (ع) ومن كان يدين بالولاء لهم شيء غير ما جاء به الكتاب وما ثبت عندهم من اقواله وأفعاله، واعتمدوا هذين الاصلين وحدهما أساساً للتشريع ولبيان الاصول التي لا يتم الاسلام بدونها، وأعلنوها حرباً لا هوادة فيها على جميع الآراء والافكار التي ظهرت بين بعض المندسين في صفوف الشيعة وفي اوساط السنة ومحدثيهم كالقدرية والمجبرة والمرجئة والمشبهة والمتصوفين وما الى ذلك من الآراء والافكار الغريبة التي غزت الاسلام وأصوله عن طريق الشعوبيين وأعداء الاسلام من تلك البلاد التي ارغمتها الجيوش الاسلامية الغازية على الاستسلام للنظام الاسلامي الذي كان قائما يومذاك وعادت التيارات الجاهلية والوثنية الى الظهور ولكن بلون آخر وتحت ستار الاسلام.



التيارات الجاهلية الجديدة

لقد مضى اعداء الاسلام ممن أرغموا على الانضواء تحت لوائه يعملون لتشويه الاسلام ومعتقداته بشكل مستتر حينا وأحيانا بشكل دعوات سافرة في العصر الاموي، وتبنت بعد ذلك بعض فرق المعتزلة والاشاعرة الكثير من تلك الآراء والافكار كما اشرنا الى بعضها خلال الفصول السابقة، ولم يكن بوسع احد من فقهاء ذلك العصر ومحدثيه غير الائمة وتلامذتهم ان يصمد في وجه تلك الهجمات التي كان قادتها يستخدمون الفلسفة تحت ستار العقل والمنطق حتى في تفسير القرآن والسنّة النبوية للتوفيق بينها وبين تلك الافكار مما أدى الى انتشار تلك الافكار والآراء الغريبة عن الاسلام وأصوله حتى بين الفقهاء والمحدثين فقد نسب الاشعري في مقالات الاسلاميين القول بالارجاء والقدر الى كل من ابي حنيفة وحماد بن ابي سلمة، كما نسب في مقالاته هو والشهرستاني في الملل والنحل القول بهما الى ابن ابي ليلى وغيره من الفقهاء، وفي مقابل القول بالقدر انتشرت فكرة الجبر بين عامة الفقهاء والمحدثين، هذا بالاضافة الى مقالات الدهريين والثنوية والديصانية التي انتشرت لتشكيك المسلمين في دينهم ومعتقداتهم، وكانت القيادات الشيعية التي كان الأئمة (ع) يتعاهدونها بأفكارهم وتوجيهاتهم في طليعة المتطوعين لخوض تلك المعارك مع الفئات الغازية لإحباط محاولاتها التي كان الحكام أنفسهم يساعدون على نجاحها ويمدون دعاتها بكل أسباب العون والمساعدة والرعاية.

لقد تجردوا لاحباطها بالمنطق والعقل وكل أنواع المعرفة برعاية الأئمة وإشرافهم، وأحيانا كان الأئمة (ع) أنفسهم يتولون مناظرة أولئك الغزاة وتفنيد

مزاعمهم ومفترقاتهم مما أدى الى اقتناع الكثير منهم بالاسلام واعتناقهم لأصوله ومبادئه.

لقد ساعد الحاكمون أنصار تلك التيارات الجديدة التي كان يتلهى بها المسلمون عن الواقع السيىء الذي اعتادوا على ممارسته، لقد ساعدوهم وناصروهم على نشر تلك التيارات واشاعتها بعد ان وجدوا ان أسلحة البطش والقهر والقمع وحتى سلاح المال عاجزة عن توفير الهدوء والاستقرار وصرف الانظار عن استهتارهم بالقيم والمقدسات وكرامة الانسان فراحوا يروجون تلك الاسلحة التي تهدف الى زعزعة الايمان وتجميد الافكار وشل القيم واطلاق الرغبات والنزعات واشاعة الابتذال وخنق الحريات وجميع القيم التي فرضها الاسلام وطمس قواه ومعالمه من النفوس والقلوب، ذلك لان مصادرة ارث الاسلام بالسيف والمال والتشريد وان كان يحقق لهم نوعاً من الهدوء المحدود على جميع الجبهات الثورية الاسلامية كما حصل لهم في ثورة المهاجرين والانصار الاولى بقيادة ابي ذر وعمار بن ياسر وغيرهما من أعيان الصحابة ووجوههم الأوفياء لرسالة محمد (ص) وفي ثورة الحسين بن علي وحجر بن عدي وأصحابه الكرام البررة الذين وقفوا بحزم وصلابة في وجه معاوية وجلاديه وضحوا بأنفسهم من اجل الحق والعدالة وثورة الحسين بن علي (ع) وما تلاها من الانتفاضات التي كانت تقمع بالسيوف والاموال وتحقق لهم الهدوء، ولكنه كان هدوءاً مريباً يضم في أعماقه شرارة لن تلبث ان تشتعل وتلتهب وتمتد لتولد الانفجار، وما ذاك الا لأن الاسلام بالرغم من جميع تلك الوسائل بقي موجوداً في معاقله داخل الافئدة والقلوب والعقول، وطلاب العدالة والحرية ما زالوا هنا وهناك على امتداد الوطن الاسلامي بقيادة أئمة الشيعة وغيرهم يستغلون المناسبات والظروف لانتفاضة جديدة، لان الاسلحة التقليدية التي كانت وسيلتهم الوحيدة لقمع الانتفاضات كالدراهم والدنانير وامارة الري والعراق ومصر وما الى ذلك من المقاطعات ودهاء ابن العاص وسيوف الجزارين كبسر بن ارطأة وزياد بن سمية وولده عبيد الله والحجاج بن يوسف وابن هبيرة وغيرهم لم تعد تحقق للحاكمين ما يريدون ما دامت العقول والقلوب هي المصادر للخطر والانتفاضات بين الحين والآخر، فعليهم اذن ان يستعملوا اسلحة جديدة يستعمرون بها القلوب والعقول، وهذه الحرب الجديدة ستتخذ من القرآن سلاحا ومن السنّة متراساً ومن الايمان اداة ومن الفكر قاعدة لها ومن الاسلام راية تخفق في سمائها، ومن العقول والقلوب ساحة، وأصبحت العقول والقلوب وما يشتعل فيها من ضوء الاسلام

وثورته الاصيلة مستهدفة بذاتها في هذه الحرب الجديدة.

وأعد الحاكمون لها جيشا من المفسرين والقراء والمتكلمين والفقهاء والقضاة ورجال الدين وما بقي من الصحابة وأولادهم قادة لهذا الجيش وأصبح الاسلام وسيلة للسلطة ومبررا لكل اعمالها وسيئاتها وتجاوزاتها.

لقد شاهد المسلمون مقالات المشبهة والمجسمة والدهرية والديصانية واليهودية والنصرانية تنتشر ويطول الصراع حولها بما يشغل عقول الناس وقلوبهم، وأفكاراً مستوردة من الصين والهند وفارس ومن غيرها مما حمله الشعوبيون وأدخلوها على الاسلام تحمل شعارات الزهد والتصوف ومحاربة الشهوات والغرائز بالالتجاء الى الكهوف والغابات ولبس المرقعات وما الى ذلك من الطرق والاعمال التي تؤدي بهم على حد زعمهم الى الفناء المطلق والسيطرة على جميع الكائنات، والاتصال بالمبدأ الاعلى مباشرة بدون حاجة الى الرسل والانبياء، لان البحار التي يخوضونها تقف الانبياء على سواحلها ولا تستطيع خوضها كما يدعي البسطامي وغيره من متصوفة القرنين الثاني والثالث.

وبالرغم مما تحمله افكار المشبهة والمجسمة والدهريين وغيرهم من الزنادقة والمشعوذين الذين أعدهم الحاكمون لترويج هذه الافكار وإشاعتها ليصرفوا الافكار والعقول عن تصرفاتهم وسيئاتهم، بالرغم مما تحمله وتنطوي عليه من أخطار على الاسلام وأصوله وما توفره للحاكمين من طمأنينة واستقرار وبالرغم مما تنطوي عليه هذه الافكار والآراء من سموم وتحريف وتشويه لاصول الاسلام، فالتصوف والجبر والارجاء أشد خطرا على الاسلام ومن اسوأ الاسلحة التي استعملتها الجاهلية الجديدة لتقوض روح الثورة والانتفاضات التي كانت تعصف في وجه الحاكمين وسياستهم الجائرة.

فالمتصوفة الذين لبسوا ثياب الزاهدين في الدنيا وملذاتها والتجأوا الى الكهوف والغابات مكتفين بالقليل القليل مما يتنافس عليه الناس ليصلوا الى مرتبة الفناء المطلق التي تمكنهم من الاتصال بالله مباشرة والاتحاد معه او حلوله بهم وبالمستحسنات من الصور وهم في جلابيب الدروشة يغرون الناس بالرذيلة والاستخفاف بتعاليم الاسلام وتأويلها كما يشاؤون ويشتهون وما الى ذلك من اساليبهم التي هيمنوا بها على الكثيرين بمساندة الحاكمين، هذا النوع من التصوف الذي ظهر في الاوساط الاسلامية بعد مرور اكثر من ثمانين عاما على وفاة الرسول (ص) بواسطة الشعوبيين وبرعاية الحاكمين الذين وجدوا فيه كل ما يصبون اليه

من تخدير للعقول والقلوب وتقويض لروح الثورة واستخفاف بالقيم والشرائع السماوية وكل ما عجزت عنه سيوفهم وجيوشهم.

ولا شيء أجدى للحاكمين وأعز عليهم من ان ينصرف الناس عن شؤونهم وتصرفاتهم وملذاتهم الى الكهوف والغابات والجوامع والمعابد والاغراق في التفكير والتأملات في عالم السماء والغيبيات وفي الطرق التي تشدهم الى هذه العوالم بالبعد عن دنيا الناس وما فيها من متع وملاذ تحول بينهم وبين السماء التي صعد اليها البسطامي والشبلي والسري السقطي والجنيد وغيرهم ممن أقيمت لهم الحفلات في السماء بحضور إله الصوفية ورهط من الملائكة المقربين.

وجاء في الفتوحات المكية لابن عربي انه صعد الى السماء ونصب له الملائكة كرسيا بين يدي الله وجلس حولها عظماء الملائكة والانبياء وفي هذا الاجتماع ختمت الولاية به، ولم يكتف الصوفية جنود الحاكمين باغراء الرجال وتضليلهم والهائهم بتلك الشعبذات عن تصرفات الحاكمين وجورهم بل جعلوا يتسللون الى البيوت لإغراء النساء وتضليلهن وإفساد المجتمع من كل نواحيه كما جاء ذلك في مؤلفات الصوفية ومن كتب عنهم، ومن اراد الاطلاع على آرائهم وشطحاتهم فليرجع الى كتابي (بين التشيع والتصوف).

ولقد جاء في شطحات الصوفية لعبد الرحمن بدوي، ان امرأة من نساء الملوك زهدت في الدنيا على طريقة ابي يزيد البسطامي في الزهد وكانت والهة به وبذكره، فقيل لها: اخبرينا عن كرامة الله لك، فقالت: فيما كنت ألهج باشارة ابي يزيد سألت ربي ان يريني في الغيب، وبينما انا أسأله اذا أسري بي ذات ليلة الى السماء حتى جاوزت الهواء السابع وصرت الى العرش فنوديت من جهته اقبلي اقبلي، فتناهيت الى العرش وطرت الى الحجب، ثم نوديت ادني مني فخرقت الحجب ورأيت الحق فقلت لمن كان معي: اين ابو يزيد البسطامي؟ فقيل لي: ها هو امامك، الى كثير من أمثال هذه الخرافات التي شاعت عن الصوفيين والصوفيات واستجابت لها عقول البسطاء والمستضعفين من الناس.

وبلا شك فان الحاكمين يرحبون بكل هذه المظاهر ويسهلون لها سبل البقاء والانتشار، لان المجتمعات التي تظهر فيها هذه الاوبئة لا بد وأن تنقسم على نفسها وتكون مسرحا للجدل والصراعات الفكرية وللفوضى التي تشغل العقول وتصرفها عن الحاكمين وجورهم واستغلالهم لخيرات الشعوب ومقدراتها وذلك أجدى لهم من السياط والسيوف كما ذكرنا.

الارجاء

ولم يكن الارجاء بأقل تأثيرا على تقويض روح الثورة ومسارها من التصوف، بـل كان لـه التأثـير والنتائج نفسها، وكـان اكثر دعـاته من العلماء ورجـال الدين والمتكلمين، والذي تعنيه كلمة الإرجاء ان كل شرير وآثم وحاكم متسلط ظالم مهما بلغت جريمته عليه ان يرجو مغفرة الله وينتظر رحمته ولا يتنافى ذلك مع ايمانه ويصح وصفه بالايمان، وان كان من الحـاكمين يبقى من أمـراء المؤمنين، وقـد اسند هؤلاء فكرتهم هذه الى القرآن مستدلين عليها بالآية الكـريمة **﴿وآخرون مرجون لأمر الله اما يعذبهم او يتوب عليهم﴾**.

ولما كان كل مجرم ينتظر من الله العفو والرحمة وهو الغفور الـرحيم كما وصف نفسـه، فعلى النـاس ان لا يشجبوا عمـل الظالم مهـما تمادى في ظلمـه وجوره، ولا مقاومته ووصفه بالظلم والجور لان الله سبحانه قـد ارجأ امـره ليوم الحسـاب حيث تقام الموازين وهو الغفور الرحيم، فمن حكم عليه في الدنيا بحكم يتنافى مع ايمـانه فقد تدخل في صلاحيـات الله سبحانـه، وعلى النـاس جميعهم مهما بـالغ الـظالم في ظلمه وتمادى في جـوره بنتيجة هـذه الافكار التي خـرجت من قصور الخلفـاء وراح الخطباء والعلماء يتداولونها في حلقـاتهم ومن على منـابر المسلمـين، ان يصبروا عـلى الجور والظلم ولا يتحيزوا للمظلوم ضد الفئة الحاكمة الظالمة ويتركوا ذلك له وحده لانه هو الذي يقرر يوم الحساب مصير المؤمنين والعاصين والظالمين.

والنتيجة الحتمية لذلك ان على الناس ان يتركوا لبني أمية وغيرهم من الحكام حرية التسلط والحكم والسيادة مهما أوغلوا في البغي والـطغيان والتجـبر، وهذا هـو الذي كان ينشده الحاكمون من الإرجاء الذي خرج من قصورهم ومهدوا لانتشـاره

عن طريق العلماء وخطباء الجوامع وغيرهم من الفئات التي كانت تتقاضى الثمن على نشر هذه الافكار وتقويض روح الثورة ومسارها.

وممن نسب لهم القول بالإرجاء من العلماء ابو حنيفة وحماد بن ابي سليمان وابن ابي ليلى كما ذكرنا خلال الصفحات السابقة وأضاف الى ما ذكرنا جنود الإرجاء لتبرير تصرفات الامويين ان الايمان هو التصديق بالقول دون العمل وان ما دون الشرك مغفور للانسان مهما كان نوع الجريمة وان العبد اذا مات على التوحيد لا يضره ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات.

وقال الدكتور محمد اسماعيل في كتابه الحركات السرية: ان الإرجاء في واقعه تبرير واضح لاغتصاب بني أمية حق الامامة بوسائل التدليس والاغتيال وأساليب الترغيب والترهيب، ولذلك كان الارجاء دين الملوك، لان المرجئة لم يعارضوا الحكومة الاموية كسائر الفرق الاخرى، بل اعترفوا بشرعيتها ونادوا بوجوب طاعتها، ومضى يقول: ان شيوخ هذا المذهب قد حظوا برعاية الامويين الاوائل وأقاموا الى جانبهم في عاصمتهم دمشق، بينما تعرض غيرهم من الفرق الاخرى لضروب من التعذيب والاضطهاد.

اما الخوارج فقد لاقوا عنتا شديدا من ولاة العراق مما اضطرهم الى نقل مسرح نشاطهم الى بلاد المشرق، وظل الشيعة في الكوفة وغيرها يتعرضون للمحنة والاضطهاد، وأخيرا أرغموا على مساعدة ولاتها في قتال الخوارج كيما يضعف بعضهما البعض الاخر فيتخلص الامويون من العدوين في وقت واحد.

ومضى الدكتور اسماعيل يقول: ان المرجئة قد نعموا بالاقامة في البصرة دون ان يجدوا عنتا من ولاتها فعملوا على نشر هذا المذهب بين اهلها وكان حسان بن بلال المزني اول من دعا الى مذهبه بينهم ولقيت دعوته قبولا حيث وجد البصريون في الارجاء ضالتهم المنشودة ولأنهم سئموا الحروب وآثروا السلامة والعافية من جراء ما لاقوه من أهوال في معارك الجمل وصفين والنخيلة، وأصبح الإرجاء بمثابة الصيغة المذهبية التي تمنطق رغبتهم في الموادعة والركون الى الراحة وتحول معظمهم الى الإرجاء وانصرفوا لامورهم الداخلية دون نظر الى نوعية السلطة الحاكمة التي لم تكن حسب مذهبهم حكومة خارجة ضالة[1].

(١) أنظر ص ٣٥ و ٣٦ من الحركات السرية للدكتور محمود اسماعيل. وحسان بن بلال المزني من التابعين الذين رووا عن عمار بن ياسر وعن قتادة، وكان يحيى بن كثير من أعلام المرجئة الأوائل كما جاء في خطط المقريزي وميزان الاعتدال للذهبي.

ويبدو من اكثر المصادر التي تحدثت عن الفرق والمذاهب ان اكثر قادة المرجئة كانوا من الانتهازيين الذين تسيرهم المصالح والاهواء فحيث كانت القوة تجد المرجئة الى جانبها يمهدون الطريق للحاكمين لمواصلة سياستهم وتبرير تصرفاتهم، وحينها بدأ الضعف يدب في جسم الدولة الاموية وأحسوا بأن سقوطها اصبح أمراً لا مفر منه، التحقوا بالتيارات المعادية للامويين التي تصدت للدفاع عن العدالة وتظاهروا بالتراجع عن بعض افكارهم فيما يعود الى الايمان، ولم يجدوا غضاضة في اقتباس بعض آراء القدرية أسلاف المعتزلة والتنكر لمعتقداتهم السابقة كما نسب ذلك اليهم بعض الكتاب، وبعد انهيار الدولة الاموية كانوا ينضمون الى كل ثائر فانخرطوا مع الخوارج والشيعة في بعض مواقفهم المعادية للحكام، ولما ظهرت الدولة العباسية على المسرح وأصبحت الوريث الوحيد للامويين في المشرق كان لا بد لها وأن تستخدم المرجئة وغيرهم من الفرق بالروح والدوافع نفسها التي استخدمتهم بها الدولة الاموية، وقد لبس كثير من المرجئة ثوب الوعاظ فراحوا يرددون في خطبهم ومجالس القصص قول الله سبحانه: وأطيعوا الله ورسوله وأولي الامر منكم. وأولو الامر هم السلاطين فتجب طاعتهم بحكم القرآن ولو كانوا ظالمين، كما وجد الحكام من العلماء، من استطاعوا ان يجدوا المسوغات الشرعية لكل اعمالهم مهما كان نوعها.

وكان الحكام في الغالب لا يقدمون على عمل الا بعد ان يجمعوا له الفقهاء ويعرضوه عليهم، والفقهاء ينظرون حينذاك الى السلطان فاذا وجدوه مصمماً على ذلك العمل اسرعوا الى ما في جعبتهم من الآيات والاحاديث المتناقضة فينفضونها امامه ليختار منها ما يلائمه والله غفور رحيم يوم يحاسب الناس على اعمالهم.

كما كان الوعاظ والفقهاء حين يذكرون الخليفة يدعون له ويثنون عليه ويرجون من الله ان يمد ظله على الارض ويبررون جميع اعماله وتصرفاته، اما حين يلتفتون الى عامة الناس ورعايا الخليفة يأخذون بالتهديد والتخويف والتحذير والتهويل كأن افراد الرعية هم الظالمون والخلفاء هم المظلومون، وكان الخليفة يشعر من جراء ايحاء المتزلفين له بأنه ظل الله في الارض له الامر والنهي وعلى رعاياه الطاعة فان عصوه كانوا من الزنادقة الملحدين يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون.

لقد كان الواعظ يُعطى من أموال المسلمين بمقدار ما يتحذلق به من جيد الالفاظ والثناء على الخليفة والدعاء له، لذلك فان عدد الوعاظ في الدولة العباسية اخذ يزداد وينمو نمواً فظيعاً، وكل وزير وأمير كان يخصص جزءا كبيراً من الاموال

التي ترد لبيت المال من مختلف المقاطعات للترفية عن هذه الطبقة من المرتزقة الذين كانوا يأوون اليه ويباركون جميع اعماله وتصرفاته.

لقد كان الخليفة العباسي يتظاهر في مجالس الوعاظ والفقهاء بالدين والتقوى فيبكي ويتظاهر بالخشوع والتعفف والزهد، وحين يجلس في ديوانه ينظر في امر الخراج والولاة وشراء الجواري لا يختلف عن جالوت ونيرون بشيء، واذا أكثر الواعظ من الحديث طلب اليه ان يختصر لينصرف الى مجالس المغنيات والجواري والتنكيل بمن يطالبون بالعدالة وانصاف المظلومين والمعذبين، وكانوا في مجالسهم مع الوعاظ لا يختلفون عما جاء في بعض الامثال عن ذئب وقع في قبضة رجل فجعل يعظه ويقول له: اياك ان تأخذ أغنام الناس ومواشيهم لئلا تعاقب على ذلك، فقال له الذئب: خفف يا اخي واختصر من حديثك فهناك قطيع من الغنم اخاف ان يفوتني.

ومما يلفت النظر عند المقارنة بين العهدين الاموي والعباسي ان الامويين كانت تسيطر عليهم النزعة البدوية او القبلية ولا يبالون بما يقول الفقهاء والوعاظ كما كان يصنع العباسيون وجل اهتمامهم كان منصرفاً الى تدعيم ملكهم ولو بحد السيف على الطريقة البدوية والقبلية، وفي الوقت ذاته لم يجدوا بداً من اللجوء الى مصانع الحديث التي أسسها لهم ابو هريرة وكعب الاحبار وسمرة بن جندب وعروة ابن الزبير والزهري عند الحاجة في مقابل أخصامهم العلويين والى المرجئة والجبرية وما الى ذلك مما يضفي عليهم صفة الايمان ويضع عنهم مسؤولية إسرافهم في المنكرات والتنكيل بالشيعة والمستضعفين من الناس.

ولما جاء العباسيون الى الحكم حاولوا ان يظهروا بمظهر اكثر التصاقاً بالدين لأن أخصامهم الامويين قد تجاهلوه وكانت تغلب عليهم النزعة الجاهلية، فتظاهروا لاسباب سياسية بالحرص على السنة وراحوا يتصلون بالفقهاء والوعاظ للتوفيق بين سياستهم التي لا تختلف عن سياسة الامويين وبين الذين يخدمون مصالحهم من تلك الفئات، ووجدوا من يدعون لهم ويسألون الله ان يمد في ظلهم ويقول للناس: اطيعوا الله ورسوله وأولي الامر منكم، ثم يتجه الى الخليفة ويقول له: كأنك من بعد الرسول رسول، وفي الوقت ذاته يطبقون جميع اعمالهم على الشريعة كما كان يفعل ابن ابي ليلى وأبو البحتري قاضي القضاة وأبو يوسف وأمثالهم من فقهاء القصور.

ومع ان فكرتي الإرجاء والجبر كانتا قائمتين فلم يعد الخليفة العباسي بحاجة

اليهـا ما دام يجـد رتلا من الفقهـاء والوعـاظ والمحـدثـين يبـاركـون جميـع اعـمالهم وتصرفاتهم وكأنها من وحي السماء، هذه الـظاهرة في مـواقف الوعـاظ والفقهاء من الحـاكمين كـانت أسوأ وأشـد ضرراً على الإسـلام والمسلمين من مـرجئة الأمـويين وأصحـاب مصانـع الحديث كـما تؤكد ذلـك الدراسـات الواعيـة لمواقف الحـاكمين وجنودهم من الوعاظ والفقهاء وانعكاساتها على الاسلام وأصولـه ومبادئـه ومسيرتـه وما خلفته تلك السياسة من صور كريهة للاسلام لا يزال أعداؤه يستغلونها للتشويه والافتراء وأكثرهم يدرسون الاسـلام من خلال حكـامه، وصـدق من قال: انهم لم يفعلوا شيئا غير أنهم أقاموا امبراطورية مكان أخـرى وقضوا عـلى الأكاسرة ليضعـوا محلهم أكاسرة آخرين.



سلاح الجبر

ومهما كان فالارجاء والتصوف يساهمان مساهمة فاعلة في تقويض روح الثوره ومسارها ومن افضل الاسلحة التي استغلتها الجاهلية الجديدة المتجسدة في سياسة الحاكمين ومخططاتهم المعادية للاسلام، فالمتصوفة يدعونهم الى الاعراض عن الدنيا وما فيها من متع وملذات بالالتجاء الى الكهوف والغابات ولبس المرقعات ورياضة النفس بترك حاجات الجسم ليصل الانسان الى اعلى مراتب الفضاء ويتصل بالله مباشرة ويتنعم بلقائه الى غير ذلك من طرقهم، هؤلاء يحققون للحكام كل ما يريدون، ومن أغلى أمانيهم أن يغرق الانسان في مثل هذا الظلام ويسرح في المتاهات لينصرف عنهم وعن جرائمهم ومنكراتهم.

اما الإرجاء فهو كما ذكرنا يدعو بصراحة الى عدم جواز تجريحهم ووصفهم بالفسق او الكفر، ويدعو الى وصفهم بالايمان ويمنيهم المغفرة وعفو الله الذي يسع المؤمنين العاملين والجبابرة الطغاة في وقت واحد والى جانب هذين الوباءين انتشر الوباء الثالث وباء الجبر ودعا اليه المرتزقة والمتزلفون للحاكمين وخرج دعاته من قصورهم، واتخذ دعاته من القرآن الكريم وسيلة لصد الناس عن جهاد الحاكمين والظالمين وشل الافكار والعقول المناهضة للحكم الاقوى، واعتمدت مدرسة الجبر على ان الحاكم المطلق للعالم هو الله وكل ما يحدث فيه هو من ارادته ومقتضيات مشيئته، والاعمال خيرها وشريرها من مظاهر مشيئة الله سبحانه، والانسان خيرا كان أم مجرماً، بريئا ام مذنبا، حاكما مسيطرا أم محكوماً مكبلاً لا شأن له ولا اختيار في شيء من ذلك وكله من الله الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء.

وقد انتشر هذا الوباء بين متديني ذلك العصر وتسلّح دعاته بظواهر بعض

الآيات القرآنية والاحاديث التي كانت تنتجها باستمرار معامل بعض الصحابة وتابعيهم كأبي هريرة وعروة بن الزبير وسمرة بن جندب والزهري وأمثالهم من الاوفياء لقصور الخلفاء وموائدهم الشهية الطيبة.

وقد وجد الحاكمون في هذا المذهب أعز امانيهم وأغلاها لانه يبرر جميع تصرفاتهم واعتداءاتهم على الشعوب وخيراتها لان الله اراد لهم الحكم وحيث يحكمون ويظلمون ويتسلطون على عباد الله يحققون ارادة الله سبحانه وجميع ما جرى على ايديهم من قتل الحسين وغيره من آلاف الصلحاء ومن المنكرات التي اقترفوها قد اراده الله لمصلحة لا يعلمها غيره واقتضتها حكمته التي لا ندرك كنهها ولا تقع في دائرة اختيارنا ومشيئتنا، وأي اعتراض على تسلّط الحاكمين وبطشهم وظلمهم هو اعتراض على المشيئة الالهية والحكمة الربانية.

وقال الدكتور محمود اسماعيل في كتابه الحركات السرية في الاسلام: ان المعتزلة كانوا يضمرون العداء لبني أمية ويعتبرونهم من الجبابرة المغتصبين للخلافة وقد فرضوها بحد السيف وراحوا يبررون ظلمهم واغتصابهم لها بارادة الله وقضائه، ومضى يقول: ان معاوية اول من قال بالجبر ودعا اليه ودافع عنه وسخر من اعوانه الرواة من يضع له الاحاديث التي تدعمه، وكان يرى ان ذلك عذره في كل ما جنته يداه من المنكرات والموبقات. وأضاف قائلا: وكما كان الجبر من اسلحتهم الهدامة للاسلام ومبادئه كان الإرجاء من جملة تلك الاسلحة ذات الحدين لانها في الوقت الذي تعطي فيه للعصاة صفة الايمان تفتح لهم باب الامل بالمغفرة على مصراعيه بالرغم من إسرافهم بالجرائم والمنكرات.

عدالة الصحابة

والى جانب التصوف والارجاء والجبر برز في مطلع العهد الاموي سلاح آخر لعل أثره على العقول والقلوب والافكار ومساندة الحكم الاموي لا يقل عن آثار الاسلحة الثلاثة، ذلك السلاح هو عدالة الصحابة. لقد برزت هذه الفكرة في مطلع العهد الاموي بعد ان اكلت الحروب الكثير منهم ومات اكثر الباقين بآجالهم.

وكان من الطبيعي بعد ذلك التاريخ الذي تركه الامويون الملوث بالشرك والجرائم والذي كان ماثلا لدى الجميع ان يحاولوا استبدال تلك الصورة الكريهة العالقة في الاذهان عنهم نتيجة لمواقفهم المعادية للاسلام حتى بعد ان دخلوا فيه مكرهين، كان من الطبيعي ان يحاولوا استبدال تلك الصورة بصورة تتناسب مع مراكزهم التي تسنموها باسم الاسلام فوضعوا فكرة العدالة لجميع من عاصر الرسول من المسلمين حتى ولو لم يره أو يسمع منه شيئا، وتوسع بعضهم فيها وأثبتها لكل من ولد في عصر الرسول، وما دام ابو هريرة وزملاؤه من الوضاعين في تصرفهم فمن السهل عليهم ان يحصلوا على عشرات الاحاديث التي تدعمها، وظلت فكرة العدالة لجميع الصحابة التي تتسع للامويين وعلى رأسهم ابو سفيان والحكم طريد رسول الله (ص) تسير وتتفاعل حتى اصبحت وكأنها من الضرورات عند السنة وحكامهم في عصر الصراع العقائدي لانها تخدم مصالحهم ومبادئهم التي اعتمدوها في سيرة الخلافة، ومواقفهم المعادية لاهل البيت (ع). ولم يكن الصحابة انفسهم يتصورون بأن الغلو بهم سينتهي الى هذه النتيجة، وتكون لهم تلك الحالة

التي استخدمها معاوية لخدمة الجاهلية التي تجسدت في البيت الاموي، ذلك البيت الذي ظل يحارب الاسلام منذ ان بزغ فجره وحتى اللحظات الاخيرة من حكمهم.

وتعني عدالة جميع الصحابة فيما تعنيه، ان كل من عاصر الرسول او ولد في عصره لا يجوز عليه الكذب والتزوير ولا يجوز تجريحه ولو قتل آلاف الابرياء وفعل جميع المنكرات، وعلى اساس ذلك فجميع الطبقة الاولى من الامويين كأبي سفيان وأولاده وعثمان بن عفان وحاشيته وجميع المروانيين بما فيهم طريد رسول الله الوزغ وأولاده الاوزاغ والمغيرة بن شعبة وسمرة بن جندب وزياد بن سمية وعمرو بن العاص وولده عبد الله الذي كان في حدود العاشرة من عمره حين وفاة النبي (ص) ومع ذلك فقد نسبوا اليه مجموعة من الاحاديث كتبها على النبي في صحيفة يسمونها الصادقة، فجميع هؤلاء الذين هم من أشد الناس عداوة للاسلام ولله ورسوله من العدول ومروياتهم من نوع الصحاح حتى ولو كانت في تجريح علي وأهل البيت وفي التقريظ والتقديس لعبد الرحمن بن ملجم.

وكل ما رووه ولفقوه في فضل الصحابة الاوائل وفضل الامويين ومعاوية والشام وما الى ذلك من آلاف الروايات التي كانت تنتجها مصانع ابي هريرة وكعب الأحبار وسمرة بن جندب وابن العاص وولده عبد الله وغيرهم من عشرات الرواة الذين استعملهم معاوية للدس والكذب وتشويه الاسلام، هذه المرويات يجب قبولها ولا يجوز ردها لان رواتها من العدول والعادل لا يتعمد الكذب، والذين اتبعوا معاوية وسايروه طيلة ثلاثين عاما من حكمه، هؤلاء كانوا على الحق والهدى وحتى الذين سموا الحسن بن علي وقتلوا الحسين وأصحابه وفعلوا ما فعلوا من الجرائم في الكوفة وغيرها كانوا محقين أيضاً ومن المهتدين، لان النبي (ص) قال على حد زعمهم: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم. ومن هو أولى بالاقتداء به من معاوية الذي كان الوحي كلما نزل على النبي يتفقده ويسلم عليه ويوصي به كما تدعيه مرويات تلك الطغمة من أنصاره الى كثير من أمثال هذه الاحاديث التي أفرزتها مصانع أبي هريرة وابن العاص وابن جندب وكعب الاحبار وغيرهم في معاوية وبني أمية ومن سبقهم من الخلفاء وغير ذلك، واختلطت بين الصحيح من حديث الرسول (ص).

ولولا المخلصون من أهل البيت وشيعتهم وقليل غيرهم من بقية المحدثين لفقدت السنّة أبرز سماتها وانطمست معالمها وكنوزها بسبب ما أدخلوه عليها من

التحريف والبدع والمفتريات.

لقد كان الصحابة يفسق بعضهم بعضا ويشتم بعضهم بعضا واتفق اكثرهم على ضلال عثمان وحاشيته وأنصاره واستحلال دمه وكان طلحة والزبير وعائشة من اكثر الناس تحريضا عليه، وبلغ الحال بعائشة ان كفرته واستعارت له اسما ليهودي كان من أقذر اهل المدينة يسمونه نعثلا وقالت اكثر من مرة: اقتلوا نعثلا فقد كفر، وأخذت بيدها قميصا كان لرسول الله (ص) وقالت: هذا قميص رسول الله لم يبل وقد ابلى عثمان سنته.

وبعد مصرع عثمان على يد المهاجرين والانصار تحريضا ومباشرة الوفود التي زحفت من مختلف الامصار اتجهت تلك الوفود الزاحفة من مختلف الجهات وجميع المهاجرين والانصار الى علي (ع) وانضمت تحت لوائه وأكثر المهاجرين وجدوا انهم قد حققوا بهذه البيعة وصية رسول الله (ص) وأعز أمانيه وان جاءت متأخرة عن وقتها وراحوا ينتظرون فجرا جديدا مشرقا بتعاليم الاسلام ومبادئه وعدالته.

واتجه الفريق الذي اشترك في قتل عثمان وكان من أشد الناس تحريضاً عليه من الصحابة الى حرب الخليفة الشرعي الذي تمت خلافته بالاجماع والاختيار وبكل الشروط التي وضعوها للخلافة في عصر الصراع العقائدي الذي وضعوا فيه الشروط للخلافة الاسلامية لتصحيح خلافة الذين تقمصوها بعد وفاة الرسول (ص).

وبعد ان بذل لهم إمام الهدى جميع الوسائل ليرجعوا عن غيهم وضلالهم فلم يسمعوا له قولا ولا رعوا له وللابرياء حرمة. وكانت المعركة لغير صالحهم كما هو المعلوم من حالها، واتجه بعدهم معاوية لحربه في اهل الشام ومعه فريق ممن يسمونهم بالصحابة حسب التحديدات التي وضعوها للصحبة لتستقطب اولئك المأجورين الذين كانوا يسيرون في ركابهم ويتمرغون على أعتابهم لقاء مبالغ من اموال الامة وضعها ابن هند في تصرفهم ليضعوا له الحديث في انتقاص علي وذويه (ع) وفضل الامويين والسائرين في ركابهم، وكانت مصانع ابي هريرة وكعب الاحبار وسمرة بن جندب وابن العاص وولده عبد الله تنتج لهم ما يشاؤون ويشتهون من مختلف الالوان، ولعل ابا هريرة وابن جندب وكعب الاحبار كانوا من ابرز المقربين لمعاوية في صنع الحديث من بين من اسموهم بالصحابة، وجاءت الطبقة الثانية وعلى رأسها عروة بن الزبير ومحمد بن شهاب الزهري وغيرهم من عشرات الرواة والمحدثين الذين اعتمدوا مصانع الطبقة الاولى ومضوا على الطريق

نفسه الذي يخدم مصالح اصحاب القصور وأهدافهم متسترين بقداسة الصحابة وعدالتهم وبما انتجته مصانع ابي هريرة وكعب الاحبار وسمرة بن جندب وابن العاص وولده عبد الله الذي اشتملت مروياته عن الرسول (ص) وهو يوم وفاته لم يتجاوز سن الطفولة، فيما اشتملت عليه صحيفة عرفت في أوساطهم بالصحيفة الصادقة كما ذكرنا وظلت تلك الأحاديث الى جانب المرويات الصحيحة عن الرسول (ص) من أشد الاسلحة فتكا بيد الحاكمين اعداء الاسلام الذين تستروا به ليطعنوه من الداخل بتلك الاسلحة التي وفرها لهم عدول الصحابة، وفي الوقت ذاته لإضفاء الشرعية على حكمهم الذي استمر قرابة قرن من الزمن.

وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه وهو من اكابر المحدثين وأعلامهم كما جاء في شرح النهج للمعتزلي ان اكثر الاحاديث في فضائل الصحابة افتعلت في ايام بني أمية تقربا اليهم بما يظنون انهم يرغمون أنوف بني هاشم.

ومع ان تلك الاحاديث قد صنعها الوضاعون لمصلحة المروانيين والعثمانيين وأبي سفيان وولده معاوية وأنصاره فقد صاغوها بأسلوب يجعل من كل صحابي قدوة صالحة لاهل الارض وتصب اللعنات على كل من سب احدا منهم او اتهمه بسوء كما جاء فيما رووه عن انس بن مالك ان النبي (ص) قال: من سب احدا من اصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين، ومن عابهم او انتقصهم فلا تؤاكلوه ولا تشاربوه ولا تصلوا عليه[1].

مع انها جاءت بهذا الاسلوب ولم تفرق بين صحابي وصحابي، فقد فرض معاوية سب علي (ع) وانتقاصه في جميع المقاطعات التي كانت تخضع لحكمه بما في ذلك الكوفة وجهاتها التي تجرعت كل انواع الاذى والظلم لكثرة الموالين فيها لعلي وولده (ع) الذين تعرضوا للقتل والحبس والتشريد، وكان يقول في جواب ناصحيه من أنصاره الذين كانوا يرون ان هذا الاسلوب من السياسة الخرقاء يخدم عليا وشيعته اكثر مما يسيء اليهم: والله لا أدع سبه وشتمه حتى يهرم عليه الكبير ويشب عليه الصغير.

وقد بذل للصحابي سمرة بن جندب خمسمائة الف درهم ليروي له عن النبي (ص) انالآية: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث

(١) أنظر ص ٢٣٨ من كتاب الكبائر للحافظ الذهبي.

والنسل والله لا يحب الفساد﴾ نزلت في علي بن ابي طالب، وان الآية: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ نزلت في عبد الرحمن بن ملجم لانه قتل علياً (ع) الى غير ذلك من الموضوعات التي كان يبذل لصانعيها بسخاء لا حدود له، مع انه فعل ذلك باجماع المؤرخين، فقد بقي من عدول الصحابة كما بقيت منتجات مصانع الوضاعين ممن كانوا يتمرغون على أعتاب قصر الحمراء وغيره من قصور الحاكمين التي كانت تعج بالفساد والظلم والمنكرات الى جانب غيرها من مرويات الثقات عن الرسول (ص) ومن صحاحها لانها من صنع الصحابة والصحابة كلهم من العدول ومن سبهم او انتقصهم فعليه لعنة الله، ولم يستثن منهم سوى علي (ع) ومن وقف الى جانبه من صحابة الرسول الاوفياء لرسالة الاسلام وتعاليمه فهؤلاء بنظر معاوية وزبانيته كانوا يسعون في الارض ليفسدوا فيها ويهلكوا الحرث والنسل والله لا يحب الفساد.

لقد بقيت الى جانب غيرها من مرويات عدول الصحابة مرجعا للجمهور في التشريع وغيره على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم الفقهية، وعلى اساس ذلك غلب عليهم اسم السنة في مقابل الشيعة الذين رجعوا الى الأئمة من اهل البيت (ع) والى ما رواه ثقات الصحابة عن النبي (ص) بالاضافة الى كتاب الله في جميع ما جاء الاسلام من أصول وفروع وتشريعات، ولم يعرف الجمهور بهذا الوصف قبل اواخر القرن الاول، وبهذا الاعتبار يمكن اعتبار التسنن من الاحداث الطارئة وبخاصة عندما نلاحظ ان مفهوم السنة خلال تلك الفترة من تاريخ المسلمين قد اصبح اوسع مما كان عليه في عهد الصحابة والطبقة الاولى من التابعين، فبعد ان كان عند اوائلهم لا يتجاوز اقوال الرسول وأفعاله وكانوا يلاحقون الراوي للتأكد من صدقه، وبعضهم يستحلفه ويتجنب اكثرهم مرويات ابي هريرة وكعب الاحبار وأمثالهما ممن كانوا لا يتورعون عن الكذب والافتراء على الرسول (ص) بالرغم من ان درة بن الخطاب كانت لهم بالمرصاد. فبعد ان كانت لا تتعدى اقوال الرسول وأفعاله عند متقدمي الصحابة اصبحت في العصور التي تعددت فيها المذاهب وتوزعت في العواصم وبقية الاقطار بنظر العلماء وأئمة المذاهب تتسع لرأي الصحابي وفتواه اذا لم يجدوا نصا على حكم الواقعة في كتاب الله وسنّة الرسول، وأصبحت آراء الصحابة في احكام الحوادث التي كانت تعرض عليهم المصدر الثالث من مصادر التشريع بعد كتاب الله وسنة رسوله، ولعل أئمة المذاهب الثلاثة وعلماءهم الاحناف والمالكية والحنابلة اكثر تعصبا لآراء الصحابة

واجتهاداتهم من الشوافع كما يبدو ذلك من تصريحاتهم ومجاميعهم الفقهية، ومع ان ابا حنيفة كان متحمسا للقياس ويراه من افضل المصادر بعد كتاب الله كان يقدم رأي الصحابة عليه اذا تعارضا في مورد من الموارد[1].

وجاء عنه انه كان يقول: ان لم اجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله اخذت بقول اصحابه فان اختلفت آراؤهم في حكم الواقعة آخذ بقول من شئت وأدع من شئت ولا اخرج من قولهم الى قول غيرهم من التابعين[2].

وجاء في أعلام الموقعين لابن القيم: ان أصول الاحكام عند الامام احمد خمسة، الاول النص الثاني فتوى الصحابة وان الاحناف والحنابلة قد ذهبوا الى تخصيص الكتاب بعمل الصحابي، لان الصحابي العالم لا يترك العمل بعموم الكتاب الا لدليل فيكون عمله على خلاف عموم الكتاب دليلا على التخصيص وقوله بمنزلة عمله[3]

وما ابعد ما بين هؤلاء وبين القائلين بعدم جواز الاعتماد على السنة في مقام التشريع الا اذا تأيدت بآية من القرآن لان فيه تبيان كل شيء، وقد نزل بلغة العرب وبأسلوب يفهمه كل عربي، ذلك لان السنة رواها عن الرسول جماعة يجوز عليهم الخطأ والكذب وكانوا لا يقبلون مرويات بعضهم احيانا ويعمل كل منهم بما يوحيه اليه اجتهاده وقد تراشقوا بأسوأ التهم واستحل بعضهم دماء البعض الاخر[4] ومهما كان الحال فأقوال الصحابة وآراؤهم واجتهاداتهم كانت من ابرز أصول التشريع عند الجمهور بعد كتاب الله وفي الوقت ذاته يخصصون بها عموماته ويقيدون بها مطلقاته وكأنها من وحي السماء الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن المعلوم ان هذا الغلو في تقديس الصحابة الذي لا يختلف عن العصمة في شيء ويتسع للمنافقين منهم وحتى للمشركين ممن أرغموا على التظاهر بالاسلام كأبي سفيان وولده معاوية والمروانيين وغيرهم ممن كانوا يكيدون للاسلام ويعملون لإحياء مظاهر الجاهلية التي حاربوا من أجلها نحواً من عشرين عاماً أو تزيد، هذا

(١) المستصفي للغزالي ص ١٣٥ و ١٣٦.

(٢) أنظر أبا حنيفة لأبي زهرة ص ٣٠٤. والإمام زيد له أيضاً ص ٤١٨.

(٣) المدخل الى علم أصول الفقه لمعروف الدواليبي ص ٢١٧.

(٤) أنظر تاريخ الفقه الإسلامي للدكتور محمد يوسف موسى عن كتاب الأم للشافعي ص ٢٢٨.

الغلو في تقديس الصحابة قد تحول في الفترة التي ظهرت فيها المذاهب الفقهية لمحاربة التشيع لأئمة اهل البيت في فقههم وأصولهم وجميع تعاليمهم التي تجسد الاسلام في جميع مراحله وفصوله كما ورثوه عن جدهم امير المؤمنين عن النبي (ص) الذي سماه باب مدينة العلم في حديث رواه محدثو السنة في صحاحهم جاء فيه انه قال: انا مدينة العلم وعلي بابها الا ومن اراد المدينة فليأت الباب، وكان الائمة (ع) يقولون: انا اذا حدثنا لا نحدث الا بما يوافق كتاب الله، وكل حديث ينسب الينا لا يوافق كتاب الله فاطرحوه، كما كان الامام الصادق يقول: حديثي حديث ابي، وحديث ابي حديث جدي، وحديث جدي حديث رسول الله، وحديث رسول الله قول الله.

لم يكتف الحاكمون وأئمة المذاهب الذين كانوا يسيرون في ركابهم ويباركون جميع تصرفاتهم بثوب العدالة الذي ألبسوه حتى لمنافقي الصحابة ومشركيهم حتى جعلوا لاقوالهم واجتهاداتهم القداسة نفسها التي جعلها الله لاقوال رسوله وأحاديثه لا لشيء الا لان الشيعة يقدسون أقوال الأئمة من حيث إنها تجسد أقوال الرسول وما جاء به من عند الله، ويقفون عندها كما يقفون عند المرويات الصحيحة عن الرسول، واذا لم يجد أهل السنة للصحابة قولاً أو رأياً فيما يعرض لهم من الحوادث يرجعون الى القياس والاستحسان والاستصلاح والمصالح المرسلة، وقد انهى الاستاذ عبد الوهاب خلاف في كتابه «مصادر التشريع» أدلة الاحكام عند فقهاء السنة الاوائل الى تسعة عشر دليلا وعد منها بالاضافة الى ما ذكرناه الاخذ بالأخف وسد الذرائع والعوائد وغير ذلك مما لم يرد في كتاب او سنة ولا يعتمد على غير الاجتهاد المبني على الحدس والظن اللذين لا يغنيان عن الحق شيئا، ولم يرجعوا الى الإمامين الباقر والصادق اللذين أسسا مدرسة الفقه والفلسفة واجتمع اليها أكثر من أربعة آلاف طالب من مختلف الاقطار، وكان التشريع الاسلامي من أبرز ما أنتجته تلك الجامعة التي غلب عليها الطابع الروحي ولم يستطع الحكام ان يتدخلوا في شيء من شؤونها كما وانهم لم ينقلوا مرويات الشيعة عن الرسول وغيره ويشترطون في الراوي ان لا يكون شيعيا وعند اكثرهم يشترط فيه بالاضافة الى ذلك ان لا يكون متهما بالتشيع لان التشيع والوثاقة لا يجتمعان، ولما وثق يحيى بن معين سعيد ابن خالد البجلي، قيل له ان سعيدا يدين بالتشيع، فقال عند ذلك: وشيعي ثقة مستغربا ان تجتمع هاتان الصفتان في واحد من البشر، ولم يستغرب عدالة معاوية والحكم طريد رسول الله وأبنائه الاوزاغ وسمرة بن جندب وأمثاله من المنافقين

والمشركين لانهم من الصحابة والصحابة كالنجوم بأيهم اقتـدى الانسان يهتـدي كما نسب الوضاعون الى رسول (ص)، هذا في حين ان الشيعة يأخذون برواية الراوي اذا كان ثقة ومستقيما في دينه مهما كان مذهبه ولا يشترطون في الراوي اكثر من ذلك كما تؤكد ذلك مجاميعهم التي وضعوها في أحوال الرواية والرواة.



مواقف ائمة الشيعة من تلك الاسلحة

في هذه الاجواء المظلمة والمشحونة بالافكار الغربية المستوردة التي استغلها الحاكمون لتخدير العقول والقلوب والتحلل من مسؤوليات تصرفاتهم وإسرافهم في إراقة دماء الابرياء والصلحاء واستغلالهم لخيرات الشعوب ومقدرات الامة لصالحهم وكأن الناس كل الناس بستان لقريش وحكامها كما يدعون، في هذه الاجواء المشحونة بالمخاطر على الاسلام وتعاليمه ومبادئه وقف الأئمة (ع) وشيعتهم موقفا في منتهى الصلابة والحيطة في وجه تلك التيارات والمحاولات التي كانت تهدف فيما تهدف الى تحوير الاسلام وتجريده من محتواه، يدافعون ويناضلون عن مبادئه وأصوله بالحجج الدامغة والمنطق السليم في مختلف الميادين، وقد اعلنوا في مختلف المناسبات خروج المشبهة والمجسمة والمرجئة والجبرية والصوفية وغيرهم عن الاسلام بعد ان يئسوا من ارجاعهم الى حظيرته بكل ما توافر لديهم من الوسائل كما تؤكد ذلك المؤلفات الشيعية المنتشرة في جميع انحاء العالم.

لقد تجرد الإمامان الباقر والصادق في المراحل الاولى من ولادة تلك الافكار وانتشارها في الاوساط الاسلامية لخوض أعنف المعارك مع دعاتها وأنصارها وإحباط جميع محاولاتهم الهادفة الى تشويه الاسلام وتحوير مبادئه وأصوله لمصلحة الحاكمين وأعدائه، بالمنطق والعقل وغيرهما مما نتج عنه تراجع جماعة عن تلك الافكار والحد من نشاط المغالين في تصلبهم وعنادهم، ولم يكن لاحد من سبيل لانكار باعهم الطويل في الاطلاع والاحاطة بكافة فروع المعرفة والافادة منها وتسخيرها لخدمة الاسلام وانتشاره، وحينما كان يذكر التشيع في مطلع القرن الثاني وبعده كان يقترن

بالمباحث النظرية والمذاهب الفلسفية ومدارس الحكمة وكل انواع المعرفة.

وقال السيد مير علي في كتابه تاريخ العرب وهو يتحدث عن تلك الفترة من تاريخ المسلمين: ولا يفوتنا ان نشير الى ان الذي تزعم الحركة العلمية في تلك الفترة التي كان فيها الصراع العقائدي على أشده، هو حفيد الامام علي بن ابي طالب جعفر بن محمد الملقب بالصادق، وهو رجل رحب أفق التفكير بعيد اغوار العقل ملمّ كل الالمام بعلوم عصره، ويعتبر في الواقع اول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة في الاسلام، ولم يكن يحضر حركته العلمية اولئك الذين اصبحوا مؤسسي المذاهب فحسب بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من جميع انحاء العالم[1].

وتؤكد المصادر القديمة والحديثة ان اكثر أئمة المذاهب كمالك الذي عاش الى جانبهم اكثر ايامه في المدينة وأبي حنيفة الذي التحق بمدرسة الامامين الباقر والصادق (ع) لمدة سنتين بعد ان فرّ من حبس المنصور، وبهذه المناسبة كان يقول: لولا السنتان لهلك النعمان كما جاء في أكثر المصادر التي تحدثت عنه، والشافعي في فقهه الجديد الذي ينسب اليه خلال إقامته في مصر حيث كان يلتقي كثيراً باسحاق ابن الامام الصادق وزوجته السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد بن الحسن السبط (ع)، وأضاف الى ذلك توفيق ابو علم في كتابه أهل البيت، انها كانت مرجعاً للربيع بن سليمان المرادي واسماعيل بن يحيى المزني وعبد الله بن الحكم الفقيه المالكي وغيره من فقهاء مصر في الحديث والفقه[2]. الى كثير من الأمثلة التي تؤكد ان الشيعة وأئمتهم كانوا من أغنى المصادر في جميع المواضيع الإسلامية وعلى صلة وثيقة بمصادر الفلسفة التي انتشرت في تلك الفترة من تاريخ المسلمين، وانهم وقفوا بحزم وصلابة في وجه تلك المذاهب التي استخدمها الحاكمون والشعوبيون لتشويه الاسلام والسيطرة على العقول والقلوب التي كانت تخطط وتدبر للانتفاضات والثورات ضدهم بين الحين والآخر.

وقال الدكتور محمود إسماعيل في كتابه الحركات السرية في الإسلام: إن آل البيت كانوا يمثلون أقوى أحزاب المعارضة لسياسة الحاكمين من حيث تبنيهم لقضية العدالة بالمفهوم الإسلامي كما أكدها الإسلام وكانت من أبرز دعواته، ومضى يقول: إن آل البيت كانوا أقدر المسلمين على فهم الإسلام وأكثرهم إخلاصاً

(١) تاريخ العرب ص ١٧٦.

(٢) أنظر ص ٥٩١ وما بعدها من كتاب أهل البيت لتوفيق أبو علم.

لمبادئه وأشدهم حرصاً على تطبيق تعاليمه، وقد ورثوا مأثرة التفقّه في الدين والاحاطة بأصناف العلوم من إمامهم الاول علي بن ابي طالب، ولا سبيل لإنكار باعهم الطويل في البحث والاطلاع على كافة فروع المعرفة والافادة منها في خدمة قضيتهم[1].

ولعل الباحث المنصف من خلال مواقف الأئمة وشيعتهم وتبنيهم لقضية العدالة بمفهومها الاسلامي يدرك أصالة التشيع الذي رافق مطلع الدعوة الإسلامية ولم ينحرف لا بقادته ولا بتعاليمه عن خطوطها وفصولها في جميع مراحله وحتى في أحلك الازمات التي كانت تعترض مسيرته لانه كان يجسد الاسلام كتاباً وسنّة من جميع جوانبه برعاية الأئمة من ذرية الرسول الذي قال فيهم كلمته المشهورة: اني تارك فيكم كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض.

لقد تحولت الثورة التي قادها وحمل لواءها الحسين بن علي (ع) ضد الأمويين الأوائل وعلى رأسهم حفيد أبي سفيان دعاة الشرك والوثنية والطغيان، تلك الثورة التي شهدت إبادة أعظم قاعدة من قواعد الكفاح وأخلص كتيبة من كتائب الجهاد، لقد تحولت الى ثورة فكرية وروحية قادها الامامان الباقر والصادق (ع) بعد ان وجدا الاسلام ورسالة نبي الاسلام آلة بيد المجرمين يستخدمونها لخدمة الجاهلية السفاحة، ورجالات الاسلام وفقهاءهم قد تطوعوا لخدمة الحاكمين في زهد وتعبّد وعفة وحشمة ليس لها أدنى حظ من الصدق والشرف، وبعد ان وجدا ساحة الدفاع عن الحقيقة والعدل والحرية والاسلام الحق خالية مظلمة الا من المنافقين والجلادين والفئران التي تتعبد للفلس والبطن.

لقد تحولت تلك الثورة الى ثورة فكرية وروحية تولى قيادتها الائمة (ع) وشيعتهم الاوفياء لتعاليم الاسلام ومبادىء الاسلام التي يجسدها التشيع ووقفوا ذلك الموقف الحازم في وجه تلك الهجمات الوثنية التي تلبس ثوب الاسلام والتي هي أشد خطراً على الاسلام من سيوف المشركين والوثنيين في بدر وأحد والاحزاب، يعرضون الاسلام ومبادئه للجماهير المسلمة على حقيقته وواقعه بعيداً عن تحريف المنحرفين وتشويه المشوهين وعبيد الحاكمين من الفقهاء والمحدثين، الاسلام الذي يلعن الظلم والظالمين ويتوعدهم بالعذاب والجحيم كما يلعن

(١) انظر ص ٦٧ من الحركات السرية للدكتور محمود اسماعيل.

الساكتين والمتعاونين في القول والفعل وحتى انه يعتبر الساكتين عنهم من خرس الشياطين.

ان الاسلام الذي يضع عن الحاكمين وأعوانهم مسؤولية جورهم لانها لم تصدر بارادتهم ومفروضة عليهم كما ذهب الى ذلك الجبرية وتبناه المحدثون والفقهاء والاشاعرة الذين حاولوا التهرب من الجبر فالتزموا بالكسب اي بوجود ارادة للانسان حين العمل ولكنه مع وجودها يفعل ويصنع كل شيء بارادة الله سبحانه، والاسلام الذي يرجىء الحكم عليهم الى يوم الحساب ويصفهم بالايمان والتقوى ويعدهم برضوان الله ومغفرته، والذي يدعوهم الى الكهوف ولبس المرقعات واماتة الجسد بالجوع والتعذيب ليصل الى مرتبة الفناء مع الله او الاتصال به مباشرة من غير حاجة الى الانبياء ورسالاتهم وما الى ذلك من الافكار والآراء التي راجت في اوساط المسلمين بعد ان مهد لها الحاكمون وعملوا على شيوعها وانتشارها، هذا بالاضافة الى عدالة الصحابة التي ليست بأقل خطرا من غيرها.

هذا النوع من الاسلام كان الأئمة يرونه اكثر خطراً على إسلام محمد وعلي (ع) من جور الحاكمين وسيوف المشركين لانه اذا استمر في طغيانه يحتل العقول والقلوب ويوفر أسباب التسلط على العباد والتحكم في مصير الأمة ومقدراتها وطاقاتها.

لقد وقف الائمة في مقابل هذه التيارات الحاقدة يجسدون الاسلام بصورته المشعة المضيئة التي تحدد للحاكمين صلاحياتهم ومسؤولياتهم وتقدم العدالة بأروع صورها وأشكالها متمثلة في المساواة بين الحاكم والمحكوم في الحق والقانون وتعطي الامة الحق المطلق في الرقابة الواعية التي تنطلق من مبادئه وتشريعاته حتى اذا انحرف الحاكمون تكون لهم بالمرصاد الى ما هنالك من المبادىء والتشريعات والانظمة التي كان الائمة يجسدونها في أقوالهم وأفعالهم في جميع الحالات والمناسبات.

لقد عايش الائمة أزمة من أعنف الازمات الفكرية والاجتماعية في ظل الحكمين الاموي والعباسي حيث فقد الحكم عمق أصالته الدينية وتجرد عن الصيغة الملائمة للاسلام وتكشف عن ملك عضوض في الوقت الذي لم يبلغ الشعور الديني بين الغالبية العظمى من المسلمين مرتبة تمكنه من التغلب على العثرات فاستغل ذلك الارتباك اناس من محترفي الخيانة والغدر للمتاجرة بالحق والدين وأكثروا من البدع في الاسلام وبخاصة بعد تغلغل الشعوبيين الذين حملوا الفلسفة الصينية

والهندوسية والبوذية والمانوية واليونانية ومعتقداتهم وآراءهم وترجموها الى العربية فسرت في اوساط المسلمين وتسربت الى عقولهم وقلوبهم وظهر من آثارها عدد كبير من الزنادقة والملحدين يضعون الشكوك والشبهات حول الاسلام وما جاء به من أصول وتشريعات، في هذه الاجواء المتأزمة والمشحونة بالافكار والآراء الغربية وقف الإمامان الباقر والصادق وتلامذتهما الذين تخرجوا من جامعة اهل البيت التي رحل اليها آلاف الطلاب والعلماء من مختلف العواصم والاقطار، تلك المواقف الخالدة يدافعون ويناضلون عن الاسلام ومبادئه وتعاليمه ويدحضون شبهات الماديين والملحدين بالاساليب العلمية التي تردهم على أعقابهم خاسئين.

وكان من الطبيعي لمواقفهم تلك التي وقفوها في مقابل تلك التيارات الغربية الدخيلة التي اظهر اصحابها الاسلام وانطووا على الكفر والتخريب والالحاد، كان من الطبيعي ان تقلق مواقفهم اولئك الطغاة الذين استغلوا تلك التيارات وما نجم عنها من التضليل والارتباك الفكري لإلهاء الجماهير عن واقعهم وسياستهم التي احاطوها بأسوار من الضغط والارهاب، وكانوا يدركون ويعلمون ان الضغط والارهاب وحتى القتل الجماعي وكل انواع العسف والجور لا تجديهم شيئا ما دامت العقول والافكار والقلوب تعمل وتفكر وتراقب كل تحركاتهم وتصرفاتهم، وهم يعلمون ان السيوف والسجون والسموم لا تقضي على الافكار والعقول ولا تحجب الاشعة الخيرة المنطلقة من افكار المصلحين وعقولهم مهما اثارت وحشدت حولهم من الغبار والضباب.

لقد كان الائمة وشيعتهم في حرب فكرية شرسة مع تلك الانحرافات ومحاولات التغيير والتشويه للاسلام من قبل الحاكمين وجنودهم من بعض الفقهاء والشعوبيين والمحدثين، لذلك كان كل من يتولى الحكم منهم يتجه بكل امكانياته لمقاومة الامام المعاصر له ويعمل بكل ما لديه من الوسائل للقضاء عليه وعلى الاصوات الخيرة التي تنطلق من حوله بالدعوة الاسلامية الصريحة بما فيها من الافكار الثورية التي كان الأئمة بكل الاساليب يعملون على تركيزها في أعماق القلوب والنفوس من خلال مواقفهم السلبية من الحاكمين وأعوانهم وتحريم التعاون معهم لتضييق دائرة نفوذهم كما يبدو ذلك من خلال دعواتهم المتتالية الى العدل كقولهم: العدل احلى من الماء يصيبه الظمآن، وقول الامام الصادق (ع) في حديثه عما يحتاجه الناس: ثلاثة أشياء يحتاج اليها جميع الناس: الامن والعدل والخصب، وقوله: أفضل الملوك من أعطي ثلاث خصال الرأفة والجود والعدل، ولا يجوز لهم

ان يفرطوا في ثلاث: في حفظ الثغور وتفقد المظالم واختيار الصالحين لاعمالهم، وقوله: العامل بالظلم والراضي به والمعين له شركاء، وقوله: ان أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار، الى كثير من مواقفهم الصريحة الواضحة من الحكام الظالمين الذين كانوا يحرمون التعاون معهم ويدعون الى تحطيمهم والاجهاز عليهم من غير ان يسموهم بأسمائهم حتى لا تستغل الجماهير وتستعبد الشعوب ويقضى على اصالة الامة وكرامتها.

وكان من نتيجة مواقفهم من المنحرفين وأعوان الحاكمين من الفقهاء والمحدثين والشعوبيين الذين كانوا يحاولون تشويه الاسلام وخنق الدعوات الثورية فيه، وتنديدهم بالظلم والظالمين وعدم السماح لاحد من أصحابهم بالتعاون والتعامل معهم، كان من نتيجة ذلك كله ان تعرّض الائمة وشيعتهم للاضطهاد والتشريد والسجون المظلمة والقتل بمختلف الاسلحة، ولكن أساليب العنف هذه التي استعملها الحاكمون باسم الاسلام لم تكن بأقل عنفاً من الاساليب التي استعملها اجدادهم مع مؤسس تلك المبادىء التي تعهد التشيع وقادة التشيع بحمايتها من المخربين والعابثين، وكما لم تستطع تلك المقاومة العنيفة ان تحجب الشعاع الخيّر الكريم الذي انطلق من محمد الرسول (ص)، لم يستطع ظلم الاحفاد ان يحجبه وهو في رعاية ابناء الرسول والمترسمين لخطاه من شيعتهم وأتباعهم الاوفياء.

وظل أئمة الشيعة على صمودهم في وجه تلك الاحداث والهجمات الوثنية العاتية التي خلعت ثوب الشرك والوثنية لتستبدلها بثوب الاسلام بعد ان وجدت ان مقاومة الاسلام بهذا الثوب أجدى لها وأكثر نفعا.

ومجمل القول ان أئمة الشيعة وشيعتهم كانوا يجسدون إسلام محمد (ص) كما جاء به من عند الله، اما الاسلام الذي ظهر من بعده وتبناه الحاكمون لانه يدعم عروشهم ويمكنهم من التسلط على الشعوب ومقدراتها فهو من الاحداث الطارئة وقد ظهرت بوادره بعد وفاة الرسول مباشرة وراح يتسع وينتشر كما تشاء له سياسة الحاكمين الذين وجدوا حولهم اكبر عدد من المسلمين يباركون خطواتهم خوفاً وطمعاً ويفسرون لهم نصوص الاسلام بما يحبون ويرغبون وتفرضه سياستهم المستمدة من واقعهم لا من واقع الاسلام، في حين ان أئمة الشيعة وشيعتهم منذ المراحل الاولى للخلافة الاسلامية التي يصفون حكامها بالراشدين كانوا يعارضون هذا الاتجاه ويعتبرونه بداية لحملة جديدة لاعادة الروح الجاهلية التي حارب

الامويون الاسلام من اجلها وظلوا يحاربونه حتى نهاية عهدهم تحت ستار الاسلام، هذا الاتجاه كان الشيعة وأئمة الشيعة يحاربونه بحزم وصلابة ويتحدون الحاكمين والمرتزقة من أعوانهم عندما يرون نصوص الاسلام تتعرض للتحوير والتحريف من اولئك المرتزقة تلبية لرغبات الخلفاء وولاتهم.

ومن الامثلة على ذلك ما جاء في مروج الذهب للمسعودي، ان أبا ذر الغفاري رحمه الله حضر في بعض مجالس عثمان بن عفان وفيه كعب الاحبار وغيره من المروانيين، فقال عثمان: أرأيتم من زكى ماله هل فيه حق لغيره؟ فقال له كعب الاحبار: لا شيء عليه يا امير المؤمنين، فدفع ابو ذر في صدر كعب الاحبار وقال له: كذبت يا ابن اليهودي، وتلا الآية: **﴿ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾**[1].

لقد قصد عثمان بن عفان بسؤاله هذا التعريض بأبي ذر الذي كان يندد باسراف عثمان وحاشيته واستهتارهم بمقدرات الامة وحقوقها وكأنها من متروكات آبائهم وأمهاتهم، وقد أراد أبو ذر ان يقول له ان مجرد ذلك لا يكفيه ما دام يستغل أموال المسلمين ومقدرات الامة لمصلحة اسرته وحاشيته الذين يعبثون بحقوق العباد وكرامتهم.

ودخل عليه بعد رجوعه من الشام وعنده كعب الاحبار وجماعة من أعوانه وأقاربه وقد اتى عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف فنضت البدر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم، فقال عثمان: اني لأرجو لعبد الرحمن خيراً لانه كان يتصدّق ويقري الضيف وترك ما ترون، فقال كعب الاحبار: صدقت يا امير المؤمنين، فشال أبو ذر العصا وضرب بها رأس كعب الاحبار، وقال: يا ابن اليهودية تقول لرجل مات وترك هذا المال: ان الله اعطاه خير الدنيا وخير الآخرة وتقطع على الله بذلك، وأنا سمعت رسول الله (ص) يقول: ما يسرني ان اموت وأدع ما يزن قيراطا، الى كثير من مواقفه ومواقف عمار بن ياسر وغيرهما مع الخليفة وحواشيه والمرتزقة والمنافقين كأبي هريرة وكعب الاحبار وأمثالهما ممن تقمصوا الاسلام لخدمة الجاهلية الجديدة التي لا تختلف عن جاهلية ابي سفيان وأبي جهل الا بالشكل والمظهر، وبما قدمناه في هذا الفصل من العرض الواسع للمراحل التي مرّ بها التشيع والاسلام من النكسات والهجمات الشرسة، وما قدمه أئمة الشيعة

(١) ص ٤٣٨ من المجلد الأول طبع مصر.

من الخدمات الخالصة والتضحيات التي لاتتسع لها امكانيات احد من غيرهم في مختلف الميادين الى غير ذلك من الجهات الخاصة التي امتازوا بها على غيرهم من المسلمين، هذه النواحي بمجموعها قد ساهمت في بقاء التشيع حياً قوياً يتحدى جميع تلك الصعاب والجبابرة وجنودهم وأسلحتهم المختلفة التي استعملوها لتشويه وطمس أضوائه ومعالمه، وسيبقى حياً قوياً مشرقاً يتحدى جميع الهجمات ومن أنصع الوجوه التي تعبّر عن الاسلام الى ان يرث الله الارض ومن عليها، لانه يستمد أصالته وقوته من إسلام محمد (ص) ويجسده بكل فصوله ومراحله وكنوزه، ولم يكن كغيره من المذاهب العقائدية والفكرية التي استمدت وجودها وقوتها من الحاكمين وتخرج دعاتها وقادتها من قصورهم ومن على موائدهم وجندوا لها كل امكانياتهم المادية والسياسية لتستطيع ان تنهض وتثبت في مقابل أئمة الشيعة وشيعتهم الذين تخرجوا من مدرسة محمد وعلي (ع) لا من مدرسة ابي سفيان ومعاوية التي كان يمثلها ابو هريرة وسمرة بن جندب وكعب الاحبار وعروة بن الزبير وابن شهاب الزهري وغيرهم من المئات الذين جندهم الامويون للكذب والافتراء على الله ورسالاته.

المراحل التي مرت بها الانتفاضات الشيعية

لعل اول ثورة في الاسلام ضد الحاكمين كانت لوضع حد للتسلط الاموي في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان بعد ان تسلم المروانيون والامويون السلطة في المدينة وغيرها من المقاطعات واستبد هو ومروان بن الحكم وأنصارهما استبدادا لم يعرف له المسلمون نظيرا في عهد الخليفتين من قبله وكان لهذه الثورة بالرغم من اشتراك المهاجرين والانصار فيها الطابع الشيعي بنظر اكثر المؤرخين والمؤلفين ونسبوا خيوطها لعبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء الذي اخترع فكرة الوصاية لعلي (ع) كما يزعمون، وراح مع ذلك يتجول في الاقطار يحرض الناس على عثمان حتى توافدوا على المدينة فقتلوه وبايعوا علياً، وأضافوا الى ذلك انه ظل الى جانبه في معركة البصرة كأداة للتخريب والفتنة على حد تعبيرهم، ووقف في طريق الصلح الذي كاد ان يتم في البصرة بين الفريقين لولاه وانتهى دور ابن السوداء المزعوم بالرغم من ظهور معاوية على المسرح السياسي المعارض لعلي (ع) وتجدد المعارك بشكل أشد شراسة وعنفا في صفين ولم يعد لابن السوداء على لسان المؤرخين ذكر فيها، وكأن دوره المزعوم قد انتهى بمصرع عثمان ومعركة البصرة، ونحن نؤكد بأن الثورة التصحيحية التي انتهت بمصرع عثمان واختيار علي (ع) باجماع المسلمين للخلافة من بعده كان الغالب عليها الطابع الشيعي بالرغم من اشتراك جماعة من المهاجرين والانصار بها ووفود العواصم الاسلامية الذين استفزتهم سياسة عثمان وظلم ولاته واسرافهم في المنكرات والاستغلال لموارد الدولة، بالرغم من ذلك فقد غلب عليها ذلك الطابع لان عمار بن ياسر وأبا ذر وغيرهما من الموالين لعلي (ع) كانوا اكثر حماسا وتصلبا من غيرهم ضد الانحراف والتسلط والاستغلال الذي

رافق خلافة عثمان من المروانيين وبقية الامويين وأنصارهم.

لقد وقف عمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري بحزم وصلابة ضد التسلط القرشي الذي كان يعتبر السواد بستانا لقريش، وقادا الحركة الثورية ضد الخليفة وأنصاره بعد ان عبثوا بكرامة الامة واستأثروا بأكثر المراكز الحساسة واستهتروا بالدين والمقدسات، وكان ذلك من ابرز الاسباب التي حدت بوجهاء المقاطعات والعواصم الاسلامية الى التحرك الواسع لمطالبة الخليفة بتصحيح ما افسدته بطانته او تنازله عن الخلافة وتسليمها لمن ترتضيه الامة وتطمئن اليه، وقد ادرك الامويون وعلى رأسهم معاوية بن هند هذا الاتجاه وأدركوا الى جانبه ان خليفتهم لو استجاب لطلب المعارضة ومات على فراشه او تنازل عنها ستنتهي الى علي بن ابي طالب (ع) الخصم العنيد لابي سفيان وبيته ولم يعد للامويين وسيلة للمطالبة فيها، فراحوا يعملون لتعقيد الامور وتأزيمها لكي تنتهي الازمة الى ما انتهت اليه ويتاح لهم استغلالها لمصلحتهم كما حدث بالفعل.

وظل عمار بن ياسر ومن كان يرى رأيه كأبي ذر وابن مسعود وغيرهم ممسكين بزمام الثورة ويلاحقون عثمان وحواشيه من الامويين وغيرهم، ولما توالت أحداثهم وأدرك ذلك اكثر المسلمين في المدينة وخارجها ووجد المسلمون ان الامور تسير من سيء الى اسوأ وبخاصة عندما استعمل اخاه الوليد بن عقبة على الكوفة وابن ابي سرح على مصر ووزع الامويين والاوزاغ من بني الحكم على الامصار كما كان يخطط له مستشاره الاول مروان بن الحكم وتوالت الاخبار من المدينة وبقية الامصار باستهتار حواشي الخليفة وولاته بمبادىء الاسلام واستغلالهم لموارد الدولة وشاعت اخبار الوليد الذي كان لا يترك الخمر في ليله ونهاره وانه قد صلى بالناس صلاة الصبح اربع ركعات وتهوع في المحراب، ثم التفت الى من كان خلفه من المصلين وقال: ازيدكم ان شئتم، وكان مع ذلك يجتمع الى السحرة والمشعوذين ويدعو الناس الى مجالسهم ليفسد عليهم عقائدهم الى غير ذلك من المنكرات والاستخفاف بالدين وحقوق المسلمين.

وظلت الامور تسير من سيء الى اسوأ في المدينة وخارجها، بعد ان وجد المسلمون كل ذلك واستعرضوا الاوضاع العامة على ضوء ما يجري وما تقوم به تلك الطغمة الحاكمة من استهتار بالقيم ومخالفات لكتاب الله وسنة رسوله وبعد التداول فيما يجب اتخاذه اتفقوا على ان يرفعوا كتابا لعثمان بصفته المسؤول الاول عن كل ما يصدر من اسرته وعماله معززا بالارقام التي لاتقبل المراجعة، وتولى عمار بن

ياسر تسليمه الكتاب، فلما سلمه اياه وقرأ شطرا منه سأله عن بقية الموقعين عليه، فرد عليه عمار قائلا: لقد تفرقوا خوفا منك، فقال له: لماذا اقدمت علي من بينهم؟ فأجابه: لاني أنصحهم اليك، فقال له عثمان: كذبت يا ابن سمية، فرد عليه بقوله: والله ان امي سمية وأبي ياسر، فأحس عثمان بوطأة جوابه وبما يعنيه فتناول عصا وضرب بها عمار بن ياسر وأمر غلمانه فطرحوه وانحنى عليه يرفسه برجليه على مذاكيره بقسوة لا يعرف الحقد أشرس منها حتى أصيب بفتق ورضوض في بدنه وغاب عن الدنيا فأمر عثمان بن عفان غلمانه باخراجه من الدار فأخرجوه وألقوه على جانب الطريق المحاذية لبيت أم المؤمنين أم سلمة فحمله جماعة من المسلمين وأدخلوه بيتها، فأنكرت هذا التصرف وجعلت تستعرض مواقف عمار وجهاده في سبيل الاسلام وصلاته المتينة برسول الله (ص) وثناءه البالغ عليه، وحينما بلغت أخباره عائشة اخرجت ثوبا من ثياب رسول الله (ص) وقالت بحضور حشد من المسلمين: هذا ثوب رسول الله لم يبل وقد ابلى عثمان سنته، ووقف منه نفس الموقف مرة ثانية حينما اخذ سفطا من بيت المال مملوءا بالحلي والمجوهرات ووزع ما فيه على نسائه فأنكر المسلمون عليه هذا التصرف الذي لم يعهدوه ممن سبقوه، ولما بلغه استنكار المسلمين لهذا التحدي السافر لشعورهم خطب الناس وقال: انا سنأخذ حاجتنا من هذا المال وان رغمت أنوف أقوام، وكان امير المؤمنين (ع) حاضرا وممن انكر عليه هذا الاسراف والاستهتار بمقدرات الامة فقال له: تمنع منه ويحال بينك وبينه، كما رد عليه عمار بن ياسر بقوله: ان أنفي لأول راغم من ذلك، فقال له عثمان: أعلي يا ابن سمية تجترىء من بينهم، وامر غلمانه فانهالوا عليه بسياطهم وجعل مروان يحرضه على قتله ويقول: ان هذا العبد الاسود هو الذي يجرىء عليك الناس، فقام اليه وجعل يرفسه برجليه حتى غاب عن الدنيا، ولما أفاق من غشيته جعل يحمد الله ويردد ما كان يلاقيه من ابي سفيان وأبي جهل وغيرهما من جبابرة قريش الذين اذاقوه كل انواع الاذى والعذاب لانه آمن برسالة محمد ونبذ أصنامهم وأزلامهم وانصرف الى عبادة الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ولد، ويقارن بين مواقفهم منه ومواقف عثمان والجلادين من جلاوزته وما يلاقيه منهم من التعذيب والتنكيل لا لشيء الا لانه يطالب بتطبيق العدالة التي فرضها الله وينكر على الخليفة وحاشيته إسرافهم في تبذير الاموال واستهتارهم بالقيم والمقدسات وكرامة الانسان.

لقد تذكر في تلك اللحظات التي كانت تنهال عليه فيها سياط عثمان وغلمانه

كل ما قاساه من جبابرة قريش وقال: ان هذا ليس أول يوم أوذينا فيه من اجل الاسلام ومبادىء الاسلام، ان عمار بن ياسر لم يستغرب ما يلاقيه هو ورفاقه الاحرار من أحفاد أمية وأبناء الحكم طريد رسول الله (ص) لان الاحفاد يومذاك قد استغلوا الاسلام ليحققوا للاجداد الاماني والاهداف نفسها التي حاربوا محمدا وعذبوا اصحابه من اجلها، لذلك لم يجزع عمار بن ياسر لكل ما اصابه من الاذى وأعلن استعداده لتحمل ما هو أشد وأقسى في سبيل الاسلام بقوله: ليس هذا بأول يوم أوذينا فيه من اجل الاسلام.



ابو ذر الغفاري

وكان من الطبيعي ان يتحرك الصحابة الذين رافقوا عمار بن ياسر في جميع مراحله مع الاسلام وسمعوا ما قاله الرسول فيه وثناءه البالغ عليه لما يلاقيه عمار من عثمان وغلمانه وأسرته وأن تستفزهم تلك المعاملة لصحابة الرسول الاوفياء لرسالته وتعاليمها بالاضافة الى سيئات حواشيه وذويه، ومع كل ما حدث لعمار بن ياسر فلم ينحن لسياطهم ولا لوعيدهم واستمر على موقفه من تلك الطغمة التي تعبث بخيرات البلاد وكرامة الانسان مستغلة عهد الخليفة وضعفه، يقضمون مال الله قضم الابل نبتة الربيع كما وصفهم امير المؤمنين (ع) في خطبته الشقشقية يقود المعارضة والى جانبه ابو ذر الغفاري رحمه الله وكان من أجلاء الصحابة وأعيانهم المقربين الى الرسول (ص) بعد ان تجسدت فيه جميع طاقات الاسلام وعناصره ومقوماته ووعى حقيقته وواقعه، وكان من السابقين الى اعتناقه والخامس في الاسلام كما جاء في طبقات ابن سعد، وحينما تجاهر بالاسلام تعرض كغيره لسياط القرشيين وتعذيبهم حتى كاد ان يهلك من ذلك كما جاء في مسند احمد ومجمع الزوائد، ولكن ذلك لم يغيّر موقفه من الاسلام وظل كالمارد الجبار يتحدى قريشا وسياطهم، وراح يدعو قومه الى الاسلام وهجر الاصنام والاوثان، فاستجابوا له، ومضى في طريقه صادقا في اسلامه سخيا في البذل والعطاء من اجل الاسلام، زاهداً في الدنيا ومظاهرها ونعيمها وقال فيه رسول الله (ص): ما أظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء أصدق لهجة من ابي ذر، وقال فيه: من سره ان ينظر الى زهد عيسى بن مريم فلينظر الى ابي ذر كما جاء في سنن ابن ماجة، وكان احد الثلاثة الذين احبهم الله وأمر نبيه بحبهم كما جاء في مجمع الزوائد، وحينما عهد النبي

(ص) لعلي (ع) بالخلافة كان في طليعة الملتزمين بها والموالين لعلي والمتابعين له والعاملين على انتشارها والتزام المسلمين بها وظل على ولائه وبيعته له يترسّم خطاه وينهل من علمه ويلتزم بتوجيهاته، يسالم من سالم ويعادي من عادى لا يهمه الا ان يسير الاسلام في طريقه الصحيح السليم وتتسع رقعته في أنحاء هذه الدنيا.

ولم يحدّث التاريخ عنه بأنه تعرض لاحد خلال خلافة الشيخين ابي بكر وعمر مع انه كان يراهما من الغاصبين، ولم يكن ذلك الا لان عليا (ع) كان مسالما لهما ما دامت الامور تسير في طريقها الصحيح الى حد ما والاسلام يسير بخطى سريعة خارج الحجاز يتحدى أعتى جبابرة عصره وأقواهم عدداً وعتاداً. وفي مثل هذه الظروف كان يرى ويعمل على توفير الهدوء في الداخل ويرى ذلك من الضرورات لكي تتوافر جميع الجهود نحو الاهداف الاصيلة وتصدير الاسلام الى جميع انحاء العالم متجاهلا حقوقه الخاصة وما جنته أيدي القوم معه ومع زوجته بضعة النبي (ص)، وكان يردد في مجالسه مع العامة والخاصة: والله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة.

ولما انتقلت الخلافة الى الامويين حسب التخطيط المرسوم لها منذ وفاة النبي او قبلها واستغلها الامويون لمصلحتهم وراحوا يعبثون بخيرات البلاد وحقوق العباد واستخدموا الاسلام لخدمة الجاهلية وأهدافها، ورأى الغفاري ومن كان على رأيه صاحب الحق الشرعي في الخلافة يتذمر ويتلوى من تلك الظاهرة الجديدة والاوضاع الفاسدة التي توشك ان تعيد جاهلية ابي سفيان وأبي جهل وأمية بن صفوان وغيرهم من قادة قريش، وسمع ابا سفيان حينما انتهت الخلافة الى سليل أمية يحلف باللات والعزى ان لا جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب وينادي قومه ان يتلقفوها كما يتلقفون الكرة لتعود الى صبيانهم أحفاد أمية والحكم طريد رسول الله، لما رأى إمامه يتلوى من تلك الاوضاع وينصح عثمان وحاشيته ان يعودوا الى رشدهم ويسيروا ولو بسيرة من سبقهم ورأى القوم جادين ممعنين في غيهم وضلالهم واستهتارهم بالقيم والمقدسات وقف منهم مواقفه المشهورة يطالب بوضع حد للتدهور الذي انتهت اليه الامور وبالعدالة الاجتماعية والاحتفاظ بأموال الدولة لمصلحة المسلمين والعمل على ازالة شبح البؤس الذي خيم على اكثر الفئات وراح يدعو الى الثورة لتصحيح ما أفسده الحاكمون وإحياء النظام الاسلامي الذي يعطي كل انسان حقه بدون التواء او محاباة ولا يفرق بين الحاكم والمحكومين ولا بين القريب والبعيد وينظر الى الناس، جميع الناس، من خلال اعمالهم وخدماتهم وما

يقدمه كل فرد لأمته ومجتمعه لا من خلال أحسابهم وأنسابهم.

لقد أنكر ابو ذر رحمه الله على اولئك الممعنين في الترف والبذخ والاستهتار بالقيم وحقوق العباد واندفع بوحي من عقيدته ووعيه لواقع الاسلام ومبادئه وتعاليمه يندد بهم داعيا صحابة الرسول ورفاقه في الجهاد والتضحيات الى الوقوف صفا واحدا في وجه ذلك التيار الجاهلي المتمثل بتلك العصابة الحاكمة بالرغم مما لاقاه هو وعمار بن ياسر وابن مسعود من العنت والجور والاذى الذي أودى بحياة ابن مسعود وكاد ان يودي بحياتهما.

وحول مواقف ابي ذر ورفاقه الابرار من ابن عفان وزمرته الحاكمة قال السيد قطب في كتابه «العدالة الاجتماعية»: ان صيحة ابي ذر كانت دفعة من دفعات الروح الاسلامي انكرها عليه اولئك الذين صدمت عقولهم وقلوبهم ولا يزال ينكرها أمثالهم من مطايا الاستغلال في هذه الايام، ومضى يقول: لقد كانت تلك الصيحة يقظة ضمير لم تخدره الاطماع امام تضخم فاحش في الثروات يفرق الجماعة الاسلامية الى طبقات ويحطم الاسس التي جاء هذا الدين ليقيمها.

لقد مضى ابو ذر في ثورته على الظلم والظالمين غير هياب لتهديدهم ووعيدهم ولا لسياطهم التي كانت تنهال على جسد عمار بن ياسر وعبدالله بن مسعود ولا لغيرها من اساليب التعذيب والأرهاب التي هيمنوا بها على الجماهير وكان يقف على ابواب اولئك الطغاة الذين مكنهم خليفة عمر بن الخطاب من التسلط على جميع مرافق الدولة ومواردها ويتلوالآية: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾**.

ولما شكاه مروان بن الحكم الى عثمان ارسل اليه يهدده ويتوعده، ولكن نفسه الكبيرة ابت ان ينحني او يخفف من حملته لتهديد عثمان ووعيده وراح يردد في المجتمعات ان عثمان يريد ان يمنعني من قراءة كتاب الله فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب اليّ وخير لي من ان اسخط الله برضاه.

وقد ذكرنا سابقا انه حضر يوما في مجلس من مجالسه فقال عثمان: أيجوز للخليفة ان يأخذ شيئا من اموال المسلمين لقضاء حاجته واذا ايسر قضاه وردّه الى بيت المال، وكان يعرض بأبي ذر لانه كان ينكر عليهم التصرف والتلاعب بأموال المسلمين فأسرع كعب الاحبار الى الجواب وقال: لا ارى بذلك بأسا يا امير المؤمنين. ورأى ابو ذر ان السكوت عن كعب الاحبار يشجعه على التدخل في أمور

الدين لمصلحة الامويين وهو من المتهمين في دينه واسلامه بنظر اكثر الصحابة.

وكان يضع الاخبار التي تتفق مع ميول الحاكمين ورغباتهم وينسبها الى التوراة والكتب القديمة ولما وجد فيه الحاكمون معدنا غنيا بهذا النوع من الاخبار قربوه وأدنوه وأغدقوا عليه من اموال المسلمين والمساكين فلم يستطع ابو ذر ان يسكت عن كعب الاحبار وهو من المتهمين في دينه واسلامه فرد عليه قائلا: ما انت وهذا، أتعلمنا ديننا يا ابن اليهودية، فاستبد الغضب بعثمان وجعل يفكر في امره وفي نوع العقوبة التي يمكن انزالها فيه وراح يستعرض انواع العقوبات التي كان يستعملها مع غيره كالجلد والحبس والقتل، ويستعرض في الوقت ذاته تاريخ ابي ذر وما له من المكانة الرفيعة عند صحابة الرسول على اختلاف نزعاتهم وميولهم الذين كانوا ينظرون اليه بمنتهى الاجلال والاكبار ويقدرون إخلاصه للاسلام ولمصلحة المسلمين.

بعد ان استعرض كل ذلك وأدرك ان حبسه او قتله يفجران الوضع المتأزم لغير مصلحته ومصلحة اسرته، فلم يجد سبيلا أيسر عليه من اخراجه من المدينة التي كانت يومذاك كالبركان المهيأ للانفجار بين حين وآخر، ولكن الى اين يا ترى؟ فالعواصم الاسلامية، الكوفة ومصر والبصرة وان كان حكامها من البيت الاموي وأعوانهم، ولكن ابا ذر سيجد بين سكان تلك الاقطار أعدادا كبيرة تدين بالولاء لعلي (ع) وسيلتفون حول ابي ذر ويناصرونه وبالتالي ربما تكون النتائج اسوأ من النتائج المترتبة على بقائه في المدينة، فلم يبق غير الشام التي احتلها الامويون منذ الفتح الاسلامي وتولى ادارة شؤونها اثنان من اولاد ابي سفيان يزيد ومعاوية الذي سلك فيها مسلك الاكاسرة والقياصرة وجعل من المجتمع الشامي موئلا للسيادة القرشية والاستثمار الطبقي الذي يؤمن بمبدأ الطبقية ويهمل مبدأ المساواة الذي جاء به الاسلام.

وقد رحل اليها معظم القرشيين الذين كانوا من طراز معاوية حيث وجدوا في المجتمع الشامي الذي أسسه معاوية ما يصبون اليه.

وقال الدكتور علي الوردي في كتابه وعاظ السلاطين: ولعلنا لا نغالي اذا قلنا بأن الشام قد اصبحت في عهد معاوية هي العاصمة الحقيقية لدولة الاسلام الناشئة، ويصح ان نقول: بأن معاوية صار آنذاك الخليفة الفعلي، ومما يدل على ذلك ان جميع من كان ينفيهم عثمان وولاته في الامصار المختلفة كانوا يساقون الى معاوية ليرى رأيه فيهم، فأبو ذر وثوار البصرة والكوفة سيقوا الى معاوية وكانت

بوادر الثورة على عثمان قد ظهرت في الكوفة، وسببها المباشر هو تصريح سعيد بن العاص الاموي والي الكوفة حيث قال: السواد بستان لقريش، فقام اليه أفراد من القبائل العربية يردون عليه قائلين: انما السواد فيء أفاءه الله علينا وما نصيب قريش الا كنصيب غيرها من المسلمين، وأخذ جماعة من الأعراب يتذمرون من هذا الاستغلال ويشاغبون فكتب الوالي بشأنهم الى عثمان فأمره ان يسفّرهم الى معاوية بالشام فأرسلهم الى الشام ليرى رأيه فيهم.

وأضاف الى ذلك ان رجلا من اهل البصرة كان متقشفا زاهدا حرم على نفسه أمور أحلها الله لعباده واشتهر عنه انه كان لا يأكل اللحم ولا يرى الزواج ولا يشهد الجمعة فكتب الوالي في البصرة بأمره الى عثمان فأمره ان يسيره الى معاوية بالشام، وفي الشام امتحنه معاوية ووجد ان لا بأس منه وأبقاه عنده، وهكذا كان بالنسبة لكل من يظهر بفكرة او رأي يخشى الحاكمون من عواقبه على سياستهم ونظامهم الطبقي الذي فرضوه في عهدهم الجديد.

ويبدو من ذلك ان معاوية كان هو المدير الفعلي لشؤون السياسة الاسلامية منذ ان اصبحت السلطة في أيدي الامويين، فكل من كان يتحرك لغير مصلحتهم او يدعو الى رأي جديد يساق الى معاوية ليرى رأيه فيه ويقرر مصيره، فاذا لم يجد فيه ضررا على سياستهم الجديدة او كان يخدمها تركه وشأنه او ابقاه عنده كما فعل مع الصوفي، لان التصوف بما يحمله من الافكار الهدامة لتعاليم الاسلام وأنظمته من افضل الاسلحة التي توفر للحاكم الهدوء والاستقرار، ولذلك عندما راج التصوف خلال القرن الثاني بواسطة الشعوبيين اعداء الاسلام رحب به الحاكمون ويسروا له البقاء والانتشار، واذا وجده معاوية يشكل خطرا على سياستهم القائمة على الاستغلال الطبقي حاول بكل وسائله خنق الفكرة او الانتفاضة ولو بالقضاء على صاحبها او إبعاده عن الشام قبل ان تتسرب الى الجماعات والافراد لتبقى لهم الشام مركزا وطيدا يسيطرون من خلاله على بقية الامصار عندما تدعو لذلك الحاجة.

لقد كان معاوية يعمل لتوطيد امره في الشام وجهاتها ولا يبالي في الامصار الاخرى، بل كان يتمنى ويعمل لانتشار الفوضى والشغب فيها حتى لا يتفقوا بعد عثمان على احد لاسيما وان الانظار كلها كانت متجهة نحو علي بن ابي طالب (ع) العدو الاول للقرشيين الذين وترهم بآبائهم وأجدادهم في معاركه مع النبي (ص)، ولعل الباحث في أحداث تلك الفترة وما رافقها يجد اكثر من دليل على ان

معاوية بن ابي سفيان كان من وراء تعقيد الامور ولولاه لم تنته الى النتيجة التي انتهت اليها، وانه كان على اتصال دائم بمروان بن الحكم القابع بجانب عثمان ليضرب الناس بعضهم ببعض، والسياسيون في كل عصر اذا اصطدموا بانتفاضة شعبية لا يتورعون من استعمال عملائهم لتأزيم الموقف اذا كان يخدم مصالحهم، وقديما قيل: الملك عقيم والسياسة لا دين لها ولا مبدأ. وقد ادرك معاوية ان حل الازمة بالطرق السلمية التي كان يضعها علي (ع) لا تخدم القرشيين وستكون النتائج لغير صالحهم، لان عثمان بن عفان كان يومذاك في حدود التسعين من عمره وأصحاب هذا السن ينتظرهم الموت ساعة بعد ساعة، وعندما يموت ابن عفان على فراشه فسوف لا يتردد احد في اختيار علي بن ابي طالب لها ولا يجد هو ما يبرر معارضته او مطالبته بها لاسيما انه وأباه من ألد اعداء الاسلام، والمسلمون كلهم يعرفون ذلك، ومن الصعب على رجل حارب الله ورسوله مع اهله وأسرته اكثر من عشرين عاما ان يصبح خليفة الرسول الذي حاربه بعد زمن قصير ما لم تتوافر له ظروف غير اعتيادية.

وجاء في كتاب ابي ذر الغفاري لعبد الحميد السحار ان معاوية زار عثمان ابان اشتداد الثورة عليه فنصحه ان يقتل علياً وطلحة والزبير وقال له: اذا لم تقتلهم فسيقتلونك فرفض نصيحته، ولما أصر على رفضه قال له معاوية: اجعل لي الحق بالطلب بدمك اذا قتلت، فأجابه الى ذلك وأعطاه ما يريد.

وهذه الرواية تؤكد ان معاوية كان يدرك مدى الفائدة التي سيجنيها من مقتل عثمان على يد الثوار وانه كان يساعد على قتله بواسطة مروان بن الحكم وغيره ممن كانوا يسيرون عثمان كما يريدون ويعملون على تأزيم الموقف وتعقيده لينتهي بقتل عثمان كما كان يخطط له معاوية بن ابي سفيان، وعندما قتل وبأقصى حدود السرعة ارسل له الامويون في المدينة قميصه وأصابع زوجته وعند وصولها وضعها على المنبر وجعل يندبه ويقول للشاميين: لقد قتل إمامكم مظلوما، واجتمع حوله الناس يبكون ويندبون، واستغل معاوية الآية القرآنية، **﴿ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل﴾**، وراح يطالب بدمه من علي (ع) فكان هذا القميص من ابرز الاسباب التي اوصلته الى الخلافة، ولم يحدّث التاريخ عن قميص اشترك في تأسيس دولة كما حدث لقميص عثمان بن عفان.

ومهما كان الحال فلقد ارسل عثمان بن عفان ابا ذر الى الشام ليكون تحت رقابة معاوية كما كان يرسل اليها غيره من منتقدي سياسته وسلوكه وسلوك عماله

واسرافهم في البغي والمنكرات، وفي الشام وقف ابو ذر رحمه الله من معاوية الموقف نفسه الذي وقفه من عثمان وحاشيته في المدينة، وأنكر عليه وعلى الحزب القرشي الذي أسس فيها عهده الجديد اسرافهم في استغلال موارد البلاد واستهتارهم بالقيم ومبادىء الاسلام لم ترهبه تحذيرات معاوية وسياطه ولا سجونه المظلمة وحاول معاوية تخديره بالاموال، فأرسل اليه كما في رواية ابن الاثير الف دينار فوزعها على الفقراء في صبيحة الليلة التي قبضها فيها، ولما صلى معاوية صلاة الصبح قال للرسول الذي ارسلها معه: اذهب الى ابي ذر وقل له انقذ جسدي من عذاب معاوية فانه ارسلني بالمبلغ الى غيرك وقد اخطأت وسلمته اليك، والظاهر ان معاوية قد استغرب من ابي ذر قبوله للمبلغ وأراد ان يعرف ما اذا كان قد اخره لنفسه ليحاول تخديره وشراءه بالمال كما كان يصنع مع غيره، او انه انفقه على الفقراء والمحتاجين ليبحث عن وسيلة اخرى لاسكاته، ولما ذهب اليه الرسول قال له: ارجع الى معاوية وقل له لم يبق معنا من دنانيرك شيء أخرنا ثلاثة ايام لكي نجمعها لك، ولما رجع اليه الرسول وأخبره بمقالة ابي ذر ادرك انه ليس من اولئك الذين تغريهم الاموال ويتنازلون عن مبادئهم من اجلها وراح يبحث عن علاج آخر يعالجه به، وفي الوقت ذاته استمر ابو ذر رحمه الله على موقفه المتصلب من معاوية وحزبه، ولما بني قصر الخضراء قال له يا معاوية: ان كان هذا المال الذي أنفقته لبناء هذا القصر من مال الله فهو الخيانة وان كان من مالك فهو الاسراف، وكان يقف في كل يوم على باب معاوية ويصرخ بأعلى صوته: بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة بمكاوي من نار.

وجاء عن حبيب بن سلمة الفهري انه قال لمعاوية: ان ابا ذر سيفسد عليك الشام فتدارك الامر ان كان لك بالشام حاجة، فاستدعاه معاوية اليه وحاول ان يستجلبه بكل ما لديه من اساليب الترغيب والترهيب فلم يجد الى ذلك سبيلا ولما يئس منه قال له: يا عدو الله لو كنت قاتلاً أحداً من أصحاب محمد بغير اذن من عثمان لقتلتك، ولكني سوف أستأذنه فيك، فرد عليه ابو ذر بجرأته المعروفة على أعداء الاسلام قائلاً: ما انا بعدو الله ورسوله بل انت وأبوك عدوان لله ولرسوله اظهرتما الاسلام وأبطنتما الشرك والنفاق ولقد لعنك رسول الله (ص) ودعا عليك مرات عديدة ان لا تشبع، وسمعته يقول: اذا تولى أمور الامة الأعين الواسع البلعوم الذي يأكل ولا يشبع فلتأخذ الامة حذرها منه، فقال له معاوية: ما انا ذلك الرجل، فرد عليه ابو ذر بقوله: بل انت هو كما اخبرني بذلك رسول

الله (ص)، وسمعته يقول: است معاوية في النار، فضحك معاوية وأمر بحبسه، وكتب معاوية الى عثمان يستعفيه من امر ابي ذر وقال له: اذا بقي ابو ذر في الشام سيفسد علينا الناس وقد استنفدت جميع الوسائل لاسكاته فلم أتمكن فكتب اليه عثمان ان يرده الى المدينة على اسوأ حال ومركب فحمله معاوية على اسوأ حال وأمر من معه ان يسيروا به الليل والنهار حتى يصل الى المدينة فنفذوا فيه امر معاوية ووصل الى المدينة بعد ان تساقط لحم فخذيه من الجهد.

ولما ادخلوه على عثمان قال له: لا أنعم الله بك عينا يا جندب، فقال له ابو ذر رحمه الله: لقد سماني رسول الله عبدالله واخترت اسم رسول الله على اسمي، فرد عليه عثمان قائلا: انك لتزعم انا نقول: بأن الله فقير ونحن اغنياء، فقال ابو ذر: لو كنتم لا تقولون ذلك لأنفقتم مال الله على عباده وأشهد ان رسول الله كان يقول: اذا بلغ ولد ابي العاص ثلاثين رجلا جعلوا مال الله دولا وعباده خولا ودينه دخلا، وكان علي (ع) في المجلس يسمع الحوار بينهما، فالتفت عثمان اليه وقال: أصحيح ان رسول الله (ص) قد قال ذلك؟ فرد عليه بقوله: ان ابا ذر صادق فيما يقول لان رسول الله قد قال فيه ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من ابي ذر.

وجاء في رواية الواقدي ان الصراع قد اشتد بين عثمان وأبي ذر وحاول عثمان بكل وسائله ومغرياته ان يضع حدا لثورة ابي ذر واستجلابه، ولكن ابا ذر لم يكن مستعدا لان يحابي احدا مهما كانت منزلته على حساب دينه وعقيدته فكان عند كل محاولة من عثمان يزداد تصلبا في موقفه منه ومن حواشيه الذين عاثوا في الارض فسادا وجورا.

ولم يعد امام عثمان سوى امرين: اما القتل وهو الامر المفضل عند حواشي الخليفة الذين كانوا يرجحون له كل ما يزيد من غضب الجماهير ونقمتهم عليه كما كان يخطط لهم حاكم الشام الذي كان يتمنى له ان يموت على يد الثوار قبل ان يموت على فراشه.

ولكن فكرة القتل بالرغم من إجماع حاشيته عليها قد استطاع ان يتحاشاها لانه كان يقدر له مكانته عند اكثر المسلمين ويرى انها ستجر عليه غضب الجماهير في الداخل والخارج واتساع النقمة عليه لا سيما وهو يرى ان اكثر الصحابة وأبنائهم كانوا يباركون مواقف ابي ذر منه ومن اسرته الحاكمة، فلا بد اذن من اخراجه من

المدينة ولكن الى اين يـا ترى؟ الى المـدن والعواصم؟ ان ذلـك لا يحل المشكلة بـل يزيدها تعقيدا وخطرا بعد التجربة الاولى التي اخرجه فيها وراح يستعرض البراري المقفرة فاختار له الربذة من بينها وأمره بالرحيل اليها وأوكل أمر إخـراجه لمـروان بن الحكم طريد رسول الله (ص).

وقد عزّ عـلى المسلمين ان يـروا طريـد رسول الله يـطرد من مدينـة الرسـول صحابياً ممن اجتباهم رسول الله (ص) وفضّلهم على الكثيرين ممن صحبـوه وتابعـوه ولكن المصلحة قد فرضت عليهم ان يصبروا ويقابلوا هذا الحدث العظيم بـالحكمة الى ان تكتمل عناصر الثورة ومقومات نجاحهـا، ولم يخرج لـوداعه سـوى علي (ع) وعقيل بن ابي طالب والحسنان (ع) وعمار بن ياسر، وأقبل عليهم مروان بن الحكم ليمنعهم من وداعه وقال: ألا تعلمـون بأن الامـير قد نهى عن وداعـه، فتقدم اليـه امير المؤمنين (ع) وضرب بسوطه رأس راحلتـه وقال لـه: تنح نحـاك الله الى النار، فرجع شاكيا الى عثمان صنيعه معه فتلقى عثمان علياً غضباً على حد تعبير المؤرخين، وفي كلمة الوداع الموجزة حدد امير المؤمنين وعمار بن ياسر موقفه من القوم وموقفهم منه فقال لـه الامير (ع): يـا ابا ذر ان القـوم قد منعـوك دنياهم ومنعتهم دينـك فما أحوجهم الى ما منعتهم وما اغناك عما منعوك، وقال له عمار شريكه الاول في الثورة ورفيقه في جهاد الظالمين: والله لو اردت دنياهم لأمنـوك ولو رضيت عن اعـمالهم او تغاضيت عنها لاحبوك، وما منع الناس ان يقولوا بقولك الا الرضا بـالدنيـا والجزع من الموت، كما تكلم الباقون بما يتناسب مع ضخامة الحادث.

ويكى ابو ذر عند وداعهم وقال: لقد ثقلت على عثمان بالحجاز وعلى معاويـة بالشام، وكره ان اجاور اخاه وابن خالـه بالمصرين، وهـو يعني بأخيـه وبابن خـاله الوليد في الكوفة وابن خـاله ابن ابي سرح في مصر، وكـان ابو ذر قـد طلب منه ان يسير الى الكوفة وفيها اخوه لأمه الـوليد بن عقبـة او الى مصر وفيها ابن ابي سرح. ومضى يقـول: لقد سـيرني الى ارض ليس لي فيها نـاصر ولا دافع الا الله، والله لا أريد غير الله صاحباً.

وعاش ابو ذر في الربذة ما بقي من حياتـه غريبـا بعيدا عن النـاس في ارض مقفرة من السكان وحتى من الطير والوحش الى ان وافته منيته ويسّر الله له وفدا من اهل العراق كـانوا في طـريقهم لحج بيت الله الحـرام وفيها كـانت زوجته تتلوى من اجله وفي حيرة من امرها تنتظر في تلك الصحراء المقفرة من يسـاعدهـا على تجهيـزه له، مقـره الاخير، واذا بـوفد من الكـوفة في طـريقهم لحج بيت الله الحـرام وفيهم

مالك بن الحرث والاشتر النخعي مع جماعة من أعيان الشيعة وبينها وبين الطريق الذي يسلكه الوفد مسافة بعيدة فلوحت لهم بثوب في يدها وجعلت تصرخ وتولول فمالوا اليها وحينما عرفوا ان المسجى هو ذلك الصحابي الجليل الذي كان رسول الله (ص) يجلّه ويفضّله على صحابته أصيبوا بالدهشة والذهول من استخفاف عثمان والحزب القرشي الحاكم بالاسلام وكرامة الانسان وأضافوا ذلك الى سيئات عماله واسرافهم في البغي والمنكرات، وتولوا تجهيزه لمقره الاخير، وبعد مواراته في قبره حملوا زوجته وابنته الى المدينة، وصدق فيه قول رسول الله (ص) في غزوة تبوك بعد ان لحق بقافلة المسلمين: يا ابا ذر تعيش وحدك وتدفن وحدك وتحشر وحدك ويسعد فيك قوم من اهل العراق يتولون غسلك ومواراتك في قبرك.

لقد كافح وناضل ابو ذر رحمه الله طيلة حياته من اجل المثل التي جاء بها الاسلام ومن اجل العدالة والحرية وحقوق المحرومين والمعذبين التي اختلستها تلك العصابة الحاكمة، لم ترهبه سياطها ولا سجونها المظلمة في المدينة والشام وظل يكافح ويناضل الى ان وافته منيته في صحراء الربذة، ولم يكن في جميع مواقفه من الحاكمين قد تبنى رأيا او اعتمد أسلوبا لا يقره الاسلام، بل كان هو وعمار بن ياسر ومن على رأيهما من أجلاء الصحابة يترسّمون خطى علي (ع) وينهلون من معينه ولم تكن ثورتهم الا من اجل العدالة الاسلامية والاحتفاظ بموارد الدولة لمصلحة الاسلام والمسلمين والغاء جميع الامتيازات التي حاربها الاسلام وأعادها الحزب الاموي الحاكم بأبشع صورها وأشكالها، اما ما قيل حول الموقفين موقف ابي ذر وعمار بن ياسر في تلك الفترة من حياتهما بأن موقف ابي ذر كان يتجه الى الاشتراكية ويدعو اليها، بينما كان عمار بن ياسر ثائرا على المترفين من قريش لانهم كانوا بنظره يبطنون الشرك ويتظاهرون بالاسلام، ولم يكن متحمسا الى الاشتراكية كأبي ذر رحمه الله كما ذهب الى ذلك جماعة من الكتاب المحدثين، وعزا بعضهم هاتين الظاهرتين في ثورتي عمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري الى البيئة التي رافقت حياة كل منهما، فأبو ذر من حيث كونه بدويا على حد تعبير الدكتور الوردي في كتابه وعاظ السلاطين، وقد اعتاد حياة القبيلة التي كانت تقوم على المساواة بين ابناء القبيلة الواحدة والاشتراك في غنائمها ومرافقها على اساس متعارف بينهم، ومن اجل ذلك كان في ثورته على عثمان وحاشيته يتجه الى الاشتراكية وايثار العدل والمساواة في توزيع المال. اما عمار بن ياسر فقد كان حضريا وعاش هو وأبوه وأمه في مكة تحت رحمة القرشيين، وقد لاقوا جميعهم من الاضطهاد والتعذيب على أيدي القرشيين ما أودى

بحياة أبويه، ولم يكن مطمئنا لاسلامهم، وكان يستنتج عدم ايمانهم بالاسلام من استهتارهم بتعاليمه واستغلالهم لجميع موارد الدولة ومقدراتها، لذلك فقد اتسمت ثورته عليهم بالحقد، ولم يكن متحمسا للاشتراكية في توزيع المال بقدر حماسه لدعوتهم الى تصحيح ايمانهم بالاسلام ومبادئه الى غير ذلك مما قيل حول اختلاف مواقف الطرفين من عثمان ومن احاط به من القرشيين، هذا التصنيف لمواقف عمار وأبي ذر من عثمان وبطانته في منتهى السطحية والغرابة ذلك لان ثورتهما على الاوضاع الفاسدة يومذاك مستوحاة من الاسلام الذي الغى جميع الامتيازات الطبقية والعنصرية التي كانت سائدة قبل الاسلام وأحل محلها العدالة الاجتماعية والمساواة بين جميع الناس في الحقوق والواجبات، وكما ان ابو ذر يطالب بحقوق الفقراء في اموال الاغنياء كما جاء في كتاب الله وتوزيع موارد الدولة توزيعاً عادلاً على جميع الطبقات بالتساوي بين ما يسمونهم بالموالي والسادة والقرشيين وغيرهم، ويندد باستغلال الخليفة وحواشيه لمقدرات الامة واستهتارهم بحقوقها، كان عمار ابن ياسر يطالب بذلك ويندد بتلك الطغمة المحيطة بعثمان لانها استأثرت بالقسم الاكبر من تلك الاموال كما تشهد بذلك مواقفه مع الخليفة التي تعرض من اجلها لسياطهم وتعذيبهم، وليس فيها ما يشير من قريب او بعيد الى انها كانت من اجل مواقف القرشيين منه ومن ابيه وأمه في فجر الدعوة، وهو ارفع شأنا من ان يستغل الظروف للتنفيس عن حقده الدفين على القرشيين الذين قتلوا أباه وأمه وكادوا ان يلحقوه بهما لولا انه اتّقاهم وتظاهر بالبراءة من محمد واسلامه وأن يقتص الحق من غير غرمائه، بل كانت انتفاضتهما كما تؤكد جميع المصادر من اجل الاسلام والمسلمين وحقوق الفقراء والمحرومين والمعذبين، وأين هذا من اشتراكية الشيوعيين الهوجاء التي تحارب اهل الملكية وتسخّر الشعوب لفئات مخصوصة وتخنق الحريات والانتفاضات الشعبية التي تطالب بالتحرر من تلك الانظمة الجائرة التي فرضت على الشعوب بأسلحة الدمار والخراب.

ان ابا ذر رحمه الله كان يقف على ابواب الحاكمين في المدينة والشام يتلو الآية، ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**﴾، ولم يكن يعني بذلك من يملكون بجدهم وجهودهم وبالطرق المشروعة، وانما كان يعني اولئك الذين كانوا يستغلون موارد الدولة وغنائم المجاهدين لشهواتهم ويتجاهلون آلاف الفقراء ممن كانوا يقاسون من آلام الحاجة والفقر والجوع.

لقد كان يعني اولئك الذين اعادوا الجاهلية ونزعاتها بأقبح صورها وأشكالها ويقولون: ان السواد بستان لقريش، ويحتقرون الذين اعتنقوا الاسلام من بقية الامم ويسمونهم بالموالي والنبط والحمراء وما الى ذلك مما يشعر بتحقيرهم ويرددون المثل القائل: لا يقطع الصلاة الا ثلاثة: كلب او حمار او مولى، وان السواد فيء أفاءه الله علينا.

انه كان يعني هؤلاء الذين حكموا بهذه الروح اللئيمة الحاقدة وكان عهدهم انتكاسا مكشوفا للاسلام الذي ساوى بين السادة والعبيد والحاكم والمحكوم وجميع بني الانسان، هذا الاسلام الذي دفن مع محمد وعلي في قبريهما، وأصبح اسلامهم الذي تستر به لا يختلف عن الكسروية الا بطلاء خفيف من الطقوس كان هؤلاء يستعبدون الانسان باسمها وأولئك يستعبدونه باسم هرمز.

ان ابا ذر رحمه الله كان يعني اولئك الذين حاربوا محمدا ورسالته السمحاء اكثر من عشرين عاما وبعد ان قهرهم ودخلوا فيه مرغمين استغلوها لمصلحتهم واستعادة جميع ما كان في المجتمع البدوي من تراث وحاولوا ان يجعلوا من محمد (ص) بطلا قوميا أمثال جنكيزخان لا من اصحاب الرسالات الذين ارسلوا لجميع بني الانسان ولخير الانسانية جمعاء ورحمة للعالمين.

ومهما كان الحال فالعدالة الاسلامية التي كان ينشدها ابو ذر وعمار بن ياسر ورفاقهما الابرار الذين كانوا يترسّمون خطىٰ علي (ع) وينهلون من معينه معين الاسلام هي التي تحفظ لكل انسان حقه وتدفعه الى العمل المنتج الذي يحفظ له كرامته وعترته وتضع الحدود لصلات الحاكمين بالمحكومين والمحكومين بعضهم مع بعض وبها وحدها تحل مشكلة البشرية من جوع واستغلال وحروب هوجاء تسيرها المصالح والانانيات لتقضي على الملايين من الابرياء لا بالرأسمالية المستغلة ولا بالشيوعية الضالة التي تحارب الاديان والقيم، ولا بالاشتراكية التي يتاجر بها الحاكمون في عصرنا الحالي.

كما وان اسناد الثورة على عثمان وطغمته الى عبدالله بن سبأ الدخيل على الاسلام كما تزعم رواية سيف بن عمر التي اعتمدها اكثر المؤرخين والكتاب وكأنها من وحي الله المنزل وانه هو الذي اخترع فكرة الوصاية لعلي (ع) على حد تعبيرهم وراح يتجول في الامصار يؤلب الناس على عثمان ويشحنهم بالحقد عليه حتى اجتمعوا على قتاله، وكان على رأس وفد العراق السبئي مالك الاشتر على حد تعبير محب الدين الخطيب في كتابه العواصم من القواصم وقاد الثورة في المدينة ابو ذر

وعمار بن ياسر، ومالك الاشتر وغيره ممن تسربت الى عقولهم فكرة الوصاية التي اخترعها اليهودي الدخيل عبدالله بن سبأ كما تزعم رواية سيف بن عمر الذي عاش كل حياته في النصف الاول من القرن الثاني، لقد نسبوها لابن سبأ وعمار بن ياسر وأبي ذر بالرغم من اشتراك المهاجرين بالثورة على عثمان وتحسسهم بالواقع الاليم الذي انتهت اليه الاوضاع الفاسدة في المدينة وخارجها من تصرفات مروان ابن الحكم وبقية الامويين واسرافهم في البغي والمنكرات والتسلط، وبالرغم من ان مواقف عمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري والاشتر وغيره من وفود الامصار من عثمان كانت تتسم بالاعتدال اذا قيست بمواقف طلحة والزبير وعائشة لانهم لم يطلبوا من الخليفة اكثر من تطبيق العدالة ومحاسبة ذويه وأنصاره على تصرفاتهم ووضع حد لها، او التنحي وترك الامر للمسلمين ليختاروا لانفسهم من يرونه صالحاً للقيام بمهمات الخلافة، ولم يحدّث التاريخ عن علي (ع) وعمار بن ياسر وأبي ذر وغيرهما من الموالين لعلي (ع) ان احدا منهم كان يعمل للمصير الذي انتهى اليه ابن عفان بل كانت جهودهم متضافرة لإصلاح الاوضاع المتردية في المدينة وخارجها ووضع حد للفساد الذي استشرى في جسم الدولة من تصرفات الامويين الذين استغلوا خلافة عثمان وضعفه وأسرفوا في البغي والمنكرات. وقد وقف امير المؤمنين (ع) موقفاً حازماً في سبيل ذلك، وكان كالبريد الساعي بين الخليفة والثائرين من مختلف الامصار لوضع حد لتلك المأساة وحلها بالطرق التي تحفظ للخليفة حقه وحرمته وتتناسب مع مصلحة المسلمين، وكان كلما وضع حلا ووافق عليه الطرفان ينقضه مروان ويشحنه على المهاجرين والانصار ووفود الامصار فتزداد الامور تعقيدا وتأزما، وأخيرا لم يجد سبيلا الا الانسحاب من المعركة هو وشيعته وأنصاره، وفيما كان يعمل لحل الازمة حلا سلمياً ويبذل كل ما لديه من جهد لانهائها كان طلحة والزبير وعائشة من أشد الناس تحريضا على قتل عثمان، ومعاوية يضع العراقيل في طريق الصلح وعلى اتصال دائم بالمتطرفين من دعاة الفتنة كمروان وأمثاله حتى لا يخضع الخليفة لاي طلب يقدمه اصحاب النوايا الطيبة والاسراع في الاجهاز عليه، ويبلغ الحال بعائشة انها كانت تهتف بقادة الوفود الزاحفة قائلة: اقتلوا نعثلا قتله الله.

ومع كل ذلك فقد اسند الامويون جميع ما حدث في تلك المعركة لعلي (ع) ولعبدالله بن سبأ الذي اخترع فكرة الوصاية وراح يتجول في الامصار ويحرضهم على مهاجمته وقتله. ويبدو من ملابسات تلك الاحداث ان الذين نسبوها الى عبد الله بن سبأ تارة وابن السوداء اخرى كانوا يعنون عمار بن ياسر لان الحاقدين عليه

كانوا احيانا ينسبونه الى أمه تحقيرا لـه، وقد اعتـاد العرب ان ينسبـوا أخصامهم الى اب وضيع او ام وضيعة حتى ان قريشا في مـطلع الدعـوة كانت تنسب النبي (ص) الى ابي كبشـة زوج مرضعتـه حليمة السعـدية وتنسب عمـر بن الخطاب الى جـدته حنتمة، وكان عمار بن ياسر ثقيلا على القرشيين لانه كان يندد بهم ويتهمهم بالتآمر عـلى علي (ع) واقصـائه عن الخـلافة، وقـد سمـوه ابن السـوداء وابن سميـة وابن المتكـأ، وقـد سـماه عثمان بـابن السـوداء في حيـاة النبي وفي السنـة التي دخـل النبي (ص) فيهـا المدينـة وشرع في بناء المسجـد، على أثـر جـدال دار بـين عثمان وعمار، وبهذه المناسبة قال النبي (ص): ما لهم ولعمار يدعـوهم الى الجنة ويـدعونـه الى النار ان عمارا جلدة ما بين عيني وأنفي وكان هو يغلب عليه السواد ويوصف به احيانا.

وجاء في كتاب التخاصم بين أمية وهاشم ان يوسف بن عمرو عـامل هشـام ابن الحكم على الكوفة كان يقـول في بعض خطب الجمعـة: ان اول من فتح عـلى النـاس باب الفتنـة وسفك الـدماء عـلي بن ابي طالب وصـاحبه الـزنجي، كما وان تسميته بابن سبأ جاءته من ناحية كونه يماني الاصل وكل يماني كان ينسب الى سبأ، هذا بالاضافة الى ان سبأ من جملة أجداده ويقع في سلسلتهم، فقد جـاء في طبقات ابن سعد انه ابن ياسر بن مالك بن عوف بن حارثة بن عامر بن مـالك بن غـريب بن كهلان بن سبأ، وقد أكد انتسـابه الى سبـأ كل من صـاحب فتوح البلدان وابن خلدون.

اما تسميته بعبد الله فقد كـان التعبير ولا يـزال عن الشخص بعبدالله سـائغا ومستحسنا وكانت جميع الرسـائل التي تصـدر من الخلفاء والامـراء والقادة تصـدر غالبا بقولهم من عبدالله فلان لعبدالله فـلان وأكثر النـاس اذا لم يشأ ان يفصـح عن اسمه يسمي نفسه بعبدالله، هذا بالاضافة الى انه لـو كان المصـدر لتلك الاحداث ذلك اليهودي المـزعوم لـورد ذكره عـلى لسان الـذين دونوا التـاريخ خـلال النصف الثاني من القرن الاول الهجري كعروة بن الزبير وأبي بكر بن حزم والزهري وموسى ابن عقبة وأبان بن عثمان وغيرهم في حين ان التاريخ الاسلامي لم يعـرف عن ذلك البطل الاسطوري شيئا قبل النصف الاول من القـرن الثاني الـذي ظهر فيـه سيف ابن عمرو الذي تفرد بتلك الاسطورة وعنه اخذها المؤرخون والمحدثون من اعـداء التشيع والشيعة.

وتؤكد جميع المصادر التي تحدثت عن سيف بن عمـرو بأنـه كان معـروفا بـين

المحدثين والباحثين في احوال الرجال والرواة بالكذب والـتزوير والتملق للحـاكمين من بني العباس الذين كانوا اسوأ من الامويين مع أخصامهم العلويين وقـد تحدثنـا عن هذا البطل الاسطوري وما قيل حوله بشكل اوسع وأشمل في كتابنا بين التشيع والتصوف وقد جرنا الحـديث عن تلك الثورة التي كـان عمار بن يـاسر وأبو ذر من أخلص قادتها الى اعطاء هذه الصورة الموجزة عمن يسمونـه ابن السوداء تـارة وابن سبأ اخرى الذي اخترع فكرة الوصاية لعلي وجعله في مستوى الآلهة كما يزعمون.

ومهما كان الحال فلقد مضى ابو ذر لسبيله والثورة عـلى الظلم والفسـاد آخذة في الاتساع والاستعداد لحسم المـوقف وبقي عمار بن يـاسر واخوانـه من المهاجـرين والانصـار وقادة الثـورة على مـواقفهم من عثمان وبـطانته يـطالبون بتـطبيق العدالـة وإنصاف المظلومين، وعلي (ع) كالبريد الساعي بينهم وبين الخليفة لا يرجو له ذلك المصير الذي انتهى اليه وهو على ابواب التسعـين من عمره، ولكن الامـويين وعـلى رأسهم معاوية يعرفون بأنه لو مات عـلى فراشـه يفقدون جميـع الفرص التي تمكنهم من الاستيـلاء على السلطة، وستنتقـل الى علي (ع) بـاجماع الامـة نظرا لجهـوده في سبيـل الاسلام وتضحيـاته ومن غـير الممكن ان يفكر احـد منهم في معاويـة وكلهم يعلم بأنه وأباه من ألد اعداء الاسلام، وفي الوقت ذاته لا يبقى له سبيل للمـطالبة بها والاستيلاء عليها ما لم يقتـل على يـد الثوار ليتخـذ من قتله وسيلة للتشنيع عـلى عـلي وأصحابـه وكان قـد طلب من عثمان ان يجعـل له الحق في المـطالبة بـدمـه اذا انتهت حياته على يد الثائرين على سياسته وبطانته.

وكان مروان كلما رآهم مجتمعين يتداولون الامر فيـما بينهم لحل النـزاع الذي يحفظ للأمة حقـوقها وللسلطة كـرامتها ورأى بـوادر الانفراج تلوح في الافق يصرخ فيهم قائلا: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب، شـاهت الوجـوه لقد جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا ارجعوا الى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبـين على مـا في أيدينا.

لقد كان ابن الحكم وابن الوزغ يعتبران خلافة عثمان ملكا له ولأسرته ويعتبر المـطالبين بـالعدالـة لصوصـا معتدين يحـاولون في طلبهم هـذا ان ينهبوا ملك أميـة والأوزاغ، ومـرة اخرى صـاح بهم في وسط المسجد وهم يحـاولـون التفـاوض مـع الخليفـة للتوصـل الى حل سليم وعـادل، صاح بهم قـائلا: ان شئتم حكّمنـا بيننا وبينكم السيف، وكان بالاضافة الى ذلك عندما يتم الاتفاق بين الطرفـين بواسـطة امير المؤمنين ويكتب لهم كتابا بمـطالبهم يكتب ابن الحكم الى الولاة في الامصـار بما

يناقض كتاب الخليفة ويوقعه بخاتمه ويأمر الولاة بمعاقبة الوفود عند رجوعهم كما يأمر حاملي تلك الرسائل بالسير الى جانب الوفود الراجعة واختراق صفوفهم بين الحين والآخر ليثيروا انتباهم ويطلعوا على ما معهم من الرسائل، وتم لمروان بن الحكم ما اراد بعد ان استولت الوفود على تلك الرسائل الموقعة بخاتم الخليفة وكان لا بد للوفود ان ترجع وتجدد الحصار على الخليفة.

ان حواشي الخليفة لا يريدون من الولاة ان يقتلوا الثوار ولا يرضون بقتلهم لان الثورة اذا انتهت بالحلول السلمية لا يستفيدون منها وكانوا يتمنون لعائشة ان تقتل في البصرة بالاضافة الى قتل عثمان ليضعوا قميصها الى جانب قميص عثمان على منبر معاوية في الشام وقد صارحها معاوية بذلك عندما دخل عليها بعد عام الجماعة كما جاء ذلك في المجلد الاول من تهذيب الكامل للمبرد ولما سألته عن اسباب تمنياته هذه قائلة ولم ذاك لا ابا لك؟ فقال كنت تموتين وتدخلين الجنة ونجعلك من اكبر وسائل التشنيع على علي بن ابي طالب.

انهم لا يريدون ان يقتلوا الثوار، بل يريدون من الثوار ان يرجعوا الى المدينة ليقتل الخليفة وهم فيها قبل ان يموت على فراشه اما من يقتله وكيف يقتل فمعاوية ومروان وبقية الامويين كانوا قد أعدوا لكل امر عدته، لقد دنا شيخ صحابي من دار عثمان في آخر ساعات الحصار وصاح بعثمان ينصحه بأن يخلع نفسه حقنا للدماء فرمي هذا الشيخ بسهم من دار عثمان وألقي عليه حجر فمات لساعته، وبلا شك فان الثوار لم يكونوا داخل الدار فمن الذي رمى السهم والحجر على الشيخ الصحابي الذي كان يحاول وضع حد للثورة؟ الظاهر كما يبدو من مواقف الامويين وحرصهم على تعقيد الامور ان الذي رماه هو مروان بن الحكم او غيره من الامويين، وهم الذين فتحوا الباب للثوار لا عثمان بن عفان كما يدعي ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم، ولا مراء في ان الحصار كان معركة من المعارك الحاسمة في التاريخ فالثوار لم يكونوا يريدون من عثمان اكثر من ان يتخلى عن مركزه ليتولاه غيره ممن يجتمع عليه المسلمون، والحزب الاموي من قريش كما تؤكد الارقام والملابسات يريد ان يتأزم الموقف ليقتل عثمان ويحملوا عليا وأنصاره السياسيين على حد زعمهم مسؤولية قتله لكي يستعينوا بذلك على القضاء على نتائج الثورة الذي كان من ابرز اهدافها استتباب الامر لعلي (ع) وإقصاء الأمويين عن الحكم الى حيث لا رجعة، ولكن شاء الله ان يتم لهم ما رادوا.

بين الخلافة والثورة

لقد استحوذ الحزب الاموي على جميع شؤون الدولة ومواردها في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان وخلال العهد الاموي من بعده وراحوا يعملون ليجعلوا من الاسلام دولة قومية لمصلحة العرب ولقريش في المرحلة الاولى وجعلوا يتباهون بذلك ويحتقرون غيرهم ممن يدخلون الاسلام من تلك الدول المغلوبة ويسمونهم بالموالي وبالحمراء وما الى ذلك من الاسماء التي تشير الى إذلالهم واحتقارهم، ومضوا على ذلك حتى مع العرب الذين لا ينتسبون لقريش فضلا عن الحزب الاموي الحاكم، وجعلوا يتباهون بأسرافهم واستهتارهم بكرامة الانسان ويقولون السواد بستان لقريش وفيء أفاءه الله عليها، لقد استحوذت قريش على الحكم بعد علي (ع) وجعلت من الاسلام دولة لا تختلف عن دولة جنكيزخان وتيمورلنك وهولاكو الا ببعض الطقوس وبلغت جيوشها تخوم الصين من جهة وسهول فرنسا من الجهة الاخرى وملكوا آلاف العبيد والجواري إلى جانب البذخ والترف اللذين لم يشهد التاريخ نظيرا لهما في حياة الحكام وفراعنة العصور.

لقد غنم موسى بن نصير من غزواته لافريقيا ثلاثمائة الف اسير ورجع من الاندلس ومعه من السبايا ثلاثون الف عذراء فذهبن الى قصور الخليفة وحواشيه وأسرته وبقي الفقراء كما كانوا يفترشون التراب ويطبخون الماء، وأهينت امرأة مسلمة في بلاد الروم خلال عهد المعتصم قيل انها صاحت وامعتصماه، فذهب لنجدتها بجيش عظيم فأخذ بثأرها ورجع الى مقره يجر وراءه آلاف السبايا والاسرى مكبلين بسلاسل الحديد وكلها كانت تذهب لمصلحة القواد والامراء وقصور الخلفاء وظل الفقراء كما كانوا، وفي الوقت ذاته كان اولئك الجنود الذين

ذهبوا معه لنجدة تلك المرأة كانوا يتحرشون بالنساء المسلمات والغلمان في شوارع بغداد وينتهكون حرماتهم ويؤذون الناس في الاسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك اذى كبيراً ويسقط الواحد بعد الواحد قتيلا في الطرقات، ويقال ان المعتصم كان يسير بموكبه في شوارع بغداد فاستوقفه شيخ وقال له: لا جزاك الله عن الجوار خيراً جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك وأسكنتهم بيننا فأيتمت صبياننا وأرعبت نساءنا وقتلت رجالنا.

فالمعتصم لم يكن يبالي اذا تسلّط جنوده على نساء بغداد المسلمات وعلى شيوخها وضعفائها، وفي الوقت ذاته نراه يسرع الى اغاثة امرأة في اقصى بلاد العالم ويحشد في سبيلها اولئك الجنود الغاشمين والله يعلم ماذا فعلوا بأهالي تلك البلاد التي مروا بها وفتحوها وكيف استطاعوا الاستيلاء على بناتها ونسائها وساقوها معهم لتباع في اسواق النخاسين في دمشق وبغداد لمصلحة الحاكمين كما تباع الأباعر والاغنام.

لقد توالت الفتوحات في العصر الاموي وبلغت جيوش اولئك الغزاة تخوم الصين وسهول فرنسا من الجهة الاخرى، واستولى المسلمون على مئات الالوف من الجواري والعبيد والأباعر وذهب معظم تلك الغنائم الى قصور الحاكمين وجيوب المترفين من حواشي الخليفة وأسرته وبقي الفقراء كما كانوا بستانا لقريش.

وقد آن لكتاب العرب ودكاترتهم الذين يفتحون أعينهم وقلوبهم حينما يمرون بتلك الفتوحات لقد آن لهم ان يقرأوا تاريخهم ويدرسوه دراسة جديدة بلغة المنطق والعقل لا بلغة العاطفة التي كانت ولا تزال تسيطر عليهم.

لقد آن أوان اليقظة الفكرية التي تستلهم من التاريخ دروسا تستفيد منها الانسانية عبر تاريخها الطويل ومن العار عليهم ان يتبجحوا بتلك الفتوحات التي تنسب لأجدادهم، والتي لو درسوها بلغة المنطق والعقل لنكسوا رؤوسهم خزيا وخجلا من الاسلام ونبي الاسلام وقادته المخلصين ومن جميع ذوي الضمائر الحية من بني الانسان، ومن المؤسف حقا ان نرى العرب حتى في ايامنا هذه وعصرنا الحاضر عصر الدكاترة لا يزالون يمجدون ذكرى بني أمية وفتوحاتهم وينسون علي ابن ابي طالب وبنيه الذين كانوا يجسدون العدالة الاجتماعية والمثل العليا ولا يزال تاريخهم من أنصع الصفحات في تاريخ البشرية وأغناها بالقيم والمثل التي نادى بها الاسلام وحارب من اجلها، ولولا سيرتهم ومواقفهم من الظلم والظالمين ومن الطغاة والمترفين لكان الاسلام من طراز تلك الاديان التي لا تهتم الا بالسيطرة على

الشعوب واستغلالها لمصلحة الفئات الحاكمة وأعوانهم، ولاتنفت عنه صفة الرحمة التي بعث الله من اجلها محمد بن عبد الله حيث قال: وما ارسلناك الا رحمة للعالمين.

انهم يمجدون ذكر الامويين وفتوحاتهم واستعمارهم لتلك الشعوب المغلوبة واستعبادهم لسكانها بكل ما تعنيه هذه الكلمة ويتجاهلون عليا (ع) الذي لو قدر له ان ينجح فيما كان يعمل من اجله لسار الاسلام في طريقه الى أبعد الشعوب وأقصاها ووجد العالم فيه كل أمانيه وآماله.

انهم يمجدون ذكراهم لانهم قد شيدوا على حدّ زعمهم امبراطورية كبرى تمتد الى تخوم الصين من جهة والى سهول فرنسا من الجهة الاخرى ولا ينظرون الى ما فعلته تلك الجيوش الغازية بتلك البلاد وما ارتكبته مع اهلها من شيوخ ونساء وأطفال من الجرائم التي لم يحدّث التاريخ بمثلها.

ان الذين لا يزالون يمجدون الامويين وفتوحاتهم وغزواتهم مع ما رافقها من ظلم واستغلال واستعباد وتشريد نجدهم في الوقت ذاته يكافحون المستعمر الغاشم ويندِّدون باستغلاله وتسلطه على شعوبهم وبلادهم في حين ان المستعمرين في عصر هؤلاء الذين يتباهون ويتفاخرون بفتوحات الامويين وغزواتهم لم يرتكبوا في البلاد المستعمرة من الجرائم والمنكرات شيئا يذكر بالقياس الى جرائم الاوائل من امويين وعباسيين باسم الاسلام ولم يكن تنديد هؤلاء بالمستعمر ومكافحته والتشهير به الا لانه موجه ضدهم ولا يلتقي مع مصالحهم ويمس سيادتهم على ارضهم وبلادهم، اما استغلال الامويين وغيرهم من المسلمين للشعوب واستعبادهم للانسان وسوقهم عشرات الالوف من الجواري الابكار الى قصور الخلفاء والقواد وأسواق النخاسين فلأنه منهم وعلى غيرهم ويعود بالفائدة عليهم فلا يجوز ان ينساه لهم التاريخ.

ان هؤلاء الذين يمجدون الامويين وفتوحاتهم كما يندِّدون بالمستعمر يندِّدون أيضاً بغزوات تيمورلنك لبلادهم ويكيلون له اللعنات ويعدونه من أظلم خلق الله وألعنهم وأخبثهم لانه قتل وضرب وأسر واستعبد، ويمجدون في الوقت ذاته غزوات بني امية الى افريقيا والاندلس وغيرها وجميع سياساتهم الظالمة التي استعبدوا فيها الشعوب وانتكهوا فيها الحرمات والمقدسات، انهم لا يمجدون اولئك ولا يكيلون اللعنات لهؤلاء الا لان غزواتهم ملأت أسواق العرب بالجواري والعبيد والاسرى بما لم تتسع له قصور الخلفاء والامراء وقادة تلك الجيوش الغازية ويندِّدون بغزوات تيمورلنك لانها ضدهم ولم يستفيدوا منها والانسان في الغالب اسير لمصالحه

ويتحدث ويعمل من زواياتها، فأهالي سمرقند كانوا يرون انفسهم من السعداء في عهد مليكهم بما وفره لهم عهده من الغنائم والاسرى، ولما مات شيدوا له قبره وبنوا عليه قبة خضراء لا تزال العامة يحجون اليه وينذرون له ويتبركون به، وعندما نقارن بين الغزوات والفتوحات التي حدثت على أيدي الامويين والتي لا يزال العرب يمجدونها ويتباهون بها وبين غزوات تيمورلنك وجنكيزخان وغيرهما من الغزاة لا نجد فرقا بينها ان لم تكن غزوات الامويين ومعاملتهم لتلك الامم المغلوبة اقسى وأسوأ من معاملات اولئك لاهالي البلاد التي دخلوها وسيطروا عليها.

ان الوحشية التي رافقت غزوات الامويين لم تقتصر على تلك البلاد التي كانوا يغزونها لادخالها في الاسلام بل كانت حتى لاي بلد اسلامي ولاقدس بلاد المسلمين اذا تحرك ضدهم مطالبا بالعدل ووضع حد لظلم الولاة واستغلالهم لموارد البلاد، لقد كانوا يعاملونهم بالاسلوب والقسوة نفسها التي كانوا يعاملون بها تلك الامم التي كانوا يسيطرون عليها باسم الاسلام.

لقد حدّث المؤرخون والرواة ان اهالي المدينة بعد الصدمة التي أحسوا بوقعها لمصرع الحسين (ع) واخوته وبنيه وأنصاره على يد الامويين وأعوانهم عبيد المال والشهوات وبعد استهتار يزيد بالقيم والمقدسات الاسلامية وحقوق العباد وتجاهره بالالحاد والفجور اعلنوا العصيان وأخرجوا عامله من المدينة عثمان بن محمد بن ابي سفيان ومن فيها من الامويين كمروان بن الحكم وغيره، وقاد حركة التمرد عبد الله ابن مطيع العدوي وعبد الله بن حنظلة الانصاري المعروف بالغسيل[1] وذلك سنة ٦٤ من الهجرة فأرسل اليها يزيد بن معاوية جيوشه بقيادة مسلم بن عقبة المري وأوصاه بأن يستعمل معهم جميع اساليب العنف والقسوة ويأخذ منهم البيعة على انهم عبيد ليزيد ومن يأتي بعده من الامويين، ولم يستطع اهلها ان يثبتوا في وجه ذلك الجيش المؤلف من عشرات الالوف اكثر من ساعات قلائل وانهزم الباقون

(١) وإنما يُعرف حنظلة بغسيل الملائكة لأنه لحق بالمسلمين في معركة أحد وكان النبي (ص) قد أذن له بالتأخر ريثما تزف إليه زوجته ولكن نفسه الكبيرة أبت عليه أن يبقى الى جانب زوجته ورسول الله والمسلمون يحاربون في أحد جيش أبي سفيان وآكلة الأكباد وزوجته ومشركي قريش فترك زوجته ليلة زفافها بعد أن اتصل بها والتحق بصفوف المسلمين قبل أن يقتل وكانت نهايته في تلك المعركة، ولما أخبروا النبي بحاله قال: لقد غسلته الملائكة ودفن مع القتلى بدمائه فصار يعرف بين المسلمين بغسيل الملائكة.

منهم ودخلت الجيوش المسلمة مدينة الرسول وسباها قائدهم نتنة تحديا لرسول الله (ص) وكان قد سباها طيبة وأباحها بكل ما لهذه الكلمة من معنى لجيشه ثلاثة ايام، واستعرض اهلها بالسيف جزرا كما تجزر المواشي حتى ساخت الاقدام بالدماء على حد تعبير بعض المؤرخين وقضي على اكثر من فيها من ابناء المهاجرين والانصار وسباه الناس مسرفا بعد تلك المجزرة الرهيبة، ويقول المؤرخون ان فتاة من بنات الانصار لاذت بمحراب رسول الله فلحق بها جندي من اولئك الغزاة وافترشها بالمحراب، كما يروي الرواة ان جنديا من جنود ذلك الجيش الذي لا يزال العرب يتغنون ويفتخرون بفتوحاته وما قدمه للاسلام والمسلمين من الغنائم دخل على امرأة من نساء الانصار حديثة العهد بالولادة وعلى ثديها صبي لها فطلب منها مالا، فقالت له: والله ما تركت لنا جيوش الشام شيئا، فغضب ومد يده الى الصبي وهو في حضنها والثدي في فمه فجذبه من حجرها وضرب به الحائط فانتشر دماغه على الارض الى غير ذلك من الفظائع التي لم يحدّث التاريخ بأسوأ منها في تاريخ الحكام وفراعنة العصور.

وبلا شك فان الجنود الذين يفعلون مثل ذلك في مدينة الرسول (ص) ومع الصحابة وأبنائهم ونسائهم يفعلون مثله وأسوأ منه فيما وراء المدينة من البلاد التي كانوا يدخلونها فاتحين باسم الاسلام كبلاد الفرس والرومان والاندلس وغيرها. وان الثلاثين الف عذراء التي حملها معه موسى بن نصير من الاندلس لم يقعن في اسره باختيارهن وإرادتهن ولا بد وأن يكون قد أوعز لجنده الفاتح بأسرهن من بيوتهن بعد ان ينهبوا بيوتهن ويقتلوا كل من يعارضهم من الشيوخ والنساء والاطفال، ويفعلوا ما يشتهون بالنساء والغلمان.

ان وراء أسر كل فتاة من الثلاثين الف فتاة اللواتي دخلن قصور الخليفة وقادة ذلك الجيش قصة طويلة من النهب وسفك الدماء وانتهاك الحرمات، وقد فعل اولئك الفاتحون كل ذلك باسم الاسلام دين العدل والرحمة والانسانية، ولكنهم بما ارتكبوه في فتوحاتهم وغزواتهم من الجرائم والمنكرات قد تركوا في أذهان تلك الامم المغلوبة صورا كريهة عن الاسلام لم تعرف البشرية في تاريخها الطويل آلاماً أقبح منها، وبعد ان استقر الاسلام في تلك البلاد واستسلم اهلها للواقع الجديد كان الحزب القرشي الحاكم ومؤيدوه وأعوانه ينظرون اليهم بازدراء واحتقار ويسمونهم بالموالي تارة وبالحمراء اخرى وكأنهم أناس من نوع آخر.

لقد احتقرت قريش تلك الامم التي غزاها الاسلام وسيطر عليها وفضلت

عليهم حتى اعراب البادية الجفاة الغلاظ مع انهم كانوا من ذوي الحضارات والمدنيات التي لم يكن العرب يحلمون بها وكان من نتائج اضطهادهم واحتقارهم واستغلالهم لاولئك الذين أرغموا على الدخول في الاسلام وتسميتهم بالعبيد تارة وبالحمراء والموالي اخرى، كان من نتيجة ذلك ان اتجه اولئك الموالي الى العمل في شتى الميادين واشتركوا في اكثر الحركات السياسية والعسكرية التي كانت تظهر هنا وهناك نتيجة لظلم الحاكمين وطغيانهم وتسلطهم على كرامة الانسان وخيرات الارض كالانتفاضات الشيعية وتحركات الخوارج وغيرهما، وكان الموالي يشكلون القوة الضاربة في ثورة المختار الثقفي التي غلب عليها طابع الاخذ بالثأر من قتلة الحسين (ع) واستمروا في تحركاتهم ومساندتهم لكل ثائر على الامويين الذين اضطهدوهم وكانوا يرونهم بستانا لقريش وفيئا أفاءه الله عليها، كما انضم فريق منهم الى الخوارج وانصرف الباقون الى طلب الحديث وجمعه ودراسته وأصبح اكثر علماء الامصار منهم، وجاء في العقد الفريد ومناقب ابي حنيفة للمكي ان عيسى بن موسى سأل ابن ابي ليلى عن فقهاء البلدان فعد له جميع الفقهاء في بلاد المسلمين مدنها وعواصمها فاذا هم جميعا من الموالي فاسودّ وجهه ولاحت عليه علامة الشر ولما وصل الى ابراهيم النخعي والشعبي وهما عربيان كبّر لذلك وهدأت اعصابه، وقد ارادوا في جميع تحركاتهم ان يستعيدوا كرامتهم وانسانيتهم التي كان الحزب القرشي الحاكم يحاول الإجهاز عليها ونجحوا في ذلك وساهموا مساهمة فعالة في القضاء على الامويين انفسهم الى جانب العلويين والعباسيين، ولا احسب ان شيئا أنفع للافكار والمبادىء من محاربتها ومطاردتها، لقد كان الامويون يطاردون الشيعة ويحاربون التشيع وفرضوا على المسلمين في شرق البلاد وغربها سب علي بن ابي طالب وأهل البيت على المنابر وفي جميع المناسبات وملأوا السجون والمعتقلات بالمتشيعين لعلي وآله حتى كان الرجل يتمنى ان يتهم بالفسق والزندقة ولا يتهم بالتشيع وكانوا بذلك يمكنون التشيع وحب علي وآله في النفوس والقلوب من حيث لا يريدون وكأنهم ينشرون فضائله وآثاره الخالدة من على منابرهم ومجالسهم حتى امتلأت بها كتب الحديث ومجاميع التاريخ.

وفي ذلك يقول الشعبي لولده: انظر يا بني الى علي وأولاده فان بني أمية لم يزالوا يجهدون في كتم فضائلهم واحتقارهم وسبهم وكأنما يأخذون بضبعهم الى السماء، وما زالوا يبذلون جميع امكانياتهم لنشر فضائل أسلافهم فكأنما ينشرون جيفة كما اشرنا الى ذلك خلال الفصول السابقة.

وجاء عن عبد الله بن عروة بن الزبير انه كـان يقول لابنـه: ألا ترى يـا بني الى علي بن ابي طالب ومـا يقول فيـه خطبـاء بني أمية من ذمـه وعيبه وغيبتـه، والله لكأنما يأخذون بناصيته الى السـماء ألا تراهم يـا بني كيف يندبـون موتـاهم وترثيهم شعراؤهم، وهم والله لكأنما يندبون جيف الحمير[1].

وقال النسائي وأبو علي النيسابوري كما جاء في المجلد الثالث من شرح النهج لابن ابي الحديد: لم يرد في حق احد من الصحـابة بـالاحاديث الحسـان كما ورد في حق علي بن ابي طالب (ع) الى غـير ذلك من المقـالات التي تنسب الى جماعـة من المحدثين والفقهاء حول هـذا الموضـوع، وبلا شـك فان لمـواقف الامويـين من علي وبنيه اكبر الاثر في هذه الظاهرة، كما وان نهضة الموالي وتغلغلهم في جميع الاوساط وتفوقهم على العرب في اكثر النواحي كان نتيجـة للاضـطهاد والاذلال اللذين نـالا منهما النصيب الاكبر في العصر الاموي.

لقد اختار الحزب القرشي الحـاكم لنفسه هـذا النوع من السيـاسة العنصريـة الجائرة، وسار علي بن ابي طالب بالعرب وغيرهم مسيرته الخالدة التي تجسد العدالة والمساواة بين جميع الفئات والـطبقات، وحـارب العنصرية والطبقيـة بكل أشكـالها وحينما سألته احدى المرأتين الفقـيرتين ان يفضلهـا على المـرأة الثانيـة كما كـان يفعل الحاكمون من قبله لانها عربية والثانية من المـوالي مدّ يـده الى الارض وتناول حفنـة من التراب وجعل ينـظر فيها، ثم قـال: لا اجد في هـذا التراب فضـلا لأحد عـلى احد الا بالتقوى والاعمال الصالحات، ولو ان الحزب الامـوي قد اتبـع هذه السنـة لارتفـع مجدهم بـارتفاع مجـد الاسلام الـذي سخروه لخـدمـة مصـالـح القـرشيـين والامويين، وأرادوا ان يجعلوا من محمد بن عبد الله (ص) بـطلا قوميـا كتيمورلنـك وجنكيزخان كما ذكرنا من قبل.

واندفع الحـزب الاموي مـع القرشيـين في احتقار المـوالي واضطهـادهم بكل ألوان الاضطهاد، والاضطهـاد مهما طـال امده لا بـد وأن يولـد الانفجار، وحينـما وجدوا السبيل مهيأ للانتقام لكرامتهم التي فقدوها في ظل اسلام الامويين وثبوا مع العلويين والعباسيين ووقفوا الى جانبهم بقلوبهم الحاقدة يطاردون الامـويين وفلولهم من بلد الى بلد وقامت الدولة العباسية على أكتافهم وبسواعدهم وحدث في مـطلع عهدها رد فعل عنيف لمصلحة المـوالي وانتشر الشعوبيـون انتشارا عـظيما طغى عـلى

(١) شرح النهج والطبري وغيرهما من المجاميع.

العرب وعنصريتهم ورجعوا الى الصحاري يرعون الابل كما كانوا في عصورهم الاولى قبل الاسلام.

وجاء في المجلد الاول من ضحى الاسلام ان ابراهيم الإمام زعيم الدعوة العباسية ارسل الى ابي مسلم الخراساني رسالة جاء فيها: ان استطعت ان لا تدع بخراسان احدا يتعلم العربية الا قتلته فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة اشبار تتهمه فاقتله، وعليك بمضر فانهم العدو الغريب الدار فأبد خضراءهم ولا تدع في الارض منهم ديارا.

وقد طبق ابو مسلم في خراسان هذه السياسة المعادية للعرب فقتل، كما جاء في المجلد الخامس من تاريخ ابن الاثير في بضع سنين ستمائة الف رجل من العرب غيلة بغير قتال، وقال قحطبة قائد الثورة على الامويين وهو يخطب في اهالي خراسان كما جاء في صفحة ٣٥ في المجلد الاول من ضحى الاسلام: ان هذه البلاد كانت لآبائكم الاولين وكانوا ينصرون على عدوهم لعدلهم وحسن سيرتهم فلما بدلوا وظلموا سخط الله عليهم وانتزع سلطانهم وسلّط عليهم أذل أمة كانت في الارض عندهم وغلبوهم على بلادهم واسترقوا اولادهم فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم ثم غيروا وبدلوا وجاروا في الحكم وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة الرسول (ص) فسلطكم عليهم لينتقم بكم منهم.

وحينما استولى المنصور على الحكم نفذ سياسة اخيه ابراهيم ازاء العرب تنفيذا صارما وكان له خادم عربي لا يعلم بعروبته فلما علم بذلك طرده من قصره وقال كما جاء في رواية الطبري: لا يدخل قصري عربي يخدم حرمي اخرج عافاك الله واذهب حيث شئت.

ونعود بعد هذه اللمحات عن سيرة القرشيين وطغيانهم الذين حاربهم علي (ع) على تأويل القرآن كما حاربهم مع ابن عمه رسول الله على تنزيله، وعما تركوه للتاريخ والاجيال من صور كريهة لم يحدّث التاريخ بأسوأ منها، تلك الصور التي عرقلت مسيرة الاسلام بوجهه الناصع المشرق وانعكست على المسلمين وحكامهم في مختلف العصور، نعود الى الحديث عن خلافة علي بعد مصرع عثمان بن عفان باعتبارها في واقع الامة ثورة على الظلم والظالمين والمستغلين والطامعين ليس فيها من طبيعة السلطان شيء.

لقد التف المسلمون حول علي (ع) بعد مصرع عثمان بن عفان الذي افرزته

ثورتهم على السياسة الجائرة التي كان يمارسها الحزب القرشي الحاكم، وكان الشعار الذي رفعه العرب يومذاك وطالبوا به هو العدالة الاسلامية التي لا تفرق بين انسان وآخر ولا بين الحاكم والمحكوم، ولم يجدوا من يحقق لهم أمنيتهم هذه ويخلصهم من غطرسة القرشيين وجورهم غيره فتدافعوا نحوه كالسيل المنحدر من الاعالي وهو يحاول ان يتهرب منهم فلم يجد الى ذلك سبيلا.

وقد وصف هو سلام الله عليه تدافع الناس نحوه واصرارهم على بيعته بقوله: فما راعني الا والناس كعرف الضبع ينثالون علي من كل جانب حتى لقد وطىء الحسنان وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم، وتمت بيعتهم له بشكل لم يحصل لاحد من قبله من جميع الفئات بلا استثناء.

وقال البلاذري في انساب الأشراف: لقد بايعه عرب الامصار وأهل بدر وجميع المهاجرين والانصار وظهرت على الجميع علائم الارتياح والتفاؤل بما ستحققه هذه البيعة للمسلمين من سيطرة القانون على الجميع والغاء جميع الامتيازات والفوارق الطبقية الجائرة التي طغت في عهد الخليفة الراحل واستأثرت باهتمام الحزب الاموي المحيط.

وقد وصف الامام (ع) سرور الجماهير ببيعته وارتياحهم لها بقوله: وبلغ من سرور الناس ببيعتهم اياي ان ابتهج بها الصغير وهدج اليها الكبير وتحامل نحوها العليل وحسرت اليها الكعاب.

ووقف كبار الصحابة وأعلامهم ممن كانوا يؤمنون بحقه في الخلافة منذ وفاة النبي (ص) ليعبروا له وللملأ من حوله عن سرورهم واغتباطهم بتلك البيعة التي ستعيد للاسلام مسيرته السليمة العادلة وللمظلومين والمضطهدين حقوقهم السليبة وراحوا يتسابقون الى المنبر للتعبير عن شعورهم واعلان تأييدهم المطلق لجميع ما سيقوم به من الاعمال وما سيتخذون من القرارات الصارمة للحد من أطماع الطامعين ونشاط المفسدين والمخربين، فوقف ثابت بن قيس الانصاري وقال: والله يا امير المؤمنين لئن كانوا قد تقدموك في الولاية فلم يتقدموك في الدين ولئن كانوا قد سبقوك بالامس فلقد لحقتهم اليوم، وأينما كانوا فان موضعك لا يخفى ولا يجهل احد مكانك، يحتاجون اليك فيما لا يعلمون ولم تحتج الى احد منهم.

ثم وقف خزيمة بن ثابت وقال: والله يا امير المؤمنين ما اصبنا لأمرنا هذا غيرك ولا كان المنقلب الا اليك ولئن صدقنا انفسنا فيك لانت اقدم الناس ايمانا

وأعلم الناس بالله وأولى المؤمنين برسول الله، لك ما لهم وليس لهم ما لك.

وقال صعصعة بن صوحان: والله يا امير المؤمنين لقد زينت الخلافة وما زانتك ورفعتها وما رفعتك ولهي اليك أحوج منك اليها، ووقف بعده كل من مالك الاشتر وعبد الرحمن الجمحي وعقبة بن عمر وغيرهم من أعيان المسلمين والصحابة معبرين عن مدى سرور المسلمين وارتياحهم لهذه البيعة التي تعقد الامة عليها جميع آمالها وأمانيها وترجو في ظلها للمسلمين فجرا جديدا يسيرون على ضوئه ويشدهم الى الاسلام الذي حاربته قريش بقيادة الحزب الاموي قرابة عشرين عاما.

وعندما شاع نبأ بيعته خارج المدينة توالت عليها الوفود من جميع انحاء الحجاز للتعبير عن اغتباطها وارتياحها لما انتهى اليه امر المسلمين يتقدمهم الوفد اليمني المؤلف من رؤساء القبائل اليمنية ووجوهها وقبائل همدان بقيادة زعيمها رفاعة بن وائل ووفود اخرى من جهينة وبجيلة وغيرها من عشرات القبائل، يتقدم كل قبيلة شاعرها وخطيبها[1].

واستقبل الحزب الاموي الذي كان يتصرف بالسلطة كما توحيه اليه أطماعه وشهواته وأحقاده في عهد سليل هذا البيت بيعة المسلمين للامام وتهافتهم عليها والتفافهم حوله بالخوف والقلق والاضطراب، لان علياً يجسد الاسلام من جميع نواحيه وقد وترهم بآبائهم وقادتهم في بدر وأحد وغيرهما من المعارك التي خاضوها للقضاء على محمد بن عبد الله واسلامه، والاسلام الذي يجسده علي (ع) لا يقر بحال من الاحوال تلك السياسة التي انتهجها ابن عفان وأسرته وأذنابهم من القرشيين خلال حكمهم، ويعلمون بأنه سيعمل قبل اي شيء آخر على تطبيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين جميع الفئات والغاء جميع الامتيازات والفوارق التي كانت من ابرز منجزات عهدهم وسيحاسب ويعاقب جميع المستغلين والغاصبين لاموال الفقراء والمساكين في عهد الخليفة الراحل.

وقد عبر عن كل مخاوفهم وما انطووا عليه الوليد بن عقبة شقيق عثمان لأمه حينما جيء به وبالمتخلفين ليبايعوا امير المؤمنين (ع)، فقال في حديث له مع الامام: انك قد وترتنا جميعا، اما انا فقد قتلت ابي صبرا يوم بدر، وكان ابوه عقبة ابن ابي معيط من اكثر الناس ايذاء لرسول الله (ص) قبل هجرته الى المدينة وقد خرج مع المشركين في معركة بدر فوقع في أيدي المسلمين فأمر النبي بقتله وتولى قتله علي بن ابي طالب (ع).

(١) أنظر المجلد الأول من حياة الإمام الحسن (ع) للقرشي ص ٣٧٩ و ٣٨٠.

ومضى يقول: وأما سعيد بن العاص لقد قتلت اباه يوم بدر وكان من سادة قريش، وأما مروان بن الحكم فقد شتمت اباه ونددت بعثمان بن عفان حين استرجعه من منفاه وضمه اليه، ومضى يعدد له صنيعه مع قادة البيت الاموي خلال مواقفهم المعادية للاسلام ويساومه ببيعتهم له على ان يضع عنهم جميع ما ارتكبوه في عهد خليفتهم الراحل ويترك لهم جميع ما في أيديهم من الاموال التي وهبهم اياها ابن عفان ويعاقب قاتليه.

وكان من الطبيعي ان يرفض الامام (ع) جميع المساومات من الحزب القرشي وغيره وأن لا يحابي احد على حساب دينه وهو القائل لابن عمه عبد الله بن العباس وهو يخصف له نعله: ان امرتكم هذه لأهون عندي من هذه النعل الا ان أحق حقا أو أبطل باطلا، والقائل: ما ظفر من ظفر الاثم به والغالب بالشر مغلوب، فرد عليه الامام قائلا: أما ما ذكرت من وتري اياكم فالحق وتركم وأما وضعي عنكم ما في ايديكم فليس لي ان اضع حق الله. وأما اعفائي عما في ايديكم فما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم، وأما قتلي قتلة عثمان فلو لزمني قتالهم اليوم لزمني قتالهم غدا ولكن لكم علي ان احملكم على كتاب الله وسنة نبيه فمن ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق، وان شئتم فالحقوا بملاحقكم.

ومضى الامام (ع) لشأنه يعمل ليله ونهاره لترميم ما افسدته بطانة عثمان وحاشيته ووضع الخطوط العريضة لسياسة حكومته او لثورته التصحيحية كما هو الواقع، فقال عندما صعد المنبر ولاول مرة يتحدث فيها من على المنبر كمسؤول عن شؤون المسلمين او كثائر على مخلفات من سبقه: ألا وان كل قطيعة اقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود الى بيت المال فان الحق لا يبطله شيء ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرق في البلدان لرددته ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق، وما ان أتم خطابه حتى أمر بمصادرة جميع ما في دار عثمان من اموال المسلمين حتى سيفه ودرعه كما جاء في بعض الروايات وبهذه المناسبة يقول الوليد بن عقبة كما يروى عنه:

بني هاشم ردوا سلاح ابن اختكم ... ولا تنهبوه لا تحل مناهبه
بني هاشم كيف الهوادة بيننا ... وعند علي درعه ونجائبه
بني هاشم ان لم تردوا فاننا ... سواء علينا قاتلاه وسالبه

وقد اثارت هذه البادرة خوف الذين استباحوا نهب اموال الامة واستأثروا بمقدراتها ومواردها.

وكتب عمرو بن العاص الى معاوية كتابا جاء فيه: ما كنت صانعا فاصنع اذا قشرك ابن ابي طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصي لحاها، كما أحس طلحة والزبير وغيرهما ممن أقطعهم عثمان بن عفان ووهبهم الاموال الطائلة والثراء الواسع بالخطر وأيقنوا ان الامام (ع) سيصدر ان عاجلا او آجلا حكمه الصارم بمصادرة جميع ما في تصرفهم من الاموال والممتلكات وانه سيعاملهم كغيرهم من الناس، وتبخرت احلام طلحة والزبير في ولايتي البصرة والكوفة، ولم يبق لهما بريق من الامل في شيء مما كانا يحلمان فيه، وأيقنا انهما قد اصبحا كغيرهما من سواد الناس فانضما الى الحزب الاموي واتفقوا على التمرد واحتلال البصرة والانطلاق منها لحرب علي ومقاومته بعد ان اغراهما جماعة من الموالين لعثمان بالمساعدة وبقي عليهما ان يتصلا بمعاوية ليضمنا مساندته لهما وتأييدهما على العدو المشترك، فرحب معاوية بهذه البادرة ووعدهما ببذل امكانياته كلها في هذا السبيل وأكد عليهما ان يستغلا عداء عائشة لعلي بن ابي طالب ويحملاها معهما الى البصرة، ورحبت عائشة بهذه الفكرة وانضمت اليهما، وكان معاوية يهدف من وراء ذلك الى ان وجودها بين المتمردين يثير الرأي العام ويحرك الجماهير على الانضمام الى المتمردين بصفتها زوجة للنبي وابنة للخليفة الاول واذا قدر لها ان تقتل كما كان يتمنى يستغل قتلها للتشنيع على علي (ع) ويضع قميصها على منبر الشام الى جانب قميص عثمان ولو استطاع ان يدس اليها من يقتلها في تلك المعركة لم يتأخر، ولم يغب ذلك عن علي (ع) فقد اتخذ جميع الوسائل ليفوت على معاوية ما كان يضمره لها، وقد صارحها بأمنيته هذه وأهدافه منها عندما زار المدينة بعد عام الجماعة كما ذكرنا، وحينما سئل معاوية عن سبب تحريضه لطلحة والزبير وعائشة على التمرد على علي بن ابي طالب اجاب: ان ظفر بهم علي اتخذتهم وسيلة للتنديد به والتشنيع عليه، وان ظفروا به كانوا اهون علي شوكة منه.

لقد استخدم معاوية جميع الوسائل ليضع العراقيل في طريق الثورة التي اعلنها علي (ع) على الحزب القرشي الذي كان يحاول استخدام الاسلام لإحياء مظاهر الجاهلية ونزعاتها.

عزل الولاة واستبدالهم بغيرهم

وكما اعلن مصادرة الاموال التي كانت بحوزة انصار الخليفة الراحل بغير الطرق المشروعة وإعادتها الى بيت المال اعلن عن تصميمه على عزل الولاة من الحزب القرشي الحاكم وغيرهم ممن يشكل بقاؤهم في مراكزهم خطرا على مسيرة الاسلام وعلى شؤون المسلمين ومصالحهم، وكان اول من شملهم هذا التدبير معاوية بن ابي سفيان لانه من أشدهم خطرا على الاسلام وعداء لصاحب الرسالة والمخلصين لها من آله وأنصاره، وقد اشار عليه جماعة من اصحابه بالتغاضي عنه ريثما تستقر الامور، وحذّره من كيده وشره ومدى تسلطه وسيطرته على الجماهير في الشام وجهاتها التي كانت من نصيب الامويين منذ الفتح الاسلامي، وقد تداولها هو وأخوه يزيد بن ابي سفيان، وفي عهد الخليفة الثالث تمكّن معاوية وكان يتصرف وكأنه الخليفة الذي ليس فوقه احد واتجه الحزب القرشي نحو الشام لمساندته واعداده لتحمل المسؤولية بعد قريبه عثمان بن عفان الذي أشرف على بلوغ التسعين من عمره، وقد ذكرنا فيما سبق ان عثمان بن عفان كان يرسل الى الشام كل من يعارض سياستهم وتصرفاتهم الجائرة او يحمل آراء وأفكاراً يمكن ان تستغل لمعارضتهم ليكون تحت رقابة معاوية أو في سجونه، وأكثر العواصم والمدن الاسلامية كان ولاتها يخضعون للمراقبة والتبديل بين الحين والآخر إلا بلاد الشام فقد تولاها بعد الفتح الاسلامي مباشرة يزيد بن ابي سفيان نحواً من ستين وانتقلت منه الى اخيه معاوية وبقيت تحت سيطرته وسلطانه لا تعرف احدا غيره من الولاة ولا يعرف اهلها عن الاسلام ودعاة الاسلام الاوفياء الا صورا محدودة لا تتعارض مع اسلام معاوية والحزب الاموي الحاكم بشيء.

إن علياً (ع) كان محيطاً بكل ذلك ويعرف ما تضمره قريش له وللاسلام من العداء السافر، ولم يكن من هواة الحكم والسيطرة ليستعين على توطيد حكمه وسيطرته بالطغاة والظالمين اللاهثين وراء الجاه والمال وليستعين على النصر بالجور وعلى الحق بالباطل.

ان علياً (ع) قبل ان يكون حاكماً كان ثائراً على الفساد والطغيان وعلى التشويه والتحريف اللذين استهدفا رسالة محمد بن عبد الله (ص) وكان يرى كيف تجري خيانة الاسلام وكيف يمارس على قيمه الارهاب، والثائر لا يعمل للجاه ولا للسلطة ولا يضع في حسابه النصر العاجل، وأكثر الثوار المخلصين يضعون في حسابهم الموت في سبيل العقيدة والمبدأ وأهدافهم الشريفة، ويعتقدون بأن موتهم سيكون ضمانا لحياة أمة وأساسا لبناء عقيدة وهتكا لاقنعة الخداع والزيف والظلم والقسوة، وأداة لسحق القيم ومحوها من الاذهان، وقدوة لمن يأتي من بعدهم ويريد ان يكون انسانا كريما على سطح هذه الارض.

لقد كان علي (ع) يرى ويعلم ان رسالة محمد بن عبد الله (ص) تنتظره ولا ترى منقذا لها من أيدي اولئك الشياطين غيره، وان الزمن الذي يعود إلى الوراء على يد الحزب القرشي الحاكم يتطلع اليه ليتقدم، وان الناس المستسلمين لذلك الحزب في أمسّ الحاجة الى نهضة والى صرخة، وجميع الذين يطمحون الى الحرية والعدالة كلهم كانوا ينتظرون ما سيصنعه بطل الاسلام الخالد (ع) الذي قهر طواغيت قريش في بدر والاحزاب وحنين من اجل الاسلام ورسالة الاسلام. انهم ينتظرون منه اليوم ان يقهر أحفادهم لينقذ تلك الرسالة من التحريف والتشويه والتلاعب ولينقذ الكرامة التي منحها الله للانسان من تسلّط اولئك الشياطين.

لقد رفض علي (ع) جميع الآراء التي قدمها له اصحابه يطلبون اليه التريث وإرجاء عزل الولاة وبخاصة معاوية بن ابي سفيان الذي كان قد مضى عليه يومذاك والياً على بلاد الشام أكثر من عشرين عاماً، لقد رفض عليه السلام آراء جميع المشيرين، المخلص منهم والمنافق، لعلمه بأن المساومة تجر وراءها عدداً من المساومات والترضية الواحدة تؤدي في الغالب الى سلسلة متتابعة من الترضيات والمراوغات، ويعلم في الوقت ذاته بأنه لو أقر معاوية اليوم على عمله مهما كانت دوافع هذا الاقرار وأسبابه فسيكون سلاحا بيد معاوية غدا عندما يأمره بالتخلي عن مركزه وسيكون يومذاك اقوى منه اليوم.

هذا بالاضافة الى ان علياً (ع) يعلم بأن البيت الاموي لا يرضى بالولاية ولا

يكتفي بها وبخاصة عندما يكون المسؤول الاول عن شؤون الدولة كعلي بن ابي طالب الذي يحاسب ويعاقب من اجل درهم واحد يخرج من بيت المال لغير محله، وقد اعتاد معاوية على البذخ والترف وشراء الذمم والضمائر وأنفق على قصر الحمراء ملايين الدراهم من واردات الدولة، ومنذ ان وضع ابن الخطاب السلطة في أيدي الامويين بناءً لتصميم سابق تم الاتفاق عليه مع ابي سفيان كما قيل يوم كان يصول ويجول ويذهب الى علي تارة والى العباس بن عبد المطلب اخرى ويحرّض الانصار على الثورة ضد ابي بكر ويسميه ابا فصيل ويقول لأملأنها عليهم خيلا ورجالا وأنها قد اصبحت في أذل بيت في قريش، منذ ان وضعها ابن الخطاب في ايديهم وهم يعملون ويخططون لبقائها في هذا البيت كما تؤكد ذلك عشرات الشواهد ومن كان يحمل هذه الروح فهل يرضى بأن يكون واليا لعلي بن ابي طالب الذي حاسب احد عماله على وليمة دعي اليها وأحمى حديدة لاخيه عقيل عندما طالبه بأكثر من عطائه وهدد وتوعد احدى بناته لانها استعارت من بيت المال عقداً لبسته يوم العيد وأرجعته الى مكانه.

ان عليا (ع) يعلم بأن معاوية لا ترضيه الولاية ولا يمكن ان يقبل بها وسيستغلها ان هو أقره على عمله ولو شهراً واحداً، لذلك كله فقد رفض آراء المشيرين وأصر على موقفه من الطغاة والجبابرة حتى ولو لم يكن في مقدوره قهرهم وهزيمتهم في ساحة الحرب والنضال، ولكنه فضحهم وقهرهم عبر الموت والشهادة وترك للاجيال، بمواقفه هذه، صوراً مضيئة عن الاسلام الذي حاربهم من أجله الى جانب ابن عمه محمد بن عبد الله (ص) وظل يحارب من اجله الى ان خرّ في بيت الله صريعاً بسيف أبي جهل وأبي سفيان وجبابرة قريش الذين وضعوه في تصرف ابن ملجم، وما كانت تلك الصور المضيئة عن الاسلام لتبقى لولا مواقفه وشهادته وشهادة الحسين (ع) وجهود الأئمة من ذريته التي اقضت مضاجع الظالمين والحاكمين فيما مضى من العصور وحتى عصرنا الحالي.

المساواة بين جميع الناس

لم يكتف امير المؤمنين (ع) في ثورته التصحيحية بالاعلان عن تصميمه على مصادرة الاموال التي منحها عثمان بن عفان لاسرته وحاشيته وعزل الولاة عن الأمصار التي كانت تعاني الأمة من جورهم واستهتارهم بالقيم والمقدسات حتى اعلن المساواة في العطاء وغيره بين جميع الفئات وألغى جميع الامتيازات التي كان الحزب القرشي يعامل الناس على اساسها بعد تصنيفهم الى قرشي وعربي وعبد ومولى وما الى ذلك من الاصناف التي كانوا يعاملون المسلمين على اساسها ويستغلون غير القرشيين منهم كما يستغل الانسان ممتلكاته، وكان سعيد احد أفراد الاسرة الحاكمة يقول يوم كان واليا على الكوفة لقريبه عثمان: السواد بستان لقريش مما أثار غضب اهل الكوفة الذين كانوا ينتمون الى عشرات القبائل العربية، وفي الوقت ذاته كانوا يعتبرون صنفا ثالثا من أصناف الانسان، وبلغ بهم الإسراف في تحقير الموالي الى حدّ إلحاقهم بالحيوانات فكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة الا كلب أو حمار أو مولى، الى غير ذلك من النزعات العنصرية التي اوشكت ان تطغى على المجتمع الاسلامي.

في حين ان الاسلام قد الغى جميع تلك المظاهر وأعلن عليها حربا لا هوادة فيها ولم يفضل انسانا على انسان من اي صنف كان والى اي اسرة كان ينتمي الا بالتقوى والاعمال الصالحات والخدمات التي يقدمها لمجتمعه وغيره من بني الانسان، ولاكثر من مناسبة كان النبي (ص) يقول لبني هاشم وبني عبد المطلب: اعملوافلن أغني عنكم من الله شيئا، ولا تتعاظموا على الناس بأنسابكم وصلتكم برسول الله فالناس سواسية كأسنان المشط وكلكم لآدم وآدم من تراب، الى كثير

من موافقه التي كان يحارب فيها الفوارق الطبقية والنزعات الجاهلية.

وكما كان الاسلام ثورة على الشرك والوثنية ليضع مكانها في العقول والقلوب عقيدة التوحيد كان ثورة على الاقوياء لتحرير المستضعفين من الاستغلال وعلى السادة لتحرير العبيد من تسلطهم وكبريائهم وعلى الذين يتحكمون بمصير الانسان وكرامته من جورهم وغطرستهم، وهو يرى ان هذه المواقف الاسلامية من نوع واحد وتأتي في حلقة واحدة مترابطة كما أكدت هذا الترابط الآية الكريمة ﴿**ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم**﴾.

لقد جمعت الآية الكريمة الكفر بآيات الله وقتل الانبياء والذين يدعون الى العدالة والمساواة بين الناس واعتبرتها في مستوى واحد وحكمت عليهم بحكم واحد هو العذاب الاليم.

وكما تشير هذه الآية الى عظمة الانسان وكرامته على الله سبحانه وان التعدي عليه بالقتل او بغيره مما يسيء الى كرامته وحقه في الحياة بمنزلة الكفر بالله وجحوده تشير ايضا الى ان شعار التوحيد في الاسلام يرمز الى تحرير الانسان من العبودية والنزعات القبلية والعنصرية، وقد توجه بهذا الشعار الى العبيد والمعذبين والجياع والمستضعفين الذين كانوا يؤلفون في مكة الطبقة المحرومة، ومن اجل ذلك فقد أخذ عليه زعماء مكة وقادتها بأن أتباعه كانوا من الأرذلين كما اشارت الى ذلك الآية: ﴿**ما اتبعك الا الذين هم أراذلنا**﴾.

وكان هذا المأخذ شهادة تزكية للاسلام وثورته وللخط الرسالي الذي مضى عليه رسول الحرية والسلام. لقد اخذ محمد بن عبد الله (ص) بيد العبيد الذين كانوا يعتقدون بأنهم باقون في اسر العبودية الى الابد وبيد المحرومين المسحوقين الذين كانوا يعتقدون بأنهم باقون تحت وطأة القوى السياسية والعسكرية وانهم مخلوقون للقهر والذل والخنوع، وبيد المستضعفين الذين كانوا يظنون ان اعداءهم من الآلهة كتبوا عليهم هذا المصير ليكونوا في خدمة الاقوياء.

لقد جاء لهؤلاء ولغيرهم ليعلن ان البشرية من جنس واحد وأصل واحد وذات إله واحد، وبهذا المبدأ مبدأ المساواة استطاع خلال سنين معدودات ان يبني مجتمعا إنسانيا جديدا قائما على ضوء عقيدة وطيدة ونهج اجتماعي متين واضح وذهب الى أبعد من ذلك في ترسيخ مبدأ المساواة والغاء الفوارق الطبقية فرفع من

شأن الموالي والعبيد على سادة قريش وزوج صفية ابنة عمته عاتكة لزيد بن حارثة وكان مملوكا هو وأبوه كما زوج جبير الحبشي، وكان عبداً أسود، من أجمل فتاة من بنات الانصار، وقال لمن كانت تصيبهم الرعدة من هيبته: هون عليك فأنا ابن امرأة كانت تأكل القديد في مكة، الى كثير من مواقفه التي لا تحصى في سبيل ترسيخ هذا المبدأ.

تلك هي مدرسة الاسلام التي تخرّج منها علي بن ابي طالب ووضعها المسلمون تحت قيادته بعد خمس وعشرين عاما على رحيل قائدها ومؤسسها آخر نبي من الانبياء، وقبل ان يتولاها كانت اداة في أيدي اولئك الذين وتّرهم الاسلام بأمجادهم، وبواسطتها استعادوا قواهم وجمعوا امرهم واستردوا نفوذهم الذي قوضته ثورة الاسلام، وصادفت الردة نجاحا ما لبث ان اصبح اساسا للفواجع التي تلت ذلك العصر بل قانونا استمر على مدى تاريخ الاسلام وحتى عصرنا الحالي.

لقد تولى علي قيادة الثورة فكانت سيرته السياسية والاجتماعية والفكرية بداية نضال جديد هو نضال المؤمنين بالقيم الجديدة والشعارات النبيلة التي رفعها الاسلام ضد الجاهلية الجديدة التي دبت فيها الروح بفعل حرارة النفاق والكراهية الى سليل هاشم الذي اطاح بأمجاد أمية فأعلنت حربها الخفية حيناً والصريحة حيناً آخر على أنصع الوجوه في مسيرة الثورة.

لقد كانت معركة الاسلام في عهد الرسول بين معسكري الشرك والتوحيد، وفي عهد علي (ع) اصبحت المعركة بينه وبين أحفاد اولئك واتخذت شكلا جديدا ضد الجاهلية الجديدة التي لبست لبوس الاسلام ضد الشرك الذي اتخذ شكل التوحيد وضد الوثنية ذات المصاحف المرفوعة على أسنّة الرماح.

لقد خاضها بذلك الجيش الذي سقط اكثر قادته صرعى المغريات والوعود بأموال السلطة الاموية، وأصبح اولئك القادة على استعداد للمساومة على قائدهم وعقيدتهم حيث صفقات بيع القيم والشرف تعقد في قصر الخضراء الكائن في عاصمة الحزب القرشي الحاكم.

لقد كانت الصفقات تعقد في دمشق لشراء الضمائر ومصادرة ارث الاسلام بالاموال تارة وبالسيوف والسياط أخرى وإخضاع الفكر الإسلامي الذي جاء ليبني العقول والقلوب لتوجيه السلطة الاموية، فتفشت روح الشقاق حتى بين أهل الكوفة واتسعت الشقة بين جميع الاجنحة، فانحرف الزعماء الذين ملئت غرائرهم وتخاذلت الجماهير الكادحة تحت تأثير الزعماء والاشراف، وبقيت الى جانب قائد

الثورة قلّة من مناصريها والداعين لمبادئها، وهذه القلة لا تغنيه شيئاً أمام تلك القوة المعادية للثورة، ومع ذلك فقد ظل على مبدئه لم يتزعزع ولم يتراجع عن خططه مستهينا بالحياة وزخرفها وبالسلطة ومظاهرها وهو يردد لا أستعين على النصر بالجور والغالب بالشر والجور مغلوب. وجاءته طائفة من أصحابه تريد منه أن يصنع كما كان يصنع معاوية، فقالوا له: يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم واستمل اليك من تخاف خلافه من الناس، فقال لهم ووجهه الكريم يشير الى ملامح الغضب: أتأمرونني ان اشتري النصر بالجور، والله لو كان هذا المال مالي لقسمته بالسوية فكيف وهو لجميع المسلمين.

لقد التفّ العرب حول علي (ع) في ثورتهم على الحزب القرشي الحاكم وأعوانه، فكان قائدهم وشعار حركتهم الاجتماعية لان قريشا قد استبدت في ايام عثمان واستأثرت بكل شيء فثار عليها العرب يطالبونها بالمساواة، ولما ادركت ان التفاف العرب والمسلمين حول علي (ع) كان من أبرز عوامله تطبيق مبدأ المساواة وان ذلك هو مصدر الخطر عليها غيرت سياستها مع العرب وأخذت تستميلهم بكل الوسائل فجعلوا ينفرون منه شيئاً فشيئاً.

لقد أحبوه أولاً والتفوا حوله لانه كان في جميع مراحل حياته ثائراً يجسّد الاسلام في ثورته على الظلم والظالمين وكان الموجّه والمرشد لثورتهم على الحزب القرشي المتعالي عليهم وحين وجدوه يساويهم بالموالي ووجدوا قريشاً تحد من تعاليها عليهم وتفضلهم على الموالي نفروا منه وناصروا قريشاً عليه.

وقد تبيّن من مجموع ذلك ان مشكلة المساواة بين جميع الناس بلا استثناء كانت من أبرز المشاكل التي اعترضت علياً (ع) وقد ذكرنا سابقاً موقفه من المرأتين حينما طالبته العربية منهما ان يفضلها في العطاء على الأخرى لأنها ليست عربية، فتناول حفنة من التراب ونظر فيها ثم قال: لا أرى في التراب فضلاً لأحد على أحد، وكان يعني بذلك ان الانسان مخلوق من مادة واحدة ومعدن واحد والتصانيف المصطنعة للانسان لأسباب سياسية أو قبلية أو بيئية وما الى ذلك، لا تغير من واقعه شيئا، فلما قاد الثورة وأخذ يساويهم بالموالي نفروا منه وخذلوه، والانسان في كل زمان انما يطالب بالعدل حيث يكون محروماً منه فاذا حصل عليه بخل به على غيره، والعرب حينما كانت قريش تعاملهم معاملة الموالي ثاروا عليها وحاربوها فلما غيرت سياستها معهم وبقي علي (ع) مصراً على موقفه وماضٍ فيه لا

يفرق بين إنسان وآخر انضموا اليها ولم يفكروا بالموالي الذين وقفوا معهم في جبهة واحدة ولا بقائد ثورتهم الذين كانوا قد عاهدوه على المضي معه الى حيث يريد مهما كانت النتائج .

ويقول المدائني كما يروي عنه ابن أبي الحديد في المجلد الاول من شرح النهج : ان من أهم أسباب تخاذل العرب عن علي بن ابي طالب كان اتباعه لمبدأ المساواة بين الناس وتطبيقه لهذا المبدأ تطبيقاً شاملاً على جميع الفئات، حيث كان لا يفضل شريفاً على مشروف ولا عربياً على عجمي ولا يصانع أحداً من الرؤساء وأمراء القبائل، وكان يعاني أشد المعاناة من تخاذل الناس وتقاعدهم عن نصرته وأحيانا يبكي على من مضى من إخوانه المسلمين الاوفياء كعمار بن ياسر وابن التيهان وذي الشهادتين وغيرهم ممن كانوا يسيرون معه لإنقاذ شريعة الله من أيدي الشياطين كما حدّث عنه نوف البكالي .

لقد ملّ الناس وملّوه وملأوا قلبه قيحاً كما كان يقول. وكانت ضربة ابن ملجم له بمنزلة الانقاذ مما كان يعانيه من قريش وأهل الكوفة واعتبرها فوزاً كما جاء عنه انه قال حينها: فزت ورب الكعبة، ومات حزيناً كئيباً ولكن ذكراه بقيت على مدى الاجيال تدفع الناس للثورة على الظلم وطلب العدل، ولئن أخفق في ميدان السياسة كما يدّعي أكثر الكتاب والمؤرخين فلقد نجح في ميدان الثورة الاجتماعية التي لا يخمد لها أوار، ولولاه لكان الاسلام من طراز تلك الأديان التي تدعو الى الفتح والسيطرة والاستعمار ولانتفت عنه صفة الرحمة التي بعث من أجلها محمد بن عبد الله كما ذكرنا من قبل.

ومن مجموع ما ذكرنا يتبين أن المدة التي قضاها علي (ع) بعد مصرع عثمان ابن عفان كان فيها ثائراً إجتماعياً على مخلفات العهد الذي سبقه ليحقق العدالة التي جاء بها الاسلام، ولم يكن في سيرته وسياسته من طبيعة السلطان شيء، والذين يفاضلون بينه وبين معاوية انما يفعلون ذلك جهلاً منهم بواقع الامام وبما كان يهدف اليه ويعمل من أجله، فلقد فاضلوا بينهما باعتبار انهما قد تنافسا على الخلافة وغلب أحدهما الآخر والغالب في عرف السياسيين وأصحاب النفوس المريضة والفهم المحدود لعباقرة العصور والمصلحين أفضل من المغلوب.

هؤلاء الذين يقيسون الفضيلة بمقياس الغلبة والفوز في ميدان السياسة لا بد وأن ينتهوا الى هذه النتيجة ويفضلوا عليه معاوية، ولكن هذه المقاييس انما تصح بين اثنين كل منهما كان يعمل للحكم والسلطان ويستبيح كل شيء للفوز به

والوصول اليه كما كان يصنع معاوية وغيره من السياسيين في كل زمان وفي زماننا هـذا ولا يختلفون في زمان وزمان الا بالشعارات والاساليب التي تختلف حسب الزمان والمكان. اما لو كان كل منهما يعمل لهدف وغاية ولا يجمعهما قاسم مشترك، فالتفاضل يجب ان يكون من زاوية الاهداف التي يعمل لها كل منهما ويتحرك من اجلها، ان عليا كان يعتبر الحكم وسيلة لتحقيق العدالة ولترميم ما أفسده الحاكمون من قبله ولم يكن من محترفي السياسة كغيره من السياسيين الذين يستبيحون كل شيء في سبيلها، ومن هذه الناحية يأتي في القمة بين الابطال الذين لا يشق لهم غبار، ولا تزال ذكراه تدفع الناس للثورة على الظلم والظالمين، وقد فضح اخصامه وقهرهم من خلال مواقفه وثورته تلك وترك للاجيال صوراً مضيئة ومشرقة عن الاسلام ما كانت لتبقى لولا مواقفه لانقاذ الاسلام من اولئك الطغاة، ولم يترك معاوية ومن على شاكلته من القرشيين وغيرهم من دهاقين السياسة سوى صور مخزية من الغدر والمكر والاحتيال والتزويز ولا يزال تاريخه مثلاً كريهاً لأقبح صور الغدر والجور والخيانة في تاريخ الحاكمين.

ومن الظلم الفاحش قياس علي (ع) بمعاوية والمقارنة بينهما، لأن معاوية كان من دهاقين السياسة، والسياسيون يستبيحون كل شيء للظفر بأخصامهم او لاحتلال رقعة من الارض ولو كان في ذلك ذهاب الملايين من الناس. وكان يتمنى لعائشة ان تقتل في البصرة ليضع قميصها على منبر الشام الى جانب قميص عثمان ويشنّع بهما على امير المؤمنين (ع) وطلب من عثمان ان يجعل له الحق في المطالبة بدمه من علي بن ابي طالب وكان يحضّ لقتله بشكل غير مباشر عن طريق الحزب الاموي المحيط بعثمان كما ذكرنا.

اما علي (ع) فلقد كان ثائراً على الظلم والجور والتزوير وما الى ذلك من الجرائم التي كان يمارسها أنصار عثمان والحزب الاموي، ولكنه لم يكن يحاول او يفكر ان يستعين في ثورته بالجور والاثم والشر لان الغالب بالشر بنظره مغلوب، ولم يكن يعمل لإرساء مبادئه ودعواته في العقول والقلوب الا في حدود الاسلام والمبادىء التي جاء بها ابن عمه وحارب قريشاً من أجلها لتبقى هي وحدها الحافز للأجيال على التضحيات ومقارعة الظالمين.

ولو أنصف الباحثون والكتّاب ودرسوا التاريخ دراسة واعية بتجرّد وإخلاص لوجدوا ان علياً (ع) هو المنتصر في معاركه مع القرشيين والامويين، والذين حاربوه بكل الاسلحة هم الخاسرون، لانه مضى في سبيل الحق والعدالة وخير الانسان

وكرامته تاركاً وراءه صوراً مشرقة عنه وعن الاسلام ودروسا غنية بالبذل والعطاء في جميع الميادين بالرغم مما بذله الامويون من جهود لا حدود لها للقضاء على ذكره وتجاهله وإلصاق العيوب فيه فكانوا مع محاولاتهم هذه كأنما يدفعون به الى السماء، وقد ذكرنا سابقاً ما قاله الشعبي وعبد الله بن عروة بن الزبير لولديهما، وجاء في المقالتين ما مضمونه ان بني أمية بالرغم من إصرارهم على سبّ علي وبنيه ومطاردتهم لكل من يذكرهم ولا يتبرأ منهم فكأنهم كانوا يأخذون بناصيتهم الى السماء. وكانوا مع إغرائهم للمحدثين والخطباء للحديث عن أسلافهم ومديحهم واختلاق الاحاديث التي ترفع من شأنهم وحرصهم الشديد على ذلك كأنما ينشرون جيف الحمير على حد تعبير الشعبي وعبد الله بن عروة لولديهما.

ولا أغالي اذا قلت ان الباحثين لو أنصفوا لقارنوا بينه وبين الانبياء والمرسلين وعباقرة العصور، وقارنوا بين معاوية وبين غيره من السفاكين والمجرمين وأكلة لحوم الآدميين.

لقد بكى علي بن ابي طالب (ع) على طلحة والزبير ومن قتل معهما في البصرة ولو انه قتل معاوية وابن العاص ومن معهما من القرشيين لبكى عليهم أيضاً، لقد بكى على طلحة والزبير ومن قتل معهما لانه لم يتمكن من إقناعهم بالتراجع عن غيّهم الى حظيرة الاسلام والعمل معه صفاً واحداً لمصلحة الاسلام والمسلمين، ولم يقاتلهم يومذاك الا دفاعاً عن النفس بعد ان اضطروه لذلك وحين وجدهم صرعى بكى لمصيرهم السيء الذي لم يكن يرجوه لهم لأن أصحاب الرسالات يعملون لإصلاح ما تفسده أيدي المجرمين والعابثين بكرامة الانسان وبناء المجتمعات بناءً سليماً يحفظ للانسان كرامته وحقه في الحياة، واذا اقتضى الأمر يضحّون بأنفسهم من أجل ذلك، واذا قاتلوا وقتلوا أخصامهم لا يرون ذلك انتصاراً، وكما قلت لا أستبعد على علي ان معركة صفين لو انتهت بالشكل الذي انتهت به معركة البصرة ان يبكي لمصيرهم السيء ولعدم تمكنه من إرجاعهم الى حظيره الاسلام، في حين ان معاوية كان قد أشار على عثمان بقتل علي وجماعة من أعيان الصحابة ووجوههم، وحينما رفض رأيه ابن عفان طلب منه ان يجعل له الحق بالمطالبة بدمه من علي بن ابي طالب فيما لو قتله احد من الناس، ويعمل بكل الوسائل لتأزيم الموقف بينه وبين المسلمين ليقتل عثمان في تلك المعركة ويتخذ من قتله سبيلا للعصيان والتمرد على إمام المسلمين مستخدماً في ذلك مروان بن الحكم وغيره من الامويين حتى لا تنفرج الازمة بين وفود الامصار وعثمان بن عفان عن

حل سلمي لا يحقق لمعاوية أمانيه، وكان يتمنى ويعمل لكي تُقتل عائشة في معركة البصرة ليستجدي بذلك غضب الناس على علي (ع) ويشحن طلحة والزبير للمضي في تمردهم ويقول: لو قتلوا شنعت بقتلهما على علي بن ابي طالب وان انتصروا عليه كانوا أهون علي منه، ويدس السم الى الاشتر النخعي والحسن بن علي (ع) ولسعد ابن ابي وقاص وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وغيرهم ممن كان يخشى منه على ولاية ولده الخليع المشرك يزيد بن معاوية ويقول: ان لله جنوداً من العسل.

ان جميع ما قام به علي (ع) منذ ان اجتمع الناس عليه وحتى اللحظات الاخيرة من حياته من الاعمال لا يقوم به عادة من يريد ان يحكم الناس ويستفيد منهم، بل هي أعمال من يريد ان يترك للاجيال نماذج لتقتدي بها في مواقفها من الظلم والظالمين والطغاة المستبدين.

ومن يريد ان يحكم وينجح في هذه الحياة يتعيّن عليه ان يداري الرؤساء ويصانع ذوي النفوذ وأرباب الجاه والقلم والخطباء والشعراء، وكان معاوية وغيره من السياسيين يغدقون الأموال على الشعراء والخطباء من ناحية وعلى الرؤساء وذوي الجاه من ناحية أخرى، ليلهج هؤلاء بأماديحه ونشر فضائله وينقاد اولئك لطاعته ومناصرته، ومن تتبع الادب العربي وتاريخ الحكام يجدهما مملوءين بأماديح السفلة والطغاة الذين وزعوا القسم الاكبر من أموال الناس على الشعراء والخطباء لا لشيء الا لانهم ينفعون ويضرون، اما الفقراء والمساكين الذين لا يستطيعون ان ينفعوا ويضروا فكانوا منسيين ومهملين.

يقال ان جماعة من رؤساء العراق وفدوا على معاوية في الوقت الذي كان يحاول فيه ان يفرض ولده يزيداً على الناس فأفرد لهم داراً للضيافة ووضع عليهم العيون والجواسيس وكان أحدهم شديداً وعنيفاً في نقده لمعاوية وتصرفاته ولما أرادوا الرجوع أعطى كل واحد خمسمائة الف درهم وأعطى الذي كان عنيفا في نقده لتصرفاته مائتي الف درهم فاحتج الرجل على تفضيلهم عليه فقال له معاوية: اني قد اشتريت من القوم دينهم وتركت لك دينك، فقال له الرجل: وأنا مستعد لأن أبيعك ديني، فضحك معاوية وساواه برفاقه واشترط عليه ان يأخذ البيعة لولده يزيد من بعده وكان كما أراد، ومدحه الاخطل الشاعر النصراني بأبيات جاء فيها:

وطدت لنا دين النبي محمد   بحلمك اذ هرت سفاها كلابها

وبلا شك فان الاخطل النصراني الذي لا يؤمن بدين محمد لم يصف معاوية

بالحلم وتوطيد دين محمد للناس الا لانه كان يقبض من معاوية مئات الالوف من الدنانير بين الحين والآخر من أموال المسلمين والمساكين، والاخطل وان كان نصرانياً، ولكن الاموال التي وفرها له معاوية جعلته لا يبالي اذا وطد معاوية دين محمد او اي دين من الاديان، والناس حين يسمعون هذا الشعر من نصراني يصفقون له ويبتهجون ولا يكترثون لدوافعه ولما يراد به.

لقد ظهر في تلك الفترة من تاريخ الاسلام رجلان متناقضان من جميع جهاتهما لا يلتقيان في صفة من الصفات ولا في جهة من الجهات أحدهما يريد أن يؤسس ملكاً على غرار ملك الأكاسرة والقياصرة وجنكيز خان وتيمورلنك وغيرهم من طواغيت العصور، والآخر قام بثورة على الفساد والجور والتحريف والتزوير على غرار ثورة الانبياء والمرسلين وأصح ما يقال عنها: انها امتداد لثورة الاسلام على الوثنية والعنصرية واستغلال الانسان لاخيه الانسان.

وذهب الرجلان كما ذهب غيرهما من الناس وترك علي (ع) للتاريخ والاجيال صوراً ناصعة مشرقة يستمد منها المصلحون وعباقرة العصور والثائرون على الظلم والظالمين وجميع من يريد ان يعمل لخير الانسان وكرامته وحقه في الحياة الحرة الكريمة، وترك معاوية صوراً من الحقد والعنصرية والرذيلة بكل أشكالها وصورها، ولا غرابة في ذلك فلقد أرضعته أم، كانت لحوم الاولياء وأنصار الانبياء وأكبادهم ألذ لنفسها من جميع ما وفره الله لعباده من الخيرات والطيبات.

لقد حاول علي (ع) بكل وسائله إرساء قواعد العدل وإنقاذ الاسلام من أيدي الأمويين وأعوانهم وتصديره الى العالم بواقعه المشرق الذي يغزو العقول والقلوب بدون الاساطيل والجيوش.

لقد ارادها علي (ع) ثورة بيضاء ضد الظلم والوثنية الجديدة التي لبست لباس الاسلام وتقنعت بطلاء شفاف لا يستر زيفها ولم يرد لاحد ان يكون ظالماً ولا مفسداً ولا مستهتراً بكرامة أحد من الناس، ولكن ذوي الاطماع والذين كانوا يتمتعون بالامتيازات ويمتلكون القصور وملايين الدنانير، هؤلاء وغيرهم من الحزب الاموي وأنصاره قد اعلنوا العصيان والتمرّد بعد بيعتهم للامام ومواثيقهم التي سجلوها على أنفسهم، وأغروا السيدة عائشة زوجة النبي (ص) بتوجيه من معاوية لأن وجودها يساعد المتمردين ويغري البسطاء والمغفلين بالانضمام الى جانب طلحة والزبير لانها زوجة النبي وابنة الخليفة الاول ولو قتلت في طريقها هذا كما كان يتمنى ويعمل لهذه الغاية، يستغل قتلها للتشنيع على علي (ع) ويضع قميصها الى

جانب قميص ابن عفان على منبر الشام كما صارحها بذلك في زيارة قام بها للمدينة بعد عام الجماعة.

واتجه المتمردون الى البصرة بقيادة طلحة والزبير وعائشة بعد ان اشار عليهم عبد الله بن عامر بالتوجه اليها وزعم ان له أنصاراً ينقادون اليه ويشاركونهم قتال علي وأنصاره، وكتب معاوية كتاباً الى الزبير يعده بالخلافة وبمناصرته جاء فيه: من عبد الله معاوية بن ابي سفيان الى امير المؤمنين الزبير بن العوام، اما بعد فإني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الحلب فدونك الكوفة والبصرة قبل ان يسبقك اليهما ابن ابي طالب وبايعت لطلحة من بعدك فأظهرا الطلب بدم عثمان وليكن فيكما الجد والتشمير أظفركما الله وخذل مناوئكما، واستبشر الزبير خيراً بالكتاب وتملكته نشوة من الزهو والاطمئنان لمنصبه الجديد المزعوم، وتناول الكتاب لطلحة ولمن حوله من مؤيديه وأنصاره وعلامات البشر بادية على وجهه وراح هو وأنصاره يتصرفون في البصرة تصرّف الفاتحين واعتقلوا واليها الصحابي الجليل سهل بن حنيف ومثلوا به وبأصحابه وكاد ان يتعرض للقتل لولا تدخل جماعة لانقاذه، وفيما كان امير المؤمنين يخطط ويعمل بكل ما لديه من الوسائل السلمية لاستدراج معاوية وإقناعه بالرجوع الى حظيرة الاسلام والعمل معه للمصلحة العامة الى جانب المسلمين، واذا به يفاجأ بالتمرد الجديد وبتوجه المتمردين الى البصرة، فاضطر الى إرجاء الحوار مع معاوية ريثما تنتهي مشكلة هؤلاء المتمردين، واتجه بمن معه من المسلمين وصحابة الرسول ومن شهدوا معارك الاسلام مع النبي (ص) نحو البصرة ومضى يجدّ السير باتجاهها وفي نفسه بقية من الامل برجوعهم عن غيهم وضلالهم، ومن مشارف البصرة ارسل اليهم رسائله وجماعة من الوسطاء يدعوهم الى التراجع والانضمام الى جماعة المسلمين ويحذرهم من عواقب هذا التمرد وما يترتب عليه من المفاسد التي تسيء الى مسيرة الاسلام فأصروا على مواقفهم ورفضوا الانصياع لأوامره وتوجيهاته، ومضى في طريقه الى البصرة والالم يحز في نفسه ونزل في المكان المعروف بالزاوية فصلى ركعات ثم عفر خديه بالتراب والدمع ينهمر من عينيه ثم رفع رأسه ويديه داعياً الله سبحانه ان يحقن دماء المسلمين ويهديهم سواء السبيل وعاد يناشدهم الله في الاموال والدعاء ويذكّرهم بمواقفهم مع الرسول (ص). هذا وعائشة على جملها وسط المعركة تحرض الناس على القتال وتقول: أيها الناس لقد غضبنا لكم من سياط عثمان وعصيه أفلا تغضبون لعثمان من السيوف التي انهالت عليه، لقد قتل خليفتكم مظلوما بعد ان

استتابوه وتراجع عن سوء تصرفاته والاسلام لا يطلب من المسلم اذا اخطأ اكثر من ان يتوب، واحتدمت المعركة بين الطرفين واقتتلوا قتالاً شديداً لم يشهد تاريخ البصرة قتالا أشد منه ضراوة وعنفا وتدافع اصحاب امير المؤمنين لحسم المعركة فتضعضع جيش المرتدين، هذا وعائشة في هودجها يحيط بها جماعة من بني ضبة وتتوجه الى من على يمينها تارة ومن على شمالها اخرى تحرّضهم على القتال والثبات وتمتد من هودجها وبيدها بدرة من الدنانير وتصيح بصوت يسمعه القريب والبعيد قائلة: من يأتيني برأس الأصلع وله هذه البدرة، والاجساد تتهاوى في ساحة المعركة وحول الجمل فأصيب طلحة بسهم وخرّ صريعاً تنزف جراحه فأقبل اليه مروان بن الحكم وأجهز عليه لعلمه بأنه لو بقي بين الجرحى الى نهاية المعركة التي اشرفت على نهايتها لصالح علياً ومن معه من المسلمين وسيحفظ له حياته ويعالجه من جراحه.

وكان عبد الملك بن مروان يقول بعد ان انتهت اليه السلطة: لولا ان ابي اخبرني بأنه هو الذي قتل طلحة ما تركت تيمياً الا قتلته بعثمان، وانتهت المعركة بمصرع الزبير وأكثر القادة ممن وقفوا الى جانبه، وحينما عقروا الجمل وسقط هودج عائشة وقف عليها امير المؤمنين وقال: يا حميراء ألم يأمرك رسول الله ان تقري في بيتك والله ما انصفك الذين صانوا عقائلهم وأبرزوك، وأمر أخاها محمد بن ابي بكر فأخذها بيدها وهي تتعثر في مشيتها من الخيبة التي ألمت بها وأنزلها في دار صفية بنت الحرث بن ابي طلحة العبدي ووضعها تحت الحراسة الشديدة حتى لا يتعرّض لها احد بسوء وبلا شك فان أيدي أصحاب معاوية لو استطاعت ان تمتد اليها لحققت لمعاوية ما كان يتمناه ولكن عليا (ع) لم يسمح لأحد ان يتصل بها واتخذ جميع الاحتياطات لاحباط مساعي معاوية وحزبه، وقد أمر مناديه ان ينادي في أصحابه بأن لا يجهزوا على جريح ولا يطعنوا مدبراً ولا يتبعوا هارباً، كما أعلن العفو العام عن كل من يلقي سلاحه ومن يدخل بيته. ووقف بين قتلاه وقتلى المتمردين وهو في حالة من القلق والتمزق وهو يعلم بأن بين خصومه وأنصاره جماعة قد أبلوا بلاءً حسناً في معاركهم مع النبي (ص). لقد حزن من أجل هؤلاء الذين قاتلهم والذين قاتل بهم ومن اجل رسالة الاسلام التي كان يتمنى لو يتاح له ان يتفرغ لانقاذها مما يحيط بها من الاخطار.

لقد بكى لأولئك الذين قادتهم المطامع والاهواء الى هذا المصير السيىء الذي لم يكن يتمناه لأحد من المسلمين ولا من بني الانسان، ومن أجل نفسه وقد

وقفت له قريش بالمرصاد كما وقفت لابن عمه من قبل وقد كتب عليه ان يقاتلها على تطبيق الرسالة كما قاتلها على تنزيلها، وكان يتمنى ان يقاتل بتلك الحشود التي اجتمعت لقتاله أعداء الاسلام لتبقى مسيرة الاسلام في طريقها الى العالم بأسره، وعاد يتأمل القتلى من الجانبين وقلبه الكبير يتصدع لهذا المشهد الذي قتل فيه رفاقه في الجهاد مع رسول الله (ص) صرعى الاطماع والاهواء وجعل يترحم على هؤلاء وهؤلاء ولم يسمح لأحد ممن وترهم طلحة والزبير بأولادهم وعشائرهم ان يتحدوا أحداً او يأخذوا من أموال المنهزمين شيئاً وقال: ليس في هذه الحرب مغنم لمنتصر، ثم أمر من ينادي في شوارع البصرة، من عرف شيئاً له فليأخذه، وعندما طلب منه أنصاره ان يسمح لهم بمصادرة أموال هؤلاء الخوارج قال: إن في المعركة أمكم عائشة فمن يأخذها في سهمه.

وبلا شك لو كانت المعركة لمصلحة عائشة وجيشها لمثلوا بجثث القتلى من أنصاره وأباحوا لجيشهم جميع أموال المنهزمين وحتى نسائهم ودمائهم، ولم يتركوا وسيلة من وسائل العنف والترويع والتشفي الا ارتكبوها.

ان امير المؤمنين (ع) لم يكن في جميع معاركه التي خاضها مع من خرجوا عليه لم يكن يحاول ان يصنع من تلك المعارك انتصار فئة على اخرى بالسلاح والعتاد كما كان يصنع أخصامه بل كان يحارب ويقاتل بالروح نفسها التي كان يحارب بها محمد بن عبد الله قريشاً وغيرها من المشركين كان يحارب لارجاعهم الى حظيرة الاسلام ويصنع منهم جيشاً يستعين به على إحقاق الحق وعلى الظلم والظالمين والطغاة المستبدين وتصدير الاسلام بمبادئه المشرقة الناصعة الى العالم بأسره، ولذا فانه لما دخل البصرة بجيشه الفاتح المنتصر في تلك المعركة التي فرضت عليه فرضاً بكى وتصدّع قلبه ولم يدخلها بزهو الفاتح المنتصر لانه لم يحقق الاهداف التي كان يحارب من أجلها، وأول عمل قام به بعدها هو إرسال عائشة الى المدينة مع عدد من النسوة لخدمتها وجماعة من أصحابه لحمايتها وحراستها حتى لا يطمع أحد في الاساءة اليها بعد ان كانت ضليعة في تلك المعركة التي لم يعرف تاريخ الاسلام اسوأ منها وقد ذكرنا سابقا ان معاوية كان يتمنى لها القتل ليستغل قتلها لمصلحته.

ويروي الرواة انها بعد ان استقرت في المدينة كانت تبكي حتى تبل خمارها من دموع عينيها وتقول: ليتني مت قبل يوم الجمل بعشرين عاما، وأحيانا تقول: والله ان قعودي عن يوم الجمل لو أتيح لي أحب الي من ان يكون لي عشرة بنين

من رسول الله، وبلا شك فان تمنياتها وبكاءها لم يكونا بدافع التوبه والرجوع الى الله سبحانه من مواقفها التي لطخت بها تاريخ المرأة المسلمة، بل لانها فشلت في معركتها وفقدت قادتها ولم تحقق غير الخزي والعار وخرج منها علي (ع) التي كانت تراهن على رأسه لقاء بدرة من الدنانير منتصراً عسكرياً وأقوى مما كان عليه قبل خروجها الى البصرة وهذا ما لم تستطع الصبر عليه صاحبة الجمل والبغل غفر الله لها ولا أظنه يفعل، واذا كانت تائبة ونادمة كما يحاول بعض الكتّاب ان يعتذروا عنها ويسدلوا الستار على جريمتها فلماذا ركبت بغلاً وخرجت مع الامويين الحاقدين على الاسلام وأهل البيت (ع) يوم دفن الحسن ريحانة رسول الله لتمنعهم من دفنه الى جوار جده المصطفى (ص) مدعية ان البيت بيتها ولا ترضى بأن يدفن فيه من لا تحب على حد تعبيرها، وقال لها احد المسلمين يومذاك وهي تزبد وترعد:

تجملت تبغلت ولو عشت تفيلت
لك التسع من الثمن وللكل تملكت
يوماً على جمل ويوماً على بغل

لقد استغل معاوية مصرع طلحة والزبير وكان يتمنى لعائشة المصير نفسه ويعمل من اجله لأن قتلها سيكون أشد تأثيراً على علي (ع) من قتلهما، وقد وضع له أنصاره حديث العشرة المبشرين بالجنة وعلى رأسهم طلحة والزبير ليشنّع بقتلهما على علي امير المؤمنين ويندبهما كما يندب عثمان.

وتوالت الاخبار على علي (ع) بأن معاوية يستعد للحرب والقتال ويحشد جيوشه لغزو العراق، وان المعارك ستكون على حدوده او في داخله فرأى ان المصلحة تفرض عليه في ظل هذه الظروف ان يتخذ الكوفة عاصمته ومقراً له لقربها من الحدود السورية ولأن سكانها من العشائر وينتمون الى عشرات القبائل التي انحدرت من العراق والحجاز واليمن وسوريا وغير هذه الاقطار ولا يزال النظام القبلي هو السائد بين سكانها بالرغم من انتمائهم للاسلام، وسوف يتجه معاوية بكل امكانياته لتدعيم ذلك النظام وبث الفوضى وعدم الاستقرار فيها وشراء زعمائها وقادتها بالاموال والمغريات، والاموال تصنع ما لا تصنعه الاساطيل وأسلحة الفتك والدمار، فقرر بعد ان وضع جميع هذه الاحتمالات في حسابه ان يترك عاصمة الرسول بيد احد ابناء عمومته ممن يثق بدينهم وإدارتهم، ويرحل بمن معه الى الكوفة تاركاً على البصرة عبد الله بن العباس أحد أعلام المسلمين يومذاك.

واستقبلته الكوفة بكل فئاتها مرحّبة ومستبشرة بقدومه وأعطوه العهود والمواثيق على مناصرته والتضحيات معه الى أبعد الحدود سواء في ذلك من اشترك في حربه لخوارج البصرة ومن تخاذل عنه فيها واجتمع رأيهم على قتال معاوية وغزوه قبل ان يتحرك هو لقتالهم، ولكنه رفض ان يتحرك من الكوفة قبل ان يعيد الكرة على معاوية ومفاوضته بواسطة من اختارهم لهذه المهمة من ذوي الرأي والبصيرة راجياً ان يعود الى رشده وينتظم بذلك شمل الأمة في وحدة متراصة تتجه بكل طاقاتها وامكانياتها للعمل لمصلحة الاسلام، وتوالت بينهما الاتصالات بالرسل والرسائل ومعاوية يزداد تصلباً وصلفاً من يوم لآخر ويتذرع بقتل عثمان وقتلته وما الى ذلك من وسائل المراوغة والاحتيال والمداورة.

ولم تكن أطماع معاوية في السلطة لتخفى على علي (ع) وعلى غيره من عارفيه، وكلهم يعلمون بأن الجيش الذي هيأه وزوده بكل ما يحتاج اليه منذ أمد بعيد لم يكن الا ليحارب من يتولى أمور المسلمين بعد قريبه ابن عفان كائناً من كان، ولو قدّر لطلحة والزبير ان يربحا معركة البصرة ويتولى الأمور أحدهما لوقف منها الموقف نفسه الذي وقفه من علي (ع) كما أفصح هو عن نواياه لمن سأله عن أسباب تحمّسه ومساندته لهما على علي (ع)، ولو افترضنا ان السلطة بعد عثمان كانت لاحدهما لم يكن لديه ما يمنع من ان يستحث علياً على مناهضتهما ويعرض عليه المساعدة بكل مقوماتها كما فعل معهما حينما تحركا الى البصرة، وكما فعل ابوه في مطلع خلافة ابي بكر، فقد جاء الى علي (ع) يستحثه على الصمود في المعارضة ويعده بمناصرته الى أبعد الحدود، ولو كانت الخلافة من نصيب علي في تلك الفترة لذهب الى أبعد الحدود في مناصرة الحزب القرشي المعارض وتأليب الناس عليه لأن خلافة علي (ع) لا تعني سوى استمرار الرسالة بكل أبعادها وجهاتها التي حاربتها أمية منذ ان بزغ فجرها وظلت تحاربها جيلاً بعد جيل متظاهرة بطلاء شفاف من الاسلام تسترت به بعد ان أرغمت على التخلي عن مواقفها المعلنة من الاسلام والاستسلام لقيادته المتمثلة في شخص الرسول (ص).

أجل بعد فشل جميع المحاولات التي مارسها الامام (ع) لحقن الدماء وإصرار معاوية على مواقفه المعادية وبعد ان توالت الاخبار وتواترت عن حشود معاوية وتحركاته نحو الحدود العراقية، لم يجد الامام بدأ من التحرك بمن معه من المسلمين باتجاه الحدود السورية قبل ان يجتاز معاوية بمن معه حدود العراق، والتقى الطرفان على شاطىء الفرات في المكان المعروف بصفين، وكان معاوية قد سيطر على الماء

قبـل وصول العـراقيين اليـه وخـطط لمنعهم من المـاء كـوسيلة للضغط والاحـراج، وحاول الامام (ع) كعادته بالوسائل السلمية اقناع معاوية وحاشيته بالتخلي عن الماء لجميـع المخلوقات كـالهواء والاعشـاب فلم يتوصـل معهم الى نتيجـة فـاضـطر الى استعمال القوة لانقاذ عشرات الالوف ممن كانوا معه من الموت عطشاً وأرسل الاشتر النخعي في كتيبة من الجيش فسيطروا عـلى الماء خـلال ساعـات قلائـل، فقال ابن العاص لمعاوية: ما ظنك لو منعـك ابن ابي طالب عن المـاء كما منعتـه أتراك تقـدر على استرجاعه؟

إن ابن العاص ومعاوية بن هند يعرفـان علياً ويعلمان بـأنه لا يمكن ان يقـدم على العقوبة وهو يجد للعفو محلاً وليس من خلقه ان يطلب النصر بالجور كما يـطلبه معاوية وغيره من الحاكمـين وهو القـائل: اذا ظفـرت بخصمك فليكن العفـو أحلى الظفرين.

لقد حاول جماعة من أصحابه معاملتهم بالمثل ولو لفترة من الزمن فأبى عليهم ذلك وأتاح لاخصامه الذين هددوه قبل ساعات قليلة بالموت عطشاً ورود الماء اسوة بأصحابه.

وهـذه البادرة وحـدها تكفي أهـل الشـام لـو كـان عنـدهم شيء من الحس والخلق ان يـدركوا حقيقـة كل من الرجلين ويعلموا انهم بمنـاصرتهم لمعـاويـة انما يناصرون الشر على الخير والباطل على الحق والطغيان على العفو والتسامح والرحمة.

وبقي الجيشـان على مـوقفهما ينهـلان من الماء عـلى قدم المسـاواة، وعلي (ع) يواصل جهوده المضنية ومساعيه المخلصة للسلام ويفتـح لاهل الشـام وقادتهم قلبـه وصدره فلم يفلح في مسعاه هذا وفي الوقت ذاته كان معـاوية يـأمر أصحـابه بسبـه وشتمه، وحينما سمع علي (ع) أصحابه يبادلونهم السبـاب والشتائم أمـرهم بالكف عن ذلك وقال: اني أكره لكم ان تكونوا قوماً سبابـين فاذا ذكـرتموهم فـاسألـوا الله سبحانه ان يحقن دماءنا ودمـاءهم ويصلح ذات بيننا وبينهم ليعـرف الحق من جهله ويرعوي عن الباطل والغي من لهج به.

وكان لا بد من المعركة التي فرضها معاوية عليه واحتدم القتـال بين الـطرفين طوال أشهر معدودات سقط خلالها على ثرى صفين عشرات الالـوف من الفريقـين وكـادت المعركـة ان تنتهي لصالح امير المؤمنين (ع) ولكن معـاويـة ومن معـه من معاونيه وجماعة من قادة العشائر العراقية الذين يشكلون العدد الاكبر بعشائرهم من

جيش العراق كانوا كما يبدو قد أعدوا لكل امر عدته فأمر اصحابه ان يرفعوا المصاحف على أسنة الرماح وطالبوا علياً بالاحتكام اليها بدلاً عن السيوف والرماح، وكان امير المؤمنين قد سبقهم الى ذلك وطلب من قادة الخوارج في البصرة الرجوع اليه بدلاً من السيوف والرماح وتمناه على معاوية قبل ان يزحف الطرفان الى صفين، وحينما استولى معاوية على الماء ومنع علياً وأصحابه منه، الى غير ذلك من المواقف التي كان يطالبهم فيها بالرجوع الى حكم القرآن وتطبيق تعاليمه فكانوا يرفضون ويوجهون سهامهم ونبالهم الى حاملي القرآن، وقد ذكرنا سابقاً ان علياً لم يكن يعمل ويخطط ليحكم الناس، بل كان ثائراً من أجل القرآن وتطبيق أحكامه وتعاليمه، ولم يكن يطالب بأكثر من ذلك ومن أجل طلبه هذا وإصراره عليه وتجاهله لجميع الوسائل التي يستعملها طلاب الحكم ودهاقين السياسة هب في وجهه الطامعون والحاقدون تاركين القرآن ومن انزل عليه وراء ظهورهم وأعلنوها حرباً عليه لا ترحم أحداً فاضطر لقتالهم بعد ان أعيته جميع الوسائل وفقد أضعف الاحتمالات بتراجعهم عن غيهم وضلالهم وعودتهم الى حظيرة الاسلام.

ومن المفارقات الغريبة ان يطلب ألد أعداء القرآن ومن حاربوه اكثر من عشرين عاما وما زالوا يحاربونه بأقوالهم وأفعالهم ممن نزل عليهم القرآن وتأدبوا بآدابه وأخلاقه وواجباته وسننه الرجوع الى حكم القرآن، انها لمهزلة من اسوأ أنواع المهازل ولو كان فيمن يدعون الاسلام من جيش معاوية ومن تواطأوا معهم من أهل العراق قبس من وحي الاسلام وخلق الاسلام لما تواطأوا مع معاوية بن هند على عمل من هذا النوع ولما تجرأ هو وابن العاص وغيرهما على هذا الطلب من علي (ع).

لقد ادرك علي (ع) منذ ان نظر الى القرآن مصلوبا على أسنة الرماح أهداف تلك المؤامرة وان القسم الاكبر من قادة جيشه ضالعون فيها، وتأكد له ذلك عندما وجدهم يطالبونه بوقف القتال والرضا بالتحكيم وأدرك ان الغاية منها إما جرّه الى معركة جديدة مع معاوية والمتآمرين معه من العراقيين لا ناصر له فيها الا المخلصون من شيعته وأنصاره وستكون نتائجها لمصلحة معاوية وحزبه، او ايقاف القتال الذي كاد ان ينتهي بقتل معاوية او هزيمته لو استمر عدوة فرس او حلبة شاة، وعلى التقديرين فالرابح هو معاوية وأنصاره، وما عليه بعد المقارنة بين مواصلة الحرب والنزول عند ارادتهم الا ان يختار أقلهما خطراً وضرراً على الاسلام ودعاته، ويقبل بتحكيم القرآن لا تحسباً وتهرباً من الموت والشهادة التي كانت

تنتظره لو مضى بمن بقي معه من أهل العراق، لا هرباً من ذلك لأنه كان ثائراً والثائر لا يهاب الموت وقد يطلبه عندما يطمئن بأنه سيكون من بعده حافزاً للاجيال على الثورة وصرخة مدوية تقضّ مضاجع الظالمين وتقضي عليهم في كثير من الأحيان.

إن الثائر إذا مات شهيداً تصنع شهادته ثوار آخرين وتتلاحق قافلة الثوار جيلاً بعد جيل وكل قافلة من تلك القوافل تضيف الى شعلة النور لهيباً جديداً، ومن المعلوم بأن علياً (ع) لو حارب واستشهد هو ومن بقي الى جانبه في مثل هذه الحالة وفي ظل هذه الاجواء فان استشهاده لا يؤدي الى ذلك وسوف لا يستفيد منه غير الحزب الاموي وأنصاره، وسيكون لموقف معاوية منه ما يبرره بنظر الجماهير التي تنخدع بالمظاهر وتندفع في كثير من الاحيان في أعمالها بدافع لاشعوري تستمده من ظروفها النفسية او الاجتماعية، ثم تفكر بعد ذلك لتصطنع لأعمالها اسباباً تدافع بها عن نفسها.

لقد وضع أمير المؤمنين جميع هذه الاخطار التي ستنجم عن مواصلة القتال بمن بقي الى جانبه من أهل العراق في حسابه وأدرك انه سيخوض معركة خاسرة لا تخدم غير معاوية وأنصاره فأعلن موافقته على التحكيم وهو واثق بعدم جدواه لأن المطالبين به والمختارين لتنفيذه من الجانبين من أبعد الناس عن كتاب الله وأحكامه، ولم يوافق عليه الا لانه أقل ضرراً على الاسلام من المضي في المعركة كما ذكرنا، وفي جميع مواقفه كان يضرب أروع الامثلة على نزاهته وتفانيه في سبيل المبدأ والعقيدة، مهما كانت الظروف بالغة التعقيد والقسوة.

وقد دأب على التعبير عن موقفه المبدئي وهو إيثار السلم على الحرب بأي ثمن كان على شرط ان لا يمس صفاء الاسلام ووحدة المسلمين وها هو يخاطب أصحابه الغاضبين من قبوله للتحكيم وامتناعه عن الاذن لهم بمواصلة القتال ويؤكد لهم بأن ذلك لم يكن كرهاً بالموت كما اتهمه بعضهم بذلك. فقال: أما قولكم بأني شككت في أهل الشام فوالله ما توقفت عن الحرب يوماً الا وأنا أطمع في ان تلحق بي طائفة لتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي وذلك أحب الي من ان اقتلها على ضلالها وان كانت تبوء بآثامها.

وهذه الكلمات تؤكد ما اشرنا اليه من قبل وأنه لم يكن يسعى ويعمل من أجل السلطة وبسط نفوذه وسلطانه وان جميع حروبه ومواقفه كانت من أجل السلم والعدل ومن أجل بناء المجتمع الاسلامي الأمثل.

لقد كانت حروبه مع النبي (ص) من أجل بناء الاسلام وتثبيته ضد الجاهلية بكل ما تمثله من جهل وتخلف وانحطاط، وفي أخريات أيامه كانت من أجل صيانة المجتمع الاسلامي من الانحراف وصيانة الاسلام من التحريف الذي مارسه الحزب الاموي بعد ان توافرت له أسباب الحكم.

لقد كان قادرا في الفترة التي كان فيها مسؤولاً عن أمور المسلمين ان يحقق لنفسه وأسرته مغانم سياسية ومادية لا تحصى لو انه هادن تلك القوى التي كانت تعمل لتحريف الاسلام وإعادة المجتمع الجاهلي الى ما كان عليه، ولكنه وفاءً منه للاسلام وللمسلمين ضحّى بكل ذلك وحتى بنفسه حفاظا على الاسلام من التحريف والتشويه وعلى مصالح المسلمين وكرامتهم وحريتهم من ان تداس تحت أقدام الحاكمين ونزعاتهم الجاهلية. وقد اومأ الى ذلك في بعض خطبه فقال كما جاء في بعض خطبه من نهج البلاغة: اللهم انك تعلم ان الذي كان منا لم يكن منافسة في سلطان ولا التماساً لشيء من فضول الحطام ولكن لنردّ المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك ويأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك.

ومهما كان الحال فلقد بذل كل ما يمكن لإقناع المنشقين عنه من جيشه بأن معاوية وحزبه ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وقال لهم: اني أعرف بهم منكم لقد صحبتهم صغاراً وكباراً فكانوا شر صغار وكبار، وان دعوتهم هذه كلمة حق أريد بها باطل وليست سوى مكيدة وخديعة، اعيروني سواعدكم ساعة فلقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق الا ان يقطع دابر الذين ظلموا، فكان جوابهم ان احاط به نحو من عشرين الف مقاتل مقنعين بالحديد وهم يقولون: أجب القوم والا قتلناك كما قتلنا ابن عفان بالامس، فاضطر الى القبول بالتحكيم وكان بنظره أقل الشرين والضررين خطرا عليه وعلى من بقي معه من ذويه وبنيه وخلص أصحابه.

وتمت الهدنة بين الطرفين كما تم اختيار الحكمين كما يريدون لا كما أراد، وبعد التوقيع على وثيقة الهدنة تراجع فريق ممن فرضوها وفرضوا الحكمين عليه وطلبوا منه الرجوع عن التحكيم واستئناف القتال بوحي من اولئك الذين وضعوا فكرة التحكيم وهم على يقين بأن علياً سيرفضها ويبقى مصراً على حرب لغير مصلحته، وكان محيطاً بكل ما خططوه وأرادوه وجعل يرفق بهم ويدعوهم الى اختيار ما فيه العافية.

ثم تعجل الخروج من صفين متجها الى العراق مخافة ان تتأزم الامور وتضطره الى ما لا يريد، ولم يتأخر في صفين بعد إعلان الهدنة أكثر من ثلاثة أيام

تفرّغ فيها لدفن القتلى وخرج منها منطوياً على نفسه يتجرّع آلام الخيبة ومرارة تلك الاحداث التي لا يقوى على تحملها أحد غيره من الناس. ولم تنته المؤامرة عند هذا الحد فالذين اضطروه الى قبول التحكيم تحاشياً مما هو أدهى وأمرّ رجعوا يندّدون عليه ويطلبون منه ان يتوب الى ربه وأعلنوا العصيان عليه بتحريض من الاشعث ابن قيس وغيره ممن اشتراهم معاوية بالاموال والوعود المغرية ليشغلوا علياً ومن معه عن الاستعداد لحرب ثانية كان أمير المؤمنين يعمل للاعداد لها، وراحوا يفسدون في الأرض قتلاً وترويعاً وما أشبه ذلك، وكان من جملة من قتلوهم وهم في طريقهم الى النهروان الصحابي الجليل عبد الله بن خباب مع زوجته الحامل بعد ان بقروا بطنها واستخرجوا منها جنينا ذبحوه على صدرها لان زوجها لم يكفر علياً كما كفروه. وحينما بلغت أخبارهم أمير المؤمنين (ع) وما صنعوه مع عبد الله بن خباب وزوجته خرج اليهم مع جماعة من أصحابه وحاول ان يردعهم عن ضلالهم بالحجة والمنطق فلم يسمعوا له وكان جوابهم الأخير له: لو تمكنّا منك لصنعنا معك ما صنعناه مع عبد الله بن خباب، فعند ذلك يئس منهم وحمل عليهم بمن معه من أصحابه وخلال ساعات قلائل قضى عليهم ولم يسلم منهم سوى تسعة أشخاص فروا من المعركة، كما لم يقتل من أصحابه سوى تسعة، وكان قد أخبر أصحابه بذلك قبل أن يهاجمهم كما تؤكد ذلك أكثر المصادر الموثوقة.

ومن المفارقات الغريبة ان المؤرخين والمحدثين قد اعتبروا هذه الفرقة المتمردة على الامام (ع) النواة الاولى للخوارج الذين اقضوا مضاجع الأمويين خلال ثمانين عاماً من حكمهم وكان الموالي يشكلون فيهم القوة الضاربة وقد تميزت ثورتهم في بدايتها بالدعوة الى العدالة والمساواة ثم أصبحوا من الفرق الاسلامية السنية التي تختلف عن الأشاعرة والمعتزلة والمحدثين في بعض الأصول والفروع، هذا مع العلم ان المنشقين من جيش علي (ع) بعد معركة صفين لا يختلفون عن المتمردين عليه في البصرة وحتى في صفين فأولئك وهؤلاء قد خرجوا عليه بعد ان لزمتهم طاعته طمعاً وخوفاً من عدله، وكما كان معاوية يحرض طلحة والزبير ومن معهما ويمنّيهم بكل أنواع المغريات فالمنشقون عن جيشه بعد معركة صفين كان خروجهم بتحريض من أنصار معاوية وحلقة من حلقات المؤامرة التي حيكت خيوطها على يد معاوية وابن العاص والاشعث بن قيس وغيره من زعماء العراق خلال الاتصالات التي كانت تجري بين الطرفين في صفين وغيرها، ومع ذلك فقد اعتبروا المنشقين عن جيشه النواة الاولى للخوارج ولم يطلقوا هذا الاسم على الذين خرجوا عليه وحاربوه في

البصرة مع أنهم من نوع واحد.

لقد عانى أمير المؤمنين من هؤلاء وغيرهم ممن كانوا الى جانبه في الكوفة ومن قريش وغيرها أقصى ما يمكن ان يعانيه المصلحون وأصحاب الرسالات في حياتهم، وبلغ به الحال في أواخر أيامه انه كان يقبض على كريمته ويبكي من سوء معاملة الناس وتخاذلهم عن نصرته وتلبية صرخاته ودعواته المتتالية، وأحياناً يقول: لقد ملأتم قلبي قيحاً، ويتذكر نبوءة الرسول (ص) بمصيره ويقول: متى يبعث أشقاها، وأخيراً بعث أشقاها وتم لمعاوية وابن العاص تنفيذ المؤامرة التي اشترك فيها جماعة من قادة العراق ورؤسائهم، وضربه ابن ملجم في المسجد على رأسه في فجر اليوم التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، ضربة كانت بها نهاية حياته الكريمة، وعندما أحسّ بلذع السيف قال كلمته المشهورة: فزت ورب الكعبة، تلك الكلمة التي تشير الى مدى ما كان يعانيه من الالم النفسي في تلك الفترة من حياته، والكلمات الاخيرة التي ينطق بها الانسان في ساعات صراعه مع الموت تعبّر في الغالب عما يكمن في عقله الباطن من آلام وهموم وأحزان.

لقد ملّ أمير المؤمنين (ع) جميع الناس وكان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل وينتظر نبوءة سيد المرسلين الذي لا ينطق عن الهوى الذي اخبره بكل ما يجري عليه من محبيه ومبغضيه وبالشكل الذي تنتهي به حياته، كان ينتظر ذلك ويقول: متى يبعث أشقاها ليخضب هذه من هذا، مشيراً الى كريمته ورأسه، لقد ملّهم وملّوه لانهم لم يستطيعوا ان يتحملوا عدله ولم يكن من دينه وخلقه ان يستعمل معهم أساليب غيره لان الغالب بالشر مغلوب بنظره، وملأوا قلبه قيحاً كما كان يقول، فكانت تلك الضربة على رأسه بمثابة الانقاذ له من تلك الآلام التي كان يعانيها وخرج من دنيا أولئك الذين جرعوه الغصص والآلام فاشلاً ان صح هذا التعبير، ولكن ذكراه بقيت على مدى الاجيال تجسّد الحق والخير وجميع القيم وتدفع الانسان على الثورة والكفاح من أجل العدل والرحمة وكرامة الانسان وخرج من الدنيا مثقلاً بالهموم والاحزان للمصير السيء الذي سينتهي اليه الاسلام والمسلمون على يد الحزب الأموي الذي توافرت له جميع إمكانيات الحكم والسيطرة والتسلّط البغيض وما الى ذلك من الأساليب التي شوّهت الاسلام وجعلت منه امبراطورية لا تختلف عن امبراطورية الفرس والرومان الا بطلاء خفيف من الاسلام قد استخدموه ليستروا وثنيتهم وجاهليتهم الأولى.

لقد حكم الامويون باسم الاسلام نحواً من تسعين عاماً مارسوا خلالها جميع

أشكال العنصرية ومظاهر الجاهلية والظلم والطغيان، وفي الوقت ذاته كانوا يرفعون المآذن ويشيدون المساجد ويكسون الكعبة بأفخر أنواع المنسوجات ويقدمون لها أفخر أنواع التحف والمجوهرات، كل ذلك يقتطعونه من أموال الفقراء والمساكين والمستضعفين، وأحيانا يعاقبون السارق والزاني، ولكنهم كانوا يحرقون الكعبة وجميع المساجد ويعرضونها لأسوأ أنواع الخراب والدمار اذا التجأ اليها أحد ممن كانوا يطالبون بالعدالة والرحمة خوفاً من سياطهم وسيوفهم، ومضى على ذلك جميع السلاطين والحاكمين وبالاسلوب والروح نفسها التي حكم بها أسلافهم، ولا يزال الحاكمون يسيرون على درب الامويين وأساليبهم للسيطرة والنفوذ.

لقد ثار العباسيون والعلويون والشيعة على الامويين وأطاحوا بدولتهم في المشرق ولما استتبت لهم الامور كانوا اسوأ من الامويين ومارسوا الجور والطغيان والظلم بأقبح صوره وأشكاله، ويحكي الرواة عن المنصور العباسي انه كان يقول: قتلت من ولد فاطمة الفاً او يزيدون، ولما مات وجد خليفته المهدي في غرفة من غرف قصره اكثر من خمسماية رأس من رؤوس العلويين ومع كل رأس رقعة من النحاس في احدى أذنيه عليها اسمه ونسبه الى رسول الله (ص) وتحوّل الصراع والتنافس اللذان كانا في عهد الامويين بين أمية وهاشم الى صراع من نوع آخر في عهد العباسيين بين العلويين والعباسيين على ميراث النبي وان عمه كان أولى بميراثه او ابن عمه، وراح الشعراء يتبارون في ذلك لقاء مئات الالوف من الدنانير يدفعها لهم الخليفة من مال الله لانه يفضل العباس على علي وبنيه وعلى ابناء الحسن والحسين وتناسوا الاهداف والشعارات التي رفعوها في ثورتهم على الامويين، وأصبحوا يرون الخلافة وراثة للعباس من ابن اخيه محمد بن عبد الله (ص) لانه اقرب اليه من علي بن ابي طالب (ع).

وجاء في تاريخ البرامكة في ظل الخلفاء للاستاذ محمد برانق ان احد الشعراء أنشد الرشيد قصيدة جاء فيها:

أعم رسول الله اقرب زلفة ... لديه ام ابن العم في رتبة النسب
وايهما أولى به وبعهده ... ومن ذا له حق الوراثة قد وجب

ومدح ابن ابي حفصة المهدي العباسي بأبيات جاء فيها كما في مروج الذهب للمسعودي:

يا ابن الذي ورث النبي محمدا ... دون الاقارب من بني الأرحام

وكانت عشرات الالوف من الدنانير تنهال عليهم لقاء هذا النوع من الشعر الذي كانوا يفاخرون به العلويين ويدعون لانفسهم ارث النبي في الخلافة.

وفي الوقت الذي كانوا يتباهون بقرابتهم القريبة للنبي وانهم يمثلون ظله على الارض كانت قصورهم تعج بالفساد والمنكرات وتضم بين جدرانها عشرات الالوف من الجواري والعبيد والمغنيات، وخراج الامبراطورية الجديدة المغلفة بالاسلام من شرق الارض وغربها يتجه نحو بغداد والى قصور الحاكمين بالذات، ولا يبالي خليفة الرسول هارون الرشيد الى اي مكان تتجه الغمامة وفي اي مكان امطرت ويخاطبها قائلا: «سيري أينما سرت فلي خراجك» وما دام خراجها سينتهي حتما الى سيدات القصور وجواريهن ويصبح تحت أقدامهن ويبقى الفقراء كما كانوا يطبخون الماء ويفترشون التراب.

وكما كان الرشيد وغيره من سلاطين بني العباس ورثة الرسول كما يدعون كان غيرهم ممن تعاقبوا على الحكم بعدهم من فاطميين وغيرهم يمارسون جميع ألوان الفجور والمنكرات والاجرام، ولا يعتمدون غير السيف والمال لبناء دولتهم وتشييد ملكهم كما فعل الامويون والعباسيون قبلهم.

ويدعي الرواة ان المعز لدين الله الفاطمي حينما دخل مصر فاتحا اجتمع عليه الناس وقالوا له: نحب ان نعرف لمن ينتهي نسب مولانا الامير الى الحسن او الحسين، فجرد السيف وقال: هذا حسبي، ثم نثر عليهم صرر الدنانير والدراهم وقال: هذا نسبي، فقال الناس: صدق مولانا أمير المؤمنين لقد سمعنا وأطعنا، وفي حدود هذه السياسة حكموا وفاقوا غيرهم من السلاطين في الترف والاسراف في الظلم والاستهتار بكرامة الانسان والمقدسات واذا ملك غيرهم من العباسيين آلاف الجواري والعبيد فان الحاكم بأمر الله الفاطمي كان يملك وحده عشرة آلاف جارية وخادم وتملك اخته ست الملك ثمانية آلاف جارية منها الف وخمسمائة من الجواري الابكار، ولما استولى صلاح الدين الايوبي على قصور الفاطميين وجد في القصر الكبير اثني عشر الف نسمة من الجواري ليس بينها فحل سوى الخليفة وأولاده[1].

ويبدو من مجموع ذلك ان الامويين الذين حكموا ونصبوا أنفسهم خلفاء

(١) أنظر الخطط للمقريزي وتاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان والحضارة الإسلامية لآدم متز وغيرها من مجاميع التاريخ.

لرسول الله (ص) قد نجحوا في تعطيل مسيرة الاسلام وحولوه الى امبراطورية لا تختلف عن امبراطورية الفرس والرومان الا بالشكل والمظهر وجميع من جاء بعدهم من الحاكمين مضى على طريقهم وحكم العباد والبلاد بالروح نفسها التي كان يحكم بها معاوية بن ابي سفيان وهشام بن الحكم والوليد بن يزيد وغيرهم من أحفاد أمية، ولا يزال الحاكمون على ذلك حتى عصرنا وفي البلاد التي يدعون فيها الوصاية على الاسلام كما كان يدعي معاوية بن هند وأحفاد الحكم بن العاص، ويفرضون فيها على عوام الناس وسوادهم ممارسة بعض طقوسه ومظاهره ويعاقبون السارق والزاني احيانا ولكن اذا كان من سواد الناس وفقرائهم ولا يمتّ الى العائلة الحاكمة بصلة من الصلات وهم في الوقت ذاته يمارسون بشرهٍ ولهفة جميع أنواع الفجور والمنكرات في قصورهم ومنتجعاتهم وفي أي مكان حلّوا فيه داخل بلادهم وخارجها وينثرون مئات الملايين من الدولارات تحت أقدام الجواري والمغنيات والراقصات اللواتي يتوافدن الى قصورهم من هنا وهناك.

ولو قيض الله لقصور هؤلاء الحكام والامراء الذين يزعمون بأنهم حماة الاسلام من يحتلها كما احتل صلاح الدين قصور الفاطميين وليس ذلك على الله ببعيد لوجدوا فيها عشرات الالوف من الشقراوات ومئات الاطنان من مختلف أنواع المسكرات، ونتمنى ان يتم ذلك بواسطة من يملأ الله به الارض قسطاً وعدلاً بدلاً مما ملئت به من الظلم والجور واستهتار بالقيم والمقدسات باسم الاسلام، ولو احتلها غيره فلا أحسب بأنه سيختلف عنهم بشيء الا بالشكل والمظهر كما تؤكد ذلك الأرقام.

الانتفاضات الشيعية بعد عام المحنة

لقد شاع بين المؤرخين تسمية العام الذي استتبت فيه الامور وانتظمت لمعاوية بن هند وانتهت اليه السلطة بعد ان رأى الامام أبو محمد الحسن بن علي (ع) ان مصلحة الاسلام والمسلمين تفرض عليه ان يحقن دمه ودم اخوانه وخلص شيعته ويتنازل عن السلطة لمعاوية. لقد شاع تسمية ذلك العام الذي تم فيه الاتفاق بينهما بالشروط التي فرضها الامام (ع) بعام الجماعة لاجتماع المسلمين على حاكم واحد بعد المعارك الدامية التي افتعلها الحزب الاموي خلال السنين الأربع التي كان أمير المؤمنين (ع) يحاول إصلاح ما أفسدته قريش وبخاصة الحزب الأموي في عهد عثمان بن عفان من قبله.

ولو ان المؤرخين والمسلمين تجاهلوا هذه المناسبة وأدركوا ما ينتظر الاسلام من المصير السيء بعد ان انطلقت أيدي الامويين وامتدت الى جميع الشؤون الاسلامية لسمّوه عام المحنة بدلاً من عام الجماعة.

لقد استسلم الحزب الأموي للاسلام بزعامة ابي سفيان بعد حروب استمرت نحواً من عشرين عاماً وانتهت باستسلام الحزبين القرشي والأموي للاسلام وقائد مسيرته ومضى الاسلام في طريقه من نصر الى نصر ليقف على أبواب مكة أمنع معاقل الشرك والوثنية يومذاك ويقف أبو سفيان مذهولاً الى جانب العباس بن عبد المطلب يستعرض ذلك الجيش الفاتح ويراقب تحركاته بمرارة وهلع، فيلتفت الى العباس قائلاً: لقد أصبح ملك ابن اخيك عظيماً يا ابا الفضل، ويدرك العباس ما ينطوي عليه أبو سفيان فينتهره قائلاً: إنها النبوة يا أبا سفيان، ويسكت الشيخ على مضض وألم وترتفع راية الاسلام فيما تضمنته من خير وطهر ومحبة وفيما قدمته وستقدمه من

مبادىء ومثل هي أروع منحة تقدمها السماء للانسان على هذه الأرض.

ويقف ابن هاشم اليتيم الذي اختارته السماء ليكون نذيرها على الأرض ورحمة للعالمين لا ليكون ملكاً عظيماً كما يتصور أبو سفيان، وينطلق موكب النبوة والرحمة مقتحماً أبواب مكة ليمنح أمية ذلك الوسام الرائع الذي كان وسيبقى على مدى العصور والتاريخ سمة خزي وعار قائلاً: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وهل يتحمل أبو سفيان هذه النهاية لمجده المتهاوي بين أشلاء اللات والعزى وحطام الغرانيق، لم يحتمل ذلك ولم يترك وسيلة من وسائل الكيد للاسلام الا واستغلها إرضاءً لحقده وعنصريته الجاهلية وظل حتى النفس الاخير من حياته يعتقد ان الاسلام ملك لهاشم لا للانسانية جمعاء، وقد جاءت كلماته حينما انتقلت السلطة الى سليل بيته عثمان تعبيراً صارخاً عما كان يضمره من سوء للاسلام فقد اتجه اليه وقال: لقد انتقلت اليك بعد تيم وعدي فأدرها كالكرة واجعل أوتادها بني أمية فانما هو الملك ولا أدري ما جنة ولا نار.

وفي رواية ابن عساكر انه كان مكفوف البصر يومذاك فدخل على عثمان وقال: ها هنا احد؟ فقالوا: لا، فقال: اللهم اجعل هذا الأمر أمر جاهلية والملك ملك غاصبية واجعل أوتاد الأرض لبني أمية، ومضى الى قبر الحمزة في أحد يقوده غلامه وحينما وقف عليه ضربه برجله وقال: قم يا ابا عمارة ان الذي تجالدنا عليه لقد أصبح تحت أقدامنا[1].

ولم يكن معاوية بأطهر نفساً من أبيه ولا بأقل منه حقداً على الاسلام وحماساً لجاهلية آبائه لا سيما وقد نشأ في أحضان أم لم تعرف البشرية في تاريخها الطويل الواسع ألأم وأشرس منها وقد شاهدها تعبث بأحشاء الحمزة وتأكل من كبده وتصنع من اعضائه عقداً تتشفى بالنظر اليه عندما تذكر قتلاها في بدر، وبالرغم من ان قياد الامة قد اصبح بيده ولم يكن هو وأسرته يحلمون بأكثر من زعامة مكة وقيادتها المحدودة فكان من الوفاء لو كانت أمية تملك ذرة من القيم والوفاء ان تخلص للرسالة وباعثها وللأمة التي قدمت في سبيل بنائها الكثير من التضحيات والقرابين لتضمن لها استمرار البقاء، ولكنها بدلاً من ذلك ظلت أسيرة أحقادها لم تتعد الموقف الذي كانت عليه في الجاهلية وهو إحباط أهداف الرسالة وإضعاف طاقاتها وتشويه معالمها والانحراف بها عن المعطيات والمثل التي تمثّل واقعها المشرق.

ان سلوك الحاكم هو الذي يحدد سلوك الأمة أفراداً وجماعات وأتباعاً وقيادات

(١) أنظر الطبري وتاريخ ابن عساكر وغيرهما من مجاميع التاريخ.

في مختلف الميادين، وعانت الأمة كثيراً من مآسي الصراع الضاري في المواجهة الصعبة بين تلك القوى التي تعتبر الاسلام ملكاً لهاشم والممتلئة حقدا على الرسالة وباعثها وبين القوى المخلصة التي تعتبره ملكاً للانسانية جمعاء ورحمة للعالمين.

ولم يكن عداء أمية للاسلام ومحاولاتها لتحريفه وتشويه معالمه وإحباط أهدافه ينطلق من عدم إيمانها بواقعيته فحسب بل كان بالاضافة الى ذلك ينطلق من عدم تحملها لان يكون الباعث له والمرسل به سليل هاشم محمد بن عبد الله اليتيم، وكان يؤلمها ويقض مضاجعها ان يذكر ذلك اليتيم وتردد الملايين اسمه من على رؤوس المآذن والمنابر في كل يوم عشرات المرات وتشهد له بأنه الرسول الامين من الله سبحانه لبني الانسان ما دام الانسان موجوداً على هذه الارض كما يبدو ذلك من بعض الفلتات التي كانت تصدر منهم بين الحين والآخر وبخاصة من معاوية بعد ان أصبح الاسلام بيده يتصرف به كما يشاء.

فقد جاء عن مطرق بن المغيرة بن شعبة انه قال: وفدت مع أبي المغيرة على معاوية وكان أبي يأتيه ويتحدث اليه ثم يرجع الي فيذكر معاوية وعقله وتدبيره ويقدر فيه ذلك، وفي بعض الليالي رجع من مجلس معاوية مغتماً وأمسك عن العشاء فانتظرته ساعة وظننت ان ما ظهر عليه انما هو شيء أصابه، ثم قلت له: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني لقد جئتك من عند أخبث الناس، فقلت: وما ذاك؟ فقال: لقد خلوت بمعاوية وقلت له: إنك يا أمير المؤمنين لقد بلغت مناك فلو اظهرت عدلاً وبسطت خيراً ونظرت الى اخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه.

فقال لي: هيهات هيهات ملك اخو تيم فعدل فوالله ما عدا ان هلك وهلك ذكره الا ان يقول قائل: كان ابو بكر، ثم ملك اخو عدي فاجتهد وشمر عشر سنين فوالله ما عدا ان هلك وهلك ذكره الا ان يقول قائل: كان عمر بن الخطاب، ثم ملك اخونا عثمان ولم يكن احد في مثل نسبه فعمل ما عمل وعمل به، فوالله ما عدا ان هلك وهلك ذكره وذكر ما فعل الناس به.

وان اخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات: اشهد ان محمداً رسول الله فأي عمل يبقى بعد هذا لا أم لك الا دفنا دفنا[1].

(١) كما روى ذلك عنه المسعودي في مروجه وابن أبي الحديد في شرح النهج عن الموفقيات للزبير ابن بكار، وكان الزبير هذا من المتحزبين لمعاوية والمعادين للتشيع كما تؤكد ذلك المصادر التي تعرضت لتاريخه.

والذي يلفت النظر في هذا الحديث هو تركيز معاوية على الجانب العنصري في حديثه، فهو حين يذكر عثمان لا يرى لأحد مثل نسبه لانه كان أموياً وحين يذكر النبي (ص) لا يذكره باسمه او بلقب الرسالة، بل يقول: وان اخا هاشم ولا يطيق ان يرى له هذا المجد العظيم الذي ينطلق من عظمة الرسالة التي اختاره الله لحملها ونشرها في شرق الارض وغربها لا من اسرته ونسبه.

لقد كان ما يسمونه بعام الجماعة بعد استيلاء معاوية على السلطة وقيادة الامة في واقع الامر عام محنة على الاسلام والمخلصين من المسلمين لرسالة محمد بن عبد الله (ص) وكان اول عمل قام به هو الانحراف بالامة عن خطها الرسالي وطمس الحقائق والمثل التي تعبر عن الوجه المشرق للاسلام، وكما لم يتمكن معاوية ان يتحمل بقاء تلك الصورة المقدسة للاسلام الذي جاء لانقاذ البشرية من ظلمات الجهل والبؤس والانحطاط لم يتمكن ان يتحمل بقاء تلك الصورة المشرقة للامام علي (ع) فعرض على أتباعه من الخطباء والولاة وأذنابهم مسبته ولعنه على المنابر وفي المجتمعات، ولم يكن الدافع له على ذلك سوى حقده العنصري الذي ملك جميع احاسيسه ومشاعره، والا فما الدافع لعمل من هذا النوع وقد استقامت له الامور وخضعت له الرقاب وانتهى دور الامام (ع) بمصرعه ودور ولده الحسن (ع) بما يسمونه الصلح وعام الجماعة ولم يعد في الساحة من يخاف منه على ملكه واستقامت له الامبراطورية الجديدة في شرق البلاد وغربها.

ثم بقي شبح سيف الامام علي بن ابي طالب يقطر من دماء اعداء الله بني أمية وعبد شمس وغيرهم من أحلافهم المشركين في بدر وأحد والخندق، وبقي شبح الايمان والاسلام اللذين يمثلهما علي في حكمه وجميع مراحل حياته وبقيت القاعدة التي تؤمن بحقه وأولويته في الحكم وقيادة الامة، وبقي بالاضافة الى كل ذلك شبح العنصر الهاشمي الذي اختاره الله من أطهر أرومة انجبتها البشرية في تاريخها لحمل الرسالة على الارض، هذه الاشباح بقيت تهز مشاعر معاوية والامويين وتثير فيها نوازع الحقد والحسد والانتقام ولو كان بمقدوره ان يمس صاحب الرسالة ويعرضه للسباب والشتائم لم يتأخر ولكنه أدرك ان ذلك يعني الاصطدام المباشر مع جميع القوى الاسلامية حتى الموالية منها للاسرة الحاكمة، وبدلا من ذلك اتجه الى اقوى شخصية اسلامية من الهاشميين بعد النبي (ص) ففرض على الناس سبها وهو لا يريد من وراء ذلك سوى سب النبي، واندفع بكل قواه وطاقاته في محاولة منه لتحطيمها بالسب والشتم واختلاق الاحاديث والتنكيل بالموالين لها وما الى ذلك من

أساليب العنف والجور والتعذيب التي استعملها ابن هند وأسرته ليحول الانظار والعقول عن علي ومحمد وأسرته ولكنه لم يفلح في شيء من ذلك بل كان في عمله هذا وكأنه يعمل على نشر فضائله ويأخذ بضبعه الى السماء على حد تعبير الشعبي وعبد الله ابن عروة لولديهما.

وصمد المخلصون من شيعة علي (ع) في وجه حكومة معاوية ومخططاتها الهادفة الى تصفيتهم وآثروا الموت على الحياة في سبيل المبادىء التي آمنوا بها وعاشوا من اجلها عقيدة وعملاً، فأثارت تلك المواقف الصامدة الجريئة من أولئك الابطال الميامين جنون الانتقام في أعماق معاوية والحاقدين من أسرته وأعوانه فراحوا يتخبطون في توزيع الاتهامات وأساليب التنكيل بالقتل والتعذيب والتشريد وملاحقة أصحاب الإمام بكل أنواع الأذى، ولكنهم لم ينهزموا امام تهديداته وملاحقتهم ووقفوا منه موقفاً يتسم بالقوة والثبات غير مبالين بالموت ولا بغيره من أساليب التعذيب والتنكيل.

لقد كان معاوية يتلذذ بسبّ علي وشتمه وبتعذيب من لم يتبرأوا منه ويلعنوه في المحافل والمجتمعات وكتب الى موظفيه وعماله في المقاطعات ان لا يجيزوا لاحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وهو حينما يسبّ علياً ويلعنه يسبّ محمداً بالذات لأن محمد (ص) شاع عنه بين الصحابة انه قال: يا علي من سبك فقد سبني ومن سبني فقد سب الله ومن سب الله فقد كفر. وكتب الى عماله نسخة واحدة في جميع البلدان جاء فيها: انظروا من قامت عليه البينة انه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة اخرى جاء فيها: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره.

وجاء في المجلد الرابع من شرح النهج لابن ابي الحديد أن قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين انك قد بلغت ما كنت تؤمل فلو كففت عن لعن هذا الرجل وسبّه والتنكيل بمحبيه وشيعته فان ذلك خير لك، فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلا، وكتب الى جميع عماله ان برئت الذمة ممن يروي شيئاً من فضائل أبي تراب وأهل بيته، فقام الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته[1].

(١) شرح النهج ج ٣ ص ١٥ والمسعودي في مروج الذهب ج ٢ والطبري وغير ذلك من المجاميع.

وبلغت أساليب التعذيب والارهاب حداً جعل الكثير من الناس يفضلون تهمة الزندقة والكفر على تهمة التشيّع لما كانت تجر وراءها من المتاعب والنوائب، وأصبح الناس يتهيبون ان يذكروه باسمه حتى فيما يعود الى أمور التشريع، فكانوا إذا أرادوا ان يرووا عنه يقولون: روى أبو زينب، وعرف بهذه الكنية بين فقهاء التابعين، واشتهر التعبير بها عنه.

وجاء في مناقب أبي حنيفة للمكي أن أبا حنيفة كان يقول: إن بني أمية كانوا لا يفتون بقول علي (ع) ولا يأخذون به وكان علي (ع) لا يذكر بذلك باسمه والعلامة عنه بين المشايخ أن يقولوا قال الشيخ ومنعوا الناس أن يسمّوا ابناءهم باسمه، ويتعرّض للبلاء من سمي ابنه علياً[1].

وكان أشد الناس بلاء أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي (ع) فقد استعمل عليها معاوية زياد بن سمية وضم اليه البصرة فكان يتتبعهم وهو بهم عارف لانه كان منهم ايام علي (ع) فقتلهم تحت كل حجر ومدر على حد تعبير المؤرخين والاخباريين، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل ومضى على ذلك حتى لم يبق في الكوفة من يستطيع ان يتجاهر بالتشيع لعلي وبنيه كما تؤكد ذلك جميع المصادر التي تحدثت عن الامويين في تلك الفترة من تاريخهم وبقي علي بن ابي طالب يحتل عقول الملايين وقلوبهم على مرور الاجيال.

لقد كان معاوية بهذه السياسة الخرقاء التي ان دلت على شيء فانما تدل على انه كان من أجهل الناس بالسياسة ومن أقصر الناس نظراً، لقد أراد ان لا يذكر ذاكر لعلي (ع) فضلاً كما جاء على لسانه في جواب من رغب اليه ان يكف عن شتم علي وسبّه، فجعل الناس يغالون في نشرها ويتهافتون على حفظها، وأراد ان يقضي على التشيع فساعد على نشره واتساعه، وقديما قيل إذا أراد إنسان ان ينشر فضل إنسان فليس عليه الا ان يمنع الناس من الحديث عن فضله، وقال بعض الشعراء في هذا المعنى:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

لقد عدوه من دهاة السياسيين وأقطابهم لأنه نجح على أخصامه وساعدته أسباب ليست من صنعه بل هي من صنع الظروف التى كانت تحيط بالاسلام

(١) انظر مناقب أبي حنيفة للمكي ص ١١٧ وشرح النهج ج ٢ ص ١٧.

وقادته المخلصين القلائل ولو قدّر له الفشل لكان من أسوأ الناس حالاً بنظر السياسيين وأجهلهم بها.

وكما وصفوه بالسياسة والدهاء وصفوه بالحلم والعفو عن أخصامه ومناوئيه، في حين انه كان يعاقب ويقتل على التهمة ولم يظفر بأحد من الموالين لاخصامه السياسيين الا ونكل به وجرعه أسوأ أنواع الأذى والعذاب، وأصدر أمراً لولاته بمطاردة جميع المتهمين بالتشيع ومصادرة ممتلكاتهم وأرزاقهم، وقتل فيمن قتل من آلاف القتلى الابرياء جماعة من أعيان الصحابة والتابعين كحجر بن عدي وأمثاله فأين الحلم الذي كان يتصف به ابن آكلة الاكباد وأي فرق بينه وبين أمه التي ظلت بعد معركة بدر تتحين الفرص لتتشفى من محمد وأصحابه حتى اذا أتيح لها ذلك مثلت بعمه الحمزة بما لا يمكن ان يدخل في حساب احد من الناس وبعد ان تمكن رضيعها وأصبح الامبراطور الأوحد دون مزاحم ورقيب كان عليه لو كان يحمل ذرة من الانسانية والقيم والخلق ان يعفو ويصفح حتى عن أعدائه السياسيين ويعيد الى نفوسهم الهدوء والطمأنينة كما يفعل أكثر الساسة والحاكمين في كل عصر بعد ان ينتصروا على خصومهم وتتسق لهم الأمور، بدلاً من نشر الخوف والذعر في قلوب المؤمنين والتنكيل بالضعفاء والمظلومين.

لقد عفا أمير المؤمنين عن عائشة ومروان بن الحكم يوم الجمل وأعلن العفو العام عن جميع المقاتلين ولم يسمح لأحد من أنصاره الذين ربحوا المعركة ان يمدوا أيديهم لشيء من أموال المنهزمين، وعفا عن ابن العاص وبسر بن أرطأة في صفين بعد أن أصبحا تحت رحمة سيفه، وسقى معاوية وجيشه الماء بعد ان منعه عن أهل العراق حينما كان مسيطراً عليه.

لقد كان معاوية في عهد الإمام (ع) يجهز الجيوش من الوحوش الضواري كبسر بن أرطأة ومسلم بن عقبة والضحاك بن قيس وغيرهم، ويأمرهم بغزو المقاطعات الخاضعة لحكم الامام وبقتل الشيوخ والاطفال والنساء فيتسللون حيث يوجههم كاللصوص والقراصنة حتى اذا ظفروا لا يتركون حرمة الا انتهكوها.

فقد حدث سفيان بن عوف الغامدي وهو أحد قواده العسكريين فقال: دعاني معاوية وقال: اني باعثك بجيش كثيف ذي اداة وجلادة فالزم لي جانب الفرات حتى تمر بهيت فتقطعها، فان وجدت بها جندا فأغر عليها وامض حتى تغير

على الأنبار فان لم تجد جندا فامض حتى تتوغل في المدائن. ان هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كل من له هوى فينا منهم واقتل من لقيته ممن هو ليس على مثل رأيك واضرب كل ما مررت به من القرى، واحرب الاموال فان حرب الاموال وسلبها شبيه بالقتل وأوجع للقلب.

وامتثل الغامدي أمر سيده ابن هند وحمل بخيله على الآمنين وملأ البيوت والأزقة من جثث القتلى ورجع بما وجده من أموال المسلمين الى قصر الخضراء في دمشق وهو يقول: ما غزوت غزوة أقر للعيون وأمرّ على النفوس من هذه الغزوة.

ودعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري أحد قواده وقال له: سر على اسم الله حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت فمن وجدته من الأعراب على طاعة علي (ع) فأغر عليه واقتله، ونفذ الضحاك أمر سيده وأسرف في قتل الآمنين والفتك بهم والسلب والنهب وقتل كل من وجده في طريقه وأغار على قافلة في طريقها للحج فأخذ ما معهم من الامتعة وقتل جماعة منهم عمرو بن عميس بن مسعود ابن اخ عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله (ص).

وأرسل بسر بن أرطأة في جيش الى مدينة الرسول وكان بسر سفاكاً فظاً قاسي القلب على حد تعبير ابن ابي الحديد في شرح النهج وقال له: سر بمن معك حتى تمر بالمدينة فأخف من تمر بهم واطرد الناس من البيوت وانهب كل ما فيها من الاموال وأخبر أهل المدينة بأنه لا براءة لهم عندك ولا عذر، ولما دخل ابن أرطأة المدينة تهددهم وتوعدهم بالقتل وأحرق بيوت من كانوا على غير رأيه من ابناء المهاجرين والانصار، وكان معاوية قد أوصاه ان يقتل شيعة علي حيث كانوا وبعد ان قتل جماعة من أهل المدينة خرج منها الى مكة وكان الوالي عليها لعلي (ع) قثم بن العباس فخرج منها هارباً ودخلها بسر بن أرطأة فقتل جماعة وأحرق دورهم واستولى على أموالهم وأخذ البيعة من أهلها لمعاوية.

وجاء في المجلد الأول من شرح النهج انه قتل طفلين لعبيد الله بن العباس وهما سليمان وداود وكانا في مكة، مع أخوالهما من بني كنانة، وفي رواية ثانية انه قتلهما في صنعاء حيث كان والدهما عبيد الله والياً عليها لعلي (ع) وكان قد فر منها حين دخلها الغزاة فقبض بسر على الغلامين وذبحهما وأمهما تنظر اليهما فصارت كالمدهوشة لا تملك من أمرها شيئاً وكان يجتمع اليها الناس وهي تندبهما بقولها:

ها من أحس بابنيَّ اللذين هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدف

هـا مـن أحس بـابني اللذيـن همـا	سمعي وقلبي فقلبي اليـوم مختـطف
هـا مـن احس بـابني اللذيـن همـا	مـخ العظام فمخي اليـوم مـزدهف
نبئت بسرا ومـا صدقت مـا زعمـوا	من قتلهم ومن الافـك الـذي اقـترفـوا
انحى عـلى ودجي ابني مـرهـفـة	مشحـوذة وكـذاك الاثم يقـترف
مـن ذل والهـة حسرى مـسـلبـة	عـلى صبيين ظـلا اذ مضى السليف

ومضى ابن ابي الحديد في شرحه يقول: لقـد بلغ عدد الـذين قتلهم بسر بن أرطأة في غزوتـه تلك ثلاثـون الفاً عـدا من أحرقهم بـالنار، ولما رجع الى معـاوية وقصّ عليه أخباره قرّبه اليه ورفع منزلته، وأضـاف الى ذلك في شرح النهج: وكما فعل بسر بن أرطأة لمعاوية في المدينة ومكة من قتل وتخريب وإحراق فعـل مسلم بن عقبة بأمر يزيد بن معاوية في المدينة فقتل الرجال والنساء وأباحها ثلاثة ايام لمن معه من الجيش وانتقل منها الى مكة فحاصرها وقتل فيها كل من لم يكن مواليا ليزيد بن معـاوية وهـدم جانبـاً من الكعبة بعـد ان التجأ النـاس اليهـا خـوفـاً عـلى دمـائهم وأعراضهم من الامويين[١] الى كثير من جرائم معاوية التي ارتكبها قبل عام الجماعة وبعده بدافع من حقده على الاسلام وحماته ودعاته، ومع ذلك فقـد كانـوا يتباهـون بحكمه ويضربون به الامثال كما جاء في المجلد الثالث من شرح النهج وغيره[٢].

في حين ان المتتبع لتاريخه يجده مشحونـا بالأمثلة عـلى انه كـان يتشفى ويلتذ بالتنكيل بالابرياء وقتل الصلحاء ومطاردتهم وممارسة جميع وسـائـل الارهاب وحقق لأشياخه وأسرته جميع ما عجزوا عن تحقيقـه خلال حـروبهم لمحمد (ص) ورسـالته خلال عشرين عاما او تزيد. وقد اعتاد الناس ان يرسلوا أحكامهم على الاشخاص من زاويـة النتائـج التي حصلوا عليها، امـا كيـف حصلوا عليهـا فـذاك لا يعنيهم، وأحيانا يبحثون عن المبررات المشروعة وينتحلونها لهم.

وفي ضوء هذا الواقع الذي يعيشه الناس منذ أقدم العصور عدوا معاوية من دهاة السياسيين وكانـوا يضربون المثـل بحكمه ويقـولون لـه ما يشتهي لا لشيء الا لانه حكم الناس وسيطر على أمور المسلمين بالقوة والخداع والاحتيال وقـد وصف بعض الشعراء هذا الواقع بقوله:

والنـاس من يلق خيـراً قـائلون لـه	مـا يشتـهي ولأم المـخـطل الهبـل

(١) أنظر ج ١ من شرح النهج ص ١٢٠ و ١٢١.
(٢) أنظر ص ٤٧٧ من المجلد المذكور.

لقد كان ما يسمونه بعام الجماعة بداية لعهد جديد وتحوّل في تاريخ الاسلام ومسيرته توالت فيه الكوارث والمحن على الاسلام والمسلمين ودعاته المخلصين لمبادئه ورسالته، بداية لعهد تحوّل فيه الاسلام من محتواه الرسالي على يد معاوية الى ملك قيصري وكسروي كان النبي (ص) يترقبه ويتخوف منه ويؤكد على المسلمين ان يكونوا في منتهى اليقظة والحذر ويقفوا صفاً واحداً في مقابل تلك الطغمة الحاقدة ويقتلوا معاوية اذا رأوه على منبره، حيث قال، كما جاء في تاريخ بغداد للخطيب وتهذيب التهذيب لابن حجر وتاريخ الطبري وكنوز الحقائق للمناوي وميزان الاعتدال للذهبي وغيرهما: اذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه، وحينما رأى ابا سفيان على جمل وابنه يزيد يقوده ومعاوية يسوقه قال: لعن الله الراكب والقائد والسائق.

كما جاء في تاريخ بغداد وتفسير الطبري وأسد الغابة ان النبي (ص) رأى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة والخنازير فانتبه من نومه مهموما مغموما فنزلت عليه الآية:

﴿وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن﴾[1] الى غير ذلك من المرويات الكثيرة التي تؤكد ان النبي (ص) كان قلقا على مصير الاسلام من بني أمية وحريصاً على ان يبعث في النفوس روح الحذر واليقظة وأن يكونوا في المستوى المطلوب عندما تصبح السلطة في تصرّف تلك الفئة الباغية الحاقدة على الاسلام وحُماته والمخلصين له ممن وتروا قريشا بقادتها وزعمائها وأبنائها خلال معاركهم مع الاسلام في بدر وأحد والاحزاب وغيرها من المعارك.

وكانت حكومة معاوية بداية لذلك العهد الاسود الذي يسمونه بعام الجماعة بعد ان اضطر الامام ابو محمد الحسن بن علي (ع) للتخلي عن الحكم حرصاً منه على مصلحة المسلمين، وبعد ان وقف بنفسه على جميع المؤامرات والتدابير التي أعدها معاوية للقضاء عليه وعلى اخوته وأهل بيته والصفوة المختارة من قادة جيشه وأنصاره الذين لم يستجيبوا لتهديدات معاوية ولا لمغرياته.

لقد اتخذ سليل أمية جميع التدابير للقضاء عليه وعلى تلك الحفنة الكريمة من ذويه وأنصاره بواسطة العراقيين أنفسهم، ولم يكن الإمام بخيلاً بنفسه واخوته وذويه من عشيرته وأنصاره لو كانت تضحيته تخدم الاسلام وتفضح مخططات

(١) أنظر ص ٦ و٧ من مقتل الحسين (ع) للسيد عبد الرزاق المقرم الطبعة الرابعة.

الامويين ومواقفهم المعادية له، ولكن معاوية كان قد اتخذ جميع الاحتياطات وأعد لكل امر عدته بوسائله الخاصة التي تبرئه من مسؤولية قتله لدى الرأي العام الاسلامي فيما لو رفض الامام فكرة الصلح، وكان الامام على علم بكل ذلك وبرسائل قادة جيشه ورؤساء القبائل الذين اشترى منهم دينهم وكتبوا الى معاوية يشعرونه بطاعتهم العمياء واستعدادهم لتسليمه الامام مكتوفا اذ اقتضى الامر فاضطر بعد ذلك كله لاتخاذ الموقف الذي تمليه مصلحة الاسلام وفوّت على معاوية جميع تدابيره وتنازل له عن السلطة بعد ان ارسل اليه معاوية صحيفة بيضاء موقّعة منه ليضع فيها الشروط التي يراها كما جاء في تاريخ الطبري وغيره[1] فوضع فيها الإمام شروطه وكان من أبرزها العمل بما جاء به الاسلام ومقاومة الظلم والظالمين وأن لا يتعرض معاوية وأنصاره لأحد من شيعتهم بسوء ولا يشتم علياً في قنوت صلاته وغيرها كما كان يفعل، وأن يعامل جميع المسلمين على اختلاف احسابهم وأنسابهم وألوانهم بالرفق والعفو، وأن تكون الخلافة من بعده الى الإمام الحسن ومن بعده لأخيه الحسين وينتهي دور الأمويين بالنسبة اليها بوفاته، ولا يحق له ان يعهد بها لاحد او يعهدها لغيره كائناً من كان[2].

ويدّعي أكثر المؤرخين انه استثنى ما في بيت مال الكوفة لنفسه واشترط لأخيه الحسين مبلغاً من المال في كل عام، ومع اني أشك في هذا الشرط ولم تتوافر لدي من المصادر الموثوقة ما يؤكده، فلو صح فلا بد ان يكون استثناؤه لمصلحة المسلمين لعلمه بأن القسم الاكبر من خزينة الدولة سيذهب الى اولئك الذين ساوموه ومهدوا له الامور وساعدوه على استلام السلطة لقاء ما وعدهم به من الاموال والمراكز.

وبلا شك فان الامام أبو محمد الحسن (ع) كان يهمه من تلك الشروط ان تسير الامور في طريقها الصحيح ويبقى للاسلام وجهه المشرق وأن يتوقف معاوية عن ملاحقة الموالين لامير المؤمنين ومطاردتهم وعن سبّ علي وشتمه وأن لا تكون الخلافة ملكاً لبني أمية يرثها صبيانهم كما يتوارثون متروكات آبائهم وأمهاتهم وأن تعود بعد معاوية لأصحابها الشرعيين، أما الأموال التي يدّعي بعض المؤرخين بأنها كانت من جملة الشروط التي تم عليها الاتفاق فلا أستبعد بأنها من صنع الكَذَبة

(١) أنظر العراق في ظل العهد الأموي لعلي حسين الخربوطلي ص ٧٠.
(٢) أنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٩٤ وابن كثير والإصابة والإمامة والسياسة لابن قتيبة وابن أبي الحديد في شرح النهج وقد نقل عن هؤلاء جميعهم المرحوم العلامة السيد محمد جواد فضل الله في كتابه صلح الحسن ص ١١٤ و ١١٥.

الـذين كانـوا يروون للحـاكمين مـا يشاءون ويشتهـون، والغرض من إقحـام هذا الشرط بين بنود الاتفاق التشنيع على الامام واتهـامه ببيـع الخلافـة كما كـان المنصور العباسي وغيره من سلاطينهم ينعتونه بذلك حيثما تـوالت عليهم انتفاضـات العلويين وأقضت مضاجعهم.

ولم يكتف الامام ابو محمد الحسن بالاتفاق الموقـع من معاويـة بل اخـذ عليه العهـود والمواثيق بحضـور حشد كبـير من أهل الشـام والعراق بتنفيـذ جميع البنـود والشروط بمنتهى الدقة والأمانة، ولا اظن ان الامام (ع) كان يـظن او يترقب وفـاء معاوية والتزامه بما عاهد الله عليه بل كان كما أرجّح يعلم بأنه سـوف لا يفي بشيء منهـا، ولكنه اراد ان يضعـه تجاه امـر واقع ويبـين للعالم ان الامـويـين كحـاكمـين ومحكـومين لا يلتزمـون لا بالاسـلام ولا بما تفـرضه الاعـراف الدوليـة من الالـتزام بالمعاهدات والاتفاقات حرصاً على الـروابط الاجتماعيـة وحفظا للنـظام العام، كـما وان الاسلام نفسه قد اهتم بهذه النواحي اهتماماً بالغاً وأكّد رعـاية العهـود والوفـاء بها فقال سبحانه: ﴿وأوفـوا بالعهـد ان العهد كـان مسؤولا﴾. وقال في الآيـة من سـورة الانفـال ﴿وان استنصروكم في الـدين فعليكم النصر الا عـلى قـوم بينكم وبينهم ميثاق﴾.

فلقد دعت الآية جميع المسلمين الى ان يهبوا الى نصرة اخوانهم في الـدين اذا استنصروهم ما لم يكن بينهم وبين المشركين عهد وميثاق فعليهم والحال هذه احترام عهودهم ومواثيقهم.

وقال امير المؤمنين (ع) في عهده لمالك الاشتر حينما ولاه مصر وأرسله اليهـا: وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة او ألبسته منك ذمة فأحط عهدك بالوفـاء وارع ذمتك بالامانة واجعل نفسك جنة دون ما أعـطيت فانـه ليس من فرائض الله شيء النـاس أشد عليـه اجتماعـا مع تفـرق أهـوائهم وتشتت آرائهم من تعـظيم الـوفـاء بالعهود فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوك[1] ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله الى طلب انفساخه بغير الحق.

وهـذا النص الداعي الى الـوفاء والكـرامـة والقيم الانسانيـة أمثـال في نهج البلاغة يؤكد فيها الامـام (ع) على أصحـابه وقـادة جيشه وجـوب الالتزام بـالعهود

(١) ختل عدوه أي خدعه وغدر به.

والمواثيق وجميع النواحي الانسانية مع أخصامهم من أي نوع كانوا ولا يجعلوا من العهود مع أعدائهم فرصة للغدر بهم بل يفرض عليهم المحافظة على عهودهم بصدق وإخلاص حتى في الحالات التي يستفيدون فيها من الغدر ونقض العهود، ويرى ان جميع العلاقات بين الناس ولو كانت بين المسلمين وغيرهم يجب ان تقوم على المبادىء الاخلاقية والانسانية التي تجمع وتؤلف وتشد الناس بعضهم الى بعض، اما الغدر ونقض العهود والمواثيق ولو كانت تجر من ورائها مغنما وتصنع انتصاراً فلا يقرها الاسلام ولا يراها انتصاراً ولذلك كان (ع) يقول: الغالب بالشر مغلوب.

لقد نظر النبي (ص) الى معاوية من وراء الغيب على منبر علي (ع) في الكوفة لأول مرة بعد تلك العهود والمواثيق التي عاهد الله والمسلمين على الوفاء بها، وهو يقول بدون حياء ولا خجل: اني ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا بل قاتلتكم لأتأمر عليكم وقد أعطاني الله ذلك، وان كل شرط وعهد اعطيتهما للحسن بن علي فهما تحت قدمي هاتين لا أفي له ولا لغيره بشيء منه. لقد نظر اليه وهو على منبره يتحدث بلغة الطغاة والجبابرة وبحضور سبطه الحسن بن علي (ع) وحشد كبير من المسلمين، فلعنه وقال: اذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه.

ولكن المسلمين بدلا من ان ينفذوا وصية رسول الله (ص) الذي لا ينطق عن الهوى ويقتلوا معاوية عدو الاسلام ومن جاء بالاسلام، والذي فرض سبّ علي وشتمه على منابر المسلمين وهدد وتوعد من لم ينفذ أوامره ويتبرأ من علي وبنيه وشيعته وأنصاره وهو يعلم انه يسب ويلعن رسول الله لانه سمع النبي هو وغيره من المسلمين يقول في عدد من المناسبات: من سبّ علياً فقد سبني ومن سبني فقد سبّ الله، بدلاً من ان ينفذوا وصيته بمعاوية فقد مهدوا له الطريق الذي أوصله الى منبره وساعدوه على ابن عمه أمير المؤمنين وقتل سبطيه الحسن والحسين والتنكيل بمن رفضوا لعن علي والبراءة منه وثاروا على الظلم والطغيان كحجر بن عدي وأصحابه البررة الكرام ورشيد الهجري وميثم التمار وعمرو بن الحمق الخزاعي وسعيد بن جبير وغيرهم من آلاف الصلحاء الذين آثروا الموت والشهادة في سبيل المبدأ والعقيدة.

لقد لعنه رسول الله (ص) وأمر بقتله لانه سمعه من وراء الغيب ومن على منبره بحضور عشرات الالوف من مسلمي بلاد الشام وغيرها يفتري عليه ويقول: أيها الناس ان رسول الله (ص) قال لي: انك ستلي الخلافة من بعدي فاختر

الارض المقدسة فان فيها الابدال وقد اخترتكم فالعنوا ابا تراب.

فأخذ الناس يلعنونه ومضى على ذلك هو وعماله وأنصاره، وكان يقول في خطبته يوم الجمعة: اللهم ان ابا تراب قد ألحد في دينك وصد عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلاً وعذبه عذاباً أليماً[1] هذا بعد ما عاهد الله على ان لا يذكره وولده بسوء.

وقد بالغ هو وعماله في الامصار في فرض هذه الجريمة على المسلمين حتى أصبحت من أجزاء صلاة الجمعة وأركانها، وبلغ من إسرافهم في المحافظة على التزام المسلمين بها ان بعض خطبائهم نسي لعن علي في خطبة الجمعة وتذكر انه نسي هذا الامر وهو في السفر فوقف بمن كان معه وشتم علياً بالالفاظ والكلمات التي اعتادوا ان يذكروه بها فبنوا مسجدا في ذلك المكان المبارك وسموه مسجد الذكر[2].

وبلغ الحال بأحد عملائهم خالد بن عبد الله القسري يوم كان والياً لعبد الملك بن مروان على مكة والعراق، انه كان في خطبة الجمعة يسبّ علياً والحسن والحسين ويذكرهم بأسمائهم، وأحيانا حينما يذكر أمير المؤمنين (ع) يقول: صهر رسول الله (ص) على ابنته وأبا الحسن والحسين ويلتفت الى المجتمعين تحت منبره قائلا: هل كنيت؟

وجاء عن الحافظ السيوطي انه كان في أيام بني أمية أكثر من سبعين الف منبر يسبّون عليها علي بن أبي طالب (ع) نتيجة لتلك الخطة التي وضعها معاوية بن أبي سفيان وفرضها في الاوساط الاسلامية بالمال والسلاح، وبهذه المناسبة يقول احمد حفظي الشافعي في أرجوزته:

وقد حكى الشيخ السيوطي انه ... قد كان فيما جعلوه سنة
سبعون الف منبر وعشرة ... من فوقهن يلعنون حيدرة
وهذه في جنبها العظائم ... تصغر بل توجه اللوائم[3]

لقد رأى النبي (ص) بني أمية ينزون على منبره كما تنزو القردة والخنازير والمدلول الواضح لهذه الرؤيا انهم يتوارثون الحكم خلفاً عن سلف وتصبح السلطة

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ٣ ص ٣٦١ والنصائح الكافية ص ٧٢ عن أبي عثمان الجاحظ في كتابه الرد عن الإمامية كما جاء في المجلد الثاني الإمام الحسن للقرشي.
(٢) الإمام الحسن عن مقتل الحسين للمقرم ص ١٩٨.
(٣) أنظر ص ٣٤٣ من كتاب الإمام الحسن المجلد الثاني للقرشي.

وراثة في بني أمية، فراعه ذلك وجاءت الآية لتؤكد رؤياه أو نبوءته فلعنهم وحذر المسلمين مما سيلاقونه من اولئك الغلمان الذين يشبهون القردة والخنازير، وظل النبي طيلة حياته يعاني ويتلوى من المصير السيىء الذي ينتظره الاسلام من تلك الفئة الباغية لانه لم ير رؤيا الا جاءت كفلق الصبح وقد أكدتها الآية وشبهت بيت أمية بالاشجار الملعونة التي تحمل أخبث الاثمار وأمرها مذاقاً وأكثرها ضرراً على الناس».

لقد سبق في علم الله سبحانه ان الامة ستختار لنفسها هذا المصير وتولى قيادتها تلك العصابة على التوالي ورآهم النبي (ص) ينزون على منبره كالقردة والخنازير فتجسدت لديه المخاطر وتملكه الخوف والقلق على مصير الاسلام والمسلمين وأكدت له الآية كما اشرنا الى ذلك من قبل ما رآه في نومه وان بني أمية سيتعاقبون على منبر الاسلام خلفاً بعد سلف ولازم ذلك ان معاوية سيجعلها من بعده لولده الفاجر المستهتر بالقيم والاعراف وجميع ما جاء به الاسلام، وليس لدى معاوية ما يمنعه من ذلك اسلامياً وأخلاقياً، فامية لم يخالط الاسلام نفوسها ولا عقولها، كما عبر عن ذلك زعيمها ابو سفيان في اليوم الذي انتقلت الخلافة فيه الى سليل بيته عثمان بن عفان، ولم يحدث التاريخ عن قادة تلك الأسرة وحكامها انهم التزموا بشيء من المبادىء الاخلاقية والانسانية التي وضعها الاسلام لتكون اساساً لبناء المجتمع الاسلامي الذي يقوم على الوفاء بالحقوق واحترام الانسان لاخيه الانسان مهما كان لونه وجنسه والالتزام بجميع العهود والمواثيق والوعود، ولو كان نقضها يجر من ورائه مغنماً ويصنع انتصاراً.

ان ما تسميه الاديان والناس والاعراف غدراً وخيانةً ونكثاً وفتكاً وما الى ذلك مما حرّمه الاسلام وغيره من الاديان والقوانين الدولية والاعراف لا وجود له في قواميس قادة هذا البيت وهو من نوع اللغو والهراء وكل شيء عندهم حسن ومباح ما دام يجر مغنماً ويدر عليهم أرباحاً، وقد ضرب معاوية بن هند عشرات الامثلة على ذلك من سيرته وسياسته.

وكان من جملتها لا من أواخرها موقفه من الوثيقة التي وقّعها بخط يده وأشهد قادة الجيشين عليها وعاهد الله والاسلام أكثر من مرة على الوفاء والالتزام بإخلاص وأمانة بكل بنودها وبخاصة ما كان منها يتعلق بسبّ علي (ع) وعدم التعرض لشيعته، ورجوع الخلافة الى الإمام الحسن ومن بعده لأخيه الحسين

اللذين نص النبي (ص) على إمامتهما مرات عديدة بحضور العشرات من الانصار والمهاجرين حتى أصبح حديث إمامتهما من المسلمات الذي لا ينكره الا من سخرهم معاوية لإنكار الضرورات الاسلامية واختلاق الاحاديث في فضله وفضل المناوئين للاسلام وحماته من أسرته.

هذه الوثيقة بعد ايام قلائل من توقيعها وضعها تحت قدميه وهو على منبر رسول الله وقال: ألا وان كل شرط اعطيته للحسن بن علي هو تحت قدمي هاتين لا أفي له بشيء منه، واتجه الى الحشود المجتمعة من أهل الكوفة وقال: اني ما قاتلتكم الا لأتأمر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون.

ان النبي (ص) رآهم ينزون على منبره كالقردة والخنازير والنبي لا ينطق عن الهوى، وكان معاوية الاول او الثاني من فروع تلك الشجرة الذين رآهم النبي من وراء الغيب ينزون على منبره، ولا بد وأن ينزو من بعده ولده يزيد بن ميسون، وهو منذ الايام الاولى لعام المحنة مصمم على ان يمكنه من منبر رسول الله ويجعلها له من بعده، بالرغم من انه كان منبوذاً ومكروهاً من أكثر المسلمين وبخاصة ممن كان يومذاك على قيد الحياة من المهاجرين والانصار، لانه كان مستهتراً بالاسلام بكل ما في الاستهتار من معنى ومنصرفاً الى العادات والاخلاق البدوية البعيدة عنه، ومردّ ذلك كما يرى جماعة من الكتّاب الى تأثره بعشر سكان البادية وبالمسيحية التي تغلب على أهلها، وقد نشأ فيها مع أمه المغرقة في البداوة والتي كانت تفضل سكنى الخيام على القصور وخبز الشعير على أطايب الطعام، وحينما تركها معاوية ورجعت الى أهلها في البادية ترك لها ولدها يزيداً وكان صغيراً فنشأ بينهم وغلبت عليه جميع العادات كالصيد والغناء وشرب الخمور وما الى ذلك من مظاهر الجاهلية والبوادي، وقد ورث من أمية البغضاء والكره للهاشميين والانصار، وكان يتجاهر بذلك بدون تحرّج ويتمنى لو يتاح له الانتقام لأسرته.

ويعزو بعض الكتّاب هذه الظاهرة الى انها من آثار تلك العقد الدفينة التي خلّفتها في نفسه حروب أسرته لمحمد والمسلمين وما حلّ بأسرته وأخواله فيها. ولم يكن ليغيب عنه ان جدته هند ظلت تنعاهم وتندبهم لمدة طويلة وقد افتخرت على النساء في سوق عكاظ بعظم ثكلها وشدة حزنها على من فقدتهم في تلك المعارك[1].

وقال الدكتور طه حسين في كتابه الادب الجاهلي: ان يزيد بن معاوية كان

(١) أنظر ص ٢٤٤ و ٢٤٥ من وعاظ السلاطين لعلي الوردي.

صورة صادقة لجده أبي سفيان بن حرب في استخفافه بالاسلام وإيثاره العصبيات القبلية على كل شيء وهو صاحب وقعة الحرة التي قتل فيها من الانصار وأبنائهم اكثر من ثلاثين الفاً ومن بينهم ثمانون من الذين أذلوا قريشاً وأسرته في بدر وغيرها من المعارك، وقد انتهك فيها حرمات الانصار في المدينة وأباح نساءهم وأموالهم لجيشه[1].

وكان معاوية يعرف كل ذلك عن ولي عهده ووارث عرشه ويعرف ان عملاً من هذا النوع سيصطدم بكثير من الصعاب والعقبات فراح يعمل بجد واجتهاد على تذليلها ولم تكن مطاردته للشيعة وملاحقتهم بكل أنواع الأذى الا من ضمن ذلك المخطط كما كان من جملته بذل الأموال والوعود المغرية لزعماء العراق وقادة المسلمين. وعقد مؤتمراً كما جاء في رواية ابن قتيبة في كتابه الامامة والسياسة دعا اليه جماعة من خلصائه وأنصاره فلم يجد تجاوباً مشجعاً له الا من المغيرة بن شعبة الذي أراد ان يستعيد مركزه في الكوفة وقد كان معاوية قد اتخذ قراراً بعزله عنها وتوليتها لسعيد بن العاص، فقال له: لقد رأيت يا أمير المؤمنين ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد خلف فاعقد له فان حدث بك ما حدث كان كهفاً للناس وخلفا لك، فقال معاوية: ومن لي باتمام هذا الامر؟ فرد عليه المغيرة بقوله: انا اكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك، فأرجعه الى الكوفة ليمهّد له الامور فيها فرجع اليها وقال: لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد وفتقت عليه فتقاً لا يرتق ابداً[2].

أما زياد بن أبيه فقد كان من بين عماله الذين لم يشجعوه على هذا الأمر ونصحوه بالتروي وعدم الاقدام على عمل من هذا النوع لعلمه بما ليزيد من المكانة السيئة عند عامة المسلمين، وجاء في كتاب زياد لمعاوية: إن أمير المؤمنين كتب الي يزعم انه قد عزم على البيعة ليزيد من بعده وهو يتخوف الناس ويرجو مساعدته على ذلك، ومضى يقول: إن يزيداً يا أمير المؤمنين صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد وشرب الخمور وغيره من المنكرات ويعرف عنه ذلك الجميع وأرى لك ان تنتظر المناسبات، وأوصى الرسول الذي حمل اليه الكتاب ان ينصحه بالتروي والتؤدة في هذا الأمر على حد تعبير الرواة والمؤرخين.

ورأى معاوية ان يذهب الى الحجاز معقل المسلمين الاوائل وفيها من بقايا

(١) الأدب الجاهلي ص ١٣٦.
(٢) أنظر المجلد الثالث من تاريخ ابن الأثير ص ١٩٨.

الصحابة وأبنائهم وذوي الرأي والبصيرة جماعة تتطلع اليهم الانظار وتهفو نحوهم القلوب فذهب الى يثرب سنة ٥٠ من الهجرة ليختبر نواياهم ويرى ما عندهم بخصوص هذا الامر الذي أصبح شغله الشاغل، ووجد من الجميع ما يشبه الإجماع على المعارضة، وتكلم باسم الجميع عبد الله بن الزبير كما في رواية الإمامة والسياسة لابن قتيبة، وكان عنيفاً في رده على معاوية.

وجاء فيه: ان الخلافة يا معاوية لقريش لا تنالها الا بمآثرها السنيّة وأفعالها المرضية مع شرف الآباء والأمهات وكرم الأبناء، فاتّق الله وانصف من نفسك فإن في المسلمين عبد الله بن العباس ابن عم الرسول وعبد الله بن جعفر ابن ذي الجناحين وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله، وقد خلف علي بن أبي طالب حسناً وحسيناً وأنت وجميع المسلمين يعلمون من هما وما هما، ومضى يقول: فاتّق الله يا معاوية وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك، ولم يرَ من بقايا الصحابة ولا من أبناء المهاجرين والأنصار ما يشجعه على المضي في إعلان ولده الخليع ولياً لعهده فرجع من الحجاز كاليائس منهم، وفي الوقت ذاته فهو لا يأمن أهل العراق وأكثرهم من الشيعة وبينهم عدد كبير من الزعماء والقادة لا يفضلون على الحسن أحداً ولا يرضون بغيره.

وكان معاوية على يقين من ذلك، وحينما اجتمع بالأحنف بن قيس وكان الزعيم الأول الذي ترجع اليه قبيلة تميم في جميع مشاكلها ولا تعصي له أمراً وعرض عليه معاوية ولاية العهد ليزيد من بعده رد عليه قائلاً: لقد علمت يا معاوية بأنك لم تفتح العراق عنوة ولم تظهر عليها تعصباً ولكنك أعطيت الحسن بن علي من العهود والمواثيق ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك فان تفِ فأنت أهل الوفاء وإن تغدر فأنت تعلم ان وراء الحسن خيولاً جياداً وأذرعاً شداداً وسيوفاً حداداً وان السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها والقلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن تدن من الحرب فترا، ندن منها شبراً، وإن تمشِ لها نهرول اليها، وأن تضمر لها شبراً من غدر تجد وراءه باعاً من نصر، ثم قام من مجلسه وخرج، وتضيف الرواية أن أختاً لمعاوية كانت من وراء الستار تسمع ما جرى بين الأحنف وأخيها فقالت: يا أمير المؤمنين من هذا الذي يهدد ويتوعد؟ قال: هذا الذي اذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من تميم ولا يسألونه لماذا غضبت[1].

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٧٥، والإمام الحسن المجلد الثاني للقرشي عن وفيات الأعيان لابن خلكان والإمامة والسياسة لابن قتيبة.

وكان غيره من زعماء العراق كعدي بن حاتم وحجر بن عدي وصعصعة بن صوحان وعمرو بن الحمق الخزاعي وقيس بن سعد بن عبادة وعشرات الزعماء يحملون الروح نفسها التي يحملها الأحنف، وكانوا في تحرّك مستمر ويتصلون بالإمام أبي محمد بين الحين والآخر، وجلّهم كانوا يرغبون اليه ويحرضونه على حرب معاوية والرجوع الى الكوفة ورفض الوثيقة التي وضعها معاوية تحت قدميه وأعلن عن عدم استعداده للوفاء بشيء منها، وكان هو من جانبه يردّهم رداً جميلاً ويرد على كل فئة بما تستوعبه من تقييم للأحداث ولمواقفه وأحياناً يكشف لبعضهم عن تلك الدوافع التي أملتها عليه مصلحة الاسلام في اتخاذه لهذا الموقف.

واستطاع بعد حوار طويل أن يقنع البعض من أولئك القادة أن الحرب التي تخلى عنها لم تكن لمصلحة الاسلام ولا لمصلحتهم لأن أهل العراق أكثرهم سيقفون الى جانب معاوية وليس أمامه وأمامهم لو مضى في حربه لمعاوية إلا أحد أمرين: إما القتل مع أخوته وبني عمومته وخلص أصحابه، أو الأسر، وكلاهما يخدمان مصلحة معاوية، فالقتل وهو أقرب الاحتمالين يؤدي الى ذهاب دمه هدراً ومعاوية هو وأعوانه يملكون من أساليب المكر والخداع والمراوغات ما يكفيهم لتضليل الرأي العام وتغطية جريمتهم، ولا أقل من تشويه الصورة التي أقدم فيها على التضحية كي لا تعطي شهادته ثمارها المرجوة كما أعطت شهادة أخيه الحسين (ع).

وكما كان الإمام أبو محمد الحسن يعلم بذلك كان يعلم بأن جميع شروطه وعهوده سوف لا يلتزم بها معاوية وسيضعها تحت قدميه كما فعل، ولكنه أراد أن يفضح مخططات الأمويين وعداءهم السافر للإسلام وحماته كما ذكرنا، وقد انتصر بثورته الصامتة التي كانت أجدى للإسلام ورسالة محمد بن عبد الله (ص) من الثورة بالسيوف والرماح وكشف بذلك المطامع الأموية وأحقادها الدفينة وعرّاها من كل أقنعتها التي كانت تضلل بها العامة والرعاع من الناس، ولم يكن معاوية واضحاً قبل ذلك، بل كان يحاول أن يبرر كل موقف من مواقفه التي كانت تثير الريب والشكوك بأعذار مشروعة ولو لدى الطبقات العامة من المسلمين، ويجد من بعض الصحابة والطامعين من يسهّل له ذلك.

لقد استطاع الإمام الحسن إقناع أولئك الثائرين من خلص أصحابه وشيعته بأن الموقف الذي اتخذه من معاوية لم يكن له بديل عنه وخلدوا الى الهدوء والتروي والآمال تراودهم بأن تعود الخلافة الى الحسن (ع) بعد معاوية الذي أصبح على أعتاب الثمانين من عمره وكان معاوية يعلم بأن أكثر أهل العراق لا يرضون بولده

الخليع بديلاً عن الحسن بن علي وأنهم سوف لا يكونون أهون عليه من أهل الحجاز، وأن وعود المغيرة بن شعبة لا تحل المشكلة، وبعد تفكير طويل ومداولات مع خاصته وذويه تمخضت عن اتفاقهم على التخلص من الحسن بن علي (ع).

وراح معاوية يفكر في ذلك ويطيل التفكير ويقلب الرأي على جميع وجوهه ويستعرض جميع الوسائل وانتهى أخيراً الى كلمته التي ضربها مثلاً للفتك والغدر وكان يتباهى بها أحياناً عندما يتبجح بالفتك في أخصامه ويقول: ان لله جنوداً من العسل فقد اغتال مالك الأشتر وهو في طريقه الى مصر والياً عليها لعلي أمير المؤمنين (ع) بعد أن أغرى أحد أنصاره ممن كانوا يسكنون الطريق التي لا بد للأشتر من المرور بها بالوعود والأموال وأرسل اليهم عسلاً مسموماً ليقدمه اليه عند نزوله في ذلك المكان، وتم لمعاوية ما أراد. كما اغتال كلاً من محمد بن أبي حذيفة وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وسعد بن ابي وقاص بالسم، وجاء في مقاتل الطالبيين أنه لم يكن أحد من خلق الله أثقل على معاوية من الحسن بن علي (ع) وسعد بن أبي وقاص فدسّ اليهما سماً وماتا منه وكان موتهما خلال أيام متقاربة بعد ما مضى من إمارة معاوية عشر سنين[1].

وكان سعد بن أبي وقاص من أوفر المسلمين حظاً بعد الحسن والحسين بنظر البقية الباقية من الصحابة وأبناء المهاجرين والأنصار. ومع أن تاريخه مع علي أمير المؤمنين (ع) لم يكن بريئاً ومواقفه منه خلال معاركه في البصرة وصفين مع الناكثين والقاسطين طليعة الخوارج لم تكن نزيهة، هذا بالاضافة الى تحيزه السافر يوم الشورى التي تمخضت عن خلافة عثمان، ومع ذلك فلقد كان ينكر على معاوية تعرضه لعلي وسبّه في مجالسه وعلى منابر المسلمين ويندد به وبسياسته ولا يتحاشى جوره وظلمه.

وحدّث المؤرخون ان معاوية حينما ذهب الى المدينة ومكة ليختبر موقف المسلمين من ولاية يزيد توجه الى دار الندوة فدخل عليه سعد بن ابي وقاص فأجلسه على سريره وشرع في سبّ علي (ع) فغضب سعد بن أبي وقاص والتفت الى معاوية وقال: لقد أجلستني معك على السرير وشرعت في سبّ علي والله يا معاوية لأن يكون لي خصلة واحدة من خصال عليّ أحب إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، وأخذ يعدد فضائل علي وما قاله الرسول (ص) فيه، ثم قام

(١) أنظر ص ٤٨ من مقاتل الطالبيين لأبي الفرج.

من مجلسه وهو يقول: والله يا معاوية ما دخلت لك داراً ما دمت حياً[1].

ومهما كان الحال فلقد عزم معاوية على تنفيذ خططه وأرسل الى ملك الروم يطلب منه سماً فاتكاً سريع التأثير كما يدعي جماعة من المؤرخين، فردّ عليه بقوله: لا يصح في ديننا أن نعين على قتل من لا يقاتلنا، فردّ عليه بأن الرجل الذي نريد قتله هو ابن الرجل الذي خرج بأرض تهامة مدعياً بأنه رسول من الله، وقد خرج يطلب مُلك أبيه وأنا أطلب السم اليه لأريح منه العباد والبلاد، فبعث اليه ملك الروم سماً مميتاً وراح معاوية بعد أن قطع هذه المرحلة يفكر فيمن يتولى هذه الجريمة فوقع اختياره على زوجة الإمام جعدة بنت الأشعث بن قيس المعروف بميوله لمعاوية وكان أحد المتآمرين على قتل أمير المؤمنين (ع) فأرسل السم الى مروان بن الحكم عامله على المدينة وأمره بأن يتصل بها ويمنيها بزواجها من يزيد ان هي استجابت لطلبه ويدفع لها مائة ألف درهم، وفي رواية «مروج الذهب» عشرة آلاف دينار أو ضياعاً من سواد الكوفة.

ولما عرض عليها مروان وعود معاوية ودفع لها الأموال استجابت لطلبه فأخذت منه السم ووضعته في الطعام الذي قدمته الى الإمام (ع) ولما دخل جوفه تقطعت أمعاؤه وغاب عن الدنيا وحينما أفاق من غشيته والألم يعبث بأحشائه حمد الله سبحانه وشكره على لقاء جده سيد المرسلين وأبيه أمير المؤمنين وأمه سيدة نساء العالمين وعمه وعم أبيه جعفر الطيار وحمزة سيد الشهداء والتفت الى جعدة وقال:

يا عدوة الله قتلتني قتلك الله، والله لا تصيبين بعدي خلفاً ولقد غرّك معاوية وسخر منك وسوف لا تنالين غير الخزي والعار، ولقد أخزاها الله وأصبحت مضرب المثل للسوء والخزي والاثم والخيانة وصار الناس بعد ذلك يعيرون أولادها بجريمتها ويخاطبونهم عندما تحصل مشادة بينهم وبين أحد من الناس بقولهم: يا أولاد مسممة الأزواج.

وقد سخر منها معاوية ولم يفِ لها بما وعدها به وحينما طلبت الزواج من يزيد كما وعدها أجابها بقوله: إنا نحب يزيداً ولن نسخى بحياته، ولولا خوفنا عليه لوفينا لك بتزويجه.

وظل الإمام (ع) يعاني من آثار السم أربعين يوماً كما جاء في دائرة المعارف للبستاني وشرح النهج وفي حياة الحيوان للدميري قرابة شهرين حتى ذاب قلبه

(١) المجلد الثاني من حيام الإمام الحسن ص ٣٤٩.

وجسمه من الالم، وفي اللحظات الأخيرة من حياته دخل عليه الحسين (ع) ورآه يجود بنفسه فقال له: من سقاك السم يا أخي؟ فرد عليه بصوت ضعيف قائلاً: وما تريد منه أتريد أن تقتص لي؟ أن يكن الذي أظنه فالله أشد بأساً وأشد تنكيلاً، وإن لم يكن هو فما أحب أن يقتل بي بريء.

والتفت الإمام (ع) الى أهله وولده ومن كان حاضراً عنده وقال: لقد سُقيت السم مراراً وهذه المرة الأخيرة من أشدها وأكثرها ألماً وفتكاً في أحشائي، ومضى يقول: لقد لفظت من كبدي قطعة وجعلت أقلبها بعود كان في يدي[1].

ودخل عليه أخوه الحسين وهو يتململ ويتلوى من الألم فلما نظر إليه بكى لحاله ولما يعانيه فنظر اليه وهو يصارع الموت وقال له: لا يوم كيومك يا أبا عبد الله كأني بك وقد ازدلف اليك ثلاثون الفاً يدعون بأنهم من أمة جدنا محمد ينتحلون دين الاسلام ويجتمعون على قتلك وسفك دمك وانتهاك حرمتك وسبي ذراريك ونسائك وانتهاب ثقلك[2].

إن ما أخبر به الإمام أخاه الحسين (ع) هو مما كان النبي (ص) يخبر به علياً والصفوة الطاهرة من أصحابه وعلي عليه أفضل الصلاة والسلام أخبر عن بعض تلك المغيبات التي اتصلت للنبي (ص) عن طريق علّام الغيوب الذي لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول، وقد شاعت أخبار واقعة الطف وما يجري فيها على العترة الطاهرة قبل وقوعها بعدد من السنين وتناقلها الخواص من كرام أصحاب النبي وأمير المؤمنين، وكانت من أفظع ما واجهته العترة الطاهرة بعد وفاة النبي (ص) من الكوارث والخطوب، فقد ذل فيها المسلمون وانتهكت كرامة الاسلام وحرمات النبي (ص) وأدرك المسلمون بعدها أبعاد تلك الجريمة النكراء ونتائجها المريرة على الإسلام والمسلمين وراحوا يتلاومون ويتباكون على تخاذلهم عن نصرته والوقوف الى جانبه في وجه ذلك الطاغي الخليع، وكانت نهايتها المريرة بداية لأحداث وأحداث كان من أبرز آثارها ونتائجها ان الحزب الأموي تكشف للرأي العام الإسلامي على واقعه الكريه العنصري الحاقد الذي يرجع الى عصور الجاهلية الحمقاء كما ساهم في ذلك موقفهم من أخيه الحسن(ع).

وظلت تلك الفاجعة الاليمة المريرة تزوّد العدو والصديق وجميع المناوئين

(١) أنظر شرح النهج ج ٤ ص ١٧.
(٢) البحار ج ١٠ ص ١٢٣.

والطامعين في الحكم بالقوة والانصار حتى نهايتهم، ولعلنا نتوفق لعرض موجز لبعض الجوانب من تلك الاحداث التي كانت معركة الطف من أبرز أسبابها في المحل المناسب من هذا الكتاب.

وعندما أحس الإمام أبو محمد الحسن بن علي بدنو أجله أوصى الى أخيه الحسين (ع) وجاء في وصيته، كما في المجلد الرابع من أعيان الشيعة والأمالي للصدوق وغيرهما من المصادر الشيعية، ان يدفنه مع رسول الله (ص) في بيته، وان عارضه احد فقد ناشده بالله والقرابة والرحم الماسة من رسول الله (ص) ان لا يريق بسببه محجمة من دم حتى يلقى الله ويخاصمهم عنده وان يدفنه في البقيع الى جوار جدته فاطمة بنت أسد (ع).

ولما فاضت نفسه الكريمة وسمت الى الرفيق الاعلى لليلتين بقيتا من صفر سنة خمسين من الهجرة كما في أشهر الروايات، ارتفع الصراخ والعويل من بيوت الهاشميين وأكثر اهالي المدينة، حتى ان أبا هريرة مع صلاته الوثيقة بالامويين خرج من بيته باكياً صائحاً: ايها الناس لقد مات حبيب رسول الله (ص) فابكوه واندبوه[1].

فهرع الناس نحو ثرى الإمام (ع) وهم ما بين واجم وصائح ومشدوه ونائح على فقد الرجل العظيم الذي كان ملاذاً وملجأً ومفزعاً للجميع اذا نزلت بهم كارثة أو حلت بهم مصيبة، وكان تشييعه حافلاً لم تشهد له نظيراً عاصمة الرسول (ص) وزحف الناس من قراهم المجاورة ليثرب ليشهدوا تشييعه وبلغ من ازدحام الجماهير وتزاحمهم على جنازته ان ابرة لو طرحت على الموكب لما وقعت الا على رأس انسان كما جاء ذلك في الاصابة عن ثعلبة بن مالك[2].

وحمل المشيعون جثمانه الشريف الى مسجد النبي على أطراف الأنامل تحف به وجوه المسلمين وبقية الصحابة، وتقدم الإمام أبو عبد الله الحسين (ع) فصلى عليه في مسجد الرسول وائتم به المسلمون على اختلاف طبقاتهم.

وفي رواية شرح النهج لابن أبي الحديد ان الحسين (ع) قدم الوالي على المدينة سعيد بن العاص للصلاة عليه وقال له: لولا انها سنّة لما قدمتك، وجاء في المجلد الثاني من تاريخ الخميس ان أحداً من الامويين لم يحضر موكب التشييع

(١) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٣٠١ وتاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٢٢٧.
(٢) الإصابة ج ١ ص ٣٣٠.

سوى سعيد بن العاص، واتجه الموكب بعد الصلاة نحو المرقد النبوي لمواراته بجواره، فتكتل الامويين وخرجوا بأسلحتهم وهم يقولون: يا رب هيجا هي خير من دعت أيدفن عثمان بأقصى المدينة ويدفن الحسن مع جده، واستنجدوا بعائشة فأخرجوها على بغلة والتفوا حولها كما فعلوا مع امير المؤمنين في البصرة وقد أركبوها جملاً يومذاك، ومضت نحو قبر النبي يحف بها الامويون وأنصارهم وهي تصيح: الله الله يا بني هاشم لا تدخلوا بيتي من لا أحب أو تجز هذه، وأومأت الى ناصيتها وكادت الفتنة ان تقع لولا ان الحسين (ع) تدارك الأمر عملا بوصية أخيه وصاح الناس من كل جانب وهم يقولون: يوماً على جمل ويوماً على بغل، ولكن حقدها على فاطمة بضعة الرسول وولدها وبعلها أفقدها وعيها وشعورها وأصبحت كالدمية بيد الامويين أعداء الاسلام ومن جاء بالاسلام يتلاعبون بها كما يريدون ويشتهون ويسخرونها لمصالحهم وأهوائهم.

وقد انعطف نحوها ابن اخيها القاسم بن محمد بن ابي بكر ليردعها عن موقفها الذي لا يخدم الا أعداء الرسول (ص) قائلاً: يا عمة ارجعي الى بيتك الذي أمرك رسول الله (ص) ان تقري فيه، والله ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الاحمر، أتريدين ان يتحدث الناس عن يوم البغلة الشهباء. وأقبل عليها عبد الله بن العباس وهو لا يبصر طريقه من الغضب وصاح بها: يوماً على جمل ويوماً على بغل، أتريدين ان تطفئي نور الله وتقاتلين أولياءه اليوم كما قاتلتهم بالامس؟ والتفت الى مروان بن الحكم طريد رسول الله (ص) وقال له: ارجع يا مروان بمن معك من حيث جئت فإنا لا نريد دفن صاحبنا عند رسول الله بل نريد ان نجدد به عهداً وندفنه عند جدته فاطمة بنت أسد كما أوصانا، ولو أوصانا بدفنه عند جده لعلمت من هو أقصر باعاً[1].

واستطاع الإمام أبو عبد الله الحسين (ع) أن يضع حداً للموقف المتأزم ويفوّت على الامويين وصنيعتهم عائشة ما كانوا يهدفون اليه من وراء هذا الموقف الذي يعبّر عن أبشع أنواع الحقد والكراهية والتنكّر لقائد مسيرة المحبة والسلام والرحمة.

(١) أنظر شرح النهج ج ٤ ص ١٨ وتاريخ الخميس ج ٢ ص ٣٢٣ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٠٠، وروضة الواعظين ص ١٤٣ ومستدرك الحاكم وغير ذلك من المصادر التي تؤكد موقف السيدة عائشة من جنازة الإمام.

واتجه بجثمان أخيه فواراه بالبقيع الى جانب جدته فاطمة بنت أسد وجلس على قبره باكياً حزيناً يبل أديمه بدموعه ويقول:

أأدهن رأسي أم تطيب مجالسي	وخدك معفور وأنت سليب
وأستمتع الدنيا لشيء أحبه	الا كل ما أدنى اليك حبيب
سأبكيك ما ناحت حمامة أيكة	وما اخضر في دوح الحجاز قضيب
غريب وأكناف الحجاز تحوطه	الا كل من تحت التراب غريب
فلا يفرح الباقي ببعد الذي مضى	فكل فتى للموت فيه نصيب
بكائي طويل والدموع غزيرة	وأنت بعيد والمزار قريب[1]

ومهما يكن فقد كان لنبأ وفاته عليه السلام صدى سيء في معظم العواصم الاسلامية وأحسَّ العالم الاسلامي بالفاجعة الاليمة التي أصابت الاسلام بالصميم وبكته يثرب ومكة نساءً ورجالاً واستمروا بالنياحة عليه سبعة أيام وقيل شهراً كاملاً، وحينما أذيع النبأ في الكوفة تصدعت من وقعه القلوب وأرجفت النفوس وارتفع الصراخ والعويل من جميع جوانبها ورثاه الشعراء وراح الناس في مجالسهم ونواديهم يتحدثون عن تاريخه الحافل بالفضائل ويرددون مقالة الرسول فيه وفي اخيه: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وهما إمامان قاما او قعدا وريحانتاي من الدنيا اللهم اني احبهما وأحب من يحبهما، الى كثير من المرويات التي رواها البخاري في صحيحه وغيره من أصحاب الصحاح في مجاميعهم.

وممن رثاه من الشعراء سليمان بن قتة وجاء فيها نسب اليه كما في المجلد الرابع من شرح النهج:

يا كذب الله من نعى حسناً	ليس لتكذيب نعيه ثمن
أجول في الدار لا أراك وفي	الدار أناس جوارهم غبن
بدلتهم منك ليت انهم	أضحوا وبيني وبينهم عدن

واجتمع المسلمون في دار سليمان بن صرد الخزاعي وقد خيّم عليهم الأسى والأسف وكتبوا الى الحسين رسالة يعزونه بمصابه ومصاب المسلمين ويعربون له عن ولائهم وطاعتهم وأسفهم الشديد لهذا الحادث الذي أصاب الاسلام في الصميم.

(١) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم وجاء في زهر الآداب وتاريخ اليعقوبي أن الأبيات هذه أنشدها محمد بن الحنفية على قبر أخيه بعد الفراغ من دفنه.

ولما وصل نبأ وفاته الى زياد بن ابيه في البصرة وأخبر الناس تعالى منهم البكاء والضجيج وسمع أبو بكرة شقيق زياد وكان مريضاً بكاء الناس وعويلهم فقال لزوجته ميسة: ما هذا الضجيج والعويل وعلى من يبكي الناس؟ فقالت: لقد بلغهم موت الحسن بن علي والحمد لله الذي أراح العباد منه، فردّ عليها بصوت ضعيف قائلاً: اسكتي لقد أراحه الله من شر كثير وفقد الناس بموته خيراً كثيراً، يرحم الله حسناً.

وكان معاوية ينتظر أخبار المدينة بفارغ الصبر ليرى نتائج مؤامرته والى اين انتهى اتفاقه مع جعدة بنت الاشعث، وكان قد اتفق مع مروان بن الحكم على ان يزوده بكل ما يحدث بأقصى حدود السرعة.

ولما انتهى اليه النبأ خرج عن اتزانه ووعيه وجعل يتصرف كمن لا يملك من امره شيئا فخرّ ساجداً الى الارض ثم رفع رأسه وكبّر بصوت رفيع يسمعه الكثير من الناس وأثبت بذلك ان حياة الإمام الحسن كانت من أشد ما يعانيه ويخشاه وانه بموته قد حقق أعز أمانيه وأغلاها واطمأن على مصير الحكم من بعده لأن جميع المعارضين من قادة المسلمين أهون عليه من الامام ابي محمد الحسن، وأصبح بامكانه ان يتغلب على جميع ما كان يعترض طريقه من الصعاب، ولما سمعت التكبيرة زوجته فاختة: بنت قرظة خرجت من خوخة لها فرأت زوجها قد غمره الفرح والسرور فقالت له: سرك الله يا امير المؤمنين، ما هذا الذي بلغك فسررت به؟ فقال: بلغني موت الحسن، فاستعبرت باكية وقالت: لا حول ولا قوة الا بالله انا لله وانا اليه راجعون وقالت: لقد مات سيد المسلمين وابن بنت الرسول (ص)[1].

وقد جاء في الاستيعاب ان معاوية اخذه الزهو والتيه فجعل يفتخر بنجاح مهمته ويقول: يا عجبا للحسن شرب شربة من عسل بماء روجه فقضي عليه[2].

وقد جاء في اكثر مجاميع التاريخ ان عبد الله بن العباس وفد على معاوية فلما استقر به المجلس التفت اليه معاوية قائلاً: لقد هلك الحسن يا ابن عباس، فقال له: نعم انا لله وانا اليه راجعون، وكررها والتفت الى معاوية وقال: بلغني الذي أظهرت من الفرح والشماتة بموته، اما والله يا معاوية ما سدّ جسده حفرتك ولا زاد

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥.
(٢) المجلد الثاني من الإمام الحسن ص ٥٠٥ عن الاستيعاب.

نقصان أجله في عمرك ولقد مات وهو خير منك ولئن أصبنا به فلقد أصبنـا بمن هو خير منه وهو جده رسول الله فجبر الله مصيبته وخلف من بعده احسن الخلف.

ثم انفجر ابن عباس باكياً وبكى لبكائه من كان في مجلس معاوية وتباكى معاوية مجاراة لمن في مجلسه، ثم التفت الى ابن عباس والفرح والشماتة باديان على سحنات وجهه وقال: لقد ترك الحسن بنين صغاراً، فردّ عليه قائلاً: كلنا كنا صغار وكبرنا، ثم قال: كم أتى له من العمر يا ابن عباس؟ فردّ عليه قائلاً: إن أمر الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده.

وسكت معاوية وعاد للتحرش بابن عباس وقال: لقد اصبحت سيد قومك يا ابن عباس، وأدرك انه يقصد بذلك ان ينال من مقام الحسين (ع) فرد عليه قائلا: أما ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين سيد المسلمين فلا، وجرى بينهما حوار طويل أراد معاوية ان ينفّس عما انطوى عليه من الفرح والتشفي بهذا اللون من الحديث مع ابن عباس وكان له بالمرصاد، لا يكاد ينتهي معاوية من حديثه حتى ينفذ ابن عباس الى قرارة نفسه ويجيبه على ما فيها من عقد وأحقاد وعنصرية هوجاء. ونكتفي بهذه اللمحات الموجزة عن ثورة الامام ووفاته التي أسلمت الامة لأقسى أنواع الإذلال والاستغلال، وطويت بقتله آمالها وأمانيها وقال الناس يومذاك كما جاء في رواية الطبري عن ابي اسحاق السبيعي: لقد ذلّ الناس بموت الحسن بن علي (ع).

المعركة بين معاوية وقادة الشيعة

لقد ذكرنا خلال الصفحات السابقة ان الامام الحسن بن علي (ع) قد انتصر في ثورته الصامتة على معاوية بتلك المعاهدة التي كشفت مطامع الامويين وأحقادهم الضارية على محمد ورسالته وعلي وآله، وعرّتهم من جميع الأقنعة التي كانوا يستخدمونها لأهدافهم الدنيئة وأظهرت معاوية على واقعه، كما استطاع (ع) تجميد تلك الثورة العارمة التي قام بها زعماء شيعته وقد جاؤوه أفواجاً ليحملوه على الخروج على معاوية بعد ان نقض شروطه ومواثيقه، وعرضوا عليه ان يطردوا عامله على الكوفة وضمنوا له كل ما تحتاجه الحرب والمعارك من السلاح والكراع، ولكن الامام (ع) لم يستثره ذلك الحماس المتوثب من أنصاره وشيعته ولم يصغ لخطبهم المثيرة وفيهم سليمان بن صرد الخزاعي سيد العراق على حد تعبير ابن قتيبة في كتابه الامامة والسياسة، وكان مما خاطب به الامام ان معاوية قال بحضور حشد كبير من الناس: اني كنت قد شرطت للحسن بن علي شروطاً ووعدته عدات ومنيّته أماني ألا وان كل ما أعطيته له فهو تحت قدمي هاتين، وقد نقض جميع ما شرطه لك وعاهد الله على الوفاء به فأعد الحرب خدعة وأذن لي أن أشخص الى الكوفة لأخرج منها عامله وأظهر فيها خلعه وأنبذ اليه على سواء ان الله لا يهدي كيد الخائنين.

وتكلّم جماعة من أصحابه بنفس الروح والحماس الذي تكلم به وكانت الوفود تتوالى عليه وعلى رأس كل وفد زعيم من خاصته وشيعته كحجر بن عدي الكندي والمسيب بن نجية الفزاري وغيرهما ممن كانوا يتمتعون بمكانة عالية في قومهم وعشائرهم.

ولكنه سلام الله عليه لم يتأثر بذلك الحماس الملتهب من أنصاره ولم يغير من موقفه وتصميمه بل كان وهو يستمع لخطبهم ويستعرض حشودهم التي تتوافد عليه بين الحين والآخر يستعيد طوراً صفحات أهل الكوفة مع أبيه ويتذكر أباه وهو قابض على كريمته يندب الماضين من أصحابه ويقول لمن حوله من أهل الكوفة: لقد ملأتم قلبي قيحاً، وطوراً يتجسد له مستقبلهم فيقرأ صفحاته وهم يدعون أخاه الحسين الى الكوفة بعشرات الوفود ومئات الكتب والرسائل فيخرج اليهم ليفضح خطط يزيد ونواياه التي كان يبيّتها لخدمة الجاهلية الرعناء، ولم يجد منهم في ساعات المحنة والشدة الا فئة قليلة لا تعدو عدد الاصابع او تزيد، ومع ذلك فقد مضى للشهادة التي فوتت على يزيد جلّ أهدافه وأصرّ عليها بالرغم من كثرة المشيرين عليه من ذويه وأصحابه وغيرهم بعدم الركون لأهل العراق والرجوع بأهله وولده الى حرم جده او الالتجاء الى بعض الأمصار، ولم يصغ لأحد من أولئك المشيرين ولم تثنه عن عزيمته نصيحة الناصحين، لانه كان يؤمن بأن بقاء الرسالة وانتصارها على وثنية الامويين المغلفة بطلاء خفيف من الاسلام والتي كان يعمل حفيد هند وأبي سفيان لمحوها وتحقيق آمال جده وجدته وأمانيهما لن يكون الا بشهادته، فمضى اليها رابط الجاش واثقاً بأنها ستكون بداية لسلسلة من الانتفاضات والثورات التي تقض مضاجع الظلم والظالمين وتفضح مخططاتهم المعادية للاسلام ولمحمد وآله.

لقد كانت مواقف أهل الكوفة مع أبيه ومواقفهم معه ووسائل الاعلام والتضليل التي استعملها معاوية لتضليل الرأي العام وتلك الصفحات من تاريخهم مع أخيه كما كان يترقبها وما يضمره الأمويون من شر وسوء للاسلام كل ذلك كان يعترض طريقه لحرب معاوية فكان جوابه لاولئك المتحمسين من خلص أنصاره وشيعته:

«ليكن كل رجل منكم حلسا من أحلاس بيته ما دام معاوية حياً وإن يهلك معاوية ونحن وأنتم أحياء سألنا الله العزيمة على عدونا والعون على أمرنا».

وكما ذكرنا خلال الصفحات السابقة ان معاوية قد أدرك ان العهد لولده يزيد لن يتم ما دام الحسن (ع) موجوداً وسيخلق له معارضة قوية قد تؤدي الى ثورات وعصيان، فدسّ له ولسعد بن ابي وقاص سماً وماتا منه[1] وانصرف بعد

(١) أنظر مقاتل الطالبيين ص ٧٣.

ذلك لتنفيذ خطته الاموية وسعى سعيه الحثيث لإحكامها بما بذله من الاموال والوعود المغرية لمن يخشى من معارضتهم في الكوفة وغيرها من المقاطعات، كما استعمل جميع وسائل العنف والبطش مع من لم يستطع شراءهم بالاموال من شيعة علي (ع) وفرض عليهم ان يخضعوا لرقابة قاسية تعد عليهم أنفاسهم وتمنعهم من القيام بأي نشاط عملي او إعلامي وبخاصة ما يتعلق منه بفضائل علي (ع) أو أحد من بنيه وذويه، ومع ان معاوية بن هند قد استعمل جميع وسائل القمع والارهاب والترغيب في ملاحقته لأصحاب الإمام وخاصته منهم وحاول إرغامهم على شتم الإمام والبراءة منه، ولكنهم ثبتوا على ولائهم ووقفوا أمامه موقفاً يتسم بالقوة والثبات ولم يخضعوا لسلطانه وطغيانه ولا لسيوفه المسلطة على الرقاب وسجونه المظلمة التي أعدها للصلحاء والابدال.

لقد خلدوا الى الهدوء في حياة الامام ابي محمد الحسن (ع) بعد ان أمرهم بالتروي ووضع الواقع الذي فرض عليه تسليم السلطة لمعاوية بين أيديهم، وظلت الآمال تراودهم برجوع الخلافة لأصحابها الشرعيين ولو بعد وفاة معاوية على أبعد التقادير.

ولكن آمالهم هذه قد تبددت باستشهاد الامام (ع) بواسطة جنود العسل التي كان معاوية قد أعدها لكل من كان يعارضه ويحول بينه وبين تنفيذ مخططاته الاموية، ومصادرة ممتلكاتهم وإرغامهم على البراءة من علي وآله (ع) واستئصالهم عن آخرهم.

وجاء في المجلد الرابع من شرح النهج ان زياد بن ابيه حاول ان يقوم بعمل حاسم من شيعة علي (ع) يستأصل به شأفتهم ويجتث به جذورهم وذلك بأن يجمع من في الكوفة منهم ويعرض عليهم البراءة من علي ولعنه، ومن أبى منهم تعرّض للقتل وهدم بيته كائناً من كان، ولكن مشيئة الله حالت بينه وبين ما أراد فأصيب بمرض الطاعون وهلك منه بعد ثلاثة ايام من إصابته.

وفي رواية اليعقوبي انه جمع سبعين رجلاً من أعيان الشيعة ووضعهم بين خيارين: البراءة من علي او القتل، وقبل تنفيذ مهمته عجّل الله له الطاعون ببثرة ظهرت في اصبعه وتعاظمت حتى قضت عليه.[1]

(١) شرح النهج ج ٤ ص ٥٨ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٢٣ و ٣٢٤.

مصرع حجر بن عدي الكندي وأصحابه

سيقتل في عذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء

هذا الحديث روته مع من رواه السيدة عائشة عن النبي (ص) وهو يرمز الى القافلة الاولى من اولئك الزعماء الذين كانوا يلاحقون الامام الحسن بن علي ويحرضونه على الثورة المسلحة بعد ان وضع معاوية جميع شروط الصلح تحت قدميه، وبالتالي قد استجابوا لتمنياته عليهم بانتظار ما ستتكشف عنه الاعوام المقبلة، هؤلاء قد انطلقوا بعد مصرع الامام وقدموا أنفسهم قرابين وضحايا لعقيدتهم وولائهم لعلي وآله واستهانوا بالحياة ومتعها وبجميع المغريات التي بذلت لهم من أجل مجاراتهم للحكم وتجاهلهم لما يقدمه معاوية من خدمات لجاهلية أمه وأبيه وأحقادهما المتمثلة باستئصال أسرة محمد وعلي (ع) او إبعادهما عن وجدان الامة وتصوراتها.

ويأتي حجر بن عدي وأصحابه في الطليعة بين أولئك الذين ضحوا بأنفسهم من أجل عقيدتهم وولائهم لعلي وآله وأحد القادة البارزين بين أنصار الثورة ومن أبرز الشخصيات الشيعية في الكوفة وخارجها يومذاك وأكثرهم تحمساً بالواقع الأليم الذي انتهت اليه حالة الاسلام والمسلمين وما ستنتهي اليه في المستقبل القريب على يد تلك العصابة الاموية وغلمانها، وهو مع ذلك معدود من خيرة الصحابة وكرامهم وصلحائهم كما نص على ذلك صاحب الاصابة في المجلد الاول من إصابته.

وتؤكد المصادر الموثوقة بأن انتفاضة حجر بن عدي وأصحابه لم تكن وليدة انفعال طائش ولا من حيث عدم انسجامهم مع الحاكمين، بل من جهة مخططات

الامويين التي جندوا لها كل طاقاتهم لاستئصال الولاء للامام علي ورسالة محمد بن عبدالله رسول الرحمة والحرية من الوجدان الشعبي، الذي كانت تعاني منه أمية وتراه من العقد الذي يجب ان تتوافر جميع طاقات الحكم لحلها.

ولم يكن أمام معاوية الا ان يضع حداً لتأثير الجبهة العلوية والحد من نفوذها في الوسط العام ولو بخلق الحواجز النفسية بينهم وبين الجماهير المسلمة وإبعادهم عن جميع المنطلقات الاسلامية، ولكن تحركه في هذا المجال قد اصطدم بصمود تلك الجبهة وقواعدها الجماهيرية القوية في ايمانها وما التزمت فيه من المبادىء والقيم التي جاء بها الاسلام وكان قائدهم أمير المؤمنين (ع) يجسدها في اقواله وأعماله وجميع تحركاته وتصرفاته.

لقد جاء في وصية معاوية لعامله على الكوفة المغيرة بن شعبة: لقد أردت ايصاءك بأشياء كثيرة وقد تركتها اعتماداً على بصيرتك ولكن لست تاركاً ايصاءك بأن لا تترك شتم علي وذمّه والترحّم على عثمان والاستغفار له والعيب لاصحاب علي وإقصاءهم كما طلب منه إلزام جماعة من زعماء الشيعة كحجر بن عدي وعمرو بن الحمق الخزاعي وسليمان بن صرد وغيرهم بحضور صلاة الجمعة والاجتماعات فكانوا يحضرون مع الصلاة وغيرها.[1]

ونفذ المغيرة وصية معاوية بجميع بنودها فكان لا يدع شتم أمير المؤمنين والافتراء عليه ما وسعه ذلك ولم يكن حجر بن عدي ورفاقه في الجهاد والتضحيات في سبيل الله على استعداد لان يقفوا موقف المتفرج الصامت من تجاوزات المغيرة وتناوله للامام (ع) بالمسبة واللعن من على منبر الكوفة الذي طالما استمعوا الى الامام وهم جلوس في مواجهته وهو يخطب في الجماهير ويعظهم ليحرك فيهم مشاعر الايمان والتقوى والرجوع الى الله سبحانه، وكان حجر بن عدي من بين رفاقه يواجه المغيرة عندما يتعرض للامام (ع) في خطبته بقوة وصلابة، ويحاول مع ذلك تحريك الجماهير في مقابل تجاوزات المغيرة واعتداءاته على شخصية الامام (ع) واتجه اليه في بعض مواقفه قائلاً: كونوا قوامين بالقسط شهداء وأنا أشهد ان من تذمون وتلعنون لأحق بالمدح والثناء ومن تزكون وتمدحون أولى بالذم، فقال له المغيرة بن شعبة كما جاء في رواية ابن الاثير: يا حجر اتق هذا السلطان وغضبه وسطوته فان

(١) المجلد الثالث من ابن الأثير ص ٢٣٤ والطبري ج ٥ ص ٢٥٣ وج ٣ ص ٢١١.

غضب السلطان يهلك أمثالك، ثم يكف عنه ويتركه وشأنه ولا يتعرض لـه بسوء، واستمر حجر ورفاقه على موقفهم عندما يسمعـون الوالي يتعـرض لعلي (ع) ويلعنـه من على منبره يقولون له: بل اياكم ذمّ الله ولعن.

ومضى ابن الاثير يقول: فلما كان في آخر أيام إمارته قال في عـلي (ع) وعثمان ابن عفـان ما كـان يقول: فقـام حجر فصـاح بالمغـيرة صيحة سمعهـا من كـان في المسجد وخارجه وقال له: مر لنا ايها الانسـان بأرزاقنـا فقد حبستهـا عنا وأصبحت مولعا بـذم امير المؤمنـين وشتمه، فقـام اكثر من ثلثي النـاس وهم يقولـون: صدق حجر وبر، مر لنا بأرزاقنا فان ما انت عليه لا يجدينا نفعا، وتعاقبوا على هذا النـوع من الكلام وأمثالـه مما يشـير الى مدى سخـطهم واستخفافهم بتلك الاسـاليب التي فرضها معاوية على ولاته في مختلف الامصار وظهر على المغيرة نوع من القلق والحيرة لاسيما وان جهة المعارضة التي يتزعمها حجر بن عدي اخـذت تتسع لتشمـل اكثر من ثلثي الناس كما جاء في رواية ابن الاثير، ولكنه حـاول ان يستر هـزيمته وخـوفه من موقف اولئك الثائرين على الحكم وأساليبه العنصرية الحاقدة بـالتظاهر بالـورع عن التورط في إراقة الدماء، فقال في جواب من دخلوا عليـه من المرتـزقة والمـوالين لـلامويين وقالـوا له: لماذا تترك هـذا الرجـل يجترىء عليـك في سلطانك ويـوهن مكانتك ويسخط عليك امير المؤمنين؟ فقال في جوابهم: لا أحب ان أبدأ أهـل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلـك وأشقى ويعز في الـدنيا معـاوية ويذل يوم القيامة المغيرة.

ولم يقتنع المتزلفون والمرتزقة من أنصار الحكم بجوابه هذا وظلوا يلحون عليه بأن يتخذ موقفاً من المعارضة أكثر صلابة من موقفه هذا وأشـاروا عليه بقتـل حجر وغيره ممن يتحدونه ويتهجمون عليه.

فقال في جوابهم: لقد قتلت حجراً وغيره في موقفي هـذا وسيأتي بعـدي أمير على الكوفـة فيحسبونـه مثلي ويصنعـون معه مـا ترونهم يصنعـونه معي فيقتلهم شر قتلة، وصدق المغيرة فيما توقعه لهم وكأنـه كان يعلم بـدنو أجله ويعلم بـأن الكوفـة سيتولاها من بعـده زياد بن ابيه بسبب الانقلاب المبـدئي والنفسي الذي طـرأ على موقفه من الامويين بعد ان ألحقه معاوية بـأبيه وأصبـح ابن ابي سفيان بعـد ان كان ابن ابيه لا يعرف له احد أبـاً لأن أمه كـانت بغياً ومن المشهـورات في تعاطي هـذه المهنة وقد حملت بزياد من غير ان يعرف الناس لها زوجا.

وتشاء الاقدار ان يهلك المغيرة ويتولى ادارة الكوفة زياد بن ابيه بالاضافـة الى

ولاية البصرة ولم يكن موقف حجر بن عدي ورفاقه في ظل هذا العهد ليختلف عما كان عليه في عهد المغيرة، وربما كان أكثر عنفاً وأشد صلابة وكانوا يقدرون نتائج تحدياتهم الجريئة للسلطة وبخاصة ما كان منها في عهد زياد بن ابيه الذي أراد ان يكون في سلوكه مع الامة والعلويين أموياً أكثر من الأمويين أنفسهم ليثبت بذلك بنوته لأبي سفيان، ولكن الحق والاسلام الذي يجسده علي (ع) كانا أغلى عليهم من أنفسهم ومن أجلهما هانت عليهم نتائج تلك التحديات التي كانوا يقاتلون بها الحاكمين بالرغم من ان التهديدات المثيرة التي كان زياد بن ابيه يوجهها الى الشيعة قد انهزم منها الكثيرون ممن كانوا على رأي حجر بن عدي وكانوا يحرضون الحسن ابن علي على الثورة ويعدونه بالمناصرة ويعلنون براءتهم من معاوية ومناصريه وأشياعه.

واستمر حجر على ولائه وصعَّد موقفه من الحاكمين، وتخطى مرحلة المعارضة في الكلام عندما وجد ان الكلام وحده لا يجدي نفعاً ما لم يترجم الى عمل جاد.

وكان أول شيء صدر منه في هذا المجال انه أخذ يحصب عمر بن حريث خليفة زياد على الكوفة خلال غيابه عنها عندما يتعرض للامام بسوء، وكان عمله هذا بداية لمرحلة جديدة من مراحل النضال، وشاركه في حصبه ورشقه بالحجارة آخرون ممن هم على رأيه ومبدئه وكان زياد يقيم في الكوفة ستة اشهر وفي البصرة ستة اشهر، واذا غاب عن الكوفة استخلف عليها ابن حريث.

وعندما اشتدت المعارضة وكاد الوضع ينفجر في الكوفة بين حجر وأنصاره وبين الحكم وأجهزته كتب عمر بن حريث الى زياد يخبره بما يجري وراءه في الكوفة وقال له: ان كانت لك في الكوفة حاجة فالعجل العجل، فشد الرحال وأسرع في مسيرته اليها حتى دخلها ومضى من ساعته الى المسجد حيث يجتمع فيه الناس الى جانب حجر بن عدي ورفاقه فصعد المنبر وجعل يتهدد ويتوعد وكان فيما قال، كما في رواية الطبقات لابن سعد: أما بعد فان غب البغي والغي وخيم ان هؤلاء جمو فأشروا وأمنوني واجترأوا على الله، وايم الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم ولست بشيء ان لم أمنع الكوفة من حجر بن عدي وأصحابه وأدعهم نكالا لمن بعدهم، والتفت الى حجر قائلاً: ويل امك يا حجر سقط الغشاء بك على سرحان، ثم نزل عن المنبر وأرسل الى حجر يدعوه اليه، فلما اتاه رسول زياد قال له أصحابه: لا تأته ولا كرامة، فرجع الرسولُ وأخبر زياداً بذلك فأمر صاحب شرطته شداد بن الهيثم ان يبعث اليه جماعة من الشرطة، فلما ذهبوا اليه سبّهم

أصحاب حجر فرجعوا الى زياد وأخبروه بذلك.

وفي يوم الجمعة خطب الناس وأطال في خطابه وعرّج على أمير المؤمنين ونال منه فانبرى اليه حجر بن عدي منكراً عليه شتم أمير المؤمنين وتأخير الفريضة فلم يعبأ بكلامه ابن سمية ومضى في خطابه، فثار حجر وضرب بيده الى كف من الحصا وثار الناس معه، فلما رأى ذلك زياد بن ابيه نزل عن المنبر وصلى بالناس وقد انتفخت أوداجه غيظاً وغضباً من حجر وأصحابه وعزم على التنكيل بهم، وأعرب عن عزمه هذا في خطاب ألقاه في الجامع جاء فيه: ما انا بشيء ان لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالاً لمن بعده، ومضى يقول: ويل أمك يا حجر، سقط الغشاء بك على سرحان، ثم تمثل بقول القائل:

ابلغ نصيحة ان راعي ابلها سقط الغشاء به على سرحان

وأرسل زياد لجماعة من أشراف الكوفة ووجوهها يأمرهم ان يردعوا حجراً عن خطته فامتنع وأصرّ على موقفه وأخيراً أمر الشرطة بأن يأتوه به فانطلقوا في طلبه وحدثت بينهم وبين أصحابه مناوشات حادة ولم يستطيعوا ان يقبضوا عليه والتف حوله جماعة من أصحابه وكان من بينهم قيس بن فهد الكندي يلتهب حماساً ويقوم في المحافل والنوادي بتمجيد حجر وأصحابه ويناشد المسلمين بالوقوف الى جانبه ونصرته ويرتجز قائلاً:

يا قوم حجر دافعوا وحاولوا وعن اخيكم ساعة فقاتلوا
لا يلقين منكم لحجر خاذل أليس فيكم رامح ونابل
وفارس مستلئم وراجل وضارب بالسيف لا يزايل

وتحصن حجر وأصحابه من زياد وجيشه فلم يقدروا عليهم وخشي ان تتسع المعركة لغير مصلحته فجمع الزعماء والمرتزقة ممن اعتادت السلطة ان تستغلهم لمصلحتها وقال لهم:

يا أهل الكوفة أتشجون بيد وتأسون بأخرى أبدانكم معي وأهواؤكم مع حجر بن عدي المجهاجة الاحمق المذبوب، انتم معي واخوانكم وعشائركم معه، هذا والله من دحسكم[1] وغشكم والله لتظهرن لي براءتكم او لآتينكم بقوم اقيم بهم اودكم وصعركم[2]. واستطاع بتهديداته ان يسيطر عليهم ويضعهم تجاه الواقع

(١) الدحس هو الإفساد.
(٢) هو الميل الى أحد الشقين.

الذي كان ينطوي عليه فردوا عليه قائلين: معاذ الله ان يكون لنا رأي الا الطاعة لك ولامير المؤمنين معاوية، وكل ما يرضيك ويسيء الى حجر وأصحابه فنحن على استعداد لتنفيذه فمرنا بأمرك.

فقال لهم: فليقم كل امرىء منكم الى هؤلاء الذين هم حول حجر وليدع كل رجل منكم اخاه وابنه وقرابته ومن يطيعه من عشيرته وفرقوا من استطعتم، وانصرفوا من مجلسه يخذلون الناس ويخوفونهم من بطش زياد وجبروته فتفرق عنه الناس ولم يبق معه الا الصفوة من أصحابه، فأرسل زياد قائد الشرطة شداد بن الهيثم الهلالي ومحمد بن الاشعث الكندي، وقال للأشعث: يا أبا ميثاء لتأتيني بحجر او لا ادع لك نخلة الا قطعتها ولا داراً الا هدمتها ثم لا تسلم حتى اقطّعك إرباً إرباً.

وبدأت مطاردة حجر بعنف وضراوة بعد ان أمن زياد جانب الجماهير وبعد ان وضع الزعماء والقادة أمام امتحان عسير فخضعوا لمطالب زياد وتنفيذ أوامره وبعد مصادمات عنيفة بين الفريقين قال حجر لأصحابه: لا طاقة لكم بمن قد اجتمع عليكم وما أحب ان تهلكوا، وأخذ حجر بن عدي طريقه الى بني حوت او حرب كما جاء في رواية الطبري ودخل دار رجل منهم يقال له سليم بن يزيد، فأدركه الطلب وهو فيها فأخذ سليم سيفه ليدافع به عن حجر فبكت بناته وارتفع صياحهن، ولما رأى حجر بن عدي ما حل ببناته من الخوف والاذى تعلق به ليمنعه عن مجابهة القوم والخروج اليهم بالسيف، فقال له: والله لا تخرج من داري أسيراً أو قتيلاً وأنا مع الأحياء، فعند ذلك خرج من خوخة في الدار وأتى قبيلة النخع ونزل على عبدالله بن الحارث اخي الاشتر النخعي فأحسن لقاءه ورحّب بقدومه وكان انصار زياد وأتباعهم من مرتزقة الكوفة يراقبون تحركات حجر وتنقلاته فذهبوا يطلبونه في أحياء القبيلة ويفتشون بيوتها للقبض عليه.

وعندما أحس بذلك التجأ الى قبيلة الازد واختفى عند ربيعة بن تاخذ وبقي عنده يوما وليلة او يومين، هذا والطلب يشتد عليه وجنود زياد تلاحقه من مكان الى مكان، وبعد مصادمات عنيفة جرت بينهم وبين حجر وأصحابه وقع أسيراً في ايديهم وقيل بأنه أرسل الى محمد بن الاشعث ليأخذ له أمانا من زياد فجمع ابن الاشعث جماعة من وجوه الكوفة منهم جرير بن عبدالله وحجر بن يزيد وعبدالله بن الحارث فدخلوا على زياد وأخذوا له الامان على ان يرسله الى معاوية ليرى فيه رأيه فأجابهم لذلك فاستسلم حجر وأصحابه وأدخلوهم على زياد بن ابيه ولما رآه قال

له: مرحباً بك يا أبا عبد الرحمن سِلْمٌ أيام الحرب، وحربٌ وقد سَالَم الناس.

فردّ عليه حجر قائلاً: ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة واني لا ازال على بيعتي، فأمر به الى السجن فأُدخل اليه هو وأصحابه، والتفت زياد لمن جاؤوا به وقال: والله لأحرصنّ على قطع رقبته مهما كانت النتائج.

ولم يكن استسلام حجر لزياد بن ابيه بعد المعارك والمطاردات التي تعرّض لها هو وأصحابه يعني بأنه قد تنازل عن الحق الذي آمن به وناضل من اجله وعن الولاء الاكيد لعلي وبنيه الذي كان البيت الاموي بقيادة معاوية يعمل على استئصاله وتصفيته من وجدان الامة وتصورها، لم يكن يعني ذلك حتما وانما الذي يعنيه هو ان حجر بن عدي رحمه الله قد ايقن بأنه لو مضى في المقاومة ولم يستسلم لا بد وأن يُقتل على يد زياد وجلاوزته لان اهل الكوفة قد تخاذلوا على عادتهم امام تهديدات زياد ومغرياته، ولو أُرسل لمعاوية حسب طلبه لا بد وأن يقتله لان زيادا اذا قتله سينفذ فيه أمر معاوية، ولكن قتله على هذا النحو بيد زياد وجلاوزته ومرتزقته سيعطي المجال والمبررات الواسعة لمعاوية للتنصّل من قتله وتحميل زياد تبعات هذه الجريمة ومضاعفاتها لدى الرأي العام الاسلامي.

لذلك فقد وقف حجر بن عدي هذا الموقف الذي احرج فيه معاوية بقتله وكشف للامة عن واقع القيادة الاموية الجائرة وتعدياتها، قيادة وأتباعا، على الحريات والقيم بلا مبرر لذلك، وأراد في الوقت ذاته ان يُشعر الرأي العام المسلم بخطورة مواقفهم المسالمة للحكم والنتائج التي تنشأ عن صمتهم المطبق تجاه تلك التجاوزات المسعورة الحاقدة.

ومهما يكن الحال فقد اقسم زياد بن ابيه بالله العظيم على انه سيحرص على قطع رقاب حجر وأصحابه، وبدأ فور ادخالهم السجن واعدادهم للذهاب الى الشام في اتخاذ التدابير التي تحقق له ذلك وطلب من اهل الكوفة ان يشهدوا على حجر وأصحابه شهادة تدينهم بأقسى العقوبات فشهد له جماعة منهم بأنهم يتولون علياً وبنيه ويتددون بعثمان ومعاوية فلم ترضه هذه الشهادة وقال انها غير قاطعة، اي انها لا تكفي لشحن معاوية بنحو تنهار جميع الآمال بنجاتهم.

فتطوع ابو بردة بن أبي موسى الاشعري وكتب صورة للشهادة التي يرضاها زياد بن ابيه جاء فيها: هذا ما شهد عليه ابو بردة بن ابي موسى الاشعري لله رب العالمين أشهد ان حجر بن عدي وأصحابه قد خلعوا الطاعة وفارقوا الجماعة ولعنوا الخليفة ودعوا الى الحرب وجمع حجر الجموع ودعاهم الى نكث البيعة وكفر بالله

كفرة اصلع. فأعجبت زياد هذه الشهادة وابتسم لقوله كفرة اصلع[1] ثم استدعى رؤساء الارباع يومذاك وهم عمر بن حريث وكان على ربع اهل المدينة وخالد بن عرفطة وكان على ربع تميم وهمدان بن قيس بن الوليد على ربع ربيعة وأبو بردة بن ابي موسى على ربع مذحج وهمدان، فشهدوا ان حجرا جمع اليه الناس وأظهر شتم الخليفة ودعا الى حربه وان هذا الامر لا يصلح الا في آل ابي طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين معاوية الى غير ذلك من الافتراءات والتلفيقات ودعا الناس ليشهدوا عليهم بذلك، فشهد اسحق وموسى ابنا طلحة بن عبيد والمنذر بن الزبير وعمارة بن عقبة بن ابي معيط وعمر بن سعد بن ابي وقاص وغيرهم من اهالي الكوفة وبلغ عدد الذين شهدوا عليه من ابناء المهاجرين والانصار وأهل الكوفة سبعين رجلاً كما ذهب الى ذلك جماعة من المؤرخين، وأدخل زياد بين الشهود شريح القاضي وشريح بن هانىء ووقع عنهما، وبعد ان قتل حجر وأحدث قتلُه دويا وتذمراً في أوساط المسلمين انكرا شهادتهما[2].

ثم ان زياد بن ابيه دفع حجر بن عدي وأصحابه وكانوا اثني عشر رجلا الى وائل بن حجر الحضرمي وكثير بن شهاب وأمرهما ان يسيرا بهم الى الشام فخرجا بهم ليلا ومعهما كتاب من زياد وشهادة الشهود وحينما توجهوا بهم الى الشام ارتفع الصراخ والعويل من بيوتهم وصعدت ابنة حجر ولا ولد له غيرها فوق سطح الدار معولة باكية تنظر الى القافلة وهي تسير الى الموت نظرة الوداع، وجعلت تناجي القمر وتبثه لوعتها وأحزانها وتقول:

ترفَّع ايها القمر المنير	لعلك ان ترى حجراً يسير
يسير الى معاوية بن حرب	ليقتله كما زعم الامير
تجبرت الجبابر بعد حجر	وطاب لها الخورنق والسدير[3]
ألا يا حجر حجر بن عدي	تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى علياً	وشيخاً في دمشق له زئير
فان تهلك فكل عميد قوم	الى هلكٍ من الدنيا يصير[4]

(١) وقد أراد بها أنه أخذ الكفر عن الأصلع علي بن أبي طالب (ع).
(٢) الطبري ج ٥ ص ٢٧٠.
(٣) الخورنق والسدير قصران كانا بالقرب من الحيرة بناهما النعمان بن امرىء القيس وتولى بناءهما رجل يسمى سنمار كما جاء في نهاية الأرب.
(٤) وقيل كما في مروج الذهب أن الأبيات لهند بنت زيد الأنصارية ترثي بها حجراً.

وكتب له زياد بن ابيه مع القافلة التي تسير بحجر وأصحابه كتاباً جاء فيه: أما بعد فان الله قد أحسن عند أمير المؤمنين البلاء فكاد له عدوه وكفاه مؤونة من بغي عليه، ان طواغيت هذه الترابية السبئية وعلى رأسهم حجر بن عدي خالفوا أمير المؤمنين وفارقوا جماعة المسلمين ونصبوا لك الحرب فأظهرنا الله عليهم وأمكننا منهم وقد شهد عليهم خيار اهل المصر وأشرافهم وذوو العقل والدين منهم بما رأوا وعملوا، ودفع الكتاب الى رسوليه كثير بن شهاب ووائل بن حجر الحضرمي، ولما بلغ الركب الغريين، كما جاء في رواية ابن الاثير، لحقهم شريح بن هانىء وأعطى وائل بن حجر الحضرمي كتابا وقال له: ابلغه أمير المؤمنين. وجاء في الكتاب: أما بعد فقد بلغني ان زيادا كتب اليك شهادتي على حجر بن عدي وان شهادتي عليه انه ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حرام الدم والمال فان شئت فاقتله وان شئت فدعه.

ومضت القافلة تسير وتطوي البيداء بحجر وأصحابه الى معاوية بن حرب ولما بلغت مرج عذراء تذكر حجر بعض مواقفه في سبيل الاسلام يوم كان معاوية وأبوه يتستران بالاسلام ويعملان في السر والخفاء مع من يكيد للاسلام ويناصر اعداءه، وحينما عرف حجر انه قد اصبح هو ورفاقه في الجهاد والتضحيات في تلك القرية قال: والله أني لاول مسلم نبحته كلابها وأول مسلم كبّر بواديها كما جاء في المجلد الثالث من الكامل لابن الأثير[1].

ويبدو ان تلك القرية كانت احدى المراكز العسكرية للرومان خلال معاركهم مع المسلمين وكان حجر بن عدي أحد أولئك القادة الذين كانوا يديرون المعارك ويسيرون باتجاه دمشق الشام وقد اعترضته الحامية الرومانية في عذراء واستطاع ان يقهرها ويحتل القرية التي شاء الله ان تكون مقره الاخير الذي يحشر منه ليخاصم ابن هند بين يدي الله سبحانه وأصبح اسمها رمزا لتلك القافلة الكريمة من شهداء الحق والفضيلة الاوفياء لدينهم وتعاليم نبيهم وسيرة إمامهم وقائدهم أمير المؤمنين (ع). وتؤكد جميع المصادر ان الموكلين بحجر وأصحابه قد احتجزوهم في تلك القرية ريثما تصدر القرارات الإخيرة من قصر الحمراء بشأنهم، وحينما وصل البريد الذي يحمل كتاب زياد وشهادة الشهود الى معاوية ارسل جماعة من جلاديه

(١) وقال ابن حجر في كتابه الإصابة أن حجر بن عدي هو الذي فتح مرج عذراء وكان يقود جيشاً من المسلمين يومذاك لحرب الرومان كما أكد ذلك ابن سعد في المجلد السادس من طبقاته.

الجفاة الغلاظ الى مرج عذراء وأمرهم بإعدام حجر ورفاقه ان لم يتبرأوا من امير المؤمنين ودينه ويلعنوه.

هذا مع العلم ان البريد الذي حمل اليه كتاب زياد وشهادة الشهود حمل اليه كتاباً من شريح بن هانيء احد الشهود، والكتاب يزكي حجراً وأصحابه كما ذكرنا ويؤكد بأنه لم يشهد على حجر بما يدعيه زياد بن ابيه وجلاوزته وان زياداً هو الذي وضع اسمه مع الشهود.

ومع ان كتاب شريح بن هانيء يثير الشك في أكثر الشهادات الواردة في الوثيقة ويفرض على من يريد ان يحاسب الناس ويتعامل معهم في حدود الدين والاعراف ان يتأكد من انها ليست مفتعلة كشهادة شريح بن هانيء ولكن معاوية لم يعتن بكتاب شريح ولا بموجباته وبقي مصراً على تصفية حجر وأصحابه اذا لم يتبرأوا من علي ودينه ويباركوا جميع تصرفات معاوية وولاته وتجاوزاتهم، مما يؤكد ان عملية الشهادة على حجر وأصحابه انما هي من تخطيطه لتبرير موقفه من تصفيتهم تجاه العالم الاسلامي الذي لا يغفر أحداثاً من هذا النوع.

ومهما كان الحال فلقد اقبل الجلادون على حجر وقالوا له: ان امير المؤمنين معاوية امرنا بقتلك يا رأس الضلال ومعدن الكفر والطغيان والمتولي لابي تراب وقتل اصحابك الا ان ترجعوا عن كفركم وتلعنوا صاحبكم وتتبرأوا منه، فأجابهم حجر وأصحابه وهم على بيّنة من امرهم وثقة بما أعده الله سبحانه لعباده العاملين والشهداء الصابرين، ان الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعوننا اليه والقدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيّه أحب الينا من دخول النار مع معاوية وحزبه.

ولما اتخذ معاوية قراره النهائي بإعدام حجر ومن لم يتبرأ من الإمام ودينه من أصحابه أمر جلاوزته بأن يحفروا لكل واحد حفيرة وكانوا أربعة عشر رجلا فعرض الجلادون عليهم البراءة من علي ودينه مرة ثانية والسيوف مسلطة على رؤوسهم وكل واحد منهم الى جانب حفرته فتراجع منهم ستة خوفاً من الموت الذي ينتظرهم على أيدي اولئك الجلادين بين لحظة وأخرى وصمد الباقون على ولائهم وكان إيمانهم بالحق الذي يناضلون من أجله أقوى من الموت، وتقدم الجلادون نحو حجر يجددون عليه عروضهم وسيوفهم فوق رأسه فأصر على موقفه وأعلن براءته من معاوية وحزبه.

ونقل السيد الامين في المجلد الثاني من أعيان الشيعة عن المرزباني (ص

١٩٩)، انه كان لحجر ولد اسمه همام وقد حبس معه في عذراء، وحين تقدم حجر للقتل سأل الجلاد عما اذا كان ولده من المحكوم عليهم بالاعدام وطلب منه ان يقدمه عليه ويقتله قبله اذا كان لا بد من قتله، ولما اراد الجلاد ان يقدمه التفت اليه وقال: تقدم يا بني حتى أحتسبك بين يدي الله سبحانه، فقيل لحجر: تعجلت الثكل يا ابن عدي، فقال: خفت ان أتقدمه ويرى هول السيف على عنقي فيتراجع عن ولاية علي (ع) فلا نجتمع في دار المقامة التي أعدها الله للصابرين.

ثم انطلق الجلاد هدبة بن فياض القضاعي شاهراً سيفه على رأس حجر بن عدي فارتعدت أوصاله وخارت قواه فقال له أصحاب معاوية: لقد زعمت انك لا تجزع من الموت فتبرأ من صاحبك وندع لك حياتك، فقال: وما لي لا اجزع وأرى قبراً محفوراً وسيفاً مشهوراً على رأسي، واني والله وان جزعت من القتل لا أتبرأ من أمير المؤمنين علي (ع) ولا أقول ما يسخط الرب، لإرضاء معاوية وحزبه.

فقال له الجلاد: مدَّ عنقك يا حجر، فرد عليه قائلاً: اني ما كنت لأعين الظالمين على رقبتي، فضربه الجلاد ضربة واحدة على رأسه أودت بحياته وانتهت بقتله حياة بطل عظيم من أبطال العقيدة والمبدأ وبقي اسمه على لسان الاجيال في طليعة الثائرين على الكفر والضلال والانحراف والتسلط على حرية الانسان وكرامته.

وكما ذكرنا لقد كان مع حجر جماعة من خيار المسلمين وصلحائهم وقد تراجع بعضهم عن تصلبه خوفاً من الموت وكما أعتقد فلقد تراجعوا بألسنتهم وبقيت قلوبهم عامرة بحب علي وموالاته كما صنع عمار بن ياسر مع المشركين في مطلع فجر الدعوة حينما اضطره ابو سفيان وحزبه لان ينال من محمد (ص) ورسالته وجاءت الآية الكريمة: ﴿الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان﴾ لتزكيته وتزكية غيره ممن يضطرون لاتخاذ هذا الموقف، اما الذين قتلوا في عذراء وغيرها فكان منهم عبد الرحمن بن حسان العنزي، وقد طلب من جلاوزة معاوية وجلاديه ان يواجه معاوية ليرى رأيه فيه، فجيء به اليه، فلما مثل بين يديه قال له ابن هند: ايه أخا ربيعة ما تقول في علي بن ابي طالب؟ فرد عليه قائلاً: دعني يا معاوية ولا تسالني فهو خير لك، فرفض معاوية إعفاءه وأصر على استجوابه فقال: أشهد أن علياً كان من الذاكرين الله كثيراً والآمرين بالحق والقائمين بالقسط والعافين عن الناس.

فقال معاوية: ما تقول في عثمان بن عفان، فقال: هو أول من فتح باب الظلم والجور وارتج أبواب الحق والعدل.

فاستبدّ به الغضب ورده الى زياد في الكوفة وكتب اليه كتاباً جاء فيه: ان هذا العنزي شر من بعثتهم الي فعاقبه العقوبة التي هو أهلها واقتله شر قتلة، ولما وردت رسالته على زياد بعث به الى (قس الناطف) وهو موضع قريب من الكوفة فدفن فيه وهو حي[1].



(١) حياة الإمام الحسن ج ٢ عن الطبري ج ٦ ص ١٥٥.

صيفي بن فسيل

لقد كان صيفي من أبطال المسلمين وأفذاذهم ومن الصفوة بين أصحاب حجر، وقد قبض عليه زياد بن ابيه بعد محاولات كثيرة لاعتقاله، فلما حضر بين يديه سأله عن رأيه في امير المؤمنين ليسجل عليه ما يبرر قتله، فقال له: ما تقول يا صيفي في ابي تراب؟ فرد عليه بلغة الساخر: ما أعرف ابا تراب فقال له زياد: أما تعرف علي بن ابي طالب فذاك أبو تراب، فقال له: كلا ذاك ابو الحسن والحسين، والتفت اليه مدير الشرطة ليقول له: يقول لك الأمير أبو تراب وتقول له أبو الحسن والحسين، فرد عليه ابن فسيل مستهترا به وبأميره قائلاً: أتريدني ان أكذب كما كذب الامير وأشهد له على الباطل؟ واستشاط ابن أبيه غضباً وأمر جلاوزته بجلده حتى يلصق بالارض فانهال عليه بعضهم حتى أغمي عليه، ثم التفت اليه وسأله عن رأيه في علي (ع) فأصر على موقفه وقال: والله لو شرحتني بالمواسي والمدى لا اقول فيه الا ما سمعته مني، فتهدده زياد بالقتل فرد عليه بقوله: فان فعلت فقد سعدت انا وشقيت انت، فألقاه في السجن وأرسله أخيراً الى معاوية مع حجر فقتل مع من قتل في عذراء من الاوفياء لمبدئهم وعقيدتهم.

قبيصة بن ربيعة

لقد كان قبيصة بن ربيعة من اولئك المجاهدين المناضلين والثائرين على تجاوزات الحكام وجلاوزتهم وقد طارده زياد بن ابيه حينما كان يطارد حجر بن عدي ويحاول القبض عليه، وبعد محاولات كثيرة قام بها جلاوزته استطاعوا القبض عليه بعد ان اعطوه الامان، ولكن زياداً بعد ان اتصل بالامويين وأصبح من أدعيائهم لم يعد يعرف للعهود والمواثيق حرمة وقيمة، فقد وضعه في السجن، ثم أرسله مع حجر الى معاوية ولقي مصيره في مرج عذراء مع رفاقه الابطال شريك ابن شداد الحضرمي وكدام بن حيان العنزي ومحرز بن شهاب التميمي وغيرهم ممن استهانوا بالحياة ومتعها وتركوا آثار مسيرتهم على الطريق التي سلكوها في نضالهم من أجل الحق والمبدأ والعقيدة لتسير عليها قوافل الشهداء في طريقها الى الملأ الاعلى.

صدى الفاجعة

لقد ذعر المسلمون لهذا الحادث الخطير واندفع الكثير من أعلامهم الى اعلان استنكارهم على معاوية وحاشيته، فكتب الحسين بن علي (ع) رسالة من يثرب الى معاوية عندما بلغته اخبار تلك المجزرة جاء فيها:

ألست القاتل حجراً أخا كندة والمصلين العابدين من أصحابه الذين كانوا ينكرون الظلم ويستعظمون البدع ولا يخافون في الله لومة لائم، قتلتهم ظلماً وعدواناً بعدما اعطيتهم الأيمان المغلظة والمواثيق المؤكدة ان لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم ولا بإحنة فيما مضى.

وقال الربيع بن زياد عامل معاوية على خراسان حينما بلغه النبأ وقد ذهبت نفسه حسرات من الالم والاسى: لا تزال العرب تقتل صبراً بعد حجر وأصحابه ولو نفرت عند قتله لم يقتل منهم احد صبراً ولكنها أقرت فذلت وهانت.

وبقي الربيع من أثر الصدمة ذاهل النفس خائر القوى يمزق الاسى قلبه وقد خطب الناس يوم الجمعة وقال في خطابه: ايها الناس اني قد مللت الحياة وأنا داع فأمنوا على دعائي، ثم رفع يديه بالدعاء وقال: اللهم إن كان للربيع عندك خير فاقبضه اليك وعجل، فقد جاء في الكامل لابن الاثير كما نقل عنه القرشي في كتابه الامام الحسن ان الله استجاب دعاءه ووافاه أجله قبل ان يفارق المجلس.

وكان الحسن البصري أحد أعلام عصره يقول: لو لم يكن لمعاوية من الموبقات الا اربعة لكفاه تآمره على الامة بدون اختيارها ورضاها وإلحاقه زياداً بأبيه وقد قال رسول الله: الولد للفراش وللعاهر الحجر وتولية ولده السكير الفاجر على

الامة من بعده، وقتله حجراً وأصحابه ويلٌ لـه من حجر وأصحـاب حجر. وكـان يكرر هذه الموبقة من موبقات معاوية كلما ذكر حجراً وأصحابه كما ينقل الـرواة عنه واستخلافه ولده السكير من بعده.

وجـاء في الطبري عن أبي إسحـاق السبيعي انه كـان يقول: أدركت النـاس وهم يقولون: ان اول ذلّ دخل الكوفـة موت الحسن بن عـلي (ع) وقتل حجـر بن عدي ودعوة زياد بن ابيه.

لقد ذلت الكوفة بموت الامام الحسن السبط (ع) لان الاحلام كانت تراودها برجوع الخلافة الى الحسن بعـد معاويـة، وبموتـه وجعل السلطة وراثـة في بيت أمية تبددت جميع أحلامها وحلت العنصرية الجاهلية الحاقدة على آل محمد محل العـدالة الاسلامية والعفو والرحمة.

وبقتل حجر بن عدي وأصحابه الابرار لا لـذنب اقترفـوه الا لأنهم لم يتبرأوا من عـلي ودينه أصبحت الكـوفة تعيش في جـو يخيّم عليه اليـأس وكبت الحـريـات وإراقة الدماء البريئة ولو لأبسط الاسباب.

وبادعاء زياد لأبي سفيان أصبح زياد أمـوياً أكـثر من الأمويـين وحريصـاً على تحقيق رغباتهم باستئصال التشيع الواسع المنتشر في الكوفة وجهاتها وهـو بهم عارف لانه كان يتظاهر بـالولاء لعـلي وآله قبـل ان يلحقه معـاوية بـأبيه بشهـادة الخمارين وأصحاب دور البغاء. وممن روعهم مصرع حجر بن عدي، عبد الله بن عمر وكان حين بلغه الخبر في السوق، فأطلق حبوته فقام وقد غلبه البكاء والنحيب كما جاء في المجلد الاول من أسد الغابة.

وحتى ان عـائشة مـع ولائها لـلامويـين وكرههـا لعلي وشيعتـه قد استنفـرها مصرعه وقامت بدور اعطى لقضيته أبعاداً واسعة، ومما قالته عنـدما بلغهـا النبأ كـما جاء في الاستيعاب:

اما والله لو علم معـاوية ان عنـد أهل الكـوفة منعـة ما اجترأ على ان يـأخذ حجـراً وأصحابـه من بينهم حتى يقتله بالشـام ولكن ابن آكلة الاكباد علم انـه قـد ذهب الناس، أما والله انهم كـانوا لجمجمـة العرب عـزاً ومنعة وفقهـا، وقد روت حديث النبي (ص) في فضل حجر وأصحابه وهي تندد بمعاوية وجلاديه:

سيقتل في عذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء.

رشيد الهجري ورفاقه

لقد كان معاوية من خلال أساليب العنف والقتل والتعذيب وملاحقته لقادة الشيعة المعروفين بولائهم لعلي وبنيه (ع) وحرصهم على الاسلام يحاول استئصال التشيع او إضعافه وإشاعة الخوف والقلق والكبت في الوسط الشيعي، واستطاع بما قام به من قتل وحبس وتشريد ان ينشر الخوف والرعب بين الشيعة ويحد من تجاهر الكثيرين منهم بالتشيع، ولكنه لم يستطع استئصال التشيع ولا اقتلاع الولاء لعلي من القلوب والعقول، وظل التشيع الذي يجسد الاسلام يسير وينتشر مستهيناً بجميع الصعاب والعقبات، وظل علي (ع) الذي يُسبّ ويُشتم من على منابرهم ويفرضون البراءة منه واللعن على شيعته ومحبيه، يحتل العقول والقلوب وكأنهم يدفعون به الى السماء على حد تعبير الشعبي وعبدالله بن عروة لولديهما.

وبالرغم من الخوف والقلق اللذين تفشيا في أوساط الشيعة وبخاصة بعد مقتل حجر وأصحابه الكرام فقد بقي في صفوف الشيعة أفراد يحملون روح حجر وأصحابه ويناضلون بما لديهم من الامكانيات عن مبدأهم وعقيدتهم وولائهم لأمير المؤمنين علي (ع) ولا يفرطون بشيء من ذلك ولو أدى ثباتهم الى استئصالهم واستئصال من يتصل بهم وها نحن نقدم نماذج من هؤلاء الابطال لاثبات هذه الحقيقة.

فمن هؤلاء رشيد الهجري أحد أعلام عصره في دينه وعلمه، لقد صحب الهجري أمير المؤمنين وكانت له منزلة عنده ليست لاحد سواه، وبلغ من اطمئنانه اليه انه كان يخبره ببعض الحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان وما سيجري عليه

من زياد بن سمية وغيره مما حصل عليه امير المؤمنين (ع) من النبي (ص) ويسميه رشيد البلايا.

وجاء عن ابنته انها قالت سمعت ابي يقول: قال أمير المؤمنين (ع) يا رشيد كيف صبرك اذا ارسل اليك داعي بني أمية فقطع يديك ورجليك ولسانك، فقال له أبي: أوليس آخر ذلك الى الجنة؟ فرد عليه بقوله انت معي في الدنيا والآخرة.

وجاء فيما يرويه المؤرخون والرواة ان رشيد الهجري خرج مع امير المؤمنين الى بستان من بساتين الكوفة واستظلا من حرارة الشمس تحت نخلة من نخيله، فقدم لهما صاحب البستان رطباً من احدى نخيله فأكل امير المؤمنين (ع) والتفت الهجري اليه وقال: ما اطيب هذا الرطب يا أبا الحسن، فرد عليه قائلا: اما انك ستصلب الى جذع هذه النخلة.

وكان رشيد الهجري بعد ما سمع من الامام ذلك يتعاهد تلك النخلة ويصلي تحتها احيانا ومرّ عليها مرة فرأى سعفها قد تقطّع فأحس بدنو أجله، ولما قبض عليه ابن سمية قال له: بماذا اخبرك خليلك ابن ابي طالب إنّا فاعلون بك؟ فرد عليه قائلاً: لقد أخبرني بأنكم تقطعون يدي ورجلي وتصلبونني، فقال: اما والله لاكذّبن حديثه خلوا سبيله، فأطلقه الجلاوزة فلما خرج قال زياد لجلاوزته: ردوه، فلما أرجعوه اليه قال: والله لا اجد شيئاً أصلح لك مما قال صاحبك انك لا تزال تبغي لنا سوءاً ان بقيت، اقطعوا يديه ورجليه، فنفذ الجلاوزة فيه امر زياد وهو يتكلم ويشتم معاوية وزياداً وبني أمية فاغتاظ زياد وأمرهم ان يصلبوه ويقطعوا لسانه ولما هموا بقطعه قال هذا والله ما اخبرني به امير المؤمنين علي بن ابي طالب[1].

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٥٢٢، وجاء في المجلد الثاني من حياة الإمام الحسن للقرشي أن الحافظ الذهبي قال في تذكرته أن زياد قتل رشيد الهجري وقطع لسانه وصلبه لتشيّعه لعلي وبنيه (ع) كما ذكر ذلك ابن أبي الحديد في المجلد الأول من شرح النهج ص ٢١١.

عمرو بن الحمق الخزاعي

لقد كان عمرو بن الحمق من خيار الصحابة ومقرباً من النبي (ص) وقد أسلم قبل الفتح وأخلص في إسلامه، وهو شاب لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره فدعا له النبي ان يمتعه الله بشبابه فبلغ الثمانين من العمر ولم تبيضّ له شعرة واحدة، كما نص على ذلك في الاصابة، وبعد النبي (ص) لازم علياً (ع) وتفانى في حبه وولائه لأهل البيت (ع) وكان من خلص أصحاب الامير وقال له يوماً: ليت في جندي مائة مثلك يا خزاعي، ثم دعا له وقال: اللهم نوّر قلبه بالتقوى واهده الى صراطك المستقيم.

وقال هو لأمير المؤمنين معرباً عن ولائه واخلاصه: والله ما احببتك للدنيا ولا لمنزلة تكون لي بها، وانما احببتك لخمس خصال، لأنك أول المسلمين إيماناً وابن عم رسول الله وأعظم المهاجرين والانصار جهاداً وتضحية وتفانياً في سبيل محمد ورسالته وزوج بضعة الرسول سيدة النساء (ع) وأب لعترة الرسول وذريته، والله لو قطعت الجبال الرواسي وعبرت البحار الطوامي في توهين عدوك وتلقيح حجتك كان ذلك قليلاً من كثير ما يجب علي من حقك.

وحينما تولى زياد بن ابيه الكوفة وراح يتتبع الشيعة ويلاحق زعماءهم بالقتل والحبس والتعذيب والتنكيل كان عمرو بن الحمق في طليعة اولئك المطلوبين فجعل زياد يلاحقه ويطارده ففر الى المدائن ومعه رفاعة بن شداد فاعتقل زوجته آمنة بنت الشريد ووضعها في حبسه ثم أرسلها الى معاوية فأمر بحبسها ومكث هو ورفيقه رفاعة في المدائن مدة من الزمن، وحينما علم زياد بمكانهما أرسل جلاوزته الى المدائن في طلبهما وحينما عرفا بأن معاوية ارسل في طلبهما خرجا من المدائن ليلا باتجاه الموصل والتجآ الى جبل في ضواحي الموصل فأقاما فيه

اياما، وبلغ عامل معاوية على الموصل بلتعة بن ابي عبدالله ان رجلين يكمنان في ذلك الجبل ويتجنبان الناس فسار اليهما مع جماعة من أصحابه فلما انتهوا الى الجبل خرج اليهما عمرو ورفاعة، وكان عمرو يعاني من مرض ألمّ به من آثار سم دسه اليه جماعة من أنصار معاوية، ولم يكن باستطاعته ان يقاوم او يهرب منهم فاستسلم للقوم، وأما رفاعة فقد كان شاباً فركب فرسه والتفت الى عمرو وقال: اني سأدافع عنك، فنهاه عن ذلك وقال له: ان دفاعك لا يجديني نفعا وأرى لك ان تنجو بنفسك ان استطعت، فهجم رفاعة بسيفه على القوم فأفرجوا له ولم يتمكنوا من اسره، واعتقلوا عمراً وهم لا يعرفونه وامتنع من ان يعرّفهم بنفسه ونسبه وقال لهم: انا من ان تركتموه كان أسلم لكم وان قتلتموه كان أضرّ عليكم، ولما امتنع ان يعرّفهم عن نفسه أرسلوه الى حاكم الموصل عبد الرحمن بن عبدالله الثقفي، وكان يعرفه فأرسل رسالة الى معاوية بن هند يخبره بأمره فأجابه برسالة جاء فيها:

«لقد قيل بأنه طعن عثمان بن عفان تسع طعنات بمشاقص كانت معه ونحن لا نريد ان نعتدي عليه فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان»، فأخرجه من سجنه وأمر بطعنه تسع طعنات فمات من الطعنة الاولى او الثانية كما جاء في تاريخ الطبري ثم احتز رأسه وأرسله الى معاوية بالشام فأمر ان يطاف به في الشام وغيرها على حد تعبير صاحب الاستيعاب (صفحة ٥١٧ من المجلد الثاني).

ثم أمر ان يرسلوه الى زوجته آمنة بنت الشريد وكان قد وضعها معاوية في السجن لانها لم تتبرأ من علي بن أبي طالب فوضعوه في حجرها وهي لا تعلم من أمره شيئاً، فلما نظرت اضطربت وكادت ان تموت لهول الصدمة، وصاحت بصوت يزعزع العدو والصديق: واحزناه غيبتموه عني طويلاً وأهديتموه الي قتيلاً فأهلاً وسهلا بمن كنت له غير قالية وأنا له اليوم غير ناسية.

والتفتت الى الرسول والالم يقطع أحشاءها وقالت له: ارجع الى معاوية وقل له: أيتم الله ولدك وأوحش منك أهلك ولا غفر لك ذنبك، ولما بلغه الرسول مقالتها غاظه كلامها وأمر بإحضارها لمجلسه فلما حضرت قال لها:

«انت يا عدوة الله صاحبة الكلام الذي بلغني عنك؟» فأجابته غير مكترثة به ولا هيابة لسلطانه قائلة: نعم لا نازعة عنه ولا معتذرة منه ولا منكرة له وقد اجتهدت في الدعاء عليك ان نفع الدعاء وان الحق لمن وراء العباد وما بلغت شيئاً من جزائك.

والتفت اليه اياس بن حسل احد المرتزقة وقال له: اقتل هذه المرأة يا أمير المؤمنين فوالله ان زوجها لم يكن أحق بالقتل منها، فردت عليه قائلة له: تباً لك ويلك ان بين لحييك كجثمان الضفدع، ثم انت تدعوه الى قتلي كما قتل زوجي بالامس ان تريد الا ان تكون جبارا في الارض وما تريد ان تكون من المصلحين.

واستمر الحوار الحاد بينها وبين معاوية بشجاعة قلَّ نظيرها في تاريخ المرأة التي لا ترى للحياة وزنا ولا قيمة بعد زوجها وظلت تحاوره بلهجة الساخر منه ومن سلطانه وجلاديه وأعوانه حتى أمر باخراجها من مجلسه.

وجاء في بعض المرويات انه أمر بقتلها وكانت أول امرأة قتلت في الاسلام بعد ان عرض عليها البراءة من علي (ع) فامتنعت عليه وتبرأت منه ومن جلاديه ومن يحابيه بفعل او قول.

وغير بعيد على ابن هند ان يقتل امرأة لانها لم تتبرأ من علي ودين علي (ع) كما قتل غيرها من أعيان المسلمين وصحابة الرسول لهذا السبب وهم لا يملكون سلاحاً غير سلاح الايمان الذي كان يعمر قلوبهم وبه وحده وقفوا تلك المواقف الخالدة يجاهدون به من ضلّ عن الحق وتخبّط في متاهات الباطل والظلم والطغيان.

وهل يملك معاوية من الدين والقيم والرحمة ما يمنعه عن قتل امرأة مسلمة لانها لم تلعن علياً وتتبرأ من دينه، دين محمد بن عبدالله بعد ان أمر جلاديه بنقلها من بيتها في الكوفة الى سجونه المظلمة في دمشق.

وأي فرق بين قتلها بالسيف وبين وضعها مكبلة في سجون دمشق ليفاجئها برأس زوجها الصحابي الجليل ابن الثمانين بعد ان طاف به في البلدان، وقد اقتدى به ولده يزيد من بعده فطاف برأس الحسين (ع) ونسائه في البلدان وانتهى به المطاف ليضعه في قصر الحمراء بين يديه وينكث ثناياه بمخصرته بحضور نسائه وشقيقاته وأطفاله.

ومن تتبع تاريخ الابن وما ارتكبه من الجرائم والموبقات يجد ان يزيداً قد ورث عن ابيه جميع خصاله وصفاته بما في ذلك حقده على محمد وآله وان جميع ما قام به الابن قد قام بمثله وبما يشبهه أبوه من قبله.

وقد أحس المسلمون بصدمة عنيفة لما جرى لعمرو بن الحمق وزوجته وأيقنوا بأن كرامة خيارهم قد اصبحت تحت أقدام معاوية وزياد بن سمية وأمثاله من المردة والمرتزقة، وأرسل الإمام أبو عبدالله الحسين رسالة الى معاوية يعبّر فيها عن موقفه

من هذا الحادث وأمثاله من الاحداث الخطيرة جاء فيها:

أولست قاتل عمرو بن الحمق العبد الصالح صاحب رسول الله (ص) الذي ابلته العبادة فنحل جسمه واصفر لونه بعدما أمنته وأعطيته من عهود الله ومواثيقه ما لو اعطيته طائراً لنزل اليك من رأس الجبل ثم قتلته جرأة على ربك واستخفافاً بتلك العهود التي اعطيته اياها.

وهذه الرسالة كما تعبّر عن رأي الحسين (ع) وموقفه من تلك الجريمة البشعة تعبر أيضاً عن آراء الفئة المؤمنة من المسلمين وبقايا الصحابة ولكن معاوية بما استعمله لتغطية جرائمه قد نجح الى حد ما في تخدير الجماهير وبعث الخوف في أوساط الخاصة فلم يعد أحد يجرؤ على التعبير حتى عن رأيه باستثناء تلك الحفنة من الابطال الميامين كحجر والخزاعي وأمثالها ممن طابت لهم الشهادة فتقدموا اليها بنفوسهم المطمئنة يجاهدون من ضلّ عن الحق وراح يتخبط في متاهات الباطل والجور والطغيان.



أوفى بن حصن

لقد كان أوفى بن حصن من أولئك المناضلين والمناوئين لسياسة الامويين وعملائهم الجائرة. لم ترهبه سيوفهم ولا سجونهم المظلمة يتحدث بمساوئهم ويندد بهم في مجالسه وحيثما حل وارتحل، وكان زياد بن سمية يتحراه ويتابع تحركاته وأخيراً أمر الشرطة بالقبض عليه فلم يعثروا عليه، ولاسباب سياسية كان زياد يستعرض الناس فيحضر أوفى مع الناس وزياد ابن أبيه لم يعرف شخصه وحينما مرّ من أمامه قال لمن كان معه من جلاوزته: من هذا؟ فقيل له: هو أوفى بن حصن، فأمر الشرطة بالقبض عليه فلما وقف بين يديه، قال: اتتك بخائن رجلاه تسعى، والتفت اليه قائلا: ما رأيك في عثمان بن عفان؟ فرد عليه بقوله: هو ختن رسول الله على ابنته، وسأله عن معاوية فقال: جواد حليم، وسأله عن رأيه فيه، فقال: بلغني انك كنت تقول في البصرة: اما والله لآخذن البريء بالسقيم والمقبل بالمدبر، فقال له: نعم كنت اقول ذلك، فقال: لقد خبطتها خبط عشواء، فأمر الجلادين بقتله فقتلوه كما جاء في المجلد الثالث من الكامل لابن الاثير[1].

لقد كان باستطاعة أوفى بن حصن ان يسلم من الموت لو انه أقر سياسة زياد ولم يطعن بها في مجلسه، ولكنه آثر ان يقول الحق مهما كان الثمن غاليا وأن يمضي على الطريق الذي مضى عليها رفاقه الكرام ليحشر مع المجاهدين الذين عناهم النبي (ص) بقوله:

أفضل الجهاد كلمة حق في وجه سلطان جائر، وليكون من أفضل الشهداء الذين عناهم بقوله: أفضل الشهداء عمي الحمزة ورجل قال كلمة حق في وجه جائر فقتله.

(١) أنظر ج ٣ من الكامل ص ١٨٣.

جويرية بن مسهر العبدي

لقد قضى جويرية شطراً من حياته مع أمير المؤمنين الى جانب المقربين منه كميثم التمار ورشيد الهجري وغيرهما ممن اختصهم ببعض ما اخبره به النبي (ص) من الاحداث قبل وقوعها، فقد جاء في المجلد الاول من شرح النهج عن ابراهيم ابن ميمون عن حبة العرني ان جويرية بن مسهر كان صالحاً وصديقاً لعلي بن ابي طالب (ع) وانه نظر اليه يوماً وهو يسير في طريقة فناداه: يا جويرية إلحق بي فاني اذ رأيتك احببتك، فعدل عن الطريق ومشى وراءه فالتفت اليه وقال: إلحق بي لا أبا لك ألا تعلم اني أهواك وأحبك، فلما دنا منه قال له: اني محدثك بأمور فاحفظها، ثم اشتركا في الحديث سراً على حد تعبير الراوي ثم قال له جويرية: يا أمير المؤمنين اني رجل أنسى فأعد علي حديثك لاحفظه، فأعاد عليه الحديث، ثم قال له: احبب حبيبنا ما احبنا فاذا ابغضنا فابغضه وابغض بغيضنا ما ابغضنا فاذا احبنا فأحبه.

وأضاف الى ذلك ابن ابي الحديد ان جماعة ممن كانوا في شك من أمر علي (ع) يقولون: أتراه يريد ان يجعل جويرية وصياً له كما يدعي هو الوصاية عن رسول الله (ص) وكانوا يقولون ذلك لما يرونه من ملازمته لعلي واختصاصه به.

ومضى شارح النهج يقول ان جويرية دخل على علي (ع) وهو مضطجع وعنده جماعة من أصحابه فناداه جويرية: أيها النائم استيقظ فلتضربن على رأسك ضربة تخضب بها لحيتك، فتبسّم أمير المؤمنين (ع) وقال: وأنا أحدثك بأمرك، اما والذي نفسي بيده لتعتلن الى العتل الزنيم فيقطع يدك ورجلك ويصلبنك تحت

جذع كافر، قال الراوي: فوالله ما مضت الايام على ذلك حتى اخذ زياد بن سمية جويرية وقطع يده ورجله وصلبه الى جانب جذع ابن معكبد وكان جذعاً طويلاً فصلبه على جذع قصير الى جانبه[1].



(١) أنظر المجلد الأول من شرح النهج ص ١٠٩ و ١١٠.

عبد الله بن يحيى الحضرمي

لقد كان عبد الله الحضرمي من اولئك الذين حملوا راية الكفاح والنضال ولم يتنازلوا عن عقيدتهم وولائهم لعلي وآل علي (ع) كما لم ينحنوا لتهديدات معاوية وجلاديه ولا لسيوفهم وسجونهم المظلمة وقد ضربوا بذلك أروع الامثلة في الثبات على المبدأ والعقيدة والتضحيات في سبيلها. وكان بالاضافة الى ولائه الاكيد لامير المؤمنين من شرطة الخميس، وقد قال له يوم الجمل: ابشر يا عبد الله فانك وأباك من شرطة الخميس حقا لقد اخبرني رسول الله باسمك واسم ابيك في شرطة الخميس ولما قتل امير المؤمنين (ع) حزن عليه عبد الله بن يحيى واشتد به الحزن وأخيرا خرج من الكوفة واتخذ لنفسه محلا بعيدا عن الناس يتعبّد فيه وظل الشيعة يترددون عليه بين الحين والآخر، ولما علم ابن هند بجزعه وحزنه على أمير المؤمنين وترديد فضائله بين أصحابه وفي مجالسه أمر واليه على الكوفة بالقبض عليه وعلى من كان يتصل به من الشيعة فقبض عليهم وأرسلهم الى معاوية فأمر بقتلهم صبراً[1].

الى غير ذلك من عشرات المناضلين الذين قتلهم معاوية وزياد بن سمية وغيرهما من ولاته لا لانهم نكثوا ببيعته وخرجوا عن طاعته او استحلوا دماً حرمه الله بل لانهم لم يتبرأوا من علي ودينه وأنكروا عليه ما كان يمارسه هو وولاته من ظلم وجور واستهتار بالقيم والمقدسات.

(١) أنظر المجلد الثاني من كتاب القرشي الإمام الحسن ص ٣٨٥. والخميس اسم من أسماء الجيش وسمي بذلك لأن الجيش موزع الى خمسة أصناف: المقدمة والميمنة والميسرة والقلب والساقة وقيل غير ذلك.

محمد بن أبي حذيفة

لقد قتل ابن هند وابن سمية فريقاً من اولئك المناضلين وامتلأت سجونه بالعشرات منهم وفرّ الباقون هائمين على وجه الارض يطاردهم الخوف والرعب من جلاديه فهدم دورهم وصادر ممتلكاتهم وترك نساءهم وأطفالهم يتكففون اوجه الناس ويفترشون التراب. لقد كان محمد بن ابي حذيفة بن عتبة في طليعة الموالين لعلي والمناوئين للحكم الاموي، ومن صلحاء المسلمين وقد لازم علياً في جميع حروبه ومعاركه، وجاء عنه انه قال: أبت المحامدة ان يعصى الله[1].

وقد طارده معاوية بعد ان استتبت له الامور وقبض عليه ووضعه في سجنه وأخرجه من سجنه بعد مدة من الزمن واستدعاه لمجلسه ليلعن علياً ويتبرأ منه وقال له: ألم يأن لك ان تبصر ما كنت عليه من الضلالة بنصرتك لعلي بن ابي طالب، ألم تعلم ان عثمان بن عفان قتل مظلوما وان عائشة وطلحة والزبير خرجوا يطالبون بدمه وان علياً هو الذي كا يحرّض الناس على قتله ونحن في حربنا لعلي وآل علي (ع) نطالب بدمه؟

فأجابه محمد بن ابي حذيفة بصراحته المعروفة وعدم محاباته لأحد على حساب دينه ومعتقداته: انك لتعلم يا معاوية اني أمسّ القوم بك رحماً وأعرفهم بك وبأهدافك ونزعاتك[2] فوالله الذي لا اله غيره لا أعلم احداً شرك في دم عثمان

(١) وهم محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر الطيار ومحمد بن أبي حذيفة.

(٢) لقد كان محمد بن أبي حذيفة من أقرب الناس لمعاوية لأن والده أبا حذيفة بن عتبة شقيق هند آكلة الأكباد فهو ابن خاله ومعاوية ابن عمته.

وألب الناس عليه غيرك حينما استعملك وأمثالك وسلطكم على رقاب العباد وأموالهم، ولما امتنع ان يضع حدا لك ولأمثالك فعلوا به ما بلغك، ولم يشترك احد في قتله اولا واخيرا سوى طلحة والزبير وعائشة فقد شهدوا عليه بارتكاب الكبائر وألبوا الناس على قتله، ومضى يقول: واني لأشهد انك منذ عرفتك في الجاهلية والاسلام لعلى خلق واحد لم يغير الاسلام منك شيئا، وعلامة ذلك بينة فيك انك تلومني على حب علي وموالاته وتأمرني بسببه، لقد وقف الى جانب علي كل صوام قوام من المهاجرين والانصار وخرج معك أبناء المنافقين والطلقاء والعتقاء خدعتهم عن دينهم وخدعوك عن دنياك.

والله يا معاوية ما خفي عليك ما صنعت، وما خفي عليهم ما صنعوا اذ أحلوا انفسهم بسخط الله في طاعتك، والله لا ازال أحب علياً لله ورسوله وأبغضك في الله ورسوله ما بقيت، فارتاع معاوية منه واستبد به الغضب وأراد قتله وقال: انك لا تزال على ضلالك القديم يا ابن ابي حذيفة، ولكن جماعة ممن كانوا في مجلسه لم يرجحوا له ذلك فرده الى سجنه وأوصى بالتشديد والتضييق عليه وبقي في سجنه الى ان لفظ أنفاسه الاخيرة صابراً محتسباً لم يتردد لحظة واحدة في ولائه لعلي وآله ولا في ضلال معاوية وأعوانه[1].

وقيل كما جاء في شرح النهج ان معاوية بعد هذا الموقف الذي وقفه منه لم يشأ ان يتولى قتله في ذلك المجلس لانه ابن خاله، فحبسه في احدى سجونه بفلسطين ولكنه استطاع ان يخرج من السجن هرباً بعد ان مكث فيه مدة من الزمن فاستدعى معاوية جماعة وأمرهم بمطاردته فقبضوا عليه في أحد الكهوف وقتلوه قبل ان يصل الى معاوية[2].

وهكذا كان مصير الاحرار والمناضلين من اجل الحق والعدالة والحرية، كان مصيرهم من حكومة معاوية القتل والتعذيب والتشريد والتخليد في ظلمات السجون حتى الانفاس الاخيرة من حياتهم.

(١) رجال الكشي ص ٤٧.
(٢) أنظر المجلد الثاني من شرح النهج ص ٣٨.

عبد الله بن هاشم المرقال

لقد كان عبد الله بن هاشم المرقال في طليعة اولئك الذين خطط معاوية وشقيقه الجديد ابن سمية لاستئصالهم لانه كان من أعيان الشيعة وزعمائهم الابطال الذين لم يخضعوا لغير الحق ولا يحابون احدا على حسابه وممن يرون ان البراءة من علي وآل علي (ع) لا تعني سوى البراءة من الاسلام ومن محمد ورسالته. ومهما نسي معاوية فلم ينس مواقف المرقال في صفين وبطولاته التي كادت ان تؤدي الى هزيمة جيشه لولا المصاحف التي رفعت على رؤوس الأسنة والرماح.

لقد كانت الشهادة تنتظر ابن المرقال وينتظرها بنفس مطمئنة وعزيمة صادقة كما كان ابوه في صفين ينتظرها بنفس الروح والعزيمة، وكتب معاوية الى ابن سمية يطلب منه إلقاء القبض عليه ليتشفى بقتله والتنكيل به كما تشفت أمه هند بنت عتبة بكبد الحمزة والتمثيل به.

وجاء في الرسالة التي كتبها الى ابن سمية: أما بعد فانظر عبد الله بن هاشم فشد يده الى عنقه وابعثه الي، ولما وصلته رسالة معاوية أوعز الى جلاوزته بالبحث عنه وإلقاء القبض عليه، وحينما أحس العبد الصالح بذلك التجأ الى حي من أحياء الكوفة واختفى عن الناس في أحد بيوته، ولما علم بوجوده في ذلك البيت أحد المرتزقة شدّ الرحال الى معاوية وأخبره بمكانه فكتب معاوية من فوره رسالة الى زياد جاء فيها:

أما بعد فاذا أتاك كتابي فاعمد الى حي بني مخزوم وفتشه بيتاً بيتاً حتى تأتي دار فلانة المخزومية فاستخرج عبد الله بن المرقال منها واحلق رأسه والبسه جبة من

الشعر وغل يده الى عنقه واحمله الي على قتب بغير وطاء ولا غطاء.

وعندما وصل اليه الكتاب قام زياد بتفتيش الحي بيتاً بيتاً وظفر بـه في أحد بيوته فأرسله الى معاوية على الكيفية التي أرادها ووصل الى دمشق في يوم الجمعـة، اليوم الذي يستقبل به أشرف قريش ووجوه أهل العراق في كل أسبوع، ولم يشعـر معاوية الا وابن هاشم مكبلاً بالحديد بين يديه فعرفه لأول نظرة ولم يعرفه ابن العاص، فقال له معاوية: هذا الذي كان أبوه في صفين يقول:

اني شريت النفس لما اعتلا وأكثر اللوم وما اقلا
اعور يبقى اهله محلا قد عالج الحياة حتى ملا
لا بد ان يفل او يقلا اسلهم بذي الكعوب سلا
لا خير عندي في كريم ولى

فتمثل ابن العاص حينما عرّفه به معاوية بقول القائل:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى
وتبقى حزازات النفوس كما هيا

والتفت الى معاوية قائلاً: دونك يا أمير المؤمنين الضب المضب فاشخب أوداجه على إثباجه ولا ترده الى أهل العراق فانه لا يصبر على النفاق وهم أهل غدر وشقاق وان له هوى سيوديه ورأيا سيطغيه وبطانة ستغويه.

فانبرى اليه عبد الله كالاسد الغضبان غير هياب ولا وجل قائلاً: يا عمرو ان اقتل فرجل أسلمه قومه وأدركه يومه أفلا كان هذا منك إذْ تحيد عن القتال ونحن ندعوك الى النزال وأنت تلوذ بشمال النطاق وعقائق الرصاف كالأمة السوداء والنعجة القوداء لا تدفع يد لامس[1].

واستمر الحوار بين ابن العاص وابن المرقال، وابن العاص ينهزم بين يديه ثم يحاول ان يستعيد مكانته بالتضليل والاحتيال والافتراء على عبد الله وأبيه، ولكن عبد الله كان يطارده أينما ذهب ليكشفه على واقعه الكريه في ذلك المجتمع الذي ضم أشراف قريش ووجهاء العراق والشام وقال له:

(١) النطاق الماء القليل، والعقائق سهام الاعتذار، والرصاف الحجارة التي توضع عند مسيل الماء.

يا عمرو إنّا قد بلوناك ومقالتك فوجدنا لسانك كذوباً غادراً خلوت بأقوام لا يعرفونك وجنود لا يساومونك ولو رمت المنطق في غير أهل الشام لجحظ عليك عقلك وتلجلج لسانك واضطرب فخذاك اضطراب القعود الذي أثقله حمله.

وهنا أدرك معاوية ان ابن العاص ساعده الايمن قد انهار ورأى الجماهير تتطلع الى ابن هاشم بإعجاب وإكبار فقطع عليهما الحوار قائلاً: أيها عنكما وأمر بارجاع عبد الله بن هاشم الى سجنه وبقي فيه يتعرض لاسوأ أنواع التعذيب والارهاق حتى لفظ أنفاسه الاخيرة، وقيل انه أطلق سراحه بالرغم من ان ابن العاص قد حرضه على قتله وذكره بمواقف ابيه هاشم في صفين وغيرها في أبيات ذكرها المؤرخون جاء فيها:

ألـيس ابـوه يـا معـاويـة الـذي   أعـان عليـا يـوم حـز الغـلاصـم
وهـذا ابنـه والمـرء يشبـه شيخـه   ويـوشـك ان تقـرع بـه سن نـادم

وغريب على ابن هند ان يتغاضى عن ابن المرقال المتفاني في ولائه لعلي وآل علي وبخاصة بعد تلك الهجمات العنيفة التي شنها عليه وعلى زميله المنافق المحتال ابن النابغة، مع العلم بأنه قد قتل وروع وشرد عشرات الالوف من الشيعة لا لشيء الا لتشيعهم لعلي وآل علي (ع) وكان مع ذلك شرهاً في اراقة الدماء والتنكيل بالصلحاء والابرياء، لذلك كله فاني أرجح ان تكون الرواية التي تدعي بأنه قد اطلق سراحه من صنع المرتزقة الذين كانوا يحاولون ان يلصقوا به من صفات الابرار والكرام الحلم والعفو.

عبد الله بن خليفة الطائي

لقد كان عبد الله الطائي من المناضلين ضد الحكم الاموي ومن أصحاب حجر ورفاقه الذين تخرجوا من مدرسة أمير المؤمنين التي كانت ثورة على الظلم والطغيان من أجل الانسان وكرامة الانسان التي داستها حكومة الامويين بأقدامها.

وجاء عنه انه قال لامير المؤمنين وهو في طريقه معه الى البصرة: الحمد لله الذي رد الحق الى اهله ووضعه في موضعه فان كره ذلك قوم فقد كرهوا محمداً ونابذوه وقاتلوه، ورد الله كيدهم في نحورهم وجعل دائرة السوء عليهم، والله يا ابا الحسن لأجاهدن معك في كل موطن حفظا لحق رسول الله (ص).

وظل عبد الله على ولائه الاكيد لعلي حتى النفس الاخير من حياته واشترك مع حجر وأصحابه في ثورته، ولما قبض زياد على حجر وأصحابه أمر الشرطة بالقبض عليه، وبعد صراع طويل ومرير جرى له معهم قبضوا عليه وألقاه زياد في سجنه فاستنجدت اخته النوار بقومها الطائيين وطالبتهم بنجدته واخراجه من سجنه فثار الطائيون على الشرطة وناجزوهم حتى انتزعوه من ايديهم.

وارسل زياد الى عدي بن حاتم الطائي يدعوه لمقابلته ولما اجتمعا طلب منه زياد أن يسلمه عبد الله وبعد حوار طويل بين الطرفين قال له عدي بن حاتم: لا والله لا آتيك به ابدا أتريدني ان اجيئك بابن عمي لتقتله والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه. فغضب زياد وأدخله السجن، حتى يأتيه بقريبه الطائي، فتحركت العصبيات القبلية لسجن عدي بن حاتم، ولم يبق في الكوفة يماني ولا ربعي وطائي

الا وطالب زياداً باطلاق سراحه وخشي زياد ان تتسع النقمة عليه وعلى الحكم الاموي ويتخذ الصراع شكلاً قبلياً ربما تشترك فيه أحلاف ربيعة وطيء من القبائل العربية التي لا يسعها ان تبقى محايدة اذا تعرضت حليفاتها للشر والعدوان.

فأطلق سراحه واشترط عليه ان يغيب ابن عمه عن الكوفة فوافق عدي على ذلك وأمر عبد الله بن خليفة بمغادرتها الى الجبلين، فغادرها وعاش ما بقي من عمره بعيداً عن اهله ووطنه كما شاءت له إرادة زياد بن سمية[1] ومات في منفاه وزياد لا يزال بين الاحياء كما جاء في تاريخ الطبري.

وكان يجيد نظم الشعر، ومن شعره في منفاه قصيدة يرثي بها حجر بن عدي وأصحابه ويصف حاله وما يعانيه في المنفى من الالآم والشوق لاهله ووطنه جاء فيها في وصفه لحجر بن عدي:

فنعم اخو الاسلام كنت وانني لاطمع ان تؤتى الخلود وتحبرا
وقد كنت تعطي السيف في الحرب حقه وتعرف معروفا وتنكر منكرا

ووصف فيها منفاه بقوله:

نفاني عدوي ظالما عن مهاجري رضيت بما شاء الإله وقدرا
وأسلمني قومي بغير جناية كأن لم يكونوا لي قبيلا ومعشرا

الى غير هؤلاء من رجالات الشيعة الذين تعرضوا للاعتقال والنفي والتشريد وماتوا في منفاهم في ظروف غامضة كصعصعة بن صوحان وعدي بن حاتم وجارية بن قدامة، اما صعصعة فكان من خيرة أصحاب أمير المؤمنين (ع) وفيه يقول الامام الصادق (ع): ما كان مع أمير المؤمنين من يعرف حقه الا صعصعة بن صوحان وأصحابه ومواقفه مع معاوية وجلاديه كما ترويها مجاميع التاريخ تؤكد بأنه من ذوي البصائر الصافية في دينه، قوي الحجة واسع التفكير يهزم خصمه مهما بلغ من التفكير وحسن البيان كما حدث له مع معاوية وابن العاص وغيرهما.

وأما عدي بن حاتم الطائي فقد كان من الشخصيات الاسلامية التي تتمتع بثقة الجماهير في العراق ومن البارزين بين اصحاب امير المؤمنين وشيعته ومن اجل ذلك تعرض للاهانة والاستخفاف من قبل ابن هند وحواشيه ودخل عليه يوما فقال له شامتا مستخفا به: ما فعلت الطرفات، يعني بذلك اولاده طرفة وطريف

(١) والجبلان يقعان في مكان بعيد بعداً واسعاً عن الكوفة يعرف بجبال طيء.

وطارف، وكانوا قد قتلوا مع علي بن ابي طالب، فقال له: قتلوا مع امير المؤمنين، فرد عليه معاوية بقوله: ما انصفك علي لقد قتل اولادك وأبقى اولاده، فقال له عدي بن حاتم: بل ما أنصفت عليا اذ قتل وبقيت بعده.

فاغتاظ من جوابه وقال له مهددا: أما والله لقد بقيت قطرة من دم عثمان لا يغسلها الا دم شريف من اشراف اليمن وكان يعنيه بذلك.

فانبرى اليه عدي مستخفا به وبتهديده وقال: والله يا معاوية ان القلوب التي ابغضناك بها لفي صدورنا والسيوف التي حاربناك بها لا تزال في أيدينا ولئن اقبلت نحونا بغدرك فتراً فسندنو اليك بسيوفنا شبراً، وان حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم لأهون علينا من ان نسمع المساءة في علي وآل علي (ع) فسلم السيف لباعث السيف.

فتجاهل معاوية تهديده[1] وقال له: صف علياً، فقال ابن حاتم: ان رأيت ان تعفيني من ذلك يا معاوية، فرفض ان يعفيه وكان يعلم بأن كل صفة من صفات علي (ع) اذا مرت على سمع معاوية ستكون بمثابة طعنة في قلبه فاستغل هذه الفرصة وقال: كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول عدلا ويحكم فصلا تنفجر الحكمة من جوانبه، والعلم من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته وكان مع ذلك غزير الدمعة طويل الفكرة يحاسب نفسه اذا خلا ويقلب كفيه على ما مضى، يعجبه من اللباس القصير ومن الطعام الخشن، وكان فينا كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ويدنينا اذا اتيناه، ونحن مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه لهيبته ولا نرفع أعيننا اليه لعظمته، يعظم اهل الدين ويتحبب الى المساكين، لا يخاف القوي ظلمه ولا ييأس الضعيف من عدله، وأقسم بالله يا معاوية لقد رأيته ليلة وقد مثل في محرابه وأرخى الليل سدوله وغارت نجومه ودموعه تتحدر على لحيته الكريمة وهو يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين وكأني أسمعه الان وهو يقول: يا دنيا الي تعرضت ام الي اقبلت غري غيري لا حان حينك قد طلقتك ثلاثا لا رجعة لي فيك فعيشك حقير وخطرك يسير آه من قلة الزاد وبعد السفر وفقد الانيس.

لقد تعمّد ابن حاتم ان يصفع معاوية بكل واحدة من تلك الصفات التي كانت كالسهام المسمومة تنفذ الى قلبه وتعبث بأحشائه، لان كل صفة منها تنطوي

(١) مروج الذهب للمسعودي المجلد الثاني.

على التعريض والتنديد به وبأعوانه الجبابرة الجلادين الذين لا تعرف قلوبهم سبيلا الى الحق والعفو والرحمة.

وبلا شك فان معاوية كان في تلك اللحظات التي كان فيها ابن حاتم مسترسلا في وصف علي (ع) في صراع مرير مع نفسه، فحقده على علي (ع) وشيعته كان يدفعه الى الانتقام من عدي بن حاتم لانه قد عاهد نفسه وأمية على ان لا يترك لعلي ذاكرا بخير وأن لا يترك شتمه وسبه حتى يشب على ذلك الصغير ويهرم عليه الكبير، وعلى اساس ذلك فقد شرد عشرات الالوف من الشيعة وحتى من المتهمين بالتشيع وقتل جماعة من زعماء الشيعة ووجوههم كحجر وأصحابه والخزاعي ومن كان على رأيهم، وهذا عدي بن حاتم لا يكتفي بمدح علي، بل كان يتخذ من مدحه ستارا للتعريض به والتنديد بسياسته وسيرته، وفي الوقت ذاته كان يتراءى له من مكانة عدي بن حاتم في قومه وأحلافهم وعند العرب بصورة عامة ان قومه سوف لا يقفون من قتله او سجنه موقف المتفرج وستتسع المعارضة لدولته وبيته وتتخذ طابعاً قبلياً بالاضافة الى الطابع المذهبي او الاسلامي لو تعرّض له بسوء.

واستطاع بعد صراع مرير مع نفسه حول الموقف الذي يجب ان يتخذه من عدي بن حاتم ان يجتاز تلك المرحلة الدقيقة من الصراع ويتفلت من أمويته الحاقدة في تلك اللحظات وأن يتصنع البكاء خوفا على مصيره عندما سمع منه حديث علي مع الدنيا ويترحم عليه دجلا وتضليلا في نهاية المطاف قائلا: رحم الله ابا الحسن لقد كان كذلك.

جارية بن قدامة

لقد كان جارية بن قدامة كغيره من زعماء الشيعة ثورة على الظلم والطغيان ومن المناهضين لسياسة معاوية التي اتسمت بالحقد على علي امير المؤمنين وشيعته، وحينما وفد على معاوية بن هند استعمل معه الاسلوب نفسه الذي كان يستعمله مع غيره من زعماء الشيعة بالاستخفاف والاستفزاز وما الى ذلك من الاساليب، فقال له معاوية: انت الساعي مع علي بن ابي طالب والمشعل لنار الحرب لتسفك الدماء.

فردّ عليه قائلا: يا معاوية دع عنك علياً فما ابغضناه منذ أحببناه ولا غششناه منذ نصحناه، وحينما سمع منه ذلك تحول الحوار بينهما الى لون آخر فقال له: ويحك يا جارية ما كان أهونك على أهلك اذ سموك جارية، فأجابه بقوله: انت يا معاوية كنت أهون على اهلك اذ سموك معاوية وهي الانثى من الكلاب كما في رواية ابن عبد ربه في العقد الفريد[1].

واتسع الحوار بينهما الى التهديد والوعيد وجارية ينقضّ عليه كالصقر لايترك له عورة الا كشفها وفضحها، ومع ذلك فقد تحالم عنه ابن هند ليستر بذلك ولو بعض جرائمه التي كان يمارسها على الظنة والتهمة. ولم تقتصر جرائم ابن هند وابن سمية على قتل الرجال ومطاردتهم واضطهادهم بل شملت بعض نساء الشيعة اللواتي اشتهرن بولائهن لعلي وآله الذين فرض الله مودتهم على جميع المسلمين كما نصت على ذلك الآية ﴿لا أسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى﴾. فلم تذكر له امرأة

(١) أنظر ص ٤٠٣ من المجلد الثاني الإمام الحسن للقرشي.

من تلك النسوة المناضلات الا وأرسل في طلبها وقابلها بالاستخفاف والاهانة والتهديد والوعيد وأظهر لها ما يضمره من الحقد والكراهية لامير المؤمنين وشيعته ومن يناصره في قول أو فعل.

وها نحن نقدم الى القراء صوراً عن بعض تلك المواقف الخالدة التي وقفتها المرأة الشيعية الى جانب الابطال من الرجال في سبيل الحق والمبدأ والعقيدة.



الزرقاء بنت عدي

لقد اشتهرت الزرقاء بنت عدي بين نساء عصرها ببلاغة المنطق والمواقف الجريئة من الحاكمين أعداء الحق والانسانية وبولائها لأمير المؤمنين (ع) واشتركت معه في معاركه مع معاوية في صفين، وكانت كما تؤكد أكثر المصادر تتصدر جبهات القتال الى جانب اهل العراق تحرضهم على الثبات والنضال والمضي في المعركة حتى النصر.

وبعد مصرع أمير المؤمنين واستتباب الأمور لابن هند كتب الى عامله على الكوفة طالباً منه ان يحمل اليه الزرقاء مع من كان يطلبهم ويطاردهم من وجوه الشيعة وأعيانهم فأرسلها اليه تحت رقابة فريق من جيشه، ولما دخلت عليه رحب بها وقال لها: أتعلمين لماذا ارسلت في طلبك؟ فردت بجرأتها التي لازمتها في جميع مواقفها قائلة: سبحان الله أنى لي بعلم ما لم أعلم وهل يعلم ما في القلوب غير الله.

فقال: بعثت اليك لكي أسألك عن مواقفك في صفين بين الصفين توقدين الحرب وتحرضين على القتال وعما حملك على ذلك.

فقالت: يا معاوية لقد مات الرأس وبتر الذنب والدهر ذو غير ومن تفكر ابصر والامر يحدث بعده الامر، وطلب منها ان تعيد عليه كلماتها التي كانت تلقيها بين الجبهتين في صفين تحرض فيها اصحاب علي (ع) على الثبات والمضي في الحرب حتى النصر فلم تستجب لطلبه وقالت اتقاء لشره: لا احفظ شيئا منها، فقال لها: انا احفظها لله ابوك يا زرقاء، واندفع يتلوها عليها فلما انتهى الى قولها: ان المصباح

لا يضيء مع الشمس وان البغل لا يسبق الفرس وان الزف[1] لا يوازن الحجر ولا يقطع الحديد الا الحديد، الا ان خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء والصبر خير عواقب الامور، ايهاً الى الحرب غير ناكصين ولا متشاكسين فهذا يوم له ما بعده.

ولما استعرض كلماتها هذه تغلب عليه الحقد والغضب وقال لها: والله يا زرقاء لقد شاركت علي بن ابي طالب في كل دم سفكه.

فردت عليه ساخرة منه: حسن الله بشارتك وأدام سلامتك، مثلك من يبشر بخير ويسر جليسه، والله لقد سرني قولك وأتمنى أن اكون كما ذكرت.

ولم يكن يحسب معاوية وهو في عنفوان جبروته والحاكم المسيطر على جميع طاقات الامة ومقدراتها ان يجرؤ أحد على مقابلته بتلك الصلابة والجرأة وتتمنى امرأة اسيرة بين يديه على الله ان يحشرها مع من قاتله وسفك دماء جنده وأصحابه، وبعد ان وجد ان العنف لا يرهبها ولا يضع حدا لولائها ولتفانيها في حب علي وآل علي ولا لجرأتها عليه، تراجع أمامها الى أساليب المكر والمخادعة التي اعتاد عليها، وقال لها:

والله لوفاؤكم له بعد موته أحب الي من حبكم له في حياته، وتمنى عليها ان تذكر له حاجتها وما يهمها من أمور دنياها ليمنحها ما تريد، فرفضت ان تمد يدها اليه وقالت: لقد آليت على نفسي ان لا أسأل اميراً أعنت عليه شيئاً أبداً.

ولكن بعض المصادر تدعي بأنه قد اقطعها ضيعة من ضياع الكوفة ودفع اليها مبلغا من النقود وردها الى اهلها[2]

(١) الزف هو الصغير من الريش.
(٢) بلاغات النساء لطيفور طبع النجف ص ٣٢.

ام الخير البارقية

ومن النساء اللواتي اشتركن في الثورة على الحكم الاموي أم الخير البارقية وقد اشتهرت بولائها وإخلاصها لعلي وآله وكانت في صفين تحرّض الجماهير على حرب ابن هند وتستثيرهم بخطبها وأناشيدها مرتدية ببرد زبيدي كثيف الحاشية على جمل ارمك[1] وقد أحيط بها وبيدها سوط وهي كالفحل يهدر في شقشقته على حد تعبير الراوي وتقول:

ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم ان الله قد اوضح لكم الحق وأبان الدليل وبين السبيل ورفع العلم، ولم يدعكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة فأين تريدون رحمكم الله، أفراراً عن أمير المؤمنين أم فراراً من الزحف ام رغبة عن الاسلام ام ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم قول الله سبحانه ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم﴾.

ثم رفعت رأسها الى السماء وقالت: اللهم قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرغبة وبيدك يا رب أزمة القلوب بأجمعها، اللهم اجمع الكلمة على التقوى وألف القلوب على الهدى واردد الحق الى أهله، هلموا رحمكم الله الى الإمام العادل والرضي التقي والصديق الاكبر انها احن بدرية وأحقاد جاهلية وضغائن أحدية وثب بها واثب ليدرك ثارات عبد شمس.

ومضت تقول: صبراً يا معشر المهاجرين والانصار قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم فكأني بكم وقد لقيتم اهل الشام كحمر مستنفرة فرت من

(١) الجمل الأرمك ما كان لونه لون الرماد.

قسورة لا تدري اين تسلك من فجاج الارض، باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى، وعما قليل ليصبحن نادمين حين تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة ولات حين مناص وأضافت الى ذلك:

فالى اين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله (ص) وصهره وأبي سبطيه خلق من طينته وتفرع من نبعته وخصه بسره وجعله باب مدينته وأبان ببغضه المنافقين وها هوذا مفلق الهام ومكسر الاصنام صلى والناس مشركون وأطاع والناس كارهون فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزي بدر وأفنى اهل أحد وهزم الاحزاب وقتل الله به اهل خيبر وفرق به جمع هوازن فيا لها من وقائع زرعت في القلوب نفاقاً وردة وشقاقا وزادت المؤمنين ايماناً.

فقال لها معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام الا قتلي ولو قتلتك ما حرجت في ذلك، فردت عليه بقولها: والله ما يسوءني ان يجري قتلي على يد من يسعدني الله بشقائه.

فقال لها: ما تقولين في عثمان بن عفان يا كثيرة الفضول؟ قالت: وما عسيت ان اقول في عثمان؟ لقد استخلفه الناس وهم به راضون وقتلوه وهم له كارهون.

واستمر في حوارها بجبروته وقسوته، وأشباح السيوف التي تقطر من دماء الموالين لأمير المؤمنين (ع) تتراءى لها من خلال كلماته، ومع ذلك فلم تتزحزح عن رأيها فيه وفي عثمان وأسرته ولا عن أسلوبها الذي يتسم بالصراحة والعنف، وقالت له عندما لوّح لها بالعقوبة: ارجو ان يسعدني الله بشقائك، وعندما سألها عن عثمان قالت: لقد قتله المسلمون وهم له كارهون. ولما وجد انها لن تلين ولن تخضع لجميع وسائله ووعيده ولن تتراجع امام تهديداته عن ولائها لامير المؤمنين وان العنف يزيدها إصرارا وتمسكا بعقيدتها ومبدئها أطلق سراحها وردّها الى أهلها.

ام البراء بنت صفوان

وجاء في المجلد الاول من صبح الاعشى ان أم البراء بنت صفوان دخلت على معاوية، فقال لها: كيف انت يا بنت صفوان؟ قالت: ضعفت بعد جلد وكسلت بعد نشاط، قال: شتان بينك اليوم وحين تقولين:

اسرج جوادك مسرعا ومشمرا	للحرب غير معرد بفرار
اجب الامام ودب تحت لوائه	والق العدو بصارم بتار
يا ليتني اصبحت لست قعيدة	فأذب عنه عساكر الكفار

قالت: قد كان ذلك ومثلك من عفا والله تعالى يقول: «عفا الله عما سلف» ومن عاد فينتقم الله منه، فقال لها: هيهات والله لو عاد لعدت ولكن اخترم منك، فقالت له: أجل واني لعلى بينة من ربي وهدى من امري، فقال لها: كيف كان حالك يوم قتل وماذا كنت تقولين في رثائه، فرفضت ان تعيد عليه الابيات التي كانت تندبه بها، فقال له بعض جلسائه: لقد كانت تقول:

الشمس كاسفة لفقد إمامنا	خير الخلائق والامام العادل
يا خير من ركب المطي ومن مشى	فوق التراب لمحتف او ناعل
حاشا النبي لقد هددت قوامنا	والحق اصبح خاضعا للباطل

فقال لها معاوية: قاتلك الله فما تركت مقالا لقائل، ولما قامت من مجلسه لتنصرف عثرت، فقالت: تعس شانىء علي (ع) وانصرفت ومعاوية يراقب تحركاتها واستخفافها به وبجلاديه بمرارة وألم.

بكارة الهلالية

لقد كانت الهلالية من سيدات النساء المعروفات بالفصاحة والبلاغة في منطقها وبيانها والتفاني في ولائها لعلي وآله (ع) وقد اشتركت معه في معركة صفين بخطبها الحماسية المثيرة وتحريضها اهل العراق على القتال والصبر والثبات حتى النصر ولم تفارق المعركة حتى النهاية وحينما استدعاها معاوية فيمن كان يستدعيهم من الرجال والنساء وفدت عليه وبيدها عكاز تستعين به فسلمت عليه بالخلافة فرد عليها ردا جميلا وأذن لها بالجلوس وهو لا يعرفها، ولما استقر بها المجلس عرفها مروان بن الحكم فالتفت الى معاوية قائلاً: هذه يا أمير المؤمنين التي كانت تحرض علينا في صفين وتقول:

يا زيد دونك فاستثر من دارنا ... سيفاً حساماً في التراب دفينا
قد كان مذخوراً لكل عظيمة ... واليوم أبرزه الزمان مصونا

ثم اندفع ابن العاص وقال: وأنا ما زلت أحفظ لها أبياتا كانت تنشدها بين الصفين داعية فيها اهل العراق الى المضي في الحرب حتى النصر تقول فيها:

أترى ابن هند للخلافة مالكاً ... هيهات ذاك وما أراد بعيد
منتك نفسك في الخلاء ضلالة ... أغراك عمرو للشقا وسعيد
فارجع بأنكد طائر بنحوسها ... لاقت علياً أسعد وسعود

وقام بعدهما سعيد بن العاص وقال: يا معاوية وهي القائلة بعد ان انتهت اليك الخلافة:

قد كنت آمل ان أموت ولا أرى ... فوق المنابر من أمية خاطبا

فـالله أخـر مـدتي فـتـطاولـت حتى رأيت مـن الـزمـان عجـائـبـا
في كـل يـوم لا يـزال خـطيـبهـم وسط الجـمـوع لآل احـمـد عـائـبـا

وكانت غاية مروان وقريبه سعيد بن العاص وابن النابغة استفزاز معاوية وتفجير حقده على تلك المرأة الصالحة للتشفي من شيعة علي وآل علي، ومن غير البعيد ان تكون تلك الابيات قد صيغت بلسانها لهذه الغاية.

ومع انها كما يبدو من جوابها قد ادركت غايتهم من ذلك الموقف الحاقد فلم تلن ولم تخضع لتلك الاستفزازات والتحديات، ولم تتنصل من تلك الابيات والتفتت الى معاوية وقالت: لقد نبحتني كلابك يا معاوية واعتورتني فقصرت محجتي وكثر عجبي وغشي بصري وأنا والله قائلة ما قالوا لا ادفع ذلك بتكذيب فامض لشأنك فلا خير بالعيش بعد امير المؤمنين وانسحبت من مجلسهم ومعاوية لا يزال مالكا لاتزانه مسيطراً على أحقاده لم يتعرّض لها بسوء[1].



(١) أنظر بلاغات النساء ص ٣٤ والمجلد الأول من صبح الأعشى وغيرهما.

أروى بنت الحارث

لقد كانت اروى كما تصفها المؤلفات في هذه المواضيع من كرام نساء عصرها في دينها وشجاعتها ومنطقها ووفائها لعلي وآل علي (ع) وحينما وفدت على معاوية فيمن كان يستدعيهن من نساء الشيعة اللواتي وقفن الى جانب الابطال من الرجال المناضلين لارهابهن واذلالهن لم تلن لجبروته وطغيانه وكانت تخاطبه تارة بلغة الناصح المشفق وأخرى بلغة العدو الحاقد وتنقض عليه وعلى ابن العاص ومروان بن الحكم كالصقر لم تترك لهم سترا الا فضحته ولا عيباً الا نشرته.

واتجهت الى معاوية اولا وقالت له: انت يا ابن اخي لقد كفرت بالنعمة وأسأت لابن عمك علي الصحبة وتسميت بغير اسمك وأخذت غير حقك بغير بلاء كان منك ولا من آبائك في الاسلام ولقد كفرتم بما جاء به محمد بن عبدالله (ص) فأتعس الله منكم الجدود وأصعر منكم الخدود وردّ الله الحق الى اهله، وكانت كلمة الله هي العليا ونبينا محمد (ص) هو المنصور على من ناوأه ولو كره المشركون، وكنا أهل البيت أعظم الناس حظاً ونصيباً وقدراً في الدين حتى قبض الله نبيه اليه مغفوراً ذنبه مرفوعاً درجته شريفاً مرضياً عند الله، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون يذبحون ابناءهم ويستحيون نساءهم، ومضت تقول: ولم يجتمع بعد رسول الله لنا شمل ولم يسهل لنا وعر وغايتنا الجنة وغايتكم النار.

وكان ابن العاص في مجلس معاوية يستمع لكلامها هو ومروان بن الحكم وغيرهما من جلاوزة معاوية ومرتزقته فأظهر عدم ارتياحه لها لان كلماتها القاسية تتسع لمعاوية وجميع من يناصره وابن العاص في طليعتهم، فقال لها: ايتها العجوز الضالة اقصري من قولك وغضي من طرفك، فالتفتت اليه وقالت من انت لا أم

لك؟ فقيل لها انه عمرو بن العاص.

فقالت له كما جاء في بلاغات النساء والمجلد الاول من العقد الفريد وغيره: يا ابن اللخناء النابغة أتكلمني أربع على ضلعك وأعن بشأن نفسك، فوالله ما انت من قريش في اللباب من حسبها ولا كريم منصبها ولقد ادعاك ستة من قريش كل واحد يزعم انه ابوك، ولقد رأيت أمك ايام منى بمكة مع كل عبد عاهر فأتم بهم فانك بهم أشبه.

وهنا التفت اليها مروان بن الحكم كما يدعي الرواة وقال لها: ايتها العجوز الضالة ساخ بصرك مع ذهاب عقلك فلا تجوز لك شهادة.

فأجابته بقولها: يا بني أتتكلم فوالله لأنت الى سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم، وانك لتشبهه في زرقة عينيك وحمرة شعرك مع قصر قامته وظاهر دمامته، والله لقد رأيت الحكم ماد القامة سبط الشعر وما بينكما من قرابة الا كقرابة الفرس الضامر من الاتان المقرب، فاسأل امك عما ذكرت لك فانها تخبرك بشأن ابيك ان صدقت، والتفتت الى معاوية وقالت: والله يا معاوية ما عرضني لهؤلاء غيرك وان امك لقد قالت في احد شامتة متبجحة بقتل عمي الحمزة بن عبد المطلب رحمه الله:

نحن جزيناكم بيوم بدر	والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لي من صبر	ابي وعمي وأخي وصهري
شفيت وحشي غليل صدري	شفيت نفسي وقضيت نذري
فشكر وحشي علي عمري	حتى تغيب أعظمي في قبري

ومضت تقول: لقد أجبتها بالأبيات التالية:

يا بنت رقاع عظيم الكفر	خزيت في بدر وغير بدر
صبحك الله قبيل الفجر	بالهاشميين الطوال الزهر
بكل قطاع حسام يفري	حمزة ليثي وعلي صقري
هتك وحشي حجاب الستر	ما للبغايا بعدها من فخر

ولما سمع معاوية البيت الاخير ثار على ابن العاص ومروان بن الحكم وقال لهما: انتما عرضتماني لها وأسمعتماني ما اكره، ثم التفت اليها وقال: يا عمة اذكري حاجتك ودعي عنك أساطير النساء، وقضى لها حاجتها وانصرفت من مجلسه بعد

ان وطئت كرامتهم بقدميها وجردتهم من جميع القيم وحتى من أنسابهم وتركتهم حديثاً كريهاً على لسان الاجيال، وبقيت سليلة هاشم وابنة عبد المطلب وغيرها من الوافدات على معاوية في تلك الظروف القاسية الصعبة مثلاً كريماً للمرأة المناضلة الشجاعة الوفية لدينها وعقيدتها وشرفها بالرغم مما أحيط بها من وسائل الارهاب والاذلال والمطاردة.

على اني أشك في أكثر ما نسب اليها والى مثيلاتها من الشيعيات اللواتي كان معاوية يستدعيهن اليه بين الحين والآخر من الشعر والخطب والاجوبة الحادة، والمتيقن منه مهما كان حجمه ولونه يؤكد وقوف المرأة الشيعية الى جانب المناضلين عن عقيدتهم وولائهم لأمير المؤمنين (ع) ومهما كان الحال فالنساء اللواتي وقفن الى جانب الأبطال من رجال الشيعة كحجر بن عدي وأصحابه وعدي بن حاتم وعمرو بن الحمق وثبتن على ولائهن لأمير المؤمنين ولم يخضعن لسياط الجلادين ولا لسيوفهم المسلطة وسجونهم المظلمة كثيرات كما أحصتهم المجاميع كنهاية الارب وصبح الأعشى والدر المنثور وغيره[1].

ونكتفي بهذه الامثلة ممن وقفن الى جانب الأبطال من الرجال خلال الفترة الواقعة بين صلح الحسن السبط (ع) وثورة الحسين التي انتهت بمصرعه في سبيل الاسلام ومبادئه وفيمه، نكتفي بهذه الامثلة من الرجال والنساء لننتقل الى لون آخر من ألوان النضال خطه أبو عبد الله الحسين بن علي (ع) بدمائه الزكية الطاهرة على تراب كربلاء وهو يقول:

ان كان دين محمد لم يستقم الا بقتلي يا سيوف خذيني

(١) أنظر أدب الشيعة للدكتور عبد الحسيب طه ص ١٥٨.

ثورة الحسين (ع) على الظلم والظالمين

لقد ذكرنا سابقاً ان الحاكمين باسم الاسلام من الأمويين وغيرهم قد اتخذوا منه طلاءً خفيفاً يسترون نزعاتهم الجاهلية ويعملون على تحويره لأهدافهم التي حارب محمداً ورسالته من أجلها أبو جهل وأبو سفيان وأمثالها من طواغيت قريش ليحولوه الى مؤسسة تخدم مصالحهم، وكان المجتمع الاسلامي يتململ تحت وطأة الاضطهاد والظلم التي عبرت عنه مواقف حجر بن عدي وعمرو بن الحمق الخزاعي وأصحابهما الذين قاوموا ظلم معاوية وأنصاره، ولكن تلك المقاومة لم تأخذ مداها ولم تضع حداً لتصرفات الحاكمين وجورهم، بل كانت سرعان ما تخمد او تموت في مهدها عندما يلاحق الجزارون طلائع تلك الانتفاضات بقتلهم او زجهم في السجون والمعتقلات بدون ان يحرّك المجتمع ساكناً، واذا تحرّك إنسان أغدقوا عليه الأموال وأغروه بالوعود كما حدث لمالك بن هبيرة السكوني الذي غضب لمقتل حجر وأصحابه وجعل يستعد للثورة، ولما علم بحاله معاوية أرسل اليه مائة ألف درهم فأخذها وطابت نفسه[1].

لقد عاصر الحسين (ع) جميع تلك التحركات التي بدأها الامويون الموتورون الحاقدون على الاسلام ومبادئه الانسانية العادلة، لقد عاصرها منذ ان نشأت مع ابيه وأخيه والصفوة من أصحابهما الكرام وعاصرها مع اخيه ومن بقي من أصحابه

(١) أنظر المجلد الثالث من الكامل لابن الأثير ص ٢٤٢.

وها هو بعد استشهاد أخيه بجنود العسل التي أعدها معاوية لكل من كان يخشى منه على دولته وحكمه يقف وحيداً ضد معاوية وأجهزة حكمه الارهابي ويرى بعينه اولئك الصفوة بقية السيوف من شيعة أبيه وأخيه يساقون أفواجاً الى الجلادين والجزارين في مرج عذراء وقصر الخضراء، ويرى نهج معاوية وحاشيته الذين اعتمدوه للوصول بالأمة الى هذا المصير الكالح وكيف يطاردون ويضطهدون العشرات والمئات من الناس، عندما ينكرون ظلمها وعدوانا على المقدسات وكرامة الانسان.

لقد عاصر مع أبيه وأخيه (ع) جميع تحركاتهم المعادية للاسلام وبقي وحيداً في ساحة الصراع مع معاوية وأجهزة حكمه الارهابي المستبد الذي اراد للأمة ان تتحول عن أهدافها وللاسلام ان ينحرف عن مسيرته، ورآهم كيف يحورون الاسلام ويزورون مبادئه الانسانية التي جاء بها محمد بن عبدالله رحمة للعالمين، ورأى حملة التخدير على حساب الدين والكذب على الله ورسوله وكيف يبيع المسلم نفسه وحياته وحريته وكرامته بحفنة من الدراهم للحاكمين الظالمين ويرضى بحياته على ما فيها من نكد وقسوة وحرمان.

لقد رأى كل ذلك وكان القلق يستبد به والالم يحز نفسه وقلبه لمصير الرسالة والانسانية في ظل هذا التحول الخطير الذي كان الامويون يعملون على تعميقه واستئصال الشخصية الاسلامية ليطمئن الحاكمون الى ان تصرفاتهم لن تثير اي استنكار لدى الجماهير ويختفي من ضمائرهم الشعور بالاثم الذي يدفع المسلم الى الثورة على الظلم والظالمين.

وقد استخدم الامويون في سبيل استئصال الروح الاسلامية والشخصية الاسلامية بالاضافة الى الاموال وجميع وسائل الارهاب مدرسة الرواة والمحدثين والقصاصين وعلى رأس هذه المدرسة ابو هريرة وسمرة بن جندب وكعب الأحبار وغيرهم من أقطاب تلك المدرسة التي أسسها معاوية لصنع الاحاديث، وقد أفرزت ألواناً من الأحاديث ونسبتها الى النبي (ص) وكان من أبرزها ما يرجع الى القدح في علي امير المؤمنين وآل علي (ع) واستفرغ معاوية كل وسعه وطلب من سمرة بن جندب ان يروي له عن الرسول ان الآية ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها﴾ نزلت في علي (ع) وان الآية: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ نزلت في قاتله عبد الرحمن بن ملجم.

كما طلب هشام بن عبد الملك من محمد بن شهاب الزهري ان يروي عن الرسول ان الآية ﴿والذي تولى كبره له عذاب عظيم﴾ نزلت في علي أيضاً.

وجاء في المجلد الثاني من ضحى الاسلام لأحمد أمين ان خالد بن عبدالله القسري كان قد طلب من ابن شهاب الزهري ان يكتب سيرة النبي (ص) فقال له الزهري يوما: انه يمر بي الشيء من سيرة علي بن ابي طالب ومواقفه في خدمة الاسلام فما اصنع به؟ فلم يأذن له بتدوين شيء يتعلق بعلي (ع) الا اذا تضمّن قدحاً او ذماً الى كثير من أمثال ذلك.

ومن تلك الالوان التي افرزتها تلك المدرسة ما يرجع الى تمجيد بني أمية وبخاصة عثمان ومعاوية وإعطائهم مرتبة القديسين، كالذي رواه أبو هريرة عن النبي (ص) انه قال: ان الله ائتمن على وحيه ثلاثة انا وجبرائيل ومعاوية، وانه قال: اذا لقيتم بعدي اختلافا وفتنة فعليكم بالامين عثمان وأصحابه.

ومنها ما يرجع الى تخدير المسلمين عن الثورة والتحرك ضد الحاكمين مهما بالغوا في الجور والظلم وان السعي والعمل لاستبدالهم بغيرهم حتى ولو كان ذلك الغير من أعدل الناس وأكثرهم حرصاً على مصالح المسلمين لا يقره الاسلام فمن ذلك ما رواه أصحاب الصحاح ان النبي (ص) قال: من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فان من فارق الجماعة شبرا ومات مات ميتة جاهلية، ومنها انه قال: ستكون بعدي هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جمع فاضربوه بالسيف كائناً من كان، الى غير ذلك مما رواه البخاري وغيره من محدثي أهل السنة وقد ذكرنا طائفة من تلك المرويات خلال الفصول السابقة.

والى جانب ما أنتجته مصانع اولئك الرواة اخترع الحاكمون لوناً آخر من ألوان التضليل الديني، وهو تأسيس الفرق الدينية التي تقدم للجماهير تفسيرات للدين تخدم تسلّط الحكام وتبرر جورهم وظلمهم كفرقتي المرجئة والمجبرة اللتين اعتنقهما معاوية وسهّل لهما سبيل البقاء والانتشار حتى اصبحتا من أوفر المذاهب حظا لدى الحاكمين، وقد كفرت بعض فرق المعتزلة معاوية لانه اعتنقهما ودعا اليهما كما جاء في المجلد الاول من شرح النهج، وقد تحدثنا عن هذه الفرق وأثرها على مسيرة الاسلام خلال حديثنا عن أنواع الأسلحة التي استعملها الحاكمون لتخدير الجماهير والهائهم عن الواقع المرير الذي يتخبطون فيه.

لقد رافق ابو عبد الله الحسين (ع) كل ذلك وكان يتلوى ويتألم للمصير

السيء الذي ينتظر الاسلام من معاوية وغيره من القردة الذين سينزون على منبر الرسول ويستخدمون الاسلام لإحياء جاهليتهم ووثنيتهم الاولى، وكانت مبررات الثورة على الحكم الاموي موفورة في عهد معاوية والحسين (ع) يدركها ويعرفها ويعبّر عنها في المجالس والمجتمعات وجميع المناسبات ويصارح بها معاوية في الرسائل التي كان يوجهها اليه بين الحين والآخر وجاء في بعضها.

وهيهات هيهات يا معاوية لقد فضح الصبح فحمة الدجى وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد نقلت حتى افرطت واستأثرت حتى اجحفت ومنعت حتى بخلت وجرت حتى جاوزت ولم تبذل لذي حق من حقه بنصيب حتى اخذ الشيطان حظه الاوفر ونصيبه الاكبر.

وفي رسالة ثانية وجهها اليه كانت جوابا عن كتاب كتبه اليه جاء فيها: لقد بلغني كتابك تذكر فيه انه انتهت لك عني أمور انت لي عنها راغب وأنا بغيرها عندك جدير فان الحسنات لا يهدي اليها ولا يسدد لها غير الله سبحانه.

وما ذكرت انه رقي لك عني فانما رقاه لك الملاقون المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الجمع وقد كذب الغاوون، واعلم بأني ما أردت لك حربا ولا عليك خلافاً واني لاخشى الله في ترك ذلك منك ومن الاعذار فيه اليك والى أوليائك القاسطين الملحدين حزب الظلمة وأولياء الشيطان، ألست القاتل حجر بن عدي اخا كندة وأصحابه المصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم ويستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخافون في الله لومة لائم ومع ذلك فقد قتلتهم ظلماً وعدواناً بعدما أعطيتهم المواثيق والايمان المغلظة والمواثيق المؤكدة ان لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم جرأة منك على الله واستخفافا بعهده وأحكامه، أولست يا معاوية قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله العبد الصالح بعد ما أمنته.

أولست المدعي لزياد بن سمية المولود على فراش عبيد من ثقيف وزعمت انه ابن ابيك ورسول الله يقول: الولد للفراش وللعاهر الحجر فتركت سنّة رسول الله واتبعت أهواءك بغير هدى من الله، ولم تكتف بذلك حتى سلطته على المسلمين يقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل عيونهم ويصلبهم على جذوع النخل كأنك لست من هذه الامة وليسوا منك.

أولست يا معاوية صاحب الحضرميين الذين كتب فيهم ابن سمية انهم على

دين علي (ع) فكتبت اليه ان يقتل كل من كان على دين علي فقتلهم ومثل بهم بأمرك، ودين علي هو دين ابن عمه الذي كان يضربك ويضرب عليه أباك وبه جلست مجلسك الذي انت عليه.

وقلت فيما قلت يا معاوية: انظر لنفسك ولأمة جدك ولدينك واتق شق عصا هذه الامة وان تردهم الى فتنة، واني لا أعلم يا معاوية فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأمة محمد (ص) من ان أجاهدك.

وقلت فيما قلت يا معاوية: انظر لنفسك ولأمة جدك ولدينك واتق شق لك فاني ارجو ان لا يضرني كيدك وأن لا يكون على أحد أضر منه على نفسك لأنك قد ركبت جهلك وتحرصت على نقض عهدك ولعمري ما وفيت بشرط ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والايمان والعهود والمواثيق ولم تفعل ذلك الا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقنا وليس الله بناس لاخذك بالظنة وقتلك أولياءه على التهمة ونفيك لهم من دورهم الى دار الغربة ومطاردتهم في البلدان وملاحقتهم الى الكهوف والغابات[1].

الى غير ذلك من مواقفه منه التي تؤكد بأنه كان يراه اسوأ من ابنه يزيد وأشد خطراً منه على الاسلام والمسلمين.

ومع انه في جميع مواقفه كان يقابل معاوية وولاته وجلاديه بهذا الاسلوب ولا يهادنهم بحال من الاحوال، فقد كان معاوية يتمنى عليه ان يخفف من أسلوبه معه وقد توسل اليه بالشدة حينا وباللين والمغريات حينا آخر وبخاصة عندما عزم على البيعة ليزيد من بعده، لان سكوته يؤمن له انقياد الامة ويمكّنه من ممارسة سياسته بدون خشية، ولكنه ابى ان يسكت عنهم او يخضع لمغرياتهم وينحني لقسوتهم لان دوره الرسالي يفرض عليه ان لا يسكت ولا يهادن وأن يثور عسى ان تهز ثورته ضمير الامة التي انحنت وخضعت لجبروت السلطة زمناً طويلاً، لان المجتمع الذي خضع طويلاً لجبروت الأمويين وانحنى لكبريائهم لم يعد يصلحه الكلام، ولا بدّ له من شيء جديد يهزه ويحركه.

هذا الواقع الكالح الذي كانت تتخبط فيه الامة وضع الحسين (ع) وجهاً

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٨٩ و ١٩٠.

لوجه أمام دوره التاريخي ورسالته النضالية وفرض عليه ان يثور من أجل كرامة الامة وإنقاذ شريعة جده من أعدائها الألداء عندما وجد ان ثورته ستعطي ثمارها المرجوة وان شهادته ستقض مضاجع الظالمين والطغاة المستبدين وتبقى المثل الأعلى لكل ثائر على الظلم والطغيان في شرق الأرض وغربها.

والسؤال الذي يفرض نفسه في المقام هو ان الحسين (ع) قد عاصر معاوية مع ابيه وأخيه وعاصره بعد أخيه نحواً من عشر سنوات كان الحسين وحده مهوى الافئدة ومحط آمال المعذبين والمشردين والمضطهدين، ولم يترك معاوية خلال تلك المدة الطويلة من حكمه باباً من أبواب الظلم الا وانطلق منه فقتل المئات من الصلحاء وعذّب وشرّد واضطهد الملايين بلا جرم ارتكبوه ولا بيعة نقضوها. وكان ذنبهم الأول والأخير هو ولاؤهم لعلي وآل علي، وكان القدوة لجميع من جاء بعده من الأمويين فيما ارتكبوه من الجرائم والاستهتار بالقيم والمقدسات وهو الذي كان يعمل ويضع الأسس لتحوير الاسلام وتحقيق ما كان يحلم به أبو جهل وأبو سفيان وغيرهما من طواغيت قريش، ولم يكن ولده يزيد الا صنيعة من صنائعه وسيئة من سيئاته، فلماذا والحالة هذه ابتعد عن الثورة في عهد معاوية مع وجود جميع مبرراتها في حين ان المبررات التي دفعته للثورة على يزيد كانت امتداداً لتلك التي كان يمارسها معاوية.

وهذا التساؤل يبدو لأول نظرة سليماً ومقبولاً، ولكنه بعد التدقيق ومتابعة الاحداث التي كان المسلمون يعانون منها وواقع معاوية بن هند والوسائل التي كان يستعملها لتغطية جرائمه لم يعد لهذا التساؤل ما يبرره، ذلك لان الواقع المرير الذي فرض على الإمام أبي محمد الحسن (ع) ان يصالح معاوية ويتنازل له عن السلطة الزمنية فرض على الحسين (ع) ان لا يتحرك عسكريا في عهد معاوية وأن يفرض على أصحابه وشيعته الخلود الى السكينة وانتظار الوقت المناسب، لان الحسن (ع) لو حارب معاوية في تلك الظروف المشحونة بالفتن والمتناقضات مع تخاذل جيشه وتشتت أهوائهم وآرائهم ومع شراء معاوية لاكثر قادتهم ورؤسائهم بالاموال والوعود المغرية بالاضافة الى ما كان يملكه من وسائل الاعلام التي كان يستخدمها لتضليل الرأي العام، لو حارب الحسن (ع) في تلك الظروف فكل الدلائل تشير الى ان الحرب كانت ستكلفه نفسه ونفس أخيه واستئصال المخلصين من أتباعه وشيعته ولا ينتج منها سوى قائمة جديدة من الشهداء تضاف الى القوائم التي دفنت في مرج عذراء ودمشق والكوفة وغيرها من مقابر اولئك الشهداء الابرار.

وبلا شك فان الامام ابا محمد (ع) لم يكن يتهيب الشهادة لو كانت تخدم المصلحة العامة وتعد المجتمع الاسلامي إعداداً سلبياً للثورة والتضحية بكل شيء في سبيل المبدأ والعقيدة كما فعلت ثورة الحسين (ع) في حينها التي قدمت للانسان المسلم نمطاً جديداً من الثوار لا يستسلم للضغوط مهما بلغ حجمها ولا يساوم على انسانيته ودينه ومبدئه مهما كانت التضحيات.

ولم يكن الحسين (ع) أقل ادراكاً لواقع المجتمع العراقي من أخيه الحسن (ع) فقد رأى من خيانته وتخاذله واستسلامه للضغوط والمغريات مثل ما رأى اخوه وأبوه من قبله، لذلك كله فقد آثر التريث ريثما يتوفر لشهادته ان تعطي النتائج التي تخدم الاسلام وتبعث اليقظة والروح النضالية في نفوس المسلمين، وراح يعمل على تهيئة المجتمع العراقي للثورة وتعبئته لها بدل ان يحمله على القيام بها في عهد معاوية حتى لا تكون نتائجها لمصلحته وحده.

لقد مضى على ذلك في حياة أخيه وبعد وفاته، ففي حياة أخيه حينما فاوضته وفود الكوفة في الثورة على معاوية بعد ان يئسوا من استجابة الحسن قال لهم ابو عبد الله (ع): صدق أخي أبو محمد فليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حياً كما جاء في (ص ٢٢١) من الاخبار الطوال، وبعد اخيه كتب له أهل العراق يسألونه ان يوافقهم على الثورة فأصرّ على موقفه وكتب اليهم في جواب رسائلهم كتاباً جاء فيه:

أما أخي فأرجو ان يكون الله قد وفقه وسدده فيما فعل، وأما أنا فليس من رأيي ان تتحركوا في عهد معاوية فالصقوا بالارض واكمنوا في البيوت واحترسوا من الظنة والتهمة ما دام معاوية حياً.

الى كثير من مواقفه التي تؤكد انه يرى ان الثورة في عهده لا تخدم مصلحة الاسلام والمسلمين شيئاً وان الخلود الى السكينة والابتعاد عن كل ما يثير الشبهات وضغائن الامويين عليه وعلى شيعته وأنصاره في حياة معاوية أجدى لمصلحة الاسلام، وفي الوقت ذاته كان يعمل لإعداد المجتمع العراقي وتعبئته بانتظار اليوم الذي يطمئن فيه لثورته وشهادته ان تعطي النتائج المرجوة.

وبالفعل فقد ازدادت الدعوة في عهد الحسين عنفاً وشدة وأخذت تربح أنصاراً في أكثر المناطق الاسلامية وبخاصة بعد ان جعل معاوية ولاية العهد لولده الخليع المستهتر، وكان لكل حدث من احداث معاوية صدى مدوياً في أوساط

المدينة حيث الإمام الحسين (ع) الرجل الاول الذي تتجه اليه الانظار من كل حدب وصوب.

وقد أحس الأمويون في الحجاز بهذا الواقع ودبّ في نفوسهم الخوف من نتائجه، فكتب مروان بن الحكم الى معاوية يحذره من التغاضي عن الحسين وأنصاره، وجاء في كتابه اليه: ان رجالا من أهل العراق ووجوه الحجاز يختلفون الى الحسين بن علي (ع) واني لا آمن وثوبه بين لحظة وأخرى وقد بلغني استعداده لذلك فاكتب الي برأيك في امره، ولم يكن معاوية في غفلة عن ذلك وكان قد أعد لكل امر عدته بوسائله التي كان يهيمن بها على الجماهير المسلمة، والحسين (ع) يعرف ذلك ويعرف ان ثورته ستنجلي عن استشهاده والاستشهاد بنظره لا وزن له ولا قيمة اذا لم يترك على دروب الناس وفي قلوبهم وهجاً ساطعاً يسيرون على ضوئه في ثورتهم على الظلم والطغيان وفراعنة العصور في كل عصر وزمان.

ان معاوية يدرك ويعي ما للحسين (ع) من منزلة في القلوب وبأن ثورته عليه ستزجه في حرب يعكر عليه بهاء انتصاراته التي احرزها في معركة صفين وفي صلحه مع الامام الحسن بن علي (ع) ولو قدّر لها أن تحدث يومذاك فسوف يعمل بكل ما لديه من الوسائل لكي يتخلص منه قبل استفحالها وقبل ان يكون لها ذلك الصدى في الاوساط الاسلامية ولو بواسطة جنود العسل التي كان يتباهى بها وقد استعملها للفتك بأخصامه السياسيين كالحسن بن علي وسعد بن ابي وقاص ومحمد بن حذيفة وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد والاشتر النخعي بعد ان أحسّ بخطرهم على دولته وأمويته العنصرية الحاقدة، ولو تعذر عليه ذلك فسوف يمارس جميع أشكال الاحتيال والتضليل والمراوغة حتى لا يكون لشهادته ذلك الوهج الساطع الذي ينفذ الى الاعماق ويحرك الضمائر والقلوب ضد دولته وأعوانها ولكي يبقى أثرها محدوداً لا يتجاوز قلوب أهله ومحبيه وشيعته الى حين، ثم يطوي النسيان ذكراه كما يطوي جميع الذكريات والاحداث، ولعل ذلك هو الذي اضطر الحسين (ع) الى التريث وعدم مواجهة معاوية بالحرب ودعوة اصحابه وشيعته الذين كانوا يراسلونه ويتوافدون عليه بين الحين والآخر الى ان يلتصقوا بالارض ويكمنوا في بيوتهم ويتحرسوا من كل ما يثير حولهم الظنون والشبهات ما دام معاوية حياً كما جاء في بعض رسائله اليهم.

وكما كان يعرف معاوية وأساليبه كان يعرف ان خليفته الجديد محدود في تفكيره ينساق مع عواطفه وشهواته وتلبية رغباته الى أبعد الحدود بارتكاب المحارم

والآثام والتحلل من التقاليد الاسلامية والنزق في تصرفاته ومعاملته لأخصامه، ومن أجل ذلك وقف المسلمون من بيعته موقفاً يتسم بالحذر والتخوف على الاسلام والمسلمين واعتبروها من أخطر الاحداث على مصير الامة ومقدراتها.

ومن ثم لم يكن من خلقه ولا باستطاعته مواجهة شهادة الحسين وتغطيتها بالاساليب التي اعتاد أبوه تغطية جرائمه بها، وكان كما يصفه البلاذري في أنساب الاشراف من أبعد الناس عن الحذر والحيطة والتروي صغير العقل متهورا سطحي التفكير لا يهم بشيء الا ركبه.

فلقد كان من أبعد الناس عن ان يواجه ثورة الحسين بأسلوب ابيه، ولا بد أن يواجهها بالاسلوب الذي يتفق مع شخصيته وهو ما حدث في النهاية بالنسبة اليها والى غيرها من المشاكل التي واجهته خلال السنين الخمس التي حكم فيها بعد ابيه، وكانت تربيته المسيحية او نشأته في الوسط المسيحي مع أمه ميسون تأبى عليه ان يلتزم أسلوب أبيه في الاحتفاظ بالغشاء الديني الذي كان يسدله على أفعاله وتصرفاته ويتستر به لدى العامة من الناس دجلاً وتضليلا كما يدّعي الكثير من الباحثين.

موقف الحسين من البيعة ليزيد وهو في طريقه للثورة

لقد كان الحسين (ع) الوارث الوحيد لتلك الثورة التي فجّرها جده الرسول الاعظم (ص)على الجاهلية الرعناء والعنصرية والوثنية لإنقاذ المستضعفين في الارض من التحكم والسيطرة والاستعباد، وواصلها أبوه وأخوه من قبله، وكان دوره القيادي للسير بها على خُطى جده وأبيه في سنة ستين للهجرة حيث الامة كانت بانتظار رجل ينهض بأعبائها ويكون حارساً مسؤولا عن تلك الثورة الكبرى التي فجّرها محمد بن عبدالله (ص) والتي اخذت دعائمها تنهار وتتقوض تحت ضربات بني أمية وأعوانهم، وجميع معطيات الثورة التي انطلقت قبل خمسين عاما او اكثر قد صادرها الامويون وأعوانهم، فالكتاب الذي جاء به محمد بن عبد الله (ص) رفع على حراب الامويين، والفكر العقائدي الذي جاء به الاسلام ليبني العقول والقلوب خضع لتوجيه السلطة الاموية الحاكمة، وسيوف المجاهدين انتقلت الى الجلاوزة والجلادين للتنكيل بالصلحاء والمؤمنين، والصدقات والغنائم كلها تنقل الى قصر الخضراء لشراء الضمائر وتخدير المعارضين، والألسنة التي تنطق بالسنّة والقرآن أصبحت أبواقا للسلطة الاموية الحاكمة، وجيل الثورة الثاني بين من تعرض للابادة الجماعية في مرج عذراء وقصر الخضراء، وبين من سيطرت عليهم مبادىء المرجئة والمجبرة والمتصوفة فأقعدتهم عن التحرك وأفقدتهم القدرة على النضال وزرعت فيهم بذور الاستسلام للواقع المرير الذي كانت تتخبط فيه الامة من جور الامويين وإمعانهم في تزوير السنّة وتحريف مبادىء الاسلام وتعاليمه لمصلحة جاهليتهم التي حاربت محمد بن عبد الله (ص) أكثر من عشرين عاماً وما زالت تحاربه.

من هنا كان دور الحسين الوريث الوحيد لثورة جده وأبيه على الشرك والوثنية

والعنصرية شاقاً وعسيراً لانـه لم يرث معهـا جيشاً ولا سـلاحاً ولا مـالاً ولا أي قوة جبهوية أو مجموعة منـظمة، غـير نفسه وحفنـة من بنيه واخـوته، لم يكن يملك غـير ذلك، ويملك في الوقت ذاته القدرة على الانزواء للعبادة ومكانه في الجنة مضمـون، ولكنـه لم يكن من طينة اولئـك الذين اختـاروا العبادة طـريقاً الى الجنـة بديـلاً عن الجهـاد لانه يـدرك ان الطريق الى الله هـو طـريق الحق وطـريق الحق هـو الجهـاد والنضـال والالتزام بمبـادىء الثورة الاسـلامية وتعـاليمها، واذا جـاز على غـيره من صلحاء المسلمين ان ينزوي في المساجـد للعبادة ويتخـلى عن النضال والجهـاد، فلا يجوز على الحسين وارث الرسول وعلي (ع) بأن يتخلى عن وعيه النضالي ويلجـأ الى زوايا المعابـد تاركـاً للجاهلية الجديـدة ان تستفحل في بـطشها بقيم الحق والعـدل والحـرية، فلم يكن أمـامه الا الثـورة وبدونها لا يكـون سبطاً للرسـول وممثلاً لقيم الاسلام، وقدره ان يكون شهيداً وابنا لأكرم الشهداء وأباً لمئات الشهداء، وكـانت شهـادته المثـل الأعلى لهم ولجميـع الاحرار الـذين ناضلوا من أجـل الحق والعـدل والمستضعفين في الارض من الرجال والنساء.

وقد حاول معاوية ان يقيد الحسين ببيعة يزيد فلم يظفـر بذلـك ولا بسكوتـه عنه، فلقد جـاء في المجلد الثاني من حياة الامام الحسن (ع) للقـرشي عن الكتاب المنسوب لسليم بن قيس ان الحسين (ع) وفد على مكة حاجا قبل وفاة معاويـة بسنة فجمـع بني هاشم رجـالا ونساء ومن حـج في تلك السنة من الانصـار ممن يثق بهم الحسـين ويطمئن اليهم، وطلب من أصحـابـه ان يجمعـوا لـه من حـج أيضـا من الصحابة، فاجتمع اليه بمنى كما يدعي الراوي نحواً من سبعمائة فقام فيهم خـطيباً واستعـرض أحـداث معـاويـة ومـواقفـه من الاسـلام والمسلمـين ومن اهـل البيت وشيعتهم وعدّ بيعته ليزيد من أعظم الأحداث التي ارتكبها معاوية وما ترك شيئاً مما أنزله الله من القرآن الا وتلاه عليهم ولا شيئاً مما جاء عن رسول الله (ص) في ابيه وأخيـه وأمه وفيـه الا ورواه لهم وكان الصحـابي يقول: نعم لقـد سمعنا ذلـك من رسول الله، والتابعي يقول: لقد حدثنا بذلك الثقـاة من أصحابـه، ثم دعاهم الى مناهضة حكم معاوية والاطاحة بسلطانه[1].

ويروي المؤرخون له عدداً من المواقف مع معاوية حينما أخذ يمهد لبيعة ولـده والاستجابة لها وكان من جملتها جوابه عن كتاب كتبه اليه بهذا الخصوص جاء فيه:

(١) أنظر ص ٤٢٤ و ٤٢٥ من المجلد الثاني حياة الإمام الحسن.

وقد فهمت ما ذكرت عن يزيد وكماله وسياسته لأمة محمد (ص)، تريد ان توهم الناس في يزيد كأنك تصف محجوباً او تنعت غائباً أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص، وقد دل يزيد من نفسه على موضع رأيه فأخذ يزيد فيما اخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش والحمام السبق لأترابهن والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده باصراً ودع عنك ما تحاول فما أغناك ان تلقى الله في وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية وما بينك وبين الموت الا غمضة[1].

واستمر الحسين (ع) على موقفه من بيعة يزيد والتشهير بمعاوية وأحداثه وتحريض المسلمين على مناهضتها وكان فيما استعمله معاوية من وسائل الضغط على الحسين (ع) انه منع بني هاشم من عطائهم حتى يبايع الحسين (ع)، فلم تُجْدِه هذه المحاولة ومات معاوية والحسين لا يزال على موقفه منها وكان غيره من بعض وجوه الصحابة قد امتنع عن بيعة يزيد تأسيا بالحسين (ع)، وكما ذكرنا من قبل فان يزيداً لم يكن كأبيه في حزمه واحتياطه للأمور ولم يلتزم أسلوب أبيه في الاحتفاظ بالغشاء الديني الذي كان معاوية يسدله على أفعاله وتصرفاته، فلما هلك معاوية كان أكبر همه حين آل الامر اليه ان يلزم الحسين ومن كان قد تخلف عن بيعته من وجوه الصحابة بالبيعة فكتب الى الوليد بن عتبة والي المدينة كتاباً يخبره بموت أبيه وكتاباً آخر يقول فيه[2]:

أما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وابن الزبير بالبيعة أخذاً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام، وعندما وصله الكتاب استدعى الحسين (ع) اليه ليلاً فعرف الحسين مراده فأوعز الى جماعة من اخوته وبني عمه ان يرافقوه حتى اذا اشتدت الخصومة بينه وبين الوالي وأراد ان يستعمل العنف معه يستعين بهم، وعندما دخل على الوليد اخبره بموت معاوية وعرض عليه كتاب يزيد بخصوص البيعة اراد الحسين (ع) كما يبدو من جوابه ان يتخلص منه بالحسنى فقال له: مثلي لا يبايع سراً فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم لها أرجو ان يكون امرنا واحداً، وكما يبدو من موقف الوليد مع الحسين انه كان يتمنى الخلاص وعدم التورط مع الحسين (ع) في خصومة تسيء اليه او تجر من ورائها القتال فاقتنع بجواب الحسين ولم يبد أية ملاحظة عليه. ولكن مروان بن الحكم أبت له أمويته الحاقدة ان يخرج الحسين

(١) المجلد الأول من الإمامة والسياسة ص ١٩٥ و ١٩٦.
(٢) أنظر ابن الأثير والبلاذري وغيرهما من مجاميع التاريخ.

(ع) من مجلس الوالي مكرماً كما دخل فحاول استفزاز الوالي وشحنه على الحسين (ع) وقال: لئن فارقك الحسين ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، ولكن احبسه فان بايع والا فاضرب عنقه.

وهنا لم يعد أمام الحسين في مقابل هذا التحدي الصارخ الا ان يعلن عن موقفه من يزيد وحكومته وعن تصميمه على الثورة على الحكم الاموي الجديد مهما كانت النتائج ومهما بلغت التضحيات وانه اصبح وجهاً لوجه أمام دوره التاريخي الذي يتحتم عليه ان يصنعه، لأن حكومة يزيد لن تأخذ صفة الشرعية ما دام ممتنعا عن البيعة ومعارضاً لها.

فوثب عند ذلك وقال: ويلي عليك يا ابن الزرقاء انت تأمر بضرب عنقي كذبت ولؤمت، ثم أقبل على الوليد وقال: ايها الامير انا اهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا ختم ويزيد رجل فاسق فاجر شارب للخمر وقاتل للنفس المحترمة معلن بالفسق والفجور ومثلي لا يبايع مثله.

وجاء في مثير الاحزان لابن نما الحلي ان الوليد بتحريض من مروان رد عليه بلغة تتسم بالغلظة والحدة وارتفعت أصواتهم فهجم من كان مع الحسين (ع) على باب الوليد وبيدهم الخناجر وأخرجوا الحسين (ع) من منزله، فقال مروان بن الحكم للوليد: لقد عصيتني فوالله لا يمكنك من مثلها أبداً، فرد عليه الوليد بقوله، (كما جاء في صفحة ١٩ من المجلد السادس للطبري): ويح غيرك يا مروان لقد اخترت لي ما فيه هلاك ديني أقتل حسيناً ان قال لا ابايع يزيدا، والله ان امرأ يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان يوم القيامة ولا ينظر الله اليه ولا يزكيه وله عذاب أليم.

وجاء في تاريخ ابن عساكر ان أسماء بنت عبد الرحمن بن الحارث زوجة الوليد انكرت عليه ما جرى منه مع الحسين (ع) فأجابها بأنه قد كان البادىء بالسب والشتم، فقالت له: أتسبه وتسب أباه ان سبك؟ فقال لها: لا اعود لذلك ابداً[1].

وفي صبيحة ذلك اليوم التقى مروان بن الحكم بالحسين (ع) فنصحه ببيعة يزيد وقال له فيما قال: انها خير لك في دينك ودنياك، فرد عليه الحسين (ع) قائلاً: على الاسلام السلام اذا بليت الامة براعٍ مثل يزيد بن معاوية، ولقد سمعت

(١) أنظر ج ٤ من تاريخ ابن عساكر ص ٢٢٨.

جدي رسول الله (ص) يقول: الخلافة محرمة على آل ابي سفيان فاذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه، فانصرف عنه مروان مغضباً ولقد تساهلت الامة مع معاوية فابتليت بمن هو اسوأ منه[1].

لقد أعلن الحسين ثورته على يزيد ودولته بتلك الكلمات التي وجهها الى الوالي المكلف بتوطيد دعائم حكمه في الحجاز وفي مدينة الرسول عاصمة الاسلام بالذات، ولم يكن الوالي يحسب ان الحسين (ع) سيعلنها في مجلسه بتلك الصراحة وفي المجلس من هم أشد عداء لمحمد وآل محمد ولرسالة محمد من يزيد وأبيه.

ان فيه الوزغ ابن الوزغ طريد رسول الله الذي لا يستطيع ان يزيح عن قلبه ونفسه تلك العقد الدفينة التي خلفتها معاركهم مع الاسلام وانتصاراته التي ارغمتهم على التظاهر به مكرهين وما تلا ذلك من إبعادهم عن المدينة الى مكان مقفر من بلاد الطائف وتحريض المسلمين على مقاطعتهم ردا على ايذائهم للنبي (ص) وتجسسهم عليه وهو في بيته مع أهله ونسائه.

هذا الموقف من الحسين (ع) وما تلاه من المواقف الاخرى والتي كان من جملتها موقفه مع مروان بن الحكم وهو ينصحه ان يبايع يزيدا، والذي رد عليه فيه بقوله: على الاسلام السلام اذاابتليت الامة براع مثل يزيد بن معاوية، وقوله: ان الخلافة محرمة على آل ابي سفيان، كل هذه المواقف الحسينية تشكل إعلانا صريحا لتصميمه على الثورة ومناهضة الحكم الاموي بقيادة يزيد بن معاوية مهما بلغ حجم التضحيات في سبيلها، وقد بلغت مواقفه هذه يزيداً بأقصى ما يمكن من السرعة بواسطة جواسيسه والامويين الذين كانوا يفاوضونه ويراقبون جميع تصرفاته وحتى أنفاسه.

ويزيد بن ميسون مع انه كان سيئة من سيئات ابيه الذي كان المسؤول عن جميع جرائمه لم يكن مثل ابيه في ترويه وحزمه واحتياطه، ولم يلتزم طريقته في تعاطيه للمداورة والمراوغة والمداجاة التي كانت من ابرز صفاته، كما وانه كان مستهترا الى ابعد حدود الاستهتار فلم يبال بما يسمونه ديناً وإسلاماً ولا بذلك الغشاء الذي كان أبوه يتستر به ويسدله على أفعاله وجرائمه أحيانا، وكان مع ذلك مسيراً لنزقه ولكل نزعاته وميوله بدون تقدير وتفكير لما ينجم عن ذلك من النتائج، ويتظاهر بالكره والعداء للهاشميين والعلويين منهم والانصار من صحابة الرسول (ص).

(١) أنظر اللهوف ومثير الأحزان ومقتل الخوارزمي.

ولم يستطع ان ينسى ثارات عائلته ولا ان يزيح عن قلبه تلك العقد الدفينة التي تراكمت في نفسه لفقد أخواله وعمومته وسراة قومه في حروبهم للاسلام التي انتهت باذلال أمية وقريش وقتل قادتها واستسلام الامويين والقرشيين لمحمد وأنصاره الى غير ذلك من الصفات والنزعات التي غلبت عليه واشتهر بها، وقد ورث اكثرها من تربيته البدوية ونشأته في أحضان امه ميسون المغرقة في البداوة التي اشتهر عنها انها كانت تفضل الخيام على القصور والخبز اليابس على الموائد الشهية التي تُصنع في قصر الخضراء للانصار والمحاسيب ولباس الاعراب على الحرير والديباج، وكان الاخذ بالثأر ولو طال الأمد من أبرز صفاتهم ولا يتنازلون عنه ولو بعدت المسافة وطال الأمد كما قيل.

ومن غير المستبعد ان تكون تلك المجزرة الرهيبة التي خطط لها ابن ميسون وأمر جلاديه بتنفيذها في كربلاء مع العلويين وأنصارهم، وما ارتكبه في واقعة الحرة مسلم بن عقبة بأمره وتوجيهاته مع الانصار من قتل ونهب وإباحة لأعراض المهاجرين والانصار للتنفيس عما كان في قلبه من كره دفين للعلويين والانصار الذين وتروه في أعمامه وأخواله وسراة قومه في بدر وغيرها من المعارك التي خاضوها ضد الاسلام لحماية الشرك والوثنية.

ويدّعي الرواة الذين أحصوا ما جرى على المسلمين في المدينة من انتهاك للحرمات ونهب للاموال والممتلكات وقتل وتشريد وهم يقصون أخبار تلك المعركة انه قتل فيها ثمانون من الذين شهدوا بدراً مع النبي (ص) أي من الذين أذلوا قريشاً وجبابرتها كما أشرنا الى ذلك في الفصول السابقة[1].

ومهما كان الحال فهذه المواقف التي اعلنها الحسين (ع) من بيعة يزيد قد بلغت يزيداً في حينها وأفقدته صوابه ومضى يعمل بما يوحيه اليه نزقه ونزعاته للتخلص من الحسين قبل ان يخرج من المدينة ويستفحل خطره فدسّ رجالاً من جلاديه لقتله في المدينة قبل ان يغادرها الى العراق أو أي بلد آخر كما جاء ذلك في كتاب أورده اليعقوبي في تاريخه من ابن عباس الى يزيد بن معاوية، وفي الكتاب اشارة صريحة الى ان يزيد قد دسّ رجالاً لهذه الغاية[2]، ولعل ذلك هو ما حدا

(١) أنظر ص ١٣٦ من الأدب الجاهلي لطه حسين.
(٢) أنظر ص ١٤٠ من ثورة الحسين للعلامة محمد مهدي شمس الدين وكتاب حياة الإمام الحسن للقرشي ولعلنا سنتعرض لبعض نصوص الكتاب في محلها.

بالحسين (ع) ان يغادر المدينة مع بنيه وأخوته وبني عمومته من آل ابي طالب ونسائه الى مكة ويفوّت على يزيد بن ميسون وحفيد هند آكلة الاكباد ما كان يخطط لـه من اغتيـال الحسين (ع) وإجهـاض ثورتـه وهي لا تزال في مـراحلها الاولى وقـد اختار لنفسه مكة المكرمة وهـو في طريقـه الى الشهادة على تراب كـربلاء، لان المسلمـين كانوا يتوافدون اليها في الاشهر الاخيرة من كل عـام للعمرة وللعبـادة وأداء فريضـة الحج.

لقد اختار مكة في المرحلة الاولى من مـراحل هجـرته ليجتمـع بمن يؤمها من مختلف الامصـار ويضـع بـين أيـديهم ذلـك المصـير الاسـود الـذي يتخبـطون فيـه والاخطار المحدقة بالاسلام من دولة أبي سفيـان العدو الاكـبر لمحمد ورسـالته ومـا عزم عليه من الثورة والتضحية لإنقاذ الامة وشريعة جده من أولئك الجلادين أحفاد ابي سفيان والحكم بن العاص طريد الاسلام وغيرهم من مـردة الامويـين والمرتـزقة حتى ولو كلفته حياته وحياة بنيه وأخوته وجميع أسرته.



الحسين يعلن اسباب الثورة وأهدافها

وكان قبل خروجه من المدينة قد أعلن عن أهدافه من الثورة في وصيته لاخيه محمد بن الحنفية الذي جاءه متخوفاً عليه من غدر أهل الكوفة وتخاذلهم كما صنعوا مع أبيه وأخيه من قبله، وكان مما قاله له: تنح عن بيعتك ليزيد وعن الامصار ما استطعت، وابعث رسلك الى الناس فان بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وان اجتمعوا على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك.

ومضى في حديثه معه يقول: إني اخاف عليك أن تدخل مصراً من هذه الأمصار فيختلف الناس ويقتتلون فتكون لأول الأسنة غرضاً، فاذا خير هذه الامة كلها نفساً وأما أضيعها دما وأذلها أهلاً، وبالتالي أشار عليه ان ينزل مكة ويدعو الناس اليه واذا لم يجد منهم ما يرضيه لحق بالرمال وشعوب الجبال الى ان يحكم الله بينه وبين القوم الظالمين.

بهذه المناسبة أوصى الامام أخاه محمد بن الحنفية وجاء في وصيته اليه: اني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن ردّ علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين قومي بالحق وهو خير الحاكمين.

فالحق والاصلاح في أمة جده كانا هدفه الاول والاخير من ثورته وعلى اساسها يدعو المسلمين لنصرته والوقوف الى جانبه في ثورته على الظلم والجور والطغيان لا على اساس مكانته في نفوسهم أو قرابته القريبة لرسول الله (ص) لان

مناصرتهم له على هذا الاساس تكرّس النزعة القبلية التي حاربها الاسلام وأعادها الامويون بأقبح صورها وأشكالها.

لقد كانت سنة احدى وستين مسرحاً لصراع عنيف بين إرادتين، إرادة الحق والخير وإرادة الشر والطغيان والباطل. تمثلت الاولى في شخصية عظيمة خرجت من بيت علي وفاطمة وأضفت عليها القداسة هالة من الاشعاع كأنه إشعاع الفجر المنبلج في كبد الظلام الدامس. وتمثلت الثانية منهما وهي إرادة الشر والطغيان والوثنية في رجل أقل ما يقال فيه انه ربيب للشرك وحفيد لابي سفيان عدو الاسلام ولزوجته هند آكلة الاكباد.

والأول منهما هو الامام الحسين سبط الرسول الاعظم وشبل علي بن ابي طالب بطل الاسلام الخالد وابن الزهراء سيدة نساء العالمين والوريث الوحيد في تلك الفترة من تاريخ الاسلام لرسالة جده وللثورة التي فجّرها جده وواصلها ابوه وأخوه.

والثاني منهما هو يزيد بن معاوية النابت في تربة سبخة من ارض موات انبتت أخبث شجرة كان بنو أمية من نتائجها ويزيد من فروعها.

ولقد عكست ثورة الحسين (ع) التي شهدت مأساتها ارض كربلاء اثر كلا الجانبين وتلكما الارادتين. الارادة الخيرة الهادفة للاصلاح واستئصال الشرك والوثنية المتمثلة في الحسين وصحبه الابرار، والارادة الثانية الشريرة الهادفة للفساد وسفك الدماء واستعباد الصلحاء والاحرار واعادة الجاهلية بكل أشكالها ومعالمها التي كان يمثلها ابو سفيان وأبو جهل وغيرهما من طواغيت قريش.

لقد وقف الحسين أعزل لا يملك جنداً ولا سلاحاً ولا ذهباً غير نفسه ليموت هو ومن معه في سبيل الحق والمثل العليا وليعلم الناس كيف يموتون من اجل الانسان وحريته وكرامته.

لقد اعلن ثورته الحمراء قبل ان يغادر مدينة جده الى ارض الشهادة ووقف في وجه دولة جبارة تخضع لنفوذ ملك ظالم جبار يحتل الصدارة في قائمة الطغاة والسفاحين والمجرمين في مختلف العصور رافضاً الخضوع والاستكانة لحكم ذلك الذئب الكاسر والمتمثل في هيكل انسان يسميه الناس يزيد.

لقد اعلن ثورته على تلك الدولة الجبارة وقال: على الاسلام السلام اذ ابتليت الامة براع مثل يزيد بن معاوية، وان رسول الله قال: اذا رأيتم معاوية

على منبري فابقروا بطنه، بعد ان وجد نفسه مسؤولا عن حراسة ثورة جده التي اخذت دعائمها تنهار تحت ضربات بني أمية وأعوانهم وفقدت اكثر قواعدها وأكثر قلاعها وآخر قيمة من قيمها، ولم يبق من تراث جده وأبيه وأخيه الذي يشكّل وجه الاسلام والحق والعدل الا غطاء شفاف يتستر به الحاكمون لتغطية جورهم واستهتارهم بالقيم والمقدسات.

ومضى في طريقه الى ثرى الطف لا يملك من الاسلحة التي تقض مضاجع الظالمين سوى دمه ودماء ذويه من بنيه واخوته وانصاره ليقدمها قرابين لله وللدين ما دامت الانسانية حية تحتضن الاجيال على مدى العصور معلنا ان الحق والعدل وكرامة الانسان فوق ميول الحاكمين ولا سبيل لاحد عليها، وهو على ثقة بأن تلك القرابين ستكون صرخة مدوية في أعماق التاريخ تقضّ مضاجع الامويين وغيرهم من الظالمين ويحتضنها الثائرون على الظلم والجور جيلا بعد جيل الى ان يرث الله الارض ومن عليها.

وكانت مكة المكرمة هي المرحلة الاولى من المراحل التي مرّ بها في طريقه الى ثرى الطف بعد ان توافرت لديه الدلائل على ان يزيد بن معاوية قد اوعز الى جلاديه باغتياله اما بواسطة جنود العسل التي كان والده يتباهى باستعمالها للتخلص ممن يخاف منهم على دولته او بغيرها من وسائل الفتك والاجرام ليعلن منها على تلك الحشود التي توافدت على مكة في ذلك العام بين حاج ومعتمر وشهدت عدداً لم تعرف له مثيلا من قبل بعد ان شاع نبأ امتناع الحسين (ع) عن البيعة والتجائه اليها للإعداد للثورة ليعلن منها تصميمه على المضي في الثورة مهما كانت التضحيات، وكان عبدالله بن الزبير قد دخلها قبل الحسين بأيام معدودات فتجاهله الناس بعد ان دخلها الحسين (ع).

وجاء في البداية والنهاية لابن كثير ان الناس لم يتعرفوا على ابن الزبير وعكفوا على الحسين يفدون عليه ويجلسون حواليه يستمعون الى كلامه فينتفعون بما يسمعون ويضبطون مايروون عنه فاضطر ابن الزبير ان يلازم مجلسه مع الناس ولم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز ولا أحب اليه من خروجه منه طمعا في الوثوب بالحجاز وهو يعلم بأنه ليس باستطاعته ان يحقق شيئا من أطماعه ما دام الحسين موجودا في الحجاز.[1]

(١) كما جاء ذلك في مقاتل الطالبيين والأنساب للبلاذري والإرشاد للشيخ المفيد.

لقد انصرف المسلمون عن ابن الزبير وتجاهلوه بمجرد ان وطئت قدما الحسين مشارف مكة المكرمة لانهم يعرفون ابن الزبير وأطماعه ويعلمون بأنه لم يعارض يزيد ولم يمتنع عن بيعته من اجل الاسلام والمعذبين والمضطهدين وانه لا يختلف عن غيره من ذوي الاطماع واذا قدر له ان يستلم السلطة في الحجاز او غيره من المناطق الاسلامية فسيمارس الجرائم نفسها التي يمارسها حفيد ابي سفيان وهند آكلة الاكباد اذا اقتضت مصلحته ذلك، ولا تزال مواقفه من امير المؤمنين في البصرة وغيرها ماثلة لهم، ويعلمون ان الحسين هو الوريث الشرعي لثورة جده وأبيه وأخيه على الوثنية والجاهلية ويعلمون بأنه لم يقف هذا الموقف من يزيد وأبيه الا لمصلحتهم ومصلحة الاسلام ولم يقدم على التضحية بنفسه وبنيه واخوته وأبناء عمومته من أجل الملك والسلطان لان طلاب الملك والسلطة لا يقدمون على الانتحار، ولم يقف احد منهم الى جانب ابن الزبير في الحجاز بعد استشهاد الحسين (ع) الا لاعتقادهم بأنه أهون الشرين اذا قيس بالامويين، ولكنه خيّب آمالهم وأمانيهم ومارس على الامة والعلويين الضغوط والاساليب نفسها التي كانوا يمارسونها وبلغ به الحقد على العلويين انه ترك ذكر النبي (ص) والصلاة عليه في خطبة الجمعة وحينها أنكر عليه المسلمون ذلك قال: ان له أهيل سوء اذا ذكرته شمخوا بأنوفهم، الى غير ذلك من مواقفه.

لذلك كله فقد انهال الناس على الحسين (ع) خلال الأشهر الأربعة التي أقامها في مكة لانه رجل الساعة ووجد ابن الزبير نفسه في عزلة تامة عن الناس فكان يتردد على الحسين كغيره ويتظاهر باستعداده لمناصرته، وفي الوقت ذاته كان يستغل المناسبات ليرجح له التجاوب مع أهل العراق الذين كانوا يتوافدون عليه ويراسلونه بين الحين والآخر وانه سيتولى الدعوة اليه في الحجاز ومساندته.

وكان الحسين (ع) يعي كل أهدافه ويعرف ما ينطوي عليه من الحقد والعداء لعلي وآل علي وقال يوما لجلسائه: ان ابن الزبير ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحب اليه من ان أخرج من الحجاز الى العراق وقد علم بأنه ليس له من الامر معي شيء وان الناس لن يعدلوه بي فودّ أني لو خرجت منها لتخلو له.[1]

وقال له ابن عباس وهو يحاوره في الخروج الى العراق ويحذره من غدرهم وتخاذلهم عن نصرته كما فعلوا مع أبيه وأخيه، قال له بعد ان وجده مصرا على

(١) المجلد الرابع من الطبري ص ٢٨٨ والكامل لابن الأثير وأنساب الأشراف.

الخروج: لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك اياه والحجاز والخروج منها وهو اليوم لا ينظر اليه أحد معك.

وكان الحسين (ع) يستغل المناسبات ليكشف للملأ الاسلامي عن الدوافع والاسباب التي حملته على الخروج الى العراق ومناهضة الحكم الاموي بقيادة يزيد ابن ميسون الخليع المستهتر ففي مكة المكرمة وقبل ان يخرج منها بأيام قلائل وقف في حشد من المسلمين فحمد الله وصلى على رسوله ثم قال: خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة وما اولهني الى أسلافي اشتياق يعقوب الى يوسف وخير مصرع انا لاقيه الى ان قال: أفلا ترون الى الحق لا يعمل به والى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقا، ألا ومن كان باذلا فينا مهجته موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فاني راحل مصبحاً ان شاء الله.

وفي طريقه الى كربلاء حينما التقى مع الحرّ الرياحي وكان قد سيّره ابن زياد في الف فارس من أهل الكوفة ليشرف على موكب الحسين وتحركاته ويحمله على دخول الكوفة، وكان قد علم بتخاذل أهل الكوفة ومصرع ابن عمه مسلم بن عقيل وحينها حاول الحر ان يفرض على الحسين ان يسير بموكبه تحت إشرافه وقف الحسين عليه السلام وقال:

أيها الناس ان رسول الله (ص) قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً لعهد الله، مخالفا لسنّة رسول الله يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير ما عليه بفعل أو قول كان حقا على الله ان يدخله مدخله، الا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحق من غير وبدل، وقد اتتني كتبكم وقدمت علي رسلكم ببيعتكم وانكم لا تسلموني ولا تخذلوني فان بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فاني الحسين بن فاطمة بنت رسول الله (ص) نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم. وان نقضتم عهودكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم فحظكم اخطأتم ونصيبكم ضيّعتم ومن نكث فانما ينكث على نفسه[1].

لقد كشف لهم عن الاسباب التي فرضت عليه ان يثور ويضحي بنفسه وبمن معه من أهله وأنصاره بصفته مسؤولاً عن حماية الاسلام من التحريف والتشويه

(١) أنظر المجلد الرابع من تاريخ الطبري والكامل لابن الأثير وغيرهما من المجاميع.

وعن حقوق الامة ومقدراتها وكرامتها كما يشعر بذلك قوله: وأنا أحق من غيَّر اي انه أحق بمقاومة من غير وبدل من جميع المسلمين وأعاد الامور الى نصابها.

وفي طريقه الى كربلاء كان يكشف لمن يلتقي بهم وينصحونه بأن يعيد النظر في موقفه من الحاكمين ولا يغتر بأهل الكوفة ومواعيدهم كان يكشف عن اسباب ثورته ومبرراتها التي تفرض عليه ان يقف من السلطة هذا الموقف، وفي اليوم العاشر من المحرم وقبل ان تحتدم المعركة وقف بين الصفين وطلب من القوم ان ينصتوا لحديثه ويستمعوا لقوله فتكلم وأسهب في حديثه واستعرض مواقف أهل الكوفة مع أبيه وأخيه وطاعتهم العمياء ليزيد وأبيه بدون مقابل سوى خسيس عيش كالمرعى الوبيلِ ووصفهم بما يليق بهم من الغدر ونقض الوعود والمواثيق وتحريف الكتاب والسنّة وما الى ذلك من جرائمهم، وانتهى الى القول الا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وجدود طابت وحجور طهرت وأنوف حمية ونفوس أبية لا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ثم قال: الا واني قد اعذرت وأنذرت واني زاحف بهذه الاسرة مع قلة العدد وكثرة العدو وخذلان الناصر، وعقّب على ذلك بقوله:

فان نهزم فهزامون قدماً	وان نُغلب فغير مغلبينا
وما ان طبنا جبن ولكن	منايانا ودولة آخرينا
اذا ما الموت رفع عن اناس	كلاكله اناخ بآخرينا
فأفنى ذلكم سروات قومي	كما افنى القرون الغابرينا
فلو خلد الملوك اذن خلدنا	ولو بقي الكرام اذن بقينا

وخلال إقامة الحسين (ع) بمكة كانت تعج بوفود الكوفة وكل وفد يحمل معه عشرات الرسائل من عشائرها وزعمائها يطلبون اليه الاسراع في التوجه اليهم حتى اجتمع عنده مائة وخمسون كتاباً، وقال بعض المؤرخين ان كتبهم بلغت اثني عشر الف كتاب، وقيل انها كانت في خرجين مملوءين من كتبهم ورسائلهم كما تشير ذلك رواية الطبري والكامل لابن الاثير وأعلام الورى. وجاء فيها ان الحسين (ع) لما التقى بالحر ومن معه وذكرهم بكتبهم اليه ردوا عليه بقولهم: والله ما ندري ما هذه الكتب التي تذكر؟ فقال الحسين لعقبة بن سمعان: اخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم الي، فأخرج خرجين مملوءين كتباً فنشرها بين أيديهم.

وبلا شك فان يزيد بن معاوية كان على صلة بكل ما يجري وما يحدث وكما حاول اغتيال الحسين في المدينة فقد حاول اغتياله في مكة، فقد جاء في مقتل الحسين لعبد الرزاق المقرم ان يزيد بن ميسون قد استغل موسم الحج لهذه الغاية فأرسل عمر بن سعيد في جماعة من جلاديه وولاه امر الموسم كما كانت العادة وأمره بالفتك بالحسين أينما وجده حتى ولو كان في الكعبة، وحينما علم الحسين بذلك خرج من مكة يوم التروية في الثامن من ذي الحجة ويؤكد ذلك قوله لاخيه محمد ابن الحنفية وهو يحاوله ان يبقى في مكة: لقد خفت ان يغتالني يزيد في الحرم فأكون الذي تستباح به حرمة هذا البيت.

وحاول ابن عباس وعبدالله بن جعفر وابن عمر وجماعة من أعيان الصحابة والتابعين معه ان يعيد النظر في تحركه نحو العراق فلم يستجب لطلبهم وقال له ابن عباس وابن الحنفية: اذا كنت لا بدّ فاعلاً فلا تأخذ معك أحداً من حرمك ونسائك وأطفالك فإنّا نخاف عليك ان تقتل وهم ينظرون اليك فلم يستجب لطلبهم، وكان رده الاخير على محاولاتهم: لقد أمرني جدي رسول الله (ص) بأمر وأنا ماضٍ فيه، وفي بعض الروايات: لقد شاء الله ان يراني قتيلا وأن يرى حرمي ونسائي سبايا، وخرج من مكة في اليوم الثامن من ذي الحجة سنة ستين من هجرة الرسول الى المدينة بعد ان طاف وسعى وأحل من إحرامه والناس يخرجون بثياب الاحرام الى عرفة لاتمام أركان الحج وشروطه، وكانت هجرته فرار من الموت الخاطف الذي خطط له حفيد أبي سفيان، والذي لا يستفيد منه سوى ابن ميسون ودويه من الامويين ولن يخدم الإسلام بشيء، وكل ما في الأمر ان قتله على ذلك النحو يثير الأسى والألم في قلوب أهله وأسرته ومحبيه الى حين، ثم يطوي النسيان ذكراه كما يطوى جميع الذكريات.

لقد هاجر قبل ان يتم حجه فراراً من الموت العاجل الى الشهادة التي تنتظره على صعيد الطف بعد ثلاثين يوماً أو تزيد من تاريخ هجرته والتي اقضت مضاجع الظالمين وزعزعت عروشهم وفوتت على أحفاد أمية الكثير من مخططاتهم المعادية للاسلام كما كانت هجرة جده الرسول الأعظم من مكة الى يثرب فراراً من الموت الذي خطط له ابو سفيان وطواغيت قريش قبل ستين عاماً للقضاء على الاسلام بموته وقدمت الهجرتان للإسلام وللإنسانية مغانم لا تحصى وان اختلف منحاهما وسبيلهما.

هجرتان في صدر الاسلام

هجرتان في صدر الاسلام يجمعهما هدف واحد وغاية واحدة، الاولى منهما كانت فرارا من الموت الذي استهدف رسالة محمد (ص) بشخصه وقد نفذها بأمر من ربه على النحو الذي تمت عليه لتسلم له رسالته من اعدائها مشركي مكة وعلى رأسهم الحزب الاموي الذي كان من أنكد خصومها وألد اعدائها، والثانية قام بها سبطه الحسين بن علي (ع) للشهادة بعد ان ادرك ان الاخطار المحدقة برسالة جده من الحزب الاموي الحاكم لا يمكن تفاديها وتجاوزها الا بشهادته فهاجر من المدينة التي احتضنت جده ورسالة جده بالأمس ومنها انطلقت الى جميع انحاء العالم، الى مكة ومنها الى مصرعه في كربلاء ولسان حاله يقول:

ان كان دين محمد لم يستقم الا بقتلي يا سيوف خذيني

لقد هاجر رسول الله (ص) من مكة الى يثرب لأجل رسالته بعد ان تآمرت قريش على قتله للتخلص منها وبعد ان وجدت ان جميع وسائل العنف التي استعملتها معه وجميع المغريات التي بذلتها له على اختلاف أصنافها وألوانها لم تغير من موقفه شيئاً وكان رده الاخير على عروض ابي سفيان وأبي جهل ومغرياتهما، والله لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الامر او اموت دونه.

وعادت قريش تخطط من جديد للقضاء على رسالته ولو من خلال القضاء عليه لاسيما بعد ان توالت لديها الاخبار بأنه سيتخذ من يثرب مقرا لدعوته وانها ستكون من اعظم معاقلها ومنها ستنطلق الى العالم بأسره فاجتمع قادتها في مكان يعرف بدار الندوة يتداولون في امره، ويتبادلون الرأي في الاسلوب الذي يخلصهم

منه، واقترح بعضهم ان يضعوه في بيت من البيوت مكبلا بالحديد الى ان يأتيه أجله، كما اقترح آخرون ان يطرد من مكة ليتحمل غيرهم من العرب مسؤولية قتله، الى غير ذلك من الاراء التي لم تحظ بموافقة الجميع او الاكثرية، وأخيرا اتفق الجميع على قتله على ان تشترك جميع القبائل في ذلك بأن تختار كل قبيلة فتى من خيرة فتيانها ويتولى اولئك الفتيان تنفيذ هذه المهمة لكي تتوزع المسؤولية على الجميع اذا طالب الهاشميون بدمه واتفقوا على الزمان الذي يتم فيه التنفيذ، وما ان تم هذا الاتفاق حتى اخبر الله نبيه بكل ما جرى في اجتماعهم بالآية:

﴿واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾.

والذي تعنيه الآية ان الله سبحانه قد فوّت عليهم تنفيذ هذه المؤامرة وأخبر رسوله بها وأمره بالخروج من مكة في ظلام الليل وأن يأمر علياً بالمبيت على فراشه قبل خروجه ليوهمهم بأنه لا يزال في الفراش واستقبل علي (ع) هذا التكليف بالارتياح عندما علم بأن النبي (ص) سيسلم من تلك المؤامرة وهانت عليه الحياة في هذا السبيل، وقال للنبي: أوتسلم يا رسول الله ان فديتك بنفسي؟ فقال له: نعم بذلك وعدني ربي، فرحب (ع) بذلك وتبدد ما كان يساوره من خوف وقلق على النبي وتقدم الى فراشه في تلك الليلة التي أعدت لتنفيذ المؤامرة مطمئن النفس رابط الجأش ثابت الفؤاد واتشح ببرده الحضرمي الذي اعتاد ان يتشح فيه. هذا والقوم ينظرون من نوافذ البيت الى فراش النبي فيرون فيه شخصا يظنونه النبي (ص) وعندما حان الوقت وتقدموا الى فراشه للتنفيذ قفز علي (ع) من الفراش كالمارد مسلطاً سيفه فانهزموا بين يديه كما تنهزم المعزى اذا شدت عليها الذئاب وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا شيئاً.

وتمت الهجرة في جوف الليل وفي ظلامه الدامس من مكة الى الغار ومنه الى يثرب كما فصلناها في كتابنا «سيرة المصطفى» في السادس من ربيع الاول بعد مضي ثلاثة عشر عاما على بعثته، وهذا الوقت قد اعتمده المسلمون تاريخاً لهم في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب على أثر خصومة بين اثنين في دين يدعي الدائن استحقاقه في شعبان بموجب سند بيده، والتفت الخليفة الى الدائن قائلاً: أي شعبان هذا أشعبان هذه السنة او التي بعدها؟ ولم يكن للمسلمين حينذاك تاريخ يخصهم فكان بعضهم يؤرخ بعام الفيل وبعضهم بحرب الفجار وأكثرهم كانوا يعتمدون تواريخ الدول المتاخمة لحدود الحجاز.

واختلفت آراء الصحابة في الزمان الذي يعتمدونه لتاريخهم وكادوا ان يتفرقوا من غير ان ينتهوا الى نتيجة حاسمة لولا ان علياً قد حسم نزاعهم باقتراحه لهجرة الرسول من مكة الى المدينة فأعجب ابن الخطاب برأيه وهتف قائلاً: لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها ابو الحسن واقترن رأيه هذا باعجاب الحضور وإجماعهم عليه، لأن هجرة الرسول (ص) كانت نقطة الانطلاق لانتصار الاسلام على الشرك والوثنية، وحدثاً تاريخياً لا يزال من الأحداث البارزة في تاريخ الدعوة ان لم يكن أبرزها.

ولم يحدّث التاريخ عن المسلمين الأوائل انهم اعتبروا أول محرم أول يوم من أيام السنة الهجرية ولا عيدا من أعيادهم، والظاهر ان هذا لم يحدث الا بعد مقتل الحسين وبعد ان اعتبر شيعة أهل البيت الأيام الأولى من شهر المحرم أيام حزن على الحسين ومن قتل معه من أهله وأصحابه فاعتبرها في المقابل أعداء الشيعة من الامويين وغيرهم بداية للسنة الهجرية وعيدا من اعياد المسلمين، ولا يزال المسلمون ومع الأسف الشديد يعتبرون أول يوم من شهر المحرم عيدا من أعيادهم.

ومهما يكن الحال فلقد كانت هجرة النبي من مكة الى المدينة في السادس من ربيع الاول، وفي اليوم الثاني عشر كان النبي في المدينة وأنقذه الله سبحانه من تلك المؤامرة الدنيئة التي استهدفت حياته ورسالته وحاك خيوطها شيخ الامويين يومذاك ابو سفيان بن حرب للقضاء على الرسالة التي غيرت مجرى التاريخ، وسلم محمد لرسالته التي ارغمت ابا سفيان وطواغيت قريش بعد سنوات قليلة من تلك الهجرة على الاستسلام بقلوبهم المشركة الحاقدة يتململون بين أقدام طريدهم بالأمس يستجدون عفوه ورأفته أذلاء صاغرين.

وقد أبت نفسه الكبيرة التي اتسعت لتعاليم الاسلام ورسالة الاسلام، الا ان تتسع لابي سفيان وحتى لزوجته هند آكلة الاكباد وغيرهما من المشركين والمشركات، وأعلن العفو العام عن اولئك الذين لم يتركوا لوناً من ألوان الأذى والجور الا وقابلوه به متجاهلاً جميع سيئاتهم بكلماته الخالدة التي لا تزال سمة خزي وعار ما دام التاريخ: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وهل غيّر هذا الموقف الكريم الذي لا يمكن ان يصدر الا من انسان تسيّره إرادة السماء، وهل غيّر من نفس أبي سفيان وروحه شيئاً وهل أدركت ان موقفاً كهذا لا يصدر إلا عن إنسان فوق مستوى القادة والزعماء والحاكمين؟ ان مواقف

النبي (ص) مع أبي سفيان وزوجته وأسرته لم تغير من نفوسهم والنبي (ص) يعلم ذلك ويعلم بأن النفوس الحاقدة والقلوب المريضة لا علاج لها الا بالاستئصال ولكن مصلحة الاسلام يومذاك فرضت عليه ان يعالجهم بهذا الاسلوب.

لقد بقي الحزب الأموي بقيادة ابي سفيان يتحيّن الفرص ويستغل المناسبات للوثوب ضد الاسلام ودعاته المخلصين الاوفياء، وحينما انتقلت السلطة الى سليل بيته عثمان بن عفان أحس بنشوة تملأ نفسه الحاقدة وذهب يقوده غلامه الى قبر الحمزة فركله برجله وقال: قم يا ابا عمارة، ان الذي تجالدنا عليه لقد أصبح تحت أقدامنا.

وخلال سنوات قليلات من حكمهم استطاعوا ان يحققوا لهذا البيت أكثر أمانيه واتجهوا يعملون لجاهليتهم ووثنيتهم حتى لا يبقى لرسالة محمد (ص) ناطق على منبر او محراب ويصبح أئمة المساجد والقراء والرواة أبواقاً للسلطة الحاكمة التي كانت تعمل لغسل الادمغة من عقائد الاسلام وقيمه واستبدالها بمبادىء الردة والوثنية.

وظلوا يعملون بهذا الاتجاه الوثني حتى انقلبت القيم وسحقت التعاليم وذهب الرياح بجهود المخلصين والمجاهدين وجاءت بكنوز الذهب للمنافقين وأصبح التوحيد ستاراً للشرك والاسلام قيوداً للاستسلام، والسنّة قاعدة للسلطة والحديث عرضة للوضع والالسن قطعت او اشتريت.

أما أصحاب السابقة فقد تقاضوا الثمن ولايات وإمارات، واعتزل فريق للعبادة وفريق ساوموا على السكوت عن الظلم والجور حتى لا يواجهوا النفي والموت في صحراء الربذة ومرج عذراء، وعادت الجاهلية الجديدة أثقل ظلا وأشد ظلمة ووحشية والعدو الجديد أشد دهاء وأكثر نضجا وذكاء، كل ذلك كان في عهد ابن عفان ومعاوية بن هند، وجاء ولده ابن ميسون الى الحكم لاتمام رسالة ابيه التي تحقق لأمية كل أمانيها تحت ستار الاسلام. وفجأة سطع ضوء في الظلام ومن بين ركام الاسلام المتداعي وأضاءت للملأ ملامح أمل جديد في دياجي ذلك الظلام المطبق، وبدا للعالم إنسان يخط على التراب بدمه: ألا واني لا ارى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا برما.

انه الحسين بن علي وفاطمة سبط ذلك الرسول الذي هاجر من مكة الى يثرب قبل ستين عاما لأجل رسالته ولأجل كرامة الانسان والمستضعفين في الارض لا خوفاً من الموت، بل لان بقاء رسالته وانتشارها مرهون بحياته.

ومرة ثانية وفي ظروف لعلها أسوأ على الانسانية والرسالة من الظروف التي هاجر فيها جده من قبل لانقاذ البشرية مما كانت تعانيه من عسف وجور واستغلال خرج من بيت محمد وعلي (ع) البيت الذي وسع التاريخ كله فكان اكبر منه خرج غاضباً مصمماً على الموت كأن في صدره إعصاراً في طريقه الى الانطلاق. خرج وهاجر لأجل الانسانية ومن أجل الرسالة التي هاجر من أجلها جده قبل ستين عاماً يتلفت من حوله وحيداً أعزل من الرجال والسلاح، يرى الرسالة وآمال الفقراء والمستضعفين، تساق الى قصر الخضراء في دمشق لا يملك من السلاح غير الشهادة التي يراها زينة للرجال كما تكون القلادة زينة للفتاة فهاجر من أجلها على هدى وبصيرة وشبحها ماثل نصب عينيه يتطلع الى تربة كربلاء مع ركبه بصبر وصمود وهو يقول: خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، أفلا ترون الى الحق لا يعمل به والى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً.

لقد هاجر من مدينة جده الى مكة ومنها الى العراق بعد ان رأى ان رسالة الاسلام تتعرض للانهيار ومصير الانسان يومذاك أسوأ من مصير إنسان الجاهلية نافضاً يديه من الحياة لا يملك في مقابل عدوه سوى سلاح الشهادة وفي كل مرحلة كان يقطعها وهو يحث السير اليها كان يشير الى أنصاره الذين رافقوه في تلك الرحلة ليموتوا معه والى اهل بيته الذين هم كل ما يملكه من الحياة الى هؤلاء جميعاً كان يشير ويكشف لهم عن معاني الشهادة وأهدافها ومعطياتها ويشهد العالم بأسره بأنه قد أدى للانسانية وللرسالة كل ما يقدر عليه.

لقد كان سيد الشهداء يدرك ويعي اهمية الرسالة الملقاة على عاتقه ويعلم بأن التاريخ ينتظر شهادته وانها ستكون ضماناً لحياة أمة وأساساً لبناء عقيدة وهتكاً لأقنعة الخداع والظلم والقسوة وإدانة لسحق القيم ومحوها من الاذهان وإنقاذاً لرسالة الله من أيدي الشياطين والجلادين، وهذا هو الذي كان يعنيه بقوله لأخيه محمد بن الحنفية وهو يلح عليه ويتململ بين يديه باكياً حزيناً ليرجع الى حرم جده. لقد شاء الله ان يراني قتيلا وأن يرى حرمي وعيالي سبايا.

ان المشيئة الالهية التي جعلته يضحي بنفسه وبنيه واخوته ويعرّض نساءه للسبي لم تكن لولا ان شهادته وسبي نسائه سيحققان للأمة وللاسلام ما لا تحققه الجيوش والأساطيل وأفتك الأسلحة، وبالفعل لقد هتكت شهادته أقنعتهم وأدانتهم بكل أنواع الخزي والعار ولولاهما لتعرضت رسالة الله لأسوأ أنواع التحريف والتشويه والتلاعب.

لقد أعطى الحسين بشهادته دروسا مليئة بالحياة غنية بـالقيم وروعة الجمال وأصبح هو ومن كـان معه من طفله الى اخـوته وأنصـاره وغلمانـه، القـدوة الغنيـة بمعطياتها للعالم في كل مكان وزمـان تعلم الابطال كيف يمـوتون في مملكـة الجلادين الذين ذهبت ضحية سيوفهم آمال أجيـال من الشباب وانـطفأت آمـال أمم وتلوت تحت سيـاطهم جنوب النسـاء وأبادوا وأجـاعوا واستعبـدوا رجـالا ونسـاء ومؤذنـين ومعلمين، ووقف خطيباً رابط الجأش مستخفـاً بكل حشـودهم التي بلغت عشرات الألوف وقادتها وأعتدتها.

وقـال: ألا وان الدعي ابن الـدعي قد ركّـز بين اثنتـين بـين السلة والـذلـة وهيهات منا الذلة، يـأبى الله لنا ذلـك ورسولـه والمؤمنون وحجـور طابت وطهـرت وأنـوف حمية ونفـوس أبية من ان نؤثـر طاعـة اللئام عـلى مصـارع الكـرام، ومضى يقـول: أما والله لا تلبثـون بعدهـا الا كريثـما يركـب الفـرس حتى تـدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور عهد عهده الي ابي عن جدي رسول الله (ص).

لقد هاجـر من مدينـة جده الى ثـرى الطف ليقـدم دمه الـزكي ودماء أخـوته وأنصاره الخالدين الأحرار ثمناً لإحياء شريعـة جده الـرسول الأعـظم وإنقاذهـا من مخالب الكفر والانحراف، ولكي يضع حـداً لسيـاسـة البـطش والتنكيـل وإراقـة الدماء، وليعلن بصرخته المدويـة التي لا يزال صـداها يقضّ مضـاجع الـظالمين ان الاسلام فوق ميول الحاكمين وان القيم والمثل فـوق مستوى مـطامعهم الرخيصـة، وان الحـرية والكـرامة من حقـوق الانسـان في حيـاتـه ولا سلطان عليهـا للحكـام والطغاة.

أجل ان رسالة الحسين كانت ولا تزال امتداداً لرسالة جـده وجهاده امتـداداً لجهاد أبيه أمير المؤمنين (ع) بطل الاسلام الخـالد الـذي قام الاسـلام وانتشر بسيفه وجهاده، وكما خيبت هجرة الرسول مساعي المتـآمرين عـلى قتله بخروجـه من مكة الى يـثرب كذلـك خيبت شهادة سبـطه الثائـر العظيم آمـال أمية وأمـانيها ومـا كان يطمح اليه حفيدها يزيد بن معاوية من تحطيم الاسـلام وعودة الجـاهلية والأصنـام آلهـة آبائـه وأجداده، وسجلت انتصـاراً حـطّم أولئـك الجبـابـرة الـطغـاة ودولتهم العنصرية الجائرة التي قابلها الحسين وقضى عليها بشهادتـه ودمه الـزكي الطاهـر لا بالرجال والعتاد والأموال.

ولـرب نصر عـاد شر هـزيمـة   تـركـت بيـوت الـظالمـين طـلولا

لقد قاتل مع الحسين في معركته مع الشرك والوثنية اثنان وسبعون شخصاً من إخوته وأبنائه وبني عمومته وأنصاره الأبطال الذين امتحن الله قلوبهم بالايمان فقاتلوا دفاعاً عن الحق والعقيدة والعدالة واستهانوا بحياتهم لإعلاء كلمة الله في الأرض، وكانوا مع قلة عددهم وكثرة اعدائهم يكرون على تلك الحشود بقلوبهم العامرة بالتقوى ونفوسهم المطمئنة الى المصير الذي أعده الله للمجاهدين في سبيله، فتفر منه فرار المعزى اذا شدت عليها الذئاب ورحم الله العلامة السيد محمد حسين الكشوان الذي قال في وصفهم كما جاء في مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم:

اذا ما خبت نار الوغى شعشعوا لها سيوفهم جمرا وقالوا توقدي
ثقال الخطى لكن يخفون للوغى سراعا بخرصان الوشيج المسدد
اذا اشرعوا سمر الرماح حسبتها كواكب في ليل من النقع أسود
أو اصطدمت تحت العجاج كتائب جرى اصيد منهم لها أثر أصيد
يكرون والابطال طائشة الخطى وشخص المنايا بالعجاجة مرتدي
لووا جانباً عن مورد الضيم فانثنوا على الأرض صرعى سيداً بعد سيد
هووا للثرى نهب السيوف جسومهم عوار ولكن بالمكارم ترتدي

وبقي الحسين (ع) وحده بعد مصرع بنيه وأخوته وأنصاره لا يملك غير طفله الرضيع وهو يعلم ان القوم لا يرحمون طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولكنه أراد ان يظهر للعالم ان عداء الامويين لمحمد وآل محمد ليس مرهونا بمن يعارضهم ويخافون بطشه وسطوته من بيت هاشم بل لهذا البيت وكل من ينتسب اليه صغيراً كان أو كبيراً، وعندما طلب له الماء ردوا عليه بسهامهم التي أصابت الطفل وأودت بحياته، فتلقى دمه بيده وصعده نحو السماء وقال: اللهم تقبّل منا هذا القربان.

وتقدم بعد ذلك الى المعركة ببطولة لا نظير لها في تاريخ المعارك والحروب فكان يشد عليهم وقد تكاملوا ثلاثين الفاً أو أكثر فينهزمون بين يديه ثم يرجع الى مقره ويقول: أعَلى قتلي تجتمعون أما والله لا تقتلون بعدي عبدا من عباد الله اسخط عليكم لقتله مني، وايم الله اني لأرجو ان يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون.

وقال عبد الله بن عمار أحد أنصار ابن مرجانة: والله ما رأيت مكثوراً قط قتل ولده وأهل بيته أربط جأشا ولا أمضى جناناً ولا أجرأ مقدماً منه. لقد كان يشد

على أهل الكوفة فينكشفون بين يديه انكشاف المعزى اذا شد فيها الذئب، وظل يقاتلهم حتى سقط على صعيد كربلاء لكثرة ما أصابه من سيوفهم ورماحهم وسهامهم ورحم الله القائل:

أحاطت به سبعون الفاً فردها ... شوارد أمثال النعام المشرد
وقام عديم النصر بين جموعهم ... وحيداً يحامي عن شريعة أحمد
الى ان هوى للارض شلواً مبضعا ... ولم يرو من حر الظمأ قلبه الصدي
هوى فهوى التوحيد وانطمس الهدى ... وحلت عرى الدين الحنيف المشيد

الى ان يقول في وصف زينب وما حل بها وبنسائه وعياله في تلك اللحظات:

وهاتفة من جانب الخدر ثاكل ... بدت وهي حسرى تلطم الخد باليد
يؤلمها قرع السياط فتنثني ... تحن فيشجي صوتها كل جلمد
وسيقت على عجف المطايا أسيرة ... يطاف بها في مشهد بعد مشهد
سرت تتهاداها علوج أمية ... فمن ملحد تهدي الى شر ملحد

وقد وصف الكعبي أحد شعراء الطف حالة النساء والعيال حينما صرع الحسين (ع) بقوله:

فواحدة تحنو عليه تضمه ... وأخرى عليه بالرداء تظلل
وأخرى بفيض النحر تصبغ وجهها ... وأخرى تفديه وأخرى تقبل
وأخرى على خوف تلوذ بجنبه ... وأخرى لما قد نالها ليس تعقل

ورحم الله السيد حيدر الحلي حيث يقول:

وفي السبي مما يصطفي الخدر نسوة ... يعز على فتيانها ان تسيرا
حمت خدرها يقظى وودت بنومها ... ترد عليه جفنها لا على الكرى
مشى الدهر يوم الطف أعمى فلم يدع ... عماداً لها الا وفيه تعثرا
وجشمها المسرى ببيداء قفرة ... ولم تدر قبل الطف ما البيد والسرى
ولم تر حتى عينها ظل شخصها ... الى ان بدت في الغاضرية حسرا

لقد ترك لنا الحسين وأب الحسين والائمة من ذرية الحسين من سيرتهم وسلوكهم وتضحياتهم في سبيل الله وخير الانسانية مدرسة غنية بكل ما تحتاجه في الحرب والسلم والشدة والرخاء والفقر والغنى وجميع نواحي الحياة فما أولانا ونحن ندعي التشيع الى الرجوع لسيرتهم والسير على خطاهم لنصنع من ميراث أئمتنا وقادتنا خير أمة أخرجت للناس.

ولو نظرنا ومع الأسف الشديد الى مبادىء التشيع التي تجسد الاسلام بكل فصوله وخطوطه، وقارنّا بينها وبين ما نحن عليه من تخاذل وتراجع وإذلال وانحراف عن الاسلام ومبادئه وقيمه، وجدنا أنفسنا من أبعد الناس عن محمد وعلي وبنيه وعن الحسين بالذات الذي نحتفل في كل عام بذكراه ونبكيه ونردد ذكره في كل مناسبة بألسنتنا ونقول يا ليتنا كنا معك فنفوز فوزاً عظيماً.

وأنا على يقين بأن الحسين لو وجد في زماننا هذا لصنع من القدس وجنوب لبنان وأكثر المناطق الاسلامية كربلاء ثانية ووقف الموقف نفسه الذي وقفه من معاوية ويزيد وسوف لا يناصره ممن يدعون الاسلام والتشيع وممن يتباكون على القدس والجنوب ويتاجرون بهما في البيانات والخطب وعلى صفحات الجرائد وبالبنادق التي يحملونها في الشوارع والنوادي اكثر من العدد الذي ناصره ووقف الى جانبه في كربلاء الاولى وسلام الله عليك يا من لم يحدّث التاريخ عن مثله ويا من علمنا لماذا أمر الله الملائكة ان تسجد لآدم:

فيا ايها الوتر في الخالدين ... فذا الى الآن لم يشفع
ويا واصلا من نشيد الخلود ... ختام القصيدة بالمطلع
ويا ابن التي لم يضع مثلها ... كمثلك حملاً ولم ترضع
ويا ابن البتول وحسبي بها ... ضماناً على كل ما ادعي
تعاليت من مفزع للحتوف ... وبورك قبرك من مفزع
تمر الدهور فمن سجد ... على جانبيه ومن ركع

شباب كربلاء

اذا كانت مطامح الشباب عيشاً رغيداً ومستقبلاً سعيداً حافلاً بكل أنواع النعيم وألوانه كما نشاهد ونرى من شباب اليوم وغير اليوم، فشباب كربلاء كانت كل أمانيهم ومطامحهم وأهدافهم من الحياة صموداً في الاهوال وصبراً في البأساء واستشهاداً بحد السيوف من أجل الحق والانسان وكرامة الانسان. ولم يكن لتلك الفتوة الغضة والصبا الريان ان تهتم أو تفكر بما أعدّ لها من غضارة الدنيا وما ينتظرها من صفو الحياة ولهوها ومتعها بل كان كل همهم التطلع الى اي سبيل من سبل الشهادة يعبرون، وأي موقف من مواقف البطولات يقفون.

هناك وعلى مشارف العراق وفي الطريق الى كربلاء كان الحسين (ع) يسير على رأس قافلة الشباب الابطال متحدياً أقوى سلطة يومذاك وأبشع طغيان وأسوأ من عرفه التاريخ من الحاكمين وفراعنة العصور متحدياً كل ذلك بسبعين من الرجال والشباب ليحطم بهذا العدد القليل في حساب الأرقام والكثير الكبير فيما يحمله من عزيمة وتصميم على الشهادة التي تصنع من الانتصارات أحياناً ما لا تصنعه اقوى الجيوش وأكثرها عدداً وعتاداً ليحطم بهذا العدد القليل فيما يحمله من عزيمة وتصميم قوى الشر والطغيان ومعاقل البغي والعدوان، وليعلم أبناء آدم كيف يموتون في مملكة الجلادين.

كان أبو عبد الله الحسين (ع) يسير الى الشهادة التي لم يجد وسيلة غيرها تحفظ شريعة جده ورسالته مما كان يخططه لها الحزب الاموي الحاكم الذي سخر جميع طاقات الامة وإمكانياتها وفئاتها للقضاء عليها وتحريفها. كان يسير الى الشهادة ومن حوله عشرون شابا من أخوته وأبنائه وأبناء أخيه الحسن السبط وأخته العقيلة

بطلة كربلاء وشريكته في الجهاد والتضحيات وأحفاد جده أبي طالب وما أسرع ان كبّر قائلاً: الله أكبر، فأحس من حوله من الشباب ان الصحراء قد تجاوبت مع تكبيره ولم يكن الموقف يوجب التكبير فلا بد وأن يكون تكبيرة لأمر ما او لهم من همومه أراد ان يستنجد عليه بالله، ومع ان للتكبير روعة في كل زمان ومكان فلم يكن له من الروعة ما كان لتكبير الحسين في تلك الساعة وهو منطلق في تلك الصحراء المديدة الى الهدف الاسمى والغاية العليا تحت سماء العراق الصافية، على رأس ذلك الركب كبّر الحسين فكانت تكبيرة لم يعرف التاريخ أكثر منها دوياً، تكبيرة اقتحمت تلك البيداء ومضت من صعيد الى صعيد تهز النفوس وتثير الضمائر الحية وتحض على الظالمين والعابثين بتراث محمد ورسالته.

وما كان لعلي الاكبر ذلك الشاب الذي كان يسير الى جنب أبيه الا ان يسأل أباه: لمَ كبّرت يا أبتاه؟ فقال: لقد خفقت خفقة فعنّ لي هاتف وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير في إثرهم فعلمت ان نفوسنا نعيت الينا.

لقد كان جواب الحسين لولده موجزاً وبكلمة واحدة لا مواربة فيها ولا تمويه، انه الموت ينتظرنا على الطريق وسوف نموت ولا نستسلم للطغاة ولا نهادن الجور والتسلط على عباد الله والمستضعفين في الارض، وان لم يكن لنا سبيل الى استنهاض ثورة عارمة تدك عروش أولئك الطغاة بقوتها المادية وتنتصر عليهم بقوة السلاح ولكن سبيلنا الوحيد هو بين أيدينا ورهن إرادتنا وهو ان نكون وحدنا الثورة ومن غير المعقول ان نتغلب بهؤلاء السبعين على ألوفهم ونهزم بهم ثلاثين الفا من رجالهم، بل باستطاعتنا ان نقلب الدنيا على رؤوسهم اذا ضحينا وقتلنا في سبيل الاسلام ورسالته.

وكان الحسين وهو يلقي مضامين كلماته هذه على ولده علي الاكبر ابن العشرين وأشبه الناس بجده الرسول (ص) خَلقاً وخُلقاً يريد ان يسمع رأي ولده الاكبر، ولم ينتظر الإمام طويلاً حتى سمع جواب الشاب الذي بادره بقوله: يا أبتاه لا أراك الله سوءاً أولسنا على الحق، هذا هو القول الفصل عند علي بن أبي طالب وأبنائه شيوخاً وشباناً ونساء والقرار الاول والأخير انهم يسعون الى الحق ومحاربة الباطل ويتحركون في إطارهما وحيث يكون الحق فهو هدفهم وغايتهم مهما كلفهم ذلك من جهود وتضحيات.

أولسنا على الحق يا أبتاه هكذا كان جواب الاكبر ابن العشرين لأبيه وكان رد الحسين (ع) عليه: بلى والذي اليه مرجع العباد، ورد عليه الأكبر بقوله: اذن لا

نبالي بالموت ما دمنا نموت محقين.

إن الحسين (ع) لم يكن ينتظر من ولده شبيه رسول الله غير هذا الجواب ولكنه لم يتمالك الا ان يزهو بمثل هذه الروح التي يحملها شاب في مطلع شبابه فردّ عليه قائلاً: جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده.

ان علي الاكبر بكلماته هذه لم يكن يعبّر عن نفسه وروحه خاصة بل كان يتكلم باسم الشباب العشرين من أحفاد أبي طالب وكان يعلن قراره الاخير الذي هاجروا من المدينة لأجله وكان في طليعة اولئك الشباب العشرين او السبعة عشر العباس بن علي أكبرهم سناً وأثبتهم جناناً وأكثرهم مراساً للحروب والمعارك وقد أدرك معارك أبيه أمير المؤمنين مع خوارج البصرة وصفين والنهروان وحضر قسما منها ولكنه لم يمارس الحرب على اشهر الروايات، وكان الى جانب ذلك نافذ البصيرة صلب الايمان يتفانى في خدمة اخيه الحسين وولائه له. قد أعد الله له منزلة يوم القيامة يغبطه عليها جميع الشهداء والصديقون كما جاء ذلك عن الإمام الصادق (ع) وكان له منزلة عند الحسين (ع) ليست لأحد من أخوته وولده يحبه حب الأخ لأخيه والوالد لولده. هذا مع العلم بأن للعباس من المؤهلات والصفات الفاضلة ما يجعله محببا لكل عارفيه، وقد أوكل اليه الحسين (ع) قيادة المعركة وأعطاه لواءه، وكما تكلم علي الاكبر باسم الطالبيين جميعاً كان العباس بن علي (ع) يتكلم باسمهم، فقد تكلم باسمهم عندما عرض عليهم ابن ذي الجوشن الأمان بالروح نفسها التي كان يحملها الأكبر وغيره من الشبان، وقال له: لعنك الله ولعن امانك اتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له، وكانوا يكررون تصميمهم على التضحية في سبيل الحق الذي يمثله الحسين (ع)، في كل مناسبة تستدعي ذلك ويتكلم باسمهم العباس (ع)، وعندما جمع الحسين أنصاره وأهل بيته وأذن لهم بالانصراف قائلا: ان القوم لا يريدون غيري وقد أذنت لكم بالانصراف في ظلمة هذا الليل فاتخذوه جملاً وليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من أهل بيتي، وكان أول المتكلمين باسم أولئك الشباب العباس بن علي (ع) فقال: ولمَ نفعل ذلك لنبقى بعدك يا ابا عبد الله لا أرانا الله ذلك ابدا، وتتابعوا على الكلام بالروح واللغة نفسها التي تكلم بها العباس. وفي اليوم العاشر من المحرم اليوم الحاسم الرهيب كان الشباب أحفاد أبي طالب يتسابقون الى الموت بأرواحهم الطيبة السخية بالبذل والفداء في سبيل الحسين ورسالته وأراد العباس ان يتقدمهم فلم يسمح له الحسين (ع) فقدم أخوته الثلاثة الذين هم لأمه أم البنين وقال لهم: تقدموا لأحتسبكم بين يدي الله، وتقدم

بعدهم علي الاكبر وهو يقول:

نحن وبيت الله أولى بالنبي والله لا يحكم فينا ابن الدعي
أضرب بالسيف احامي عن أبي ضرب غلام هاشمي علوي

وتناولته السيوف والرماح من كل جانب فصمد لسيوفهم ورماحهم وأدى للبطولة حقها وللشهادة كرامتها، وتتابع الطالبيون من بعده شاباً بعد شاب دفاعاً عن الحق والعقيدة وكرامة الانسان ومبادىء الاسلام، عشرون شاباً من نسل أبي طالب وأحفاد علي وعقيل رفضوا الذل وهوان الحياة ومشوا الى الموت بأنوف شامخة ورؤوس مرفوعة عالية لحماية الاسلام من الوثنية والجاهلية الرعناء التي كان لواؤها يومذاك بيد حفيد هند وأبي سفيان أعداء الاسلام الذي أرغمهم على الاستسلام عام الفتح، مشوا الى الموت من اجل الرسالة التي كان جدهم أبو طالب يدافع عنها بشخص ابن اخيه محمد بن عبد الله ويخاطب أبا سفيان وحزبه بقوله:

كذبتم وبيت الله نخلي محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل
ونصره حتى نصرع حوله ونذهل عن ابنائنا والحلائل

ان أبا طالب عليه السلام حينما أنشد هذين البيتين لم يكن يقصد نفسه خاصة ولا جيله من الهاشميين بل كان يقصد كل هاشمي من نسل عبد مناف ويخاطب كل جيل من أحفاده ويحضهم على التضحية بأنفسهم وبكل ما يملكون عندما يرون رسالة محمد ونهجه معرضين للتحريف والاستغلال، وكأنه كان ينظر من وراء الغيب الى رسالة محمد (ص) والى الاخطار المحدقة بها من أحفاد أمية وأبي سفيان وينظر الى الشباب من أحفاده يتهافتون على الموت في سبيلها كأنهم يعانقون غادة حسناء فوقف مزهواً بتلك المشاهد يقول:

ونصره حتى نصرع حوله ونذهل عن ابنائنا والحلائل

لقد نفذ أحفاد أبي طالب كل وصاياه ووقفوا يناضلون ويدافعون عن رسالة محمد وتعاليم محمد (ص) بالروح نفسها والعزيمة والايمان التي كان جدهم ابو طالب يدافع ويناضل بها ويقول لابن اخيه:

والله لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

لقد دافعوا وناضلوا عن رسالة محمد المتمثلة في شخص حفيده الحسين وضحوا بأنفسهم في سبيلها تاركين للعالم وللتاريخ دروساً غنية بالمثل والقيم تستلهم منها الاجيال كل معاني الخير والنبل والفضيلة وستبقى مواقفهم في سبيل الحق

والعقيدة مثلا كريما لكل ثائر على الظلم والجور والطغيان الى حيث يشاء الله، ورحم الله من قال فيهم:

ولم تر عيني مثلهم في زمانهم ... ولا قبلهم في الناس إذ أنا يافع
أشد قراعا بالسيوف لدى الوغى ... الا كل من يحمي الذمار مقارع
وقد صبروا للضرب والطعن حسراً ... وقد نازلوا لو ان ذلك نافع

وقال بعض شعراء الطف في وصفهم ووصف الانصار:

سطت ورحى الهيجاء تطحن شوسها ... ووجه الضحى في نقعها متنقب
تهلل بشراً بالقراع وجوهها ... وكم وجه ضرغام هناك مقطب
وتلتذ ان جاءت لها السمر تلتوي ... وللبيض ان سلت لدى الضرب تطرب
أعزاء لا تلوى الرقاب لفادح ... ولا من الـوف في الكريهة ترهب
وما لسوى العلياء تاقت نفوسهم ... ولم تك في شيء سوى العز ترغب
فأسيافهم يوم الوغى تمطر الدما ... وأيديهم من جودها الدهر مخصب
وما برحت تقري المواضي لحومها ... ومن دمها السمر العواسل تشرب
الى ان تهاوت كالكواكب في الثرى ... وما بعدهم يا ليت ما لاح كوكب

وسلام الله على الحسين وأنصاره وعلى جميع من استشهد معه من أحفاد أبي طالب حين ولدوا واستشهدوا وحين يبعثون مع الانبياء والصديقين وجدهم الرسول الامين ورحمة الله وبركاته.

ونتمنى على شبابنا الذين ينشدون التحرر من الاستغلال والاستعباد والتسلّط ان يرجعوا الى تعاليم الاسلام وسيرة أهل البيت والى مدرسة كربلاء وشباب كربلاء الذين كانوا ثورة عارمة على الظلم والتسلط والاستغلال واستعباد الانسان لاخيه الانسان، وسوف يجدون فيها ما يغنيهم عن تلك المبادىء المستوردة من هنا وهناك والتي تنطوي على أسوأ انواع التسلط واستعباد الشعوب وخنق الحريات باسم التحرر والعدالة والديمقراطية وما الى ذلك من الشعارات البراقة الجوفاء التي يضللون بها البريئين من الشباب، ومنه سبحانه نستمد لهم الهداية والوعي انه قريب مجيب.

بطلة كربلاء زينب بنت علي (ع)

لقد تحدث الناس عن البطولات طويلاً وكثيراً ومع أنهم لم يلتقـوا في الغالب على تحديد معين لمفهـومها ومقـوماتهـا وأسبابهـا فهم يلتقون في ان اهـل البيت (ع) يأتون في الطليعة بين أبطال التاريخ، وان زينب بنت علي وفاطمـة تأتي في الـطليعة بعد ابيها واخوتها كما يشهد لها بذلك تاريخهـا الحافـل بكل أنـواع الطهـر والفضيلة والصـبر في الشدائـد، وليس بغريب عـلى تلك الذات العمـلاقـة التي التقت فيهـا الأنوار الثلاثـة نور محمـد وعلي وفـاطمة، ومن تلك الأنـوار تكونت شخصيتهـا ان تجسد بمواقفها خصائص النبـوة والامامـة وأمها الـزهراء التي امتـازت بفضلها عـلى نساء العالمين، ان اللسان ليعجز وان اللغة لتضيق على سعة مفرداتها عن التعبير عما ينطوي عليه الانسان الواعي المدرك من الشعور نحو المرأة الكبيرة والقدوة العـظيمة ابنة علي والزهراء التي عز نظيرها بين نساء العرب والمسلمين بعد أمها البتول سيـدة النسـاء التي ابتسمت للموت حـين بشرها بـه الرسـول بقولـه: أنت أول أهل بيتي لحوقاً بي.

ان المقام لا يتسع للالمام بحياة بطلة كربلاء زينب بنت علي في عهود الطفولة والصبا والامومة وكيف نشأت طفلة وشابة برعايـة امها الـزهراء وأبيهـا الوصي وفي بيت زوج كريم من كرام آل أبي طالب وبعد ان أصبحت أماً لأسرة غذتهـا بتعاليم الاسـلام وأخلاق أمهـا وأبيها وعنـدما رحـل أخوهـا الى الشهادة تـركت بيتها تحث الخطى خلفه في رحلتـه الى الموت والشهـادة لتعلم الرجـال معاني الـرجولـة وكيف يموتون في مملكة الجلادين.

ان المقام لا يتسع لإعطاء فكرة كافية عن ذلك الغرس الطيب وكيف نما وتكامل مع نموه حتى بلغ أشده ونهض بأعباء المسؤولية العظمى وأدى دوره الكامل عندما وقعت تلك المأساة الكبرى التي حلت بالعلويين والطالبيين والهاشميين على تراب كربلاء وكيف استطاعت ان تتحمل تلك الصدمة وتقوم بدورها الكامل بالحكمة والصبر الجميل، ذلك الدور الذي يمثّل أسمى درجات البطولة وأعلاها. لقد ثبتت في ذلك الموقف كالطود الشامخ تاركة على تراب كربلاء آثار مسيرتها ومواقفها بين تلك الضحايا التي لا تزال حديث الأجيال ومثلاً كريماً لكل ثائر على الظلم والجور وللمرأة التي حملت على عاتقها رسالة اخيها لتبلّغها للأجيال وتعلمهم كيف يثبتون في الشدائد ويقابلون الخطوب.

لقد كان عويل النساء وصراخ الصبية وضجيج المنطقة كلها بالبكاء والنياحة كفيلاً بأن يهد أقوى الاعصاب ويخرس أفصح الالسنة والخطباء ويقعد بأكبر الرجال حتى ولو لم يكن يتصل بتلك الضحايا بنسب او سبب فكيف بمن هو من أهل البيت وقد رأى ما حل ببنيه وأخوته وأبناء أخوته وعمومته وأحسّ بثقل المسؤولية وجسامتها.

في الليلة العاشرة من المحرم كانت زينب ساهرة العين تتحول من خيمة لخيمة ومن خباء الى خباء ومن طفل الى طفل وفي بعض ساعات الليل مرّت على خيام الرجال فلم تسمع بها صوتاً وكأنها خالية لم يبق بها أحد، وذهبت الى خيمة أخيها الحسين فوجدتها قد سكنت فأسرعت لداخلها فرأته جالساً وحده يناجي ربه ويتلو القرآن فأحزنها ان لا تجد معه أحداً فمضت الى خيام أخوتها وبني عمومتها لتعاتبهم على ذلك وما كادت تدنو من خيمة أخيها العباس حتى سمعت همهمة وكلاماً خفياً وغضباً مختنقاً فوقفت بظهر الخيمة ونظرت فيها فوجدت الرجال والفتيان والصبيان من الهاشميين قد اجتمعوا كالحلقة على أخيها العباس وقد جثا بينهم على ركبتيه وكأنه اسد على فريسته وهو يقول:

يا أخوتي وبني أخوتي وأبناء عمومتي اذا كان الصباح فما تقولون؟ فردوا عليه بأجمعهم: الامر اليك فانظر ماذا ترى ونحن صانعون، فقال: إن أصحابنا وشيعتنا قد بذلوا أنفسهم من أجلنا وان الحمل لثقيل، والحمل الثقيل لا ينهض به الا أهله، فاذا كان الصباح أرى ان نكون أول من يبرز الى الحرب لئلا يقول أحد انهم قدموا أصحابهم فلما قتلوا عالجوا الموت بأسيافهم ساعة بعد ساعة.

ولم ينته العباس من كلامه حتى وثب بنو هاشم كالاسود من معاقلها وسلّوا سيوفهم يلوّحون بها قائلين: نحن على ذلك يا أبا الفضل وسوف لا نسمح لأحد ان يتقدمنا الى القتال فجزاهم العباس خيراً.

ورأت زينب كل ذلك فلم تملك عبرتها واطمأنت لذلك نفسها ولم تلبث ان اسرعت الى خيمة اخيها لتبشره بما رأت وسمعت، وفيما هي في طريقها اليه مسرعة من وراء الخيام مرت الى جانب خيمة حبيب بن مظاهر فسمعت دويا وكلاماً خفياً تارة وغضباً مختنقاً أخرى فوقفت الى جانبها فوجدت أنصار أخيها قد اجتمعوا كالحلقة حول حبيب وقد جثا وجثم بينهم وهو يقول: يا أصحابي إذا كان الصباح فماذا تفعلون؟ فردوا عليه قائلين: الامر اليك يا ابن مظاهر.

فقال: اذا كان الصباح كنا أول من برز الى القتال لنسبق بني هاشم الى الموت ولا نرى أحداً منهم مضرجاً بدمه، وحتى لا يقول الناس: إنّا بخلنا عليهم بأنفسنا، فسلّ الانصار سيوفهم ولوّحوا بها اليه قائلين: نحن على ما أنت عليه يا ابن مظاهر.

وانطلقت زينب وهي تبتسم وقد غمرها السرور وطفا منه على وجهها أثرُ ردّ عليه لمحة من بهائه وانطلاقه ومضت تريد الحسين (ع) لتخبره بما سمعت من اخوتها والانصار، وما هي الا خطوات حتى رأته مقبلا فابتسمت اليه وتلقاها قائلا: منذ ان رحلنا من المدينة ما رأيتك مبتسمة ولا ضاحكة فما الذي رأيت؟

فقالت: لقد رأيت يا أخي من بني هاشم والانصار ما سرني، وقصت عليه ما سمعته من الفريقين وظلت العقيلة ليلتها تلك ساهرة العين تنتقل من خيمة لخيمة بين النساء والاطفال وأخوتها حتى اذا أقبلت ضحوة النهار وسقط أنصار الحسين ومن كان معه من بنيه واخوته وأبناء عمه صرعى فوق رمال كربلاء وجاء الحسين (ع) ليودع وزينب الى جانبه كالمذهولة فقال لها: مهلا أُخيّة لا تشقّي عليّ جيباً ولا تخمشي علي وجهاً ولا تشمّتي بنا الاعداء، وأوصاها بالعيال والاطفال.

فقالت له: طب نفساً وقر عيناً فانك ستجدني كما تحب، ثم خرج ليركب فرسه وزينب آخذة بزمامه وانطلق نحو القوم وعيون النساء والاطفال شاخصة اليه وهم يفرون بين يديه وظل يقاتلهم ويقاتلونه وسهامهم تنهال عليه حتى اصبح كالقنفذ من السهام ولما سقط الى الارض ونظرت اليه العقيلة وقفت على جسده وصاحت تستغيث بجدها وأبيها، وأوشكت الصرخة ان تنطلق من حشاها اللاهب

عندما رأت رأسه مفصولا عن بدنه والسيوف والسهام قد عبثت بجسمه وقلبه ورضت الخيل صدره بسنابكها ورأت اخوتها وبنيها وأبناء اخوتها وعمومتها من حوله كالاضاحي ومعها قافلة من النساء والاطفال وأمامها صفوف الاعداء تملأ صحراء كربلاء، ومدت العقيلة يديها وقد اخذتها هزة الحزن وأرجفتها رعشة الالم الفادح، مدت يديها لتضعها تحت جثمانه الطاهر ورمقت ببصرها السماء لتنذّ عن فمها الطاهر عبقة من فيض الخلود تناجي ربها وتتضرع اليه قائلة: اللهم تقبّل منا هذا القربان.

وهكذا كان على العقيلة ان تنفذ وصية اخيها وتثبت في مثل هذه الحالات وأن تحمل قلباً كقلب ابيها في غمار جولاته وتقف كالطود الشامخ في وجه هؤلاء الذين وقفوا الى جانب يزيد وجلاديه واتفقوا على انتهاك الحرمات والمقدسات وباعوا ضمائرهم لاولئك الطغاة بأبخس الأثمان.

ويقطع الحادي الطريق من كربلاء الى الكوفة والسبايا على أقتاب الجمال تتقدمهم رؤوس سبعين أو ثمانين من الانصار وعشرين من العلويين بينهم رأس الحسين سيد شباب أهل الجنة، ولما دنت طلائع الموكب من أطراف الكوفة ازدحم الناس في الطرقات والنساء على سطوح المنازل ولم يكن نبأ مصرع الحسين قد انتشر بين اهل الكوفة انتشاراً عاماً وأشرفت امرأة من سطح بيتها فرأت نساء حاسرات الرؤوس وهن كالعاريات لولا أسمال تقنعن بها، فظنت المرأة انهن من سبايا الروم وأرادت ان تستوثق لنفسها من الظن، فلقد طالما رأت مواكب من سبايا الروم والترك تمر بالكوفة ولكنها لم ترها على مثل ما رأت من الحزن واللوعة ولم تر قبل اليوم اسرى من الصبيان يشدون بالحبال على اقتاب الجمال كما رأت اليوم تلك القافلة من الصبيان والاطفال، وأدنت المرأة رأسها من احدى السبايا وقالت لها: من أي الأسارى انتن؟ فقالت لها: نحن أسارى اهل البيت من آل محمد.

وما كادت المرأة تسمع قولها حتى صرخت مولولة وكادت ان تسقط من على سطحها والتفتت الى النساء اللواتي على سطوحهن وقالت: انهن نساء أهل البيت، وتعالى الصياح من جميع النسوة حتى رجت الكوفة ولفت نواحيها صرخات متتالية كأنها العواصف في أرجائها والتف النسوة بالموكب يقذفن عليه الأزر والمقانع ليتسترن بها بنات علي وفاطمة عن أعين الناس وغصت الطرقات بالرجال والنساء يبكون ويندبون.

والتفتت ابنة علي وفاطمة اليهم ببصرها النافذ وأومأت اليهم ليسكتوا لتقول

كلمتها فلما هدأت الاصوات قالت: أما بعد يا أهل الكوفة يا أهل اختل والغدر أتبكون فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرنة انما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، ألا وهل فيكم الا الصلف وملق الإماء وغمز الاعداء الا ساء ما قدمت لكم انفسكم ان سخط الله عليكم وفي العذاب انتم خالدون، أتبكون وتنتحبون، اي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً فلقد ذهبتم بعارها وشنارها بعد ان قتلتم سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة وسيد شباب أهل الجنة وملاذ حيرتكم ومفزع نازلتكم الا ساء ما تزرون.

ثم تمضي تحف بها اماؤها ليضمها مجلس ابن زياد فتجلس متنكرة مطرقة كاسفة في ذلك المجلس الذميم، وأمام ابن زياد وهو ينظر اليها ببسمة المنتصر الساخر الشامت ويسأل: من هذه المتنكرة؟ فلا ترد عليه لا هي ولا اماؤها احتقارا وازدراءً لشأنه ولامارته، وظل يلح في سؤاله حتى انبرت اليه بعض إمائها وقالت: هذه زينب بنت علي وفاطمة، فينطلق عند ذلك بكلمات تنم عن لؤمه وحقده وخسته: الحمد لله الذي فضحكم وأكذب أحدوثتكم، فردت عليه غير هيابة لسلطانه ولا لجبروته وطغيانه وقالت:

الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه وطهرنا من الرجس تطهيراً انما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا ثكلتك امك يا ابن مرجانة.

فقال لها وقد استبد به الحقد والغضب: كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك؟

قالت: ما رأيت الا جميلاً، اولئك قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده فانظر لمن الفلج يا ابن مرجانة.

وحاول ان يمد يده اليها بالأذى وكان الى جانبه عمرو بن حريث فحال بينه وبين ذلك ولكنه اندفع يخاطبها بلغة الحاقد الشامت وقال: لقد شفى الله قلبي من طاغيتك الحسين والعتاة المردة من أهل بيتك.

فبكت وقالت: لعمري لقد قتلت كهلي وقطعت فرعي واجتثثت اصلي فان كان في ذلك شفاؤك فقد اشتفيت، وأراد ابن زياد ان يقتل علي بن الحسين زين العابدين لانه رد عليه تحدياته لعمته العقيلة زينب وتحرشه بها وقال له: أبك جرأة على رد جوابي، وأمر جلاديه ان يضربوا عنقه فألقت بنفسها تحوطه وتحميه والتف

حولها النساء حتى لا يصل أحد اليها وقالت لابن زياد: حسبك من دمائنا ما سفكت فان أردت قتله فاقتلني معه وينتهي الحوار بينهما عند هذا الحد ليتنقل ابن زياد بالحديث والتحدي لمن في مجلسه من وجوه الشيعة البارزين، ثم يأتيه البريد بكتاب يزيد يأمره فيه ان يحمل النساء والرؤوس والاطفال الى قصر الخضراء في دمشق فيسير الحداة بموكب السبايا والرؤوس الى حيث ابن معاوية بالشام ويمضي اولئك الحداة الغلاظ الشداد بالموكب في اعتساف وارهاق في الليل والنهار ليقطع المسافة في عشرة ايام وما كان ليقطعها بأقل من ثلاثين يوماً لو كان يسير كما اعتاد الناس في أسفارهم.

وودت زينب ومن معها من السبايا ان لا تبلغ الرحلة بهن الى غايتها وقد كفاهن ان برزن سافرات بين اهل الكوفة وها هي ومن معها من النساء سيبرزن لأهل الشام وكأنهن من سبايا الروم او الديلم، لقد كانت العقيلة وهي في مطلع صباها اذا أرادت ان تذهب لزيارة قبر جدها في المدينة تذهب في سترين من ثوبها المسبل عليها وظلمة الليل بين أخويها الحسن والحسين يتقدمهم أبوها أمير المؤمنين ليخمد ضوء القناديل حتى لا يرى شخصها من في مسجد الرسول وأكثرهم من اهلها وذوي قرباها، وها هي تدخل بالأمس عاصمة العراق سافرة مهلهلة الثياب في وضح النهار وعلى أعين الغرباء والاعداء، وهي اليوم في طريقها الى عاصمة يزيد في بلاد الشام سافرة بثيابها الخلقة التي لم يترك لها جيش ابن زياد في كربلاء غيرها، وأبت هي والنسوة الا ان تسير في طريقها الى الشام في آخر الموكب وموكب الرؤوس أمامهن حتى اذا مررن في بلد يتلهى الناس بالنظر الى الرؤوس عنهن، وعند مشارف الشام حاولت مع ابن ذي الجوشن قائد الموكب ان يدخلهن الشام من طريق قليل النظارة وأن ينحوا عنهن موكب الرؤوس فلم تفلح وأمر بإخراج الرؤوس من المحامل وأن تجعل على اطراف الرماح وفي وسط موكب النساء وأن يمروا بهم في الطرقات العامة الحافلة بالجماهير الى ان يبلغ الموكب فناء المسجد حيث الجماهير تنتظر موكب الأسرى ورأس الحسين وأصحابه على رؤوس الرماح، وأكثر تلك الحشود لا تعرف عن ذلك الموكب شيئاً.

ويمر الموكب الحزين يسير الهوينا والجماهير من حوله ما بين مسرور لحاله وموجع لمرآه ويضم العقيلة مجلس يزيد ورأس الحسين بن الزهراء بين يديه ينكث ثناياه وهو في غمار النشوة بمخصرته ويتمثل بأبيات ابن الزبعرى:

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندق ان لم انتقم من بني أحمد ما كان فعل

وكان على زينب وقد رأته بتلك الحالة فرحاً مسروراً يتمثل بهذه الابيات التي تعبّر عن حقده وتعصبه لجاهلية جده وأبيه ووثنيتهما ويعبث في ثنايا ابي عبدالله الحسين (ع) بمخصرته كان عليها ان تتكلم لتحرق دنيا سروره وفرحه بكلماتها التي كانت أشد وقعا عليه من الصواعق ووضعت الكثيرين ممن كانوا يجهلون مكانة الاسرى ولا يعرفون عن صلتهم بالرسول وعما جرى لسبطه الحسين شيئا في جو الواقع الذي تحملت مرارته، وافتتحت خطابها بحمد الله والصلاة على جدها المصطفى وقالت: أظننت يا يزيد حيث اخذت علينا أقطار الارض وآفاق السماء وأصبحنا نساق كما تساق الاسارى، ان بنا على الله هوانا وبك عليه كرامة، وان ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسرورا حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والامور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا فمهلا مهلا أنسيت قول الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خيرا لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين﴾.

ومضت تقول وأبصار تلك الحشود المحيطة بيزيد بن معاوية شاخصة اليها تذكرهم بمنطق ابيها ومواقفه بين المعسكرين في صفين: أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك واماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن تحدو بهن الاعداء من بلد الى بلد ويستشرفهن اهل المناهل والمعاقل ويتصفح وجوههن القريب والبعيد والدني والشريف، ليس معهن من حماتهن حمي ولا من رجالهن ولي وكيف يرتجي مراقبة من لفظ فوه أكباد الازكياء ونبت لحمه من دماء الشهداء، وكيف يستبطأ في بغضنا اهل البيت من نظر الينا بالشنف والشنآن والإحن والاضغان ويقول غير متأثم ولا مستعظم:

لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منحياً على ثنايا ابي عبدالله سيد شباب اهل الجنة تنكثها بمخصرتك، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة باراقتك دماء ذرية محمد (ص) ونجوم الارض من آل عبد المطلب، وتهتف بأشياخك زعمت انك تناديهم فلتردن

وشيكـا مـوردهم ولتـودن انـك شللت وبكمت ولم تكن قلت مـا قلت وفعلت مـا فعلت.

فـوالله مـا فـريت الا جلدك ولا حـززت الا لحمـك ولـتردن عـلى رسـول الله (ص) بما تحملت من سفك دمـاء ذريته وانتهكت من حـرمته في عـترته ولحمتـه حيث يجمع الله شملهم ويلم شعثهم ويأخـذ بحقهم ﴿ولا تحسبن الـذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

وسيعلم يا يزيد من سوّل لك ومكّنك من رقاب المسلمين بئس للظالمين بدلا وأيّكم شر مكاناً وأضعف جنداً.

ومضت في خـطابها تـوجه أسـوأ أنواع التحقـير والتقريـع حتى سيطرت عـلى المجلس بمنطقها وأسلوبها الرائـع وقالت: ولئن جـرت علي الـدواهي مخاطبتـك اني لاستصغر قدرك وأستعظم تقريعـك وأستكثر توبيخك ألا فـالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجبـاء بحزب الشيـطان الطلقـاء فهذه الايـدي تنطف من دمـائنا والافواه تتحلب من لحومنا وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل وتعفـرها أمهات الفراعل ولئن اتخذتنا مغنما لتجدنا وشيكا مغرما حين لا تجـد الا ما قـدمت يداك وما ربك بظلام للعبيد، فكد كيـدك وأسْعَ سعيـك وناصب جهـدك فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحيّنا.

لقد دخلت زينب بنت علي وفاطمة الى عـاصمة الجـلادين وأطلقت رسالتهـا رافعة صوتها الى كل من لهم عهد مع أهل هذا البيت وكل من آمنوا بـرسالـة محمد في كل عصر وجيل وأرض ووراءها قافلة من الأسرى وأمـامها صفـوف العدو تمـلأ الأفق وتسد طريقها وكانت مسؤوليتها التاريخيـة الكبرى هي إكـمال الرسـالة وإتمـام المسيرة ولسانا لمن قطعت ألسنتهم سيوف الجلادين. ودخلت مدينة الجريمة عـاصمة القهر والبطش والتنكيل بالابرياء والصلحاء وهناك رفعت صـوتها المـدوي في أعماق التاريخ لتقول ليزيد بن ميسون بكل ما في الاستخفاف والاحتقار من معنى:

ولئن جرت على الدواهي مخاطبتـك اني لاستصغر قـدرك وأستعظم تقـريعك وأستكثر توبيخـك ألا فالعجب العجب لقتـل حزب الله النجبـاء بحزب الشيـطان الطلقاء.

ان مأساتها تشكل الشطر الثاني من مأساة اخيها الحسين فمن صبْر لا يطيقـه أحد من الناس الى رعاية السبايا من الأرامل والأيتام ونضال دون البقية البـاقية من

آل الرسول واحتجاج وخطب واستنكار لسحق القيم والحق ومحو الرسالة من الاذهان، وبهذا وذاك لقد ألّبت المسلمين على الطغاة والظالمين وضعضعت كبرياء الحاكمين المستبدين وخلّدت ذكرى تلك المعركة المفزعة لاشياع آل أمية وأمثالهم من الظلمة وفراعنة العصور ما دام التاريخ. وخطت هي واخوتها وأنصارهم على ثرى الطف بأحرف من النور الوضاح الذي يبدد ظلمات الليل البهيم. ان دولة الباطل ساعة ودولة الحق الى قيام الساعة.

لقد شاركت أخاها الحسين في جميع مواقفه من الظالمين ورجعت من كربلاء حاملة لرسالة أخيها لتوصلها للرجال والنساء من الاجيال في كل أرض وزمان بالرغم من ضجيج الجلادين ووعيدهم فكانت القدوة التي تعلّم الرجال من سيرتها ومواقفها الخالدة معاني الرجولة، وتعلّم النساء كيف يتخلصن من فتن الاغراءات الخبيثة التي تدهم من حولهن ومن دهاليز الحضارة الجديدة التي تقتحم العصور بمفاتنها ومغرياتها والتي تستل القيم والاخلاق والاديان من النفوس والقلوب بألوانها البراقة، وان مواقفها في كربلاء والكوفة والحجاز وعاصمة الجلادين دمشق قد احدثت هزة من أعنف الهزات ما كانت لتحدث لولا تلك الرسالة التي ضعضعت الحاكمين وفراعنة العصور من بني أمية وغيرهم من الطغاة والظالمين.

فأين من زينب وأخوات زينب نساؤنا اليوم وقبل اليوم، الضائعات في متاهات الحياة ايمانا وعزيمة وصبراً في الشدائد والاهوال وتمسكا بالقيم وتعاليم الاسلام والاخلاق الكريمة الفاضلة، وأين من أصحاب الحسين وأنصاره من يدعون التشيع في عصرنا الحالي ويرددون في مثل هذه المناسبات: يا ليتنا كنا معك فنفوز فوزاً عظيما، بكلمات تجري على ألسنتهم وهم في واقعهم من أبعد الناس عن الحسين وجد الحسين، ولو وجدّ في زماننا هذا من يسير على خطى الحسين ويقف من الظلم والظالمين وجاهلية القرن العشرين موقف الحسين من جاهلية الامويين لا يجد من يضحي بنفسه تضحية أصحاب الحسين ولا من يناصره، وسلام الله وتحياته على زينب وأبيها وأخوتها وجميع الثائرين على الظلم والجور الى ان تقوم الساعة.

وكما اختلف الناس في رأس الحسين أين دفن وكيف استقر في الأمصار والاقطار التي تدعيه وتقدس البناء الذي يرمز اليه اختلفوا في مرقد العقيلة الكبرى بطلة كربلاء بين المدينة والشام ومصر فرجح جماعة انها ماتت ودفنت في المدينة الى جانب زوجها عبدالله بن جعفر وأكد ذلك السيد الامين في أعيانه، وتحدث عنها

وعن مواقفها وبطولاتها علماء القرنين الثالث والرابع وعن رجوعها من الشام الى المدينة ولم يتحدث احد منهم عن خروجها من المدينة الى اي بلد آخر.

كما رجّح جماعة انها دفنت في بلاد الشام حيث قبرها الان وان زوجها كان يملك ضيعة في تلك المنطقة فرحل بها من المدينة اليها وتوفيت فيها ودفنت حيث المرقد المنسوب اليها الذي يؤمّه مئات الالوف من الزائرين في كل عام.

ورجّح آخرون انها نفيت من المدينة بأمر من يزيد بن معاوية بعد ان أحس بأن بقاءها يشكل خطراً عليه في الحجاز فاختارت مصر ودفنت في مكان يعرف بالفسطاط حيث ينسب اليها ذلك المرقد الموجود هناك الذي يقدسه المصريون، كما يقدّس الشيعة قبور أئمتهم الاطهار، ويتوافدون اليه من جميع انحاء تلك البلاد كما رجّح ذلك ابن عساكر في تاريخه وغيره،[1] وقد حضرني هذان البيتان وأنا أحاول ان أختم حديثي عن مرقدها ومثواها:

لا تطلبوا مثوى العقيلة في شرق ارض او بغرب
ودعوا البلاد وعرجوا نحوي فمثواها بقلبي

(١) أنظر زينب بنت علي لعبد العزيز سيد الأهل وزينب الكبرى للشيخ فرج القطيفي.

ماذا بعد مجزرة كربلاء

لقد احدثت تلك المجزرة هزة عنيفة في العالم الاسلامي لم يعرف المسلمون في تاريخهم الحافل بالاحداث أعنف منها ولا حادثا من الاحداث كان له من الآثار العميقة في النفوس والعقائد والحياة السياسية ما كان لمجزرة كربلاء.

ولا احسب ان في كل ما حدث شيء من الغرابة لان المسلمين على ما بينهم من خلافات في النزعات والاتجاهات يقدرون للحسين مكانته في الاسلام وصلاته بجده صاحب الرسالة وقد سمعوا من النبي ما كان يقوله فيه وفي اخيه الحسن وكيف كان يعامله في مجالسه العامة والخاصة وأحيانا كان وكأنه ينظر فيها وراء الغيب الى ما يجري عليه فيبكي ويبكي المسلمون لبكائه، فليس بغريب اذا ألهب مصرعه على النحو الذي وقع عليه المشاعر وأرهف الاحاسيس وأطلق الألسن وترك في نفوس المسلمين أثراً حزيناً دامياً يجمع القلوب حول هذا البيت المنكوب:

وأي رزية عدلت حسيناً عداة بينه كفا سنان

نعم ليس بغريب اذا استعظم الناس على اختلاف ميولهم ونزعاتهم هذا التنكيل الشائن بعترة الرسول الامين (ص) وسلالته وفلذات كبده وقرة عينه ورأوا فيه كفراناً لحقه وتعريضاً لغضبه وامتهاناً لكرامته.

ماذا تقولون إذ قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الامم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي نصف أسارى ونصف ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي اذا نصحت لكم ان تخلفوني بشر في ذوي رحمي

فبهذا وأمثاله قامت النائحات في جميع العواصم الاسلامية يندبن الحسين

ومن قتل معه من بنيه واخوته وأنصاره ويبكين لمصارعهم وما جرى لهم من حفيد ابي أسفيان وجلاديه وانطلقت الالسن الشاعرة ترثيه وتصور أسف النبي (ص) عليه وهو في قبره وحزنه العميق على سبطه واحتجاجه على أمته التي لم تحفظ له حقا ولم ترع له حرمة، وتلقي على الامويين مسؤولية جريمتهم ومروقهم من الدين وانتهاكهم لجميع الحرمات والمقدسات.

لقد هال الناس هذا الحادث الجلل حتى الامويين أنفسهم فأقضّ المضاجع وأذهل العقول وارتسم في الاذهان حتى اصبح الشغل الشاغل للجماهير وحديث النوادي ومسرحا للتخيلات، وادعى الناس في المدينة انهم سمعوا هاتفاً يقول كما جاء في الطبري وابن الاثير:

ايها القاتلون جهلاً حسيناً	أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم	من نبي وملاك وقبيل
قد لُعنتم على لسان ابن داود	وموسى وصاحب الانجيل

وراحوا يتصورون لمدة شهرين او ثلاثة كأن الحيطان تتلطخ بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع كما جاء في تاريخ الطبري أيضاً.

ورووا عن النوار زوجة خولي بن يزيد الاصبحي انها قالت له ليلة دخل الكوفة برأس الحسين (ع) وأدخله عليها: لقد جاء الناس بالذهب والفضة وجئتني برأس الحسين، وكان قد وضعه تحت إجانة في صحن الدار فقامت من فراشها غضبى وخرجت الى الدار فرأت نوراً يسطع مثل العمود من السماء الى الإجانة وطيوراً بيضاء ترفرف حولها.[1]

واستغل الشعراء هذا الحادث المفجع فرووا حوله شتى الاحاديث وصاغوه بألوان شعرية دامية يصدرها قلب مكلوم ثائر حزين يدعو الى الثورة العارمة بعنف وصراحة ويسجل تلك الاحزان العلوية في أسف ولوعة مناديا يا لثارات الحسين.

وقد وصف ابن الطقطقي في كتابه الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية تلك الفاجعة بقوله: اذا كان قتل أمير المؤمنين هو الطامة الكبرى فهذه القضية جرى فيها من القتل الشنيع والسبي والتمثيل ما تقشعر له الجلود، ولقد

(١) أُنظر أدب الشيعة للدكتور عبد الحسيب طه عن ابن الأثير ج ٤ ص ٤٠ والطبري ج ٢ ص ٢٢٣ و ٢٦٩ و ٢٦١.

اكتفيت ببسط القول فيها لشهرتها فلعن الله كل من باشرها وأمر بها ورضي بشيء منها، ولا جدال في انها مأساة مؤلمة فقد وطئت الخيول صدر الحسين واجتزوا رأسه ومثلوا بجثته، وتطاول قتلته على النساء فكانت المرأة تنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه وتبقى بدون ساتر.

ولقد أحس المسلمون على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم من خذلانه ومن تجاهله وحتى الذين قاتلوا وقادوا المعركة ضده بالندم والخيبة فقد جاء عن عمر بن سعد انه كان يقول: لا تسل عن حالي فانه لم يرجع غائب عن منزله بأشر مما رجعت به فلقد قطعت القرابة القريبة وارتكبت الامر العظيم. كما ندم يزيد على قتله وبكى بكاءً عاليا وحينما علم ملك الروم بتلك المجزرة غضب لذلك وكتب الى يزيد كتابا جاء فيه: لقد قتلتم نبياً او ابن ظلما وعدوانا[1].

والى جانب تلك الآثار السيئة النفسية التي خلفتها تلك المجزرة الرهيبة في نفوس الجماهير المسلمة، فلقد كان لها اعظم الاثر في تقويض الدولة الاموية وعدم الاطمئنان اليها واستغلها أعداء أهل البيت كابن الزبير وأمثاله وجعل يندد على يزيد والامويين ويرثي الحسين وأصحابه ويلعن اهل الكوفة لخذلانهم اياه ويزيد بن معاوية وجميع من اشترك في قتاله، ويعلن عن عدم اطمئنانه للحكم الاموي ويقول: أبَعْدَ الحسين نطمئن الى هؤلاء القوم ونصدق لهم قولا، أما والله لقد قتلوا طويلا بالليل قيامه، كثيرا بالنهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم وأولى في الدين والفضل.

(١) ص ٢٦ من المجلد الأول المحاسن والمساوي للبيهقي.

استغلال ابن الزبير لمصرع الحسين

فما أشبه اليوم بالبارحة والتاريخ يعيد نفسه، لقد كان موقف ابن الزبير من قتل الحسين أشبه ما يكون بموقف معاوية من عثمان بن عفان، فمعاوية وابن الزبير من معدن واحد في الاحتيال والنفاق، لقد كان ابن هند يتمنى قتل عثمان ليشنّع به على علي (ع)، وابن الزبير، لقد ارتاح وطابت نفسه لقتل الحسين لان قتله كان من أشد الاسلحة فتكا بيزيد ودولته مع بعد المسافة بين ابن عفان وابن رسول الله. لقد كان معاوية يعمل بكل وسائله على انتقال السلطة من عثمان اليه وكان واثقا بأن الطريق الوحيد لإتمام ذلك يتوقف على قتل عثمان على يد الثوار في المدينة لكي يتسنى له اتهام علي بن ابي طالب بذلك، فكان من أحرص الناس على قتله ويعمل بوسائله الخاصة وبتحريض الحزب الاموي في المدينة لإفشال جميع المحاولات التي كان يبذلها امير المؤمنين للتوفيق بين الثوار والخليفة وكان له ما اراد فاتخذ من قتل عثمان وسيله للتشنيع على امير المؤمنين واتهمه بقتله واستولى بعد ذلك على السلطة كما ذكرنا ذلك خلال الفصول السابقة ووقف أبن الزبير الموقف نفسه من الحسين وكان خلال الاشهر القليلة التي أقامها في مكة من أثقل الناس على ابن الزبير ولم يتعرّف عليه أحد لا من المكيين ولا من الوفود التي كانت تؤمها من مختلف الامصار خلال اقامة الحسين فيها فلما خرج الحسين منها وقتل وأحسّ المسلمون بتلك الصدمة العنيفة استغل مصرع الحسين للتشنيع على الامويين، وما كاد الناس يسمعون اقواله وتنديداته بالامويين وما ارتكبوه من الجرائم مع اهل البيت حتى اجتمعوا عليه وجعلوا يطالبونه بأن يطلب البيعة لنفسه ويعلن نفسه أميراً للمؤمنين، ولكنه كان يتمنى عليهم التروي ويتظاهر

بعدم رغبته في هذا الامر ويلتجيء الى البيت الحرام في أكثر أوقاته حتى سماه الناس بالعائذ بالبيت، كل ذلك ليظهر للناس زهده في الدنيا والخلافة وليزدادوا به تعلقا، وممن كان يلح عليه في الخروج من عزلته المصطنعة واعلان البيعة له المختار بن عبيدة الثقفي، ولما يئس منه غادر مكة الى الطائف مسقط رأسه وموطن قبيلته ثقيف وهي على مقربة من مكة مقر ابن الزبير يراقب منها ما يجري من أحداث وتطورات على المسرح السياسي في الحجاز.

وتوالت الاخبار على يزيد بأطماع ابن الزبير وموقف الحجازيين على ما بينهم من خلاف في النزعات والاتجاهات من دولة الامويين ونقمتهم عليه بسبب مجزرة كربلاء التي أصابت الاسلام في الصميم والتي كان من نتائجها التفافهم حول ابن الزبير واتفاقهم عليه، فاستبد به الغضب وعاهد الله على ان يوثقه بسلسلة من الحديد ويصنع به وبمن حوله ما صنعه بالحسين وأنصاره، وكتب الى واليه على مكة يأمره بذلك ولكن الوالي بالرغم من حزمه وشدته لم يجرأ على تنفيذ هذه المهمة ورجح التريث في هذا الامر حتى لا يضيف الى مجزرة كربلاء، التي لا تزال تتفاعل في النفوس عاطفياً وسياسياً مجزرة اخرى، وبمرور الوقت وبأقصى مراحل السرعة كانت شعبية ابن الزبير تزداد يوما بعد يوم مما جعل مقاومته بحكم المتعسرة بعد ذلك الغليان الذي تركته مجزرة الطف وما رافقها من تحديات للقيم والاخلاق والاعراف.

وجاء في المجلد الرابع من تاريخ الطبري ان امر ابن الزبير ارتفع بمكة عاليا وكاتبه اهل المدينة وكان الناس يقولون يومذاك: ليس لها بعد الحسين غير ابن الزبير، واستطاع هو ان يستغل الموقف من جميع جوانبه بمهارة لا نظير لها فمن اعتكاف في الكعبة الى تباكٍ على الحسين وأصحابه الى التجاهر بعدم رغبته في الحكم الى غير ذلك من المظاهر التي جذبت اليه الناس وجعلتهم يتناسون تاريخه الاسود وأطماعه في السلطة.

ونقل الناس الى ابن الزبير حكاية السلسلة التي أقسم يزيد ان يوثقه بها ويصنع به ما صنع بالحسين بن علي (ع) وأصحابه فقال: ان الحسين خرج الى من لا يعرف حقه وان المسلمين قد اجتمعوا علي ليبايعوني على الموت، فقال له الذي حمل اليه تهديد يزيد ووعيده: ان ابن عمر وابن عباس لم يبايعاك وهما من قد عرفت بين المسلمين، وأدرك ابن الزبير ان موقفهما السلبي من بيعته يشكل خطراً عليه ويلفت الانظار فراح يعمل لاقناعهما ببيعته فالتجأ اولا الى زوجة عبد الله بن عمر صفية بنت أبي عبيدة الثقفي اخت المختار وذكر لها ان خروجه على يزيد لم يكن الا غضبا لله

ولرسوله وللمهاجرين والانصار من ظلم يزيد وللحسين وأصحابه وسألها ان تقنع زوجها ببيعته، فلما قدّمت له عشاءه ذكرت له امر ابن الزبير وأثنت عليه وأكثرت من القول في أمره، فرد عليها بقوله: أما رأيت بغلات معاوية التي كان يحج عليها فان ابن الزبير لا يريد غيرها، وكانت متأثرة بموقف اخيها المختار منه فقد شد الرحال من العراق معلناً تأييده لابن الزبير، ولكن زوجها لم يستجب لطلبها ورسم لنفسه سياسة الحياد والابتعاد عن المشاكل كما كان يدعي، ولا استبعد انه كان اقرب الى الامويين منه الى الزبيريين.

وأما عبدالله بن العباس فقد حاول معه ابن الزبير على البيعة ورفض الاستجابة لطلبه لعلمه بأن موقفه من مصرع الحسين وأصحابه لم يكن سوى ستار يخفي وراءه أطماعه في الخلافة واذا تمكّن منها فسوف لا يكون موقفه منهم أشرف ولا أسلم من موقف الامويين فأصر على عدم بيعته لابن الزبير.

ولما بلغ امره يزيداً كتب اليه كتاباً جاء فيه: أما بعد فقد بلغني ان الملحد ابن الزبير دعاك الى بيعته وعرض عليك الدخول في طاعته لتكون على الباطل ظهيراً وفي المأتم شريكاً وانك امتنعت عليه واعتصمت ببيعتنا وفاء منك لنا وطاعة لله فيما عرفك من حقنا فجزاك الله من ذي رحم بأحسن ما يجزي به الواصلين لارحامهم، ومهما نسيت فلا انسى برّك وحسن جزائك وتعجيل حقك بالذي انت مني أهله في الشرف والطاعة والقرابة من رسول الله، فانظر رحمك الله من قبلك من قومك ومن يطرأ عليك من الآفاق ممن يسحره الملحد بلسانه وزخرف قوله فاعلمهم بحسن رأيك في طاعتي والتمسك ببيعتي فانهم لك أطوع ومنك أسمع منهم للمحل الملحد والسلام.

هذا الكتاب الذي أرسله ابن ميسون كما روى ذلك اليعقوبي وغيره من المؤرخين الى عبد الله بن العباس الذي لا يزال هو وأسرته من الهاشميين يبكون ويندبون قتلة الطف يؤكد ما يرويه المؤرخون عن نزق يزيد وصلفه واستخفافه بجميع القيم والمقدسات والاعراف.

لقد وصف فيه ابن الزبير بالالحاد، وبالامس القريب كان رأس الحسين (ع) بين يديه في قصر الخضراء وكان مزهوا وهو ينكث ثناياه بمخصرته ويقول: لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل.

وليس لدينا ما يمنع من ان يكون ابن الزبير ملحداً كما يصفه ربيب الشرك والالحاد، ولكن التاريخ لم يتحدث عن تصريح له يؤكد الحاده كما حدّث عن يزيد

وأكدته سيرته وأحداثه الجسام التي لا تفسير لها الا بالشرك.

وقال في كتابه لابن عباس: انك لم تمتنع عن بيعة ابن الزبير الا طاعة لله فيما عرفك من حقنا وصلة للرحم التي تربطك بنا، ان الرحم المزعومة التي تربط ابن ميسون بعبد الله بن العباس تربطه بالحسين (ع) وأسرته ونسائه وأطفاله، فلماذا قطعها بذلك النحو الفظيع ولم يرع لها ولرسول الله حرمة، لقد أراد من ابن عباس الذي لا يزال يبكي الحسين وآله وصحبه ان يكون داعية ومعينا له على الاجرام والتنكيل بصلحاء المسلمين والتحريف لرسالة الاسلام، لقد أراده ان يبقى ملتزما ببيعة من يتمنى حضور أشياخه الذين صرعهم الاسلام في بدر وأحد لينظروا كيف انتقم لهم من محمد بن عبد الله بقتل سبطه الحسين وبنيه واخوته وسبي نسائه وأطفاله على أسوأ حال عرفتها الحروب في العالم.

لقد صدق من وصفه بالنزق والسفه وعدم التفكير فيما يعمل ويقول، لقد كان معاوية الذي علم الناس المكر والاحتيال واللف والدوران يهاب ابن عباس ويخشاه ويحسب الف حساب وحساب لكل كلمة يتكلم بها في مجلسه، ومن قبله كان ابن الخطاب كذلك، وهذا خليفة ابن هند قاتل العترة الطاهرة الذي ألبس ابن عباس ثياب الحزن والجزع على أسرته وأبناء عمومته وسيد شباب اهل الجنة يقول له: انك قد اطعت الله ووصلت رحمك بتمسكك ببيعتي وامتناعك عن بيعة ابن الزبير ويطلب منه ان يكون داعية له ومبشرا بعدله وحسن سيرته.

ومهما كان الحال فابن عباس لا ترهبه سطوة يزيد ولا يخاف طيشه ونزقه فقد أجابه بجواب فضح فيه آل أمية وهتك جميع اقنعتهم واستعرض جميع مخازيهم ومفاسدهم وجاء في جوابه اليه «بفيك الكثكث ولك الاثلب انك ان تمنيك نفسك ذلك لعازب الرأي لا تحسبني لا ابالك اني نسيت قتلك حسيناً وفتيان بني عبد المطلب مصابيح الدجى ونجوم الأعلام غادرتهم جنودك مصرعين في الصعيد مرملين في التراب مسلوبين بالعراء تسفي عليهم الرياح وتعاورهم الذئاب وتنتابهم عرج الضباع حتى اتاح الله لهم أقواما لم يشتركوا في دمائهم فأدرجوهم في أكفانهم وبي وبهم والله لقد عززت وجلست مجلسك الذي جلست وما نسيت من الاشياء فلست بناس تسليطك عليهم الدعي العاهر بن العاهر البعيد رحما اللئيم ابا وأما الذي في ادعاء ابيك اياه ما اكتسب الا العار والخزي والمذلة في الآخرة والاولى وفي الممات والمحيا، وان النبي (ص) يقول: الولد للفراش وللعاهر الحجر فالحقه بأبيه كما يلحق بالعفيف

التقي ولده الرشيد فأمات ابوك بذلك السنّة جهلاً وأحيى البدعة والاحداث المضلة عمداً».

ومضى يقول: ولست بناس دسِّك الرجال الى الحسين بن علي لتغتاله وان كان متعلقا بأستار الكعبة حتى اشخصته من حرم جده الى الكوفة وقد كان أعز اهل البطحاء بالبطحاء وأطوع اهل الحرمين بالحرمين. وكتبت الى ابن مرجانه ليستقبله بالرجال وبمعاجلته والالحاح عليه حتى يقتل هو ومن معه من بني عبد المطلب اهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس.

ومضى يقول: ولا شيء عندي أعجب من طلبك ودي ونصرتي وقد قتلت بني ابي، وسيفك يقطر من دمي وأنت أحد ثاري وان شاء الله لا يطل ولا تسبقني بثارى، الا ومن أعجب الاعاجيب وما عشت أراك الدهر عجباً حملك بنات عبد المطلب وغلمة صغارا من ولده اليك بالشام لتري الناس انك قهرتنا وانك تأمرت علينا، الى غير ذلك مما جاء في كتابه من الحقائق والصواعق المحرقة لهذا البيت الذي تمادى قادته وحكامه في الظلم والجور وقتل الابرياء والصلحاء والاستهتار بالقيم والمقدسات الى ابعد الحدود.

ومهما كان الحال فلقد استغل ابن الزبير مجزرة كربلاء وجعل يندد بيزيد وجلاديه ويحذر المسلمين من شرهم وطغيانهم، ومن خلال مواقفه هذه اتجهت اليه الجماهير وراودتها الاحلام بالتخلص من تلك الدولة العاتية بعد ان بلغت النقمة عليها أقصى حدودها وأيقن المسلمون في الحجاز وخارجه انهم اذا تجاهلوا هذا الحدث الخطير ووضعوه الى جانب غيره من أحداث الامويين لا تبقى لاحد حرمة الا وتداس تحت أقدامهم ولا يهابون بعده أحداً كما قال عبد الله بن مطيع للحسين (ع) وهو خارج من مكة وابن مطيع في طريقه اليها.

فقد قال له يومذاك: اذا قدمت العراق ستقتل يا ابا عبد الله واذا قتلوك لن يهابوا بعدك أحداً أبداً.

لقد عمت النقمة جميع الاوساط، مما اضطر يزيد لان يتبرأ من مصرع الحسين (ع) ويحمّل ابن زياد مسؤولية قتله فكان يقول بعد ان عرف اهل الشام حقيقة ما جرى للحسين وأصحابه، وعندما رأى الوجوه قد تغيرت وراح الناس يتحدثون عن هول تلك المأساة كان يقول: لعن الله ابن مرجانة لو كنت مكانه لرضيت من الحسين بأقل من ذلك، وعندما سمع ابن سعد بأن اللعنات تنهال عليه في الحجاز من الرجال

والنساء وأصبح كريها على لسان الكبار والصغار أرسل رسولاً الى نساء الأنصار في المدينة ليبرىء نفسه مما جرى لاهل البيت (ع) وأرسل معه كتاب ابن زياد اليه الذي يقول فيه: اني لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتطاوله وتمنيه السلامة والبقاء ولا لتكون له شفيعاً عندي، وانظر فان نزل الحسين وأصحابه على حكمي فابعث بهم الي سلما وان ابوا فازحف عليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم لذلك مستحقون، وان انت قتلت حسينا فأوطىء الخيل صدره وظهره فانه عاق قاطع ظلوم، فان انت مضيت لامرنا جزيناك جزاء السامع المطيع وان انت أبيت فاعتزل عملنا وخلّ بين شمر وبين الجيش.

هذا الكتاب أرسله ابن سعد الى المدينة حيث أهلها نساءً ورجالاً يكيلون له ولأميره آلاف اللعنات ويتبرأون منه في النوادي والمجتمعات ويلوذون بزينب وأخواتها وبالامام زين العابدين (ع) يبكون وينتحبون والعقيلة تجوب بيوت أخوتها وبني عمومتها باكية نادبة ومن خلفها بنات المهاجرين والأنصار يبكين لبكائها ويندبن الحسين ومن قتل معه من اخوته وأبناء عمومته وأنصاره.

وأدرك ابن زياد أنه اصبح يتحمل القسط الاكبر من المسؤولية وان اللعنات التي اصبحت تنهال عليه تعادل ضعفي ما ينهال على يزيد وابن سعد وغيرهما فطلب من ابن سعد الكتاب ليخفيه عن الناس فادعى انه قد فُقِد منه، ولما ألح ابن زياد في طلبه قال له ابن سعد: لقد ارسلته الى نساء قريش في المدينة لاعتذر لهن عن قتل الحسين أما والله لقد نصحتك في الحسين نصيحة لو نصحتها لأبي سعد بن وقاص لكنت أديت اليه حقه، وكان عثمان بن زياد شقيق عبيدالله حاضرا فقال لعمر بن سعد: صدقت، والله لوددت انه ليس من بني زياد رجل الا وفي انفه خزامة الى يوم القيامة وان حسيناً لم يقتل[1].

لقد كان مقتل الحسين ذا حدين استفاد منه اعداء الحسين كابن الزبير الذي جمع الناس حوله في الحجاز واستغله للتشهير بيزيد والامويين وجعل يتباكى ويتظاهر بالحزن على الحسين وأصحابه فاجتمع الناس عليه والتفوا من حوله، وفي الوقت ذاته فقد ايقظ شيعة الحسين وجعلهم يشعرون بأخطائهم معه ومع ابيه وأخيه وبتقصيرهم في نصرته وانضمت اليهم جميع العناصر المناوئة للامويين من الموالي وغيرهم واتفقوا جميعا على صيحة واحدة تستر وراءها اغراضهم المختلفة (يا

(١) زينب بنت علي لعبد العزيز سيد الأهل عن الطبري ج ٤ ص ٣٥٧.

لثارات الحسين) فكان لهذه الصيحة الصدى الواسع في جميع الاوساط الاسلامية الذي أقلق الظالمين وزعزع عروشهم وقوّض دعائم دولتهم في المشرق العربي وأصبحوا لعنة على لسان الاجيال الى قيام يوم الدين، وباء الحسين (ع) وحده بالفخر الذي لا فخر مثله في تاريخ بني الانسان وحسبه انه وحده في هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد وأب للمئات من الشهداء والقدوة لكل ثائر على الظلم والظالمين.



انتفاضة المدينة

لقد كانت مدينة الرسول (ص) تعيش تلك المأساة التي خلفتها مجزرة الطف من جميع نواحيها وبكل فصولها كما كان يمثلها الامام السجاد واخواته وعماته والثكالى من آل أبي طالب (ع) اللواتي كن لا يهدأن ولا ينقطع عويلهن وصراخهن ليلا ونهاراً. وبقي الامام السجاد (ع) باكياً حزيناً لم يقدم له طعام وشراب الا ومزجهما بدموعه شطراً كبيراً من حياته فيرق لحاله ويبكي لبكائه العدو والصديق والقريب والبعيد، وكان اذا مرّ بسوق القصابين يسألهم اذا كانوا يسقون ذبيحتهم قبل ذبحها ثم يصيح باكياً: لقد ذبح ابو عبد الله عطشانا فيبكي أهل السوق لبكائه.

وجاء عن الامام الصادق (ع) ان بعض مواليه كان يقول له: إني أخاف عليك ان تكون من الهالكين، فيقول له: كيف لا أبكي وقد نظرت الى ابي وأخي وعمي وبني عمومتي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي مجزرين كالاضاحي.

وقال الامام الصادق (ع): ان جدي علي بن الحسين بكى على أبيه طيلة حياته وكان اذا قدم له طعامه وشرابه ووضع بين يديه لا يزال يبكي حتى يبتل طعامه من دموع عينيه.

وفي بعض المرويات ان الرباب احدى زوجات الحسين لما رجعت الى المدينة ودخلت بيتها أمرت بقلع سقفه وبقيت هي وابنتها في بيت لا سقف له فاذا قيل لها قومي عن حرارة الشمس تصيح باكية نائحة وتقول: لقد رأيت الحسين بعيني تصهره حرارة الشمس، الى غير ذلك من مواقف أهل البيت التي ألهبت شعور أهل

المدينة والوضع في طريقه الى الانفجار من وقع تلك الاحداث المريرة، وقد أحس الوالي على المدينة عمرو بن سعيد الاشدق بالخطر المحدق به، وجاء عنه كما في رواية ابن عساكر وغيره انه كتب الى يزيد بن معاوية: ان زينب بنت علي وأخواتها قد هيجن عليك الرأي العام والمدينة سائرة الى الثورة لا محالة ما دامت فيها فكتب يأمره باخراجها من الحجاز وان يفرق بينها وبين الناس، وعندما عرض عليها الوالي أمر يزيد بن معاوية قالت: لقد كنا نساق كما تساق الانعام عندما قتل خيارنا وحملنا على الاقتاب من بلد الى بلد فوالله لا اخرج من حرم جدي، فجاءتها زينب بنت عقيل كما في رواية ابن عساكر وقالت لها: يا ابنة عماه لقد صدقنا الله وعده وأورثنا الارض نتبوأ منها حيث نشاء فطيبي نفسا وقري عينا وسيجزي الله الظالمين بما اقترفت أيديهم أتريدين بعد هذا هواناً، ارحلي الى بلد آمن، ثم اجتمع عليها نساء بني هاشم وما زلن بها حتى اختارت مصر.

وظلت الامور تتفاعل في المدينة ومصرع الحسين واخوته وبنيه وسبي نسائه وما رافق ذلك حديث العامة والخاصة والنقمة على يزيد وبني أمية تزداد يوماً بعد يوم، وأحس المسلمون بالمسؤولية لتخاذلهم عن نصرته وتلبية ندائه مما أثار في نفوسهم مشاعر الحقد والكراهية لبني أمية وراح الناس يفكرون فيمن يخلفهم فلم يجدوا لهم بديلا غير ابن الزبير وكان قد لاذ بالبيت الحرام واعتصم به وأظهر الزهد والتنسك حتى اصبح يعرف بالعائذ بالبيت الحرام، وكان التعبير الطبيعي للكراهية والحقد على الامويين هو العصيان المسلح وخلعهم لتلك البيعة الغادرة التي فرضها معاوية على المسلمين بالمال والسلاح وهكذا كان فقد كان الحكم الاموي هدفاً لانتفاضات كثيرة بعد مجزرة كربلاء أججها مصرع الحسين وكان باعثها التكفير عن خذلانه وعدم مناصرته، وجاءت ثورة المدينة في طليعة تلك الانتفاضات وهي وان لم تتخذ الطابع الشيعي الا ان دوافعها الاساسية لم تكن سوى تلك الجريمة التي ارتكبها الحزب الاموي مع الحسين وأصحابه.

وأحس يزيد بن معاوية بذلك الشعور المتأجج في نفوس اكثر المسلمين من اجل الحسين وما جرى له، فراح يتنصل من تلك الجريمة ويحاول تغيير سياسته التي اتسمت بالعنف والقسوة واللامبالاة في مختلف الميادين بسياسة اقرب الى اللين والتساهل من تلك التي كان يتعامل بها مع المسلمين وجعل يتودد الى العلويين ويوصي بهم خيراً.

لقد خاف يزيد بن معاوية من الحسين مرتين، خافه على ملكه فطاش عقله

وقتله مع اخوته وبنيه وخافه المرة الثانية بعد القتل فغيّر سياسته مع المسلمين ورجع الى اهله يتوددهم ويتظاهر بالرفق بهم، وهكذا يجمح الخوف بالنفس فيدفعها الى الغلو فتفعل المتناقضات وتأتي بالاضداد والغرائب.

لقد لمس يزيد بأن أسلوبه الاول في معاملته مع الناس قد جرّ عليه الكوارث وهيج عليه الرأي العام فعزل الوليد بن عتبة عن المدينة وولاها عثمان بن محمد بن ابي سفيان وأوصاه بالاحسان الى الناس والرفق بهم، وأراد الوالي الجديد ان يتبع تلك السياسة التي ارتآها ابن ميسون فأرسل وفداً من أهل المدينة الى عاصمة الدولة الاموية بناء لطلب يزيد بن معاوية وهو يحسب بأن حفاوة يزيد بهم وإكرامه لهم يخفف من نقمتهم عليه وانهم سيرجعون من الشام وهم مقتنعون بأن النتائج التي انتهت اليها معركة الطف لم تكن برأيه ولم يكن ينتظرها وانهم سيتراجعون عن ابن الزبير، وسار الوفد المؤلف من أشراف المدينة وعلى رأسه عبد الله بن حنظلة الغسيل والمنذر بن الزبير وعبد الله بن ابي عمرو بن خوص يقطع المسافة من المدينة الى الشام لضيافة ابن ميسون، وظلت المدينة تنتظر وفدها بفارغ الصبر لتتخذ بعد رجوعه الموقف الحاسم من الخليفة وجلاديه، وعندما حط الوفد رحاله في قصر الخضراء بالغ الخليفة في الحفاوة به وأكرمه إكراما لا حدود له، ونال الوفد وقادته العطاء الجزيل وخص زعماء الوفد برعايته وأكبر مبلغ من المال وهو واثق من ان الوفد سيرجع بغير الروح التي كان يحملها عندما خرج من المدينة ولكن سهامه قد طاشت وظنونه قد خابت فلم يحصل منهم على غير السباب والهجاء وقالوا لأهل المدينة: لقد وفدنا على رجل لا يعرف الدين ولا الاسلام يشرب الخمور ويتعاطى جميع أنواع الفجور ويسامر الغلمان والقيان وينكح البنات والاخوات وإنّا نشهدكم باننا قد خلعناه فاخلعوه، وقال ابن حنظلة الغسيل: والله لو لم يكن معي احد لقاتلته بنفسي وولدي ومن معي من اهلي، واجتمع عليه أهل المدينة يبايعونه على قتاله.

ولما بلغت أخبارهم يزيد بن معاوية استبد به الغضب وعاد الى طبيعته الاولى وأرسل النعمان بن بشير والمختار يومذاك متزوج من ابنته أرسله الى المدينة ليتدارك الموقف قبل ان يتأزم بنحو لم يعد بالامكان تداركه فأقدم عليهم وحذرهم من الخلاف والفتنة وما يترتب عليها من المفاسد فلم يستجيبوا لطلبه فرجع الى الشام فاشلا وقص على يزيد ما سمع وما رأى.

وهاجم أهل المدينة دور الامويين وأنصارهم فالتجأ نساؤهم وأطفالهم الى

بيوت العلويين ودار الامام علي بن الحسين زين العابدين فعاملوهم كما يعاملون انفسهم وقال النسوة بعد ذلك: والله انا لم نجد مع أهلنا وفي بيوتنا معاملة كالتي وجدناها من الامام زين العابدين وبقية العلويين[1] واستغاث الامويين بيزيد بن معاوية فانتدب عمرو بن سعيد الاشدق ليرسله على رأس جيش يتولى تأديبهم فاعتذر عن ذلك وأشار عليه هو وجماعة من حواشيه ومعاونيه بارسال مسلم بن عقبة فأرسله الى المدينة على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف فارس وخمسة عشر الف راجل، وقيل اكثر من ذلك وأوصى قائده مسرفاً بقتالهم والفتك بهم وإباحة المدينة لمدة ثلاثة ايام لجيشه ان هو استطاع التغلب عليهم كما أمره بغزو مكة بعد الفتك بأهل المدينة وأخذ البيعة منهم على انهم عبيد له ولاسرته وأكّد عليه ان يصنع بمكة وأهلها ما يصنعه بالمدينة.

وجاء في رواية ابن كثير في المجلد الثامن من البداية والنهاية ان معاوية قال لولده يزيد: سيكون لك يوم من اهل المدينة فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة، وسار ابن عقبة بالجيش وكان اهل المدينة قد حفروا خندقاً لاتقاء جيش الشام وحتى لا تكون المعركة في شوارعها كما فعل النبي (ص) في وقعة الاحزاب حينما جمع ابو سفيان المشركين لغزوها، ولما وصل الجيش الى مشارف المدينة اشار عبد الملك على الغزاة ان ينزلوا في الجهة الشرقية منها في مكان يدعى الحرة، وأصر اهل المدينة على موقفهم من حكومة ابن ميسون وكانت المعركة التي انتهت بهزيمة اهلها لعدم تكافؤ القوتين فقد بلغ جيش الغزاة نحوا من ثلاثين الفا وعدد المقاتلين من المدينة لم يتجاوز الألفين وقتلوا من صحابة الرسول (ص) اكثر من ثمانين صحابياً وسبعمائة من أولاد المهاجرين والانصار وأكثر من عشرة آلاف من سائر الناس كما أكدت ذلك المصادر التي أحصت أحداث تلك المعركة، وأباحها مسرف لجيشه ثلاثة ايام كما أمره حفيد هند وأبي سفيان فلم يترك اولئك الغزاة حرمة من حرم الاسلام الا وانتهكوها حتى ان المرأة والفتاة كانتا تلوذان بمحراب رسول الله (ص) فلا يتورع الغزاة من ان يرتكبوا معهن في مسجد الرسول ومحرابه ما يشتهون.

ودخل شامي على امرأة من نساء الانصار حديثة العهد بالولادة وهي تحتضن طفلاً لم يتجاوز خمسة عشر يوماً من عمره فلم يجد في بيتها شيئاً وطلب منها مالاً فقالت له: والله ما ترك لنا القوم شيئاً، فجذب الطفل من على ثديها وضرب به

(١) أنظر ج ٨ من البداية والنهاية لابن كثير.

الحائط فتناثر لحمه ودماغه في انحاء البيت، الى كثير من أمثال هذه الجرائم التي ارتكبها خليفة المسلمين في مدينة الرسول مع المهاجرين والانصار وبناتهم باسم الاسلام وباسم محمد رسول الاسلام والعدل والرحمة والانسانية.

وجاء في البداية والنهاية لابن كثير وتاريخ اليعقوبي وغيرهما ان الف امرأة أولدت في تلك السنة من غير ازواج وطلب من المسلمين ان يجددوا بيعتهم ليزيد على انهم عبيد له ولأسرته لا يملكون من أمرهم شيئاً، ومن امتنع عن قبوله هذه البيعة كان جزاؤه القتل، صحابياً كان أو من أولاد الصحابة والانصار وأحفادهم الذين احتضنوا الرسول ودعوته وناصروه على قريش وطواغيتها في بدر وأحد والاحزاب وغيرها من معاركه مع الشرك والوثنية.

ومن غير المستبعد ان يكون ما فعله ابن ميسون حفيد الشرك والوثنية مع الحسين وبنيه واخوته وأنصاره ونسائه في كربلاء وما فعله في المدينة مع الانصار وشيوخهم ونسائهم من قتل ونهب واباحة للاعراض قد كان للتنفيس عما كان يكنّه من كره وحقد للعلويين من ذرية محمد وللمهاجرين والانصار الذين وتروه في أعمامه وأخواله وأسرته في بدر وغيرها من المعارك التي خاضوها الى جانب محمد وعلي (ع) لحماية الاسلام من الشرك والوثنية والجاهلية يوم كان أبو سفيان وأسرته من أبرز المناوئين للاسلام ومسيرته، ويزيد بحكم تربيته ونشأته الى جانب أمه ميسون في البادية والصحاري قد تملكته عادات القبيلة وأطباع اهل البادية الذين يقدمون الثأر على جميع مهماتهم وأولوياتهم ولا يتغاضون عنه عندما تتوافر لديهم الظروف بحال من الاحوال كما اشرنا الى ذلك خلال الفصول السابقة.

ان الجرائم التي ارتكبها حفيد هند وابن ميسون ومعاوية في كربلاء مع الحسين وأسرته وفي مدينة الرسول مع المهاجرين والانصار ونسائهم لا لشيء الا لانهم انكروا عليه جوره واستخفافه بالاسلام وقيمه ومقدساته وبكرامة الانسان لا تختلف عما كان يرتكبه جنود الامويين في حروبهم وغزواتهم لبلاد الشرك والكفر، ولم يعد غريباً على موسى بن نصير الذي رجع من الاندلس يجر وراءه ثلاثين الف عذراء ومئات الالوف من الاسرى والاباعر من تلك البلاد، ولا بد وأن يكون وراء سبي كل فتاة قصة طويلة من النهب وسفك الدماء وانتهاك الحرمات، ومع كل تلك الجرائم التي لم يحدّث التاريخ بأسوأ منها ولا بمثلها فقد كانوا يدعون حماية الاسلام وانهم ينشرون دين العدل والرحمة والانسانية، ومن المؤسف ان نرى اكثر الكتاب العرب يمجدون بني أمية وفتوحاتهم التي استعبدوا فيها الشعوب وانتهكوا

فيها الحرمات وتركوا للاسلام صورا مخزية فيها لم يحدّث التاريخ بأسوأ منها وما عرف الانسان في تاريخه الطويل أقبح منها كما تحدثنا عن هذه الناحية خلال الفصول السابقة.

ومهما كان الحال فلما انتهى مسلم بن عقبة من حرب المدينة خرج منها كما أمره يزيد بن معاوية باتجاه مكة المكرمة لحرب ابن الزبير وكان قد اعتصم بها والتف الناس حوله، وفي الطريق اليها ساءت حالته الصحية فاستدعى الحصين بن نمير وولاه امر الجيش وأوصاه بمقاومة ابن الزبير وأن يصنع بالمكيين ما صنعه بأهل المدينة ثم خرجت نفسه فدفنه الحصين حيث توفي، فجاءت أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة فنبشته من قبره وصلبته في ذلك المكان واجتمع عليه الناس يرجمونه بالحجارة، ولما بلغ الحصين بن نمير ما فعلوا به رجع وواراه في قبره وقتل جماعة ممن رجموه كما نصّ على ذلك اليعقوبي في تاريخه.

ولما أشرف ابن نمير بجيشه على مكة استعد ابن الزبير لمقاومته واشتبك بمن معه مع الغزاة في الحرم وخارجه وقذف اهل الشام الكعبة بالنيران فأحرقوها، وكان عبد الله بن عمير الليثي قاضي ابن الزبير اذا تواقف الفريقان ينادي أهل الشام بأعلى صوته: يا أهل الشام هذا حرم الله الذي كان مأمنا في الجاهلية يأمن فيه الطير والصيد فاتقوا الله في حرمته، فيردون عليه الطاعة الطاعة الكرة الكرة، فلم يزالوا يقذفون الكعبة بنيرانهم حتى احرقوها وكان ذلك سنة ٦٣ للهجرة.

وقال المسعودي في المجلد الثاني من مروج الذهب: ان الحصين بن نمير ومن معه من اهل الشام نصبوا المجانيق والعرادات على مكة والمسجد من الجبال والفجاج وابن الزبير ومعه المختار بن ابي عبيدة الثقفي قد بايعه على شروط شرطها عليه كان من جملتها ان لا يعصي له امرا ولا يخالف له رأيا فانهالت أحجار المنجنيق والعرادات والنيران والنفط وغيره من المحرقات على الكعبة وما زالوا يقذفونها حتى تهدمت واحترقت واشتد الامر على ابن الزبير وأهالي مكة وفي ذلك يقول ابو حرة المديني:

ابن نمير بئس ما تولى قد أحرق المقام والمصلى

وكان ذلك لثلاث خلون من ربيع الاول قبل وفاة يزيد بأحد عشر يوما على حد تعبير المسعودي في مروجه.

وخلال ايام من معارك جيش الشام مع ابن الزبير في مكة هلك يزيد بن

معاوية في موضع من بلاد الشام يقال له حوارين في صفر من سنة ٦٤ وانتهى خبر وفاته لقائده الحصين بن نمير فحاول عبثاً ان يستره عن الجيش لئلا يدب فيه الفتور والتخاذل ولكن خبر وفاته انتشر وشاع ولم يعد سرا يمكن الاحتفاظ به، وما ان بلغ امره الجيش حتى دب فيه التخاذل ورأى الحصين بن نمير ان يرجع بمن معه الى الشام ليرى مصير الخلافة وحاول مع ابن الزبير ان يذهب معه الى الشام وتعهد له بالبيعة فرفض ابن الزبير طلبه وبقي معتصما في مكة وانتشر دعاته في البلاد وبايعته اكثر الامصار، كما بايع اهل الشام معاوية بن يزيد وكان شابا لم يتجاوز العشرين من عمره، وبعد ايام قلائل من بيعته وقف خطيبا بين الجماهير من الامويين وغيرهم وقال: لقد نازع جدي معاوية من هو أولى منه بالخلافة وأحق بها لقرابته من رسول الله وركب بكم ما تعلمون حتى اتته منيته وصار رهينا في قبره بذنوبه وأسيرا لأخطائه وجرائمه، وقبل ان يرحل عن هذه الدنيا قلد الامر ابي فصار اسيرا بجرمه وذنوبه وان من اعظم الامور علينا سوء مصرعه وقبح منقلبه وقد قتل عترة الرسول وأباح مدينته وهدم الكعبة، ومضى يقول: لقد وليت عليكم وتقلدت أمراً ليس لي فان احببتم تركتها لرجل قوي كما تركها أبو بكر لعمر بن الخطاب وان شئتم تركتها بينكم شورى كما تركها ابن الخطاب وليس فيكم من هو صالح لها، ثم ترك المنبر ودخل منزله، فاتهم بنو أمية عمر القصوص بأنه هو الذي زين له الزهد وتفضيل علي بن ابي طالب على غيره ولم يقبلوا له عذرا ودفنوه حيا.

وظل ابن يزيد مصرّاً على رأيه بالرغم من إصرار أهله وذويه عليه بالعدول عن موقفه من الخلافة وكان رده الاخير عليهم ان الدنيا لو كانت مغنما فقد لقينا منها حظا وافراً وان لم تكن كذلك فحسب آل ابي سفيان منها ما اصابوا، ثم دخل منزله ولم يخرج منه الى ان مات بعد أربعين يوما على وفاة ابيه وقيل اربعة اشهر، وقد اتاح موقفه هذا لدعوة ابن الزبير ان تنطلق وتتسع في مختلف العواصم لا سيما بعد الخلاف الذي ظهر في اوساط الامويين عليها وانتهى باستيلاء مروان بن الحكم عليها، ولم يكن لمروان في ماضيه وحاضره ما يجعله مقربا من المسلمين فأبوه الحكم كان طريد رسول الله ولعينه وهو لم يكن في اوساط المسلمين يتمتع بصفة تؤهله لمثل هذا المركز، ولم ينس له المسلمون انه كان المحرك لسياسة عثمان بن عفان التي هيجت عليه الرأي العام وأثارت غضب الجماهير الذي اودى بحياته. كما لم ينس له اهل العراق بالذات مواقفه من امير المؤمنين في البصرة وصفين وقتله لحليفه طلحة في البصرة بعد انتهاء المعركة بتهمة التحريض على عثمان، وفي الوقت ذاته فانهم

يـرون بيعتهم لمروان استمـراراً للحكم الاموي الـذي عانـوا منه الامـرين على يـد معاوية وجلاديه ويزيد وعبيد الله بن مرجانة، وفي الوقت نفسه فقد كان ابن الـزبير معروفا في اوساطهم بأطماعه وبمـا كان يضمـره من سوء وشر للعلويـين والهاشميـين وأشياعهم ولم تغب عنهم مواقفه في البصرة وانحيازه السـافر لمعـاوية خـلال الاعوام العشرين التي قضاها في الحكم، ومع ذلك فقد كانـوا يرونـه أهون الشرين وبيعتـه أهون البيعتين ويقدرون بأنه سيعتبر وقـوفهم الى جانبـه في تلك الفترة تفضـلا منهم يمتنون بها عليه، في حين انهم لو بايعوا مروان بن الحكم سيعتـبر بيعتهم له امتـداداً للدولة الاموية التي أسسها معاوية ومن الواجبات التي يجب عليهم الالتزام بها.

لقـد توالت الاحـداث وتراكمت في تلك الفـترة من تاريـخ الاسـلام ومـات معاوية الثاني تاركا الدولـة مفككة الاوصـال تتجاذبهـا الاطماع والمصالح من جميـع الجهات، فالشيعة يريدون لو يتاح لهم ان تكون بقيادة العلويين، وأكثر المسلمين في الحجاز والبصرة وغيرهما يريدونها لابن الزبير وقد بايعوا وانقادوا لطاعتـه ولم يبق الى جانب الامويين سوى الشام وجهاتها، وقد انقسم الحزب الاموي على نفسه فالفرع السفياني يريدها لخالد بن يزيد، والفرع المرواني يريدها لزعيمـه مروان بن الحكم، وفي الـوقت نفسـه تعـرّض البيت الاموي لبعض الصراعات القبلية في بـلاد الشـام وأدى انحيـاز الامويـين لفئة دون اخـرى الى وقوف بعض القبـائـل الى جـانب ابن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس، وكـان الرابـح الاول من كل ذلـك هو ابن الـزبير واستقـامت له الامـور في اكثر المناطق والعواصم الاسـلامية بمـا في ذلك العـراق، ولكن مـوقف العـراقيـين وبخـاصـة الشيعـة لم يكن عن اقتنـاع بسـلامـة مـوقفـه واخلاصه، بل كان كما يبدو للتخلص من حكم الامويين كما ذكرنا وبانتظار الوقت المناسب، ولذا فقد رفضوا بيعته عندما خرج المختـار بن ابي عبيدة في الكـوفة يـدعو الى آل علي (ع) وجعل يتتبع قتلة الحسين وبايعوا المختار والتفوا حوله، ثم لم يلبثوا بعد ان خابت آمالهم بمقتل المختـار ان راسلوا عبد الملك بن مـروان وساعـدوه على مصعب بن الزبير الذي كان يقود المعركـة ضد المختـار وأنصاره، وقتـل منهم حينما حـاصر المختار ستـة آلاف في مجزرة واحـدة، الفـان من العـرب وأربعـة آلاف من الموالي الذين كانوا يناصرون الحركـات الشيعية، بـالاضافـة الى مئات القتلى الذين سقطوا خلال المعارك التي دارت بينهم وبينه.

وجاء في تاريخ الطبري وغـيره ان عبد الله بن عمـر قال لمصعب بن الـزبير: انت القاتل في غداة واحدة ستة آلاف مسلم، عش ما استـطعت، فقال لـه: انهم

كانوا كفـرة سحرة، فقـال ابن عمر: والله لـو قتلت عددهم غنـما من تراث ابيـك لكان ما اتيت به سرفاً وعظيماً.



ثورة التوابين

لقد تنفس الشيعة بهلاك يزيد بن معاوية ومواقف ابنه معاوية من الخلافة وإدانته الصريحة الفاضحة لابيه وجده وبكائه على مصيرهما السيء جزاءً لما اقترفته ايديها كما أكدت ذلك جميع المصادر التي وصفت حاله عندما وقف فوق منبر الشام ليعلن بأن الخلافة ليست له ولا لاسرته. وكان العراق الذي يمثل الشيعة غالبية سكانه بعد ان هزته مجزرة كربلاء قد مال الى ابن الزبير بصفته اقوى المعارضين لحكم الامويين والتجأ ابن زياد الى البصرة لكثرة من فيها ممن بقي ملتزما ببيعة الامويين، ولكن موت يزيد وخليفته معاوية كانا صدمة عنيفة له فخفت قبضته ولانت سطوته وأصبح الموقف فيها مضطربا كغيرها من الاقطار، ومع ذلك فقد ظل فيها اميرا لفترة قصيرة ثم اخذ سلطانه في الضعف فكان يأمر بالشيء ولا يقضى ويرى الرأي فيرد عليه ويأمر بحبس المخطىء فيحال بين أعوانه وبينه، وبلغ من استخفافهم به انه كان اذا صعد المنبر يحصبونه بالحجارة ويسبونه[1] ولم يجمع رأي اهل البصرة الا على نبذ طاعة ابن الزبير، ورأت عامة الناس ان في بقاء حكم ابن زياد الضعيف ما يهددهم بخطر الخوارج.

وقصدت الشيعة الى الاحنف بن قيس لينهض بهم فأبى عليهم، فقالوا: انت سيدنا، فقال: لست بسيدكم ان سيدكم الشيطان، وكان ابن زياد قد عين عمر بن

(١) المجلد الثاني من الإمامة والسياسة لابن قتيبة ص ١٩.

سعد أميراً على الكوفة، فوقفت الكوفة في الطريق وخرج نساؤها باكيات نائحات يندبن الحسين ومن قتل معه في كربلاء فألهب بكاؤهن شعور اهل الكوفة فأسرعوا الى طرده من القصر وقالوا بلسان واحد: لا حاجة لنا في بني أمية ولا في امارة ابن مرجانة واختاروا أميراً على الكوفة عامر بن مسعود وكتبوا بذلك الى ابن الزبير فأقرهم على اختيارهم وظل ابن مسعود أميراً عليها حتى عزله ابن الزبير وولى مكانه عبد الله بن يزيد.

وكانت الحركة الزبيرية تتلمس قيام اي حركة تهدف الى مناوأة الامويين، وقد شاء الله لها ان تجد أمنيتها في حركة التوابين وكان الشيعة قد أحسوا بالخطأ الفادح بخذلانهم الحسين (ع) ورأوا ان هذا الخذلان لا يغسله الا قتل من قتله او القتل في سبيله وأكثروا من البكاء على الحسين وسموا انفسهم التوابين، وكان الندم قد سيطر عليهم منذ دخل موكب الرؤوس والسبايا الى الكوفة وشاهدوا رأس الحسين ورؤوس اخوته وأنصاره على الرماح وزينب وأخواتها نادبات صائحات وزين العابدين (ع) مكبلاً بالحديد، وصمموا يومذاك على الثورة والانتقام ممن قتله وساعد عليه، ولما أحس ابن زياد بذلك وقف على منبر الكوفة يتحداهم ويصف الحسين بصفات لا تليق الا به وبمن استعمله وسلطه على المسلمين، فوقف عبد الله بن عفيف الاسدي من بين تلك الجموع وقال له: الكذاب ابن الكذاب انت وأبوك ومن استعملك وأبوه يا عدو الله تقتلون النبيين وأبناء النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين، فأمر ابن مرجانة باعتقاله وقتله.

واجتمع زعماء الشيعة بعد ذلك يتشاورون فيما بينهم واستقر رأيهم أخيراً أن يركنوا الى الهدوء تجنباً لشر ابن زياد الى ان يتهيأ الظرف المناسب على ان يستمر العمل في جو من السرية التامة.

وكان الذين تزعموا حركة التوابين خمسة من زعماء الشيعة المعروفين بولائهم لعلي وآل علي (ع) وهم سليمان بن صرد الخزاعي وهو صحابي قد ادرك النبي (ص) كما جاء في ترجمته، والمسيب بن نجية الفزاي وعبد الله بن سعد بن نفيل الازدي وعبد الله بن وال التميمي ورفاعة بن شداد البجلي، وكلهم عاصروا علياً (ع) واشتركوا معه في معاركه مع الناكثين والقاسطين والمارقين وكانوا يجتمعون بين الحين والاخر في منتهى التكتم والحذر ويبكون على الحسين ويعلنون ندمهم على تخاذلهم في نصرته ويعاهدون الله على الاخذ بثأره ولو أدى ذلك الى ابادتهم عن آخرهم، وانضم اليهم عبد الله بن عبد الله المري وكان كلما اجتمعوا يقول: ما

عـذرنا وقـد خذلنـا ابن أول القوم إسـلاماً وابن بنت رسـول الله حينما قلت حماته وكثرت عداته من خذلـه وليه وقتله عـدوه فويـل للقاتـل وملامـة للخاذل ان الله لم يجعل لقاتله حجة ولا لخاذله معذرة الا ان يناصح الله في التـوبة فيجـاهد القاتلين وينابذ القاسطين فعسى الله عند ذلك ان يقبـل التوبـة ويقيل العثرة انا نـدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته والى جهاد المحلين والمارقـين فان قتلنـا فما عند الله خير للابرار وان ظهرنا رددنا هذا الامر الى اهل بيت نبينا.

وكان هؤلاء الزعماء يجتمعون في الغـالب مع من يـأوي اليهم ويطمئنـون الى وفائه واخـلاصه في منـزل سليمان بن صرد ويتنـاوبون عـلى الكلام ويعلنـون بلهجة واحدة ندمهم على تخاذلهم وعدم وفائهم بما عاهدوه عليه في رسـائلهم التي أرسلوها اليه يعدونه فيها بالنصر والتضحية في سبيله.

وبالرغم من ان حركتهم قد بدأت خلال الاشهـر الاولى من السنة التي قتـل فيها الحسين (ع) ولكن ظهورها قد تأخر ولم يعلنوهـا في وقتها لعـدم توافـر الاجواء المناسبة لها، وبقيت في طي الكتمان الى شهر ربيع الاول من سنـة ٦٤ هجريـة بعد ان بلغهم نبـأ وفاة يـزيد بن معـاوية وخـلال تلك الفترة كـانوا يستعـدون للحـرب ويجمعون الاموال والاسلحة ويهيئون الرجال والانصار، وقد وصف الـطبري حالهم بقـوله: كـان اول ما ابتـدعوا من امرهم سنة احـدى وستين السنـة التي قتل فيهـا الحسـين هو جمـع السلاح وأدوات الحـرب ودعوة النـاس في السر الى الـطلب بـدم الحسين والاخذ بثأره، وكان يجيبهم القوم بعد القوم والنفر بعد النفر ولم يزالوا على ذلك الى ان هلك يزيد بن معاوية، فكتب سليمان بن صرد الى شيعة المدائن وكانوا قد انتقلوا اليها من الكوفة والى شيعة البصرة يستنهضهم للاخذ بثأر الحسين والثورة عـلى بني أمية فـأجابوه الى ما دعـاهم اليه وأظهـروا استعـدادهم لـذلـك، واعتـبر التوابون وفـاة يزيـد وما تبعهـا من انقسام الامـويين وتنـاحرهم عـلى السلطة فرجـا وفرصة تتيح لهم التحرك والتجـاهر بـدعوتهم فبثـوا دعاتهم في الكـوفة وراح زعمـاء الثورة يجتمعون بالناس يدعونهم للخروج معهم والتوبـة الى الله من خذلانـه وظلوا يتوافدون عليهم حتى اجتمع حولهم ١٦ الف رجل كانت روح كربلاء تـدفعهم الى التكفير عن تخاذلهم والاستماتة في هذا السبيل.

وكـان من المفروض ان يـرتاح ابن الـزبير لهـذه الحركـة ويتظاهـر بتـأييـدهـا ومناصرتهم لان حركة من هذا النوع ضد الامويين ستصرفهم عنه، وسينصرف هو بدوره لتقوية جيشه وتوطيد دعائم نفوذه استعداداً للمعركة المقبلة معهم.

وكان قد تولى أمر الكوفة لابن الزبير يومذاك عبد الله بن يزيد الانصاري وتولى جباية خراجها ابراهيم بن محمد بن طلحة، والفريقان يشتركان في مقاومة الامويين ويختلفان في الهدف والغاية، فالثوار ينادون بثارات الحسين وابن الزبير وأنصاره ينددون بقتلة الحسين ولكنهم يعملون للتخلص من الامويين وتوطيد الحكم لمصلحتهم وكانوا يرون ان الشيعة اذا نجحوا في ثورتهم سيكونون أهون عليهم من الامويين، ومع ذلك فقد رجح جماعة من وجهاء الكوفة المناوئين للشيعة وممن اشتركوا في مجزرة كربلاء رجحوا لعبد الله بن يزيد الانصاري الذي كان يعمل لمصلحة ابن الزبير ان يهاجم التوابين ولا يسمح لهم باعلان الثورة ولكنه كان حكيما في تصرفه وموقفه من الثوار فرد عليهم بقوله: الله بيننا وبينهم ان هم قاتلونا قاتلناهم وان تركونا لم نطلبهم وليس لدينا ما يمنع من خروجهم على من قاتل الحسين لعن الله قاتليه وظالميه، هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل خياركم وأمثالكم قد توجه اليكم من الشام وأصبح على مسيرة يوم من جسر منبج فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من ان تجعلوا بأسكم بينكم ليقتل بعضكم بعضاً فيلقاكم عدوكم غدا وقد انهككم القتال وتلك والله امنيته.

لقد نجح ابن يزيد عامل ابن الزبير في موقفه هذا لانه يعلم بأن ابن زياد لم يكن يقصد الكوفة لقتال الشيعة ولا لحرب التوابين، بل يقصدها لارجاعها الى حظيرة الدولة الاموية وطرد الزبيريين منها ومن العراق بكامله، وهو لا يضمن فيما لو دخل ابن زياد العراق اوالكوفة واشترك معه في حرب ان تكون المعركة لصالحه لعدم استقرار الامور في الكوفة لصالحهم وأنصار الامويين لا يقلون عن أنصارهم، فكانت حركة التوابين فرصة لصد ابن زياد عن الكوفة بدون ان يحرك هو وأنصاره ساكنا والرابح الوحيد من لم يشترك بها لا سيما وان الزبيريين وأنصارهم ينظرون الى الشيعة والامويين بعين واحدة وفي الوقت ذاته يرون الامويين أشد خطرا عليهم من الشيعة من حيث انهم يملكون من القوة ما لا يملكه الشيعة.

لقد عزم قادة الثورة على الخروج وأخذوا يستعرضون ما تيسر لهم من المقاتلين فوجدوه قليلا لا يتفق مع ما شاهدوه وسمعوه من الناس فبعثوا دعاتهم الى الشيعة يدعونهم الى الخروج فلم يستجب لهم سوى اربعة آلاف مقاتل فخرجوا بهم الى النخيلة وأقاموا بها ثلاثة ايام وأنصارهم يجوبون الكوفة يطالبون من عاهدهم وبايعهم على الخروج الى النخيلة فلم يلحق بهم سوى الف مقاتل آخرين فتردد سليمان بن صرد بالخروج بهم، ولكن المسيب بن نجبة قال له: رحمك الله انه

لن ينفعك الكاره للقتال ولا يقاتل معك الا من اخرجته المنية فلا تنتظر احدا وجد في امرك، فأخذ ابن صرد بنصيحته وترك الخيار لمن معه في الخروج او الرجوع الى الكوفة.

واقترح عليه أحد زعماء الثورة عبد الله بن سعد بن نفيل ان يرجع الى الكوفة لقتال من باشروا القتال مع عمر بن سعد بدلا من المجازفة بهذا العدد والسير به الى قتال اهل الشام فرفض سليمان بن صرد رأيه وخرج بمن معه وساروا باتجاه كربلاء لزيارة مثوى الحسين (ع) فأقاموا بها يوما وليلة يبكون ويندبون ويطلبون من الله سبحانه التوبة فما رئي في يوم اكثر باكيا منه وهم يقولون: ربنا لقد خذلنا ابن بنت نبينا فاغفر لنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم وارحم حسينا وأصحابه الشهداء الصديقين فان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين، وكان الزحام على القبر أشد منه عند الحجر الاسود بمكة على حد تعبير بعض المؤرخين.

ومن كربلاء اتجه التوابون عبر الفرات حتى انتهوا الى مدينة هيت وخرجوا منها باتجاه قرقيسيا وكان فيها ظفر او زفر بن الحارث الكلابي وكان يعمل لمصلحة ابن الزبير فساعدهم ووضع لهم سوقا ليأخذوا منه ما يحتاجون اليه في طريقهم وأخبرهم بتحركات ابن زياد في ثلاثين الف مقاتل من الشام ونصحهم بأن يسبقوه الى عين الوردة وينزلوا غربيها ويجعلوها من ورائهم لتحمي ظهورهم، وعندما التقى الجيشان في عين الوردة بعد خمسة ايام من نزولهم بها طلب منهم ابن زياد ان يستسلموا ويبايعوا لعبد الملك بن مروان حيث انتهت السلطة بموت ابيه مروان بن الحكم اليه، فرفض قادة التوابين هذه الفكرة وطلبوا من جند الشام ان يخلعوا عبد الملك وينضموا الى التوابين لقتال الامويين والزبيريين وتسليم الخلافة لآل الرسول كما جاء في أنساب الاشراف للبلاذري، فرفض أهل الشام هذا الرأي وقابلوه بنوع من السخرية وأصر كل منهم على القتال في سبيل الغاية التي خرجوا من أجلها.

وبدأت المعركة بين فريقين غير متكافئين لا في العدد ولا في العتاد، ومع ذلك فقد صمد التوابون لاهل الشام وقاتلوا قتال الاسود الضواري وفتكوا بهم فتكا ذريعاً وكادت المعركة ان تنتهي لمصلحتهم لولا النبال التي انهالت عليهم من كل جانب وأصيب قائدهم سليمان بسهم كانت به نهاية حياته، وأخذ الراية من بعده المسيب بن نجية وكان من أبطال الكوفة فحمل بمن معه على اهل الشام وهو يقول:

قد علمت ميالة الذوائب واضحة اللبات والترائب
اني غداة الروع والمقانب أشجع من ذي لبدة مواثب

فقاتل القوم قتال الابطال ولما قتل استهات اصحابه وهاجموا أهل الشام هجوم من لا طمع له في الحياة، وهاجتهم جنود ابن زياد من جميع الجهات وهم ينادون: الجنة الجنة الى البقية من اصحاب ابي تراب الجنة الجنة الى الترابية، وتقدم نحوهم عبد الله بن سعيد بن نفيل بمن بقي من التوابين ولكن جنود ابن زياد كاثروهم وثبتوا لهم، وفي المراحل الاخيرة من المعركة وبعد ان صرع اكثرهم جاءهم من البصرة والمدائن خمسمائة فارس بقيادة المثقي بن مخرمة وسعيد بن حذيفة وهم يقولون: ربنا اقلنا تفريطنا في نصرة ابن بنت نبيك فقد تبنا اليك، فقيل لعبد الله بن سعيد وهو يصول ويجول بمن بقي معه من الشيعة: لقد جاءك المدد ولحق بنا اخواننا من البصرة والمدائن، فقال: يا حبذا لو كان مجيئهم ونحن من الاحياء، فاشتركوا في المعركة وباشروا القتال بقلوبهم العامرة بالتقوى ونفوسهم المطمئنة لما أعده الله للشهداء وكان اول من استشهد منهم كثير بن عمرو المدني كما أصيب منهم جماعة، ولما قتل عبد الله بن سعيد بن نفيل وصرع اكثرهم انسحب رفاعة بن شداد من المعركة وبقي الحويرث العبدي بمن بقي منهم فطلب منهم اهل الشام ان ينسحبوا من المعركة ويكفوا عن القتال، وانتهت المعركة لمصلحة أهل الشام ورجع من بقي من التوابين وهم قلة كل الى مصره وهم يبكون لانهم لم يحققوا الهدف الذي حاربوا من اجله كانوا يفضلون الموت على رجوعهم سالمين.

وأسدل الستار على هذا الفصل من جهاد الشيعة، وكان من المفروض على قادة الحركة ان يعملوا برأي عبد الله بن سعيد بن نفيل الذي أشار عليهم بملاحقة قتلة الحسين في داخل الكوفة الذين باشروا معركة الطف ومارسوا جميع فصولها، ولو فعلوا ذلك وانتظروا الوقت المناسب لمهاجمة أهل الشام لكان أجدى لهم من الخروج بهذا العدد اليسير لمقابلة جيش مجهز بكل ما تحتاجه الحرب من أجهزة وأعتدة وأموال ووراءه دولة كانت على استعداد لان تمده بعشرات الالوف من المقاتلين وبكل أنواع الاعتدة.

لقد كانت حركة التوابين كما يبدو من ظروفها وملابساتها حركة عاطفية أدت بهم الى الانتحار بدافع التكفير عن تخاذلهم ووقوفهم مكتوفي الايدي من تلك المجزرة الرهيبة في كربلاء على يد اهل الكوفة انفسهم، ومما يرجح ان التوابين لم

يضعوا في حسابهم غير الموت لاعتقادهم بأنه هو الطريق الوحيد للتكفير عن موقفهم المتخاذل من اهل بيت نبيهم (ص) هو ذلك العدد القليل الذي استجاب لهم من اصل ١٦٠٠٠ كانوا قد اظهروا استعدادهم للانضمام اليهم، ذلك لان الاعمال الانتحارية لا يقدم عليها الا القليلون في كل زمان ومكان.

وكما يمكن ان يعزى فشل تلك الحركة الى عدم التخطيط والاستعداد الذي يتناسب مع ضخامة المعركة وشراسة العدو بالاضافة الى تغلّب النواحي العاطفية على قادتها ومديريها مما جعلهم يجازفون بحياتهم وحياة أنصارهم ويقاتلون بأربعة آلاف مقاتل ثلاثين الفا ووراءهم عشرات الالوف من جند الشام، كما يمكن ان يعزى فشلها لذلك كله يجب ان لا ننسى ان التكتلات الشيعية كانت ثقيلة على الزبيريين وأنصار الامويين في داخل الكوفة والفريقان كانا يحاذران من قوتها واتساعها فليس من البعيد ان يكون لها ضلع في تحذير الجماهير عن الانضمام لتلك الحركة لان الزبيريين لا يرون للعلويين بديلاً وأنصار الامويين في الكوفة كانوا يرون نجاح حركة التوابين من أشد الاخطار عليهم لانهم اشتركوا مع الامويين في جورهم ومطاردتهم للشيعة منذ ان تأسست دولة الامويين وحتى مجزرة كربلاء التي قامت على سواعد أنصارهم من اهل الكوفة، فليس بغريب ولا ببعيد على أنصار الامويين والزبيريين في العراق ان يتغلغلوا في اوساط الشيعة لبعث روح التخاذل وتحذيرهم عن المضي فيما كان يخطط له قادة التوابين.

ولا أحسب ان للمختار الثقفي صلة فيما انتهى اليه مصير تلك الحركة ولا في بعث روح التخاذل بين انصارها كما يرى بعض الباحثين من العرب والمستشرقين ولعلنا سنحاول معالجة هذه الناحية خلال حديثنا عن ثورة المختار الآتية.

ثورة المختار بن عبيدة الثقفي

لقد تركت مجزرة كربلاء وما رافقها من الجرائم التي ارتكبها الامويين من تمثيل بالقتلى وسلب ونهب وسبي لبنات رسول الله (ص) أثرا في نفس كل مسلم وعبأت الجماهير للثورة ودفعت بهم في الطريق الدامي الطويل طريق النضال بعد ان كان الامويون بقيادة معاوية يحاولون ان ينتزعوا الروح النضالية التي بعثها وغرسها الاسلام في نفوس المسلمين فجاءت ثورة الحسين (ع) اغنى ثورة بالعزم والتصميم في المضي بالنضال الدامي الى نهايته وحتى النصر او الشهادة.

لقد رفض الثائرون في كربلاء جميع العروض والمغريات التي بذلت لهم من أجل تحرير الأمة من الظلم والعسف والجور ولم يستهدفوا من ثورتهم ان يحكموا الناس ولا مغنماً لأنفسهم وانما استهدفوا تحرير مجتمعهم من اولئك الطغاة الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، وبلا شك فان جميع الانتفاضات والثورات التي حدثت بعد مصرع الحسين كان مبعثها تلك الروح الجديدة التي بثتها ثورته الدامية في نفوس الجماهير وقد استفاد منها حتى أعداء اهل البيت كابن الزبير وأمثاله وان لم تكن ثورته امتدادا لثورة الحسين ومن تلك الفصيلة، لانه كان يعد العدة ويعمل للسلطة قبل مصرع الحسين (ع) وكانت أطماعه الشخصية هي التي دفعته على التحرك، وكان يرى الحسين منافسا خطيرا على تحركاته كما ذكرنا خلال الفصل السابق، فلما بلغ مقتل الحسين اهالي مكة اتجه اليه اهلها وقالوا له: اظهر بيعتك فلم يبق احد ينافسك ويُخاف منه عليك، فقال لاصحابه: لا تعجلوا، وظل معتصما بالكعبة يتظاهر بالزهد والتقوى، ولم يكن منه هذا الموقف الا ليأخذ مقتل

الحسين اثره الدامي في نفوس المسلمين وتستعر النقمة على الحكم الاموي من اجله، ولما وجد ان المسلمين بكل فئاتهم يتململون من تلك الجريمة ويرون فيها حدثا يهدد مصير الامة وكيانهم، وأحس بأن الكثيرين من المسلمين أصبحوا يفتشون عن بديل للامويين، أظهر دعوته ووجد ان الحديث عن الحسين والتباكي عليه من أشد الاسلحة فتكا، راح يتباكى عليه ويندد بقاتليه ويبث دعاته في انحاء الحجاز والعراق وأوصاهم بالترحم على الحسين والتنديد بقاتليه فكان لثورة الحسين وما نتج عنها اكبر الاثر في ايقاظ الجماهير المسلمة والقضاء على روح التواكل والخنوع والتسليم للحاكمين وأصبح الشعب المسلم قوة معبأة للانفجار بين الحين والأخر وكانت ثورة المدينة وما رافقها من الجرائم والاستخفاف بمقدسات الاسلام، وجاءت بعدها ثورة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي الانتحارية، وكان المختار في جميع هذه المراحل يعد العدة للثورة ويعمل بحكمة وروية لنجاحها، وقبل الحديث عنها لا بد من الاشارة الموجزة عن نشأته والمراحل التي مر بها قبل ان يتولى قيادة الثورة على الحكم الاموي.

فقد جاء في الحلقة السادسة من أعلام العرب للدكتور علي الخرطبولي ان والده أبا عبيدة بن مسعود قد اعتنق الاسلام وأخلص له وكان شقيقه عروة بن مسعود من السابقين للاسلام خلال حصار الطائف وان ابا عبيدة قد اشترك في معارك المسلمين مع الفرس واختاره عمر بن الخطاب للقيادة فأبدى في ميادين القتال شجاعة واستبسالا قل نظيرهما في تاريخ المعارك. ومات ابو عبيدة شهيدا على شاطىء الفرات في سبيل الاسلام بعد ان هجم عليه فيل ابيض من الفيلة التي كان الفرس يستخدمونها في معاركهم يومذاك وداسه الفيل بأقدامه وتولى القيادة بعده سبعة من ابناء ثقيف على التوالي كان أولهم ولده جبر وقتلوا من بعده، وأضاف الى ذلك ان أم جبر زوجة ابي عبيدة كانت قد رأت في منامها ان رجلا نزل من السماء ومعه اناء فيه شراب من الجنة فشرب منه ابو عبيدة وابنه جبر وجماعة من اهله. اما ابنه المختار فلم يتحدث المؤرخون عنه في مطلع حياته ولم يهتموا بتاريخه الا بعد ان ظهر على مسرح الاحداث في العراق خلال الحكم الاموي مما جعل مهمة الباحث عن حياته في طفولته وشبابه صعبة وعسيرة.

وبلا شك ان ولادته كانت في مدينة الطائف حيث كانت موطن اهله وعشيرته، ويمكن ان نستنتج من المصادر التي تعرضت لتاريخ وفاته بأن ولادته كانت في السنة الاولى للهجرة، لان اكثر المصادر تدعي انه قتل سنة ٦٧ وهو في

السابعة والستين من عمره ولازم ذلك ان ولادته كـانت في السنة الاولى من هجـرة الرسول (ص) وأمـه دومة امـرأة عربيـة قد اشـتركت مع زوجهـا في المعارك خـلال معاركه للفرس وتلقت مصرعه ومصرع ولده جبر بصبر وثبات واحتسبتها عند الله، وكان المختار يومذاك في الثالثة عشرة من عمره، وقد بدت عليه علائم النجابة وهو في حداثة سنّه، ويروي بعض المؤرخين بهذه المناسبة ان اباه جاء به الى امير المؤمنين (ع) وهو صبي فأجلسه في حجره ومسح رأسه وهو يقول: يا كيس يا كيس.

وقد استنتج بعض الباحثين من هـذه الكلمة ان علياً (ع) كان يعـبر بها عن مخبآت المستقبل وبما يظهر له من بطولات وحنكة سيـاسية وآراء وتصرفـات سديـدة رشيدة كالاخذ بثارات اهل البيت ومناوأة المغتصبين لحقوقهم وتراثهم، وليس ذلك ببعيد ان صح ان امير المؤمنين قد وصفه بـذلك، كـما استنتج منهـا فريق آخـر بأنها تشير الى فريق الكيسانية التي وضع المختار نواتها كما يدعون.

لقد كان المختار معاصراً للمغيرة بن شعبة الثقفي وكانا من ابرز من انجبتهم تلك القبيلة واشتركا في الـدهاء والـذكاء ولكن المغـيرة سخر دهـاءه وذكاءه للمكـر والخداع والنفاق كما وصفه أكثر المؤرخين، وقد جاء في تـاريخ الخلفـاء للسيوطي في وصفه: لو ان مدينة لها ثمانية أبواب لا يمكن الخروج من باب منها الا بمكر واحتيال لخرج المغيرة من أبـوابها كلهـا، ومع انـه كان يملك القـدرة عـلى المكـر والمـراوغـة والاحتيال فقد عاش تابعا للحاكمين يستعمل طموحه ودهـاءه ودينه ليكـون مقربـا منهم او متوليا لهم عـلى بعض المقاطعـات، ورافق معاويـة خلال الفـترة التي حكم فيها الناس وجاراه في كل مواقفه من أمـير المؤمنين وكـان من مستشاريـه المفضلين، ولم يحدّث التاريخ عنه انه وقف موقفاً شريفاً مع أخصامه وأخصام أسياده، ولم يكن يهتم الا برضاهم ليعهـدوا اليه بحكم بعض العـواصم الاسلاميـة يبرز من خـلالها على رؤوس الجماهير.

وقد وصفه المستشرق (فلهوزن) في كتابه احزاب المعارضة في صـدر الاسلام بقوله: لم يكن المغيرة يعمل على استئصال الشر في بدايته وقبل ان يستفحل بل كان يـتركه يشتـد ويعظم لانـه كان يعـرف بأنـه لا يعيش حتى يواجـه هذا الخـطر بعـد استفحاله، ويهتم مع ذلك بحياته تاركا الاخطار ليتداركها من يخلفه.

ويعزو المستشرق (بركلمان) مواقف المغيرة الى انه كان رجلا انتهازيا لا ذمة له ولا ذمام، فقد رجح لمعاوية ان يعهد بالخلافة لولده يزيد ليوليه الكوفة وكان طـامعا

بها وهي العقبة الاولى التي يجب تـذليلها لنجاح هذه الفكـرة، وعندما أشار على معاوية بذلك كان معاوية يجب ان يسمع من أنصاره ومعاونيه رأياً من هـذا النوع فرجحه له المغيرة وقال: لقد وضعت رجلي معاوية في غرز يتخبط فيه ومع ذلك فقد تعهد له بتذليل ما يعترضه من الصعوبات في الكوفة.

اما المختار الثقفي فقد اختار لبلوغ أهـدافه طـريق الكفاح والثـورة بدلا من النفاق والمراوغة واعتمد في كل ما كان يطمح اليه على ذكائـه وسيفه وجهـوده فكان طريقه طويلاً وشاقاً ومحفـوفاً بـالمخاطـر والاهوال وظـل يحمل سيفـه يجاهـد به حتى اللحظات الاخيرة من حياته شأن الاباة والابطال في مختلف العصور.

لقد كان معـارضاً للحكم الأمـوي ولسياسـة الأمويـين وتسلطهم منذ دخـل معـترك السياسـة، هذا بـالاضافـة الى تشيعـه وولائـه لأهـل البيت (ع) ووقف الى جـانب مسلم بن عقيل في الكـوفة ودعـا النـاس الى الالتحـاق بالحسـين ونصرتـه، وتعـرّض بسبب ذلـك لسجـون الامـويـين ومعتقـلاتهم وتعـذيبهم، ولقـد حـارب الامويين مع ابن الزبير حينما فر من ابن زياد من الكـوفة والتحق بـه في مكة وفيهـا اشترك مع المكيين في صدهم عن الكعبة التي كانت هدفا لنـيرانهم ووسائـل الدمـار التي استعملوها للاجهاز على حركة ابن الـزبير قبـل ان يستفحل امرها، وحـارب قتلة الحسـين والجيش الاموي الـذي قاده ابن زيـاد لاسترجـاع العراق الى الحكم الاموي، كما حارب الزبيريين ولقي مصرعه في ميدان القتال على أيديهم، وكان قد ناصرهم بالامس القريب على الامويين بالحجاز وغيره من المناطق.

لقد كان المختار بن ابي‌عبيدة يعمل بمهارة وتخـطيط محكم في ميادين السيـاسة وكان سياسيـاً ناجحـاً وموهـوباً وبـطلاً من أبطال التـاريخ لم يحـترف سياسـة اللف والـدوران والمراوغـة والنفاق وغـيرها من الصفـات التي اشتهر بهـا معاويـة بن هند وقريبه المغيرة بن شعبة وأمثالها، واختار العراق لمخططاته السيـاسة حيث كـان اكثر أهلها يوالون البيت العلوي الذي شب ونشأ على موالاته ومناهضة اعـدائه، ولانـه كان علوياً ومطبوعاً على الولاء لهذا البيت فقد حيكت حوله مجموعـة من الأساطـير والاكاذيب اشترك في وضعها وصياغتها ونسبتها اليـه اعداء العلويـين من الامويـين والزبيريين، كما وضعـوا مئات الاحـاديث في فضل الصحـابة ووضعـوا في مقابلهـا المئات من الاحاديث والتهم التي تسيء الى عـلي وبنيه، فكـانت مصانـع الحديث العاملة لمصلحة الحاكمين تنتج لهم ما يشـاؤون ويشتهون، وكـان عروة بن الـزبير احد أبطال تلك المصانع وأحيانا كان يسند موضوعاته لخالته عائشة.

لقد حارب المختار دولة الامويين منذ مطلعها بقيادة معاوية وظل يحاربها حتى قضى على ابن زياد في معاركه معه في الموصل وعلى أعوانه ممن اشتركوا في معركة كربلاء، وحارب ابن الزبير وقضى على نفوذه في الكوفة وغيرها وكانت نهايته على يد الزبيريين وقتلوا معه نحوا من سبعة آلاف من المسلمين، وحينما عاتبهم عبد الله بن عمر كان جواب قائد المجزرة مصعب بن الزبير انهم سحرة كفرة.

لقد نسبوا اليه السحر والكفر وانه كان يخاطب الملائكة ويدعي انهم كانوا يحاربون معه الى جانب جنوده وان جبرائيل كان ينزل عليه بشكل طائر، الى غير ذلك من المقالات التي ظهرت بعد عصره كما ألصقوا به الفرقة الكيسانية لان علياً (ع) مسح على رأسه وهو في مطلع صباه ووصفه بالكياسة.

ان الذين يضعون عشرات الاحاديث في فضل معاوية ويروون عن النبي (ص) انه كان يقول: ان الله يدني معاوية منه يوم القيامة ويجلسه الى جانبه ويغلفه بيده ثم يجلوه الى الناس كالعروس لانه حارب علي بن ابي طالب ليس بغريب ولا ببعيد ان ينسبوا للمختار الكفر والسحر وادعاء النبوة والربوبية لانه حارب أنصار معاوية الذي يدنيه الله اليه ويجلوه للناس وأعداء علي وآل علي وقتل قتلة الحسين وحارب ابن الزبير الذي لم يختلف عن معاوية والامويين في شيء وبخاصة فيما يعود الى العلويين، وقد اضطهدهم خلال الفترة التي حكم بها العراق والحجاز وأعلن البراءة من علي وآل علي وترك الصلاة على النبي (ص) في خطبة الجمعة محتجا لذلك بأن اهله يشمخون بأنوفهم عند ذكره والصلاة عليه.

لقد كان المختار من أقطاب الشيعة في عصره ولم يكن عثمانيا كما نسب اليه ذلك بعض الباحثين لا لشيء الا لانه وقف موقفا سلبيا من الحسن بن علي (ع) حينما صالح معاوية وطلب من عمه سعد بن مسعود الثقفي ان يسلمه لمعاوية كما تزعم بعض الروايات، ولو افترضنا صحة الرواية فهي لا تثبت كونه عثمانيا مواليا للامويين لان اكثر الشيعة يومذاك وقفوا من الحسن موقفا يتسم بالصلابة والقسوة بما فيهم حجر بن عدي وسليمان بن صرد الخزاعي وأمثالهما وكانوا يسمونه مذل المؤمنين وقال له بعضهم: ليتك مت ومتنا، الى غير ذلك من مقالاتهم التي لو صحت لا تتعارض مع تشيعهم وولائهم الاكيد لاهل البيت(ع) ولا تعدو ان تكون نزوة من نزوات الغضب على صلحه لمعاوية وتنازله عن الحكم للامويين اعداء الاسلام، فلو صح عنه ذلك يكون كغيره من زعماء الشيعة الذين استبد بهم

الغضب وجرهم الى الاسراف في اللوم والعتاب المر الذي لا يصدر الا من المحب في الغالب.

ومما يؤكد صلابته في التشيع ان زياد بن ابيه حينما كتب الى معاوية بشأن حجر وأصحابه وانهم خلعوا الطاعة وكفروا كفرة صلعاء كما جاء في كتابه اليه وأشهد على ذلك جماعة من وجوه الكوفة مما يؤيد صلابته في تشيعه ان المختار رفض التوقيع على الكتاب بالرغم من تهديد زياد ووعيده.

لقد اشتهر المختار بالتشيع لاهل البيت منذ نعومة أظفاره ولكنه انصرف عن السياسة والمعارضة السلبية لمعاوية لانه كان قويا واستعمل سياسة البطش والقتل والتنكيل بالشيعة وحتى بمن يتهم بالتشيع بعد ان وجد ان المعارضة لا تجدي شيئا، وقد كان الإمامان الحسن والحسين يوصيان الشيعة بالخلود الى السكينة بانتظار الوقت المناسب، وخرج من الكوفة الى ضيعة له خارجها، ولم يرجع الى الكوفة الا بعد ان دخلها مسلم بن عقيل موفدا من الحسين (ع) لشيعتها، وحينما دخلها مسلم بن عقيل نزل عليه ضيفا فرحب بقدومه ومضى يدعو الناس الى البيعة للحسين ولزوم طاعته، وكان مسلم كلما اجتمع عليه جماعة في دار المختار قرأ عليهم كتاب الحسين وجاء فيه انه قد أجابهم الى ما يريدون ان التزموا بالعهود التي قطعوها على أنفسهم وتذرعوا بالصبر الجميل على مكافحة أعدائهم، وفي اجتماع حاشد في دار المختار وقف عابس بن ابي شبيب اليشكري احد زعماء الشيعة وقال لمسلم بن عقيل: أما بعد فاني لا اخبرك عن الناس ولا أعلم ما ينطوون عليه ولا أغرك فيهم ولا أحدث اليك الا عن نفسي، فوالله لا جيبنكم اذا دعوتموني ولأقاتلن معكم عدوكم ولأضربن بسيفي دونكم حتى القى الله لا أريد بذلك الا ما عند الله[1] وتتابع الخطباء يعلنون عن تأييدهم للحسين ويحثون مسلم بن عقيل على الكتابة اليه ليعجل القدوم عليهم، ومضت الوفود تتوالى بالقدوم الى دار المختار مرحبة برسول الحسين يبايعونه على الدعوة الى كتاب الله وسنة رسوله وجهاد الظالمين ومساعدة المستضعفين والمحرومين وقسمة الفيء بين المسلمين بالسوية ورد المظالم الى اهلها ونصرة أهل البيت على من نصب لهم العداوة والبغضاء، وبلغ عدد من بايعه خلال أيام معدودات في دار المختار خمساً وعشرين الفاً او اربعين الفاً كما في رواية الشعبي[1].

(١) أنظر ص ٢٦٤ من المجلد الرابع من تاريخ الطبري.
(١) أنظر الحلقة السادسة عشر من أعلام العرب للدكتور علي الخربوطلي.

لقد اختار مسلم بن عقيل مبعوث الحسين الى الكوفة دار المختار الثقفي ونزل عليه ضيفاً وانطلق من داره يبث الدعوة للحسين ويتقبل البيعة له، مع العلم ان الكوفة كانت تخضع للحكم الاموي وتحت سيطرة الامويين، وفي الكوفة من الزعماء الذين كاتبوا الحسين يطلبون منه التعجيل في القدوم اليهم ويعاهدونه على نصرته وقتال أعدائه، وبين هؤلاء من هم أعز من المختار وأمنع جانبا منه لانتسابهم الى العشائر القوية عدداً وعتاداً، ولم يكن المختار ممن كاتبه بهذا الخصوص فلماذا والحال هذه قد اختار دار المختار على دور اولئك الزعماء وفضله عليهم؟ هذا السؤال ربما يعترض الباحث وهو يستعرض أوضاع الكوفة الحرجة خلال حديثه عن ابن عقيل وموقف الكوفة منه يومذاك.

ويعزو بعض الباحثين في هذا الموضوع اختيار مسلم لدار المختار الى ما كان بينهما من روابط المودة والصداقة القديمة منذ نعومة أظفارهما والى تشيع المختار وولائه الاكيد لاهل البيت (ع) وإخلاصه لمبادىء التشيع بالاضافة الى مصاهرة المختار لوالي الكوفة النعمان بن بشير حيث كان زوجاً لعمرة بنت النعمن مما يجعله في مأمن من الوالي ما دام مقيما في دار صهره[2].

والذي أراه ان الدافع الرئيسي لنزول مسلم بن عقيل ضيفا على المختار هو ولاؤه الاكيد للعلويين وعمله الدؤوب الصامت في سبيل انتقال السلطة اليهم بالاضافة الى ما اشتهر به من الكياسة وبُعد النظر والمقدرة الفائقة على إدارة شؤون الثورة بحزم وروية، اما الصداقة والمودة البعيدة الأمد بينهما منذ نعومة أظفارهما اي منذ الطفولة كما يدعي الخرطبولي فليس في المصادر التي تعرضت لتاريخهما ما يشير الى ذلك، هذا بالاضافة الى الفارق الكبير بينهما في السن، فلقد كان المختار في الستين من عمره يومذاك ومسلم بن عقيل في حدود الاربعين، وكان ابن عقيل يعيش في الحجاز وابن عبيدة الثقفي في العراق.

ومهما كان الحال فلقد استمرت الوفود تتدفق على دار المختار مرحّبة بقدوم رسول الحسين مما دعا أنصار الامويين في الكوفة الى التخوف من حدوث بعض المفاجآت التي تسيء اليهم واتهموا النعمان بالضعف لعدم وقوفه في وجه المد الشيعي الذي كان يتدفق الى دار المختار، وحينما راجعوه بتدارك الموقف قبل ان يفلت الزمام من يده رد عليهم بقوله: لأن أكون ضعيفاً في طاعة الله أحب الي من

(٢) حياة المختار للدكتور الخرطبولي ص ٦٣.

أن اكون قوياً في معصيته وما كنت لأهتك ستراً ستره الله.

وبعد ان وجدوه مصراً على التغاضي عما يجري داخل الكوفة لمصلحة العلويين كتبوا الى يزيد بن ميسون يشكون اليه تخاذل النعمان وتغاضيه عن مسلم وأنصاره ودعاته وحددوا له نقاط الضعف في سياسة النعمان وتصرفاته، فقرر ابن معاوية عندما أحيط علماً بواقع الحال استبدال النعمان بن بشير بغيره وإقصائه عن الكوفة، ولم يكن ابن مرجانة داخلاً في حسابه وكان يكرهه على حد تعبير بعض المؤرخين، واستشار أنصاره فأشاروا عليه بعبيد الله وقالوا له: لو كان أبوك حياً لا يعدوه، وبعد حوار طويل بينه وبين مستشاريه نزل عند رغبتهم وتغاضي عما كان يجده عليه في نفسه وولاه الكوفة مع البصرة وأمره بأن يضرب بيد من حديد على المناوئين لسياستهم وأنصار العلويين، وخرج ابن مرجانة من البصرة يجد السير في طريقه الى الكوفة فدخلها متنكراً فظنه الناس وهو في طريقه الى القصر الحسين بن علي (ع) فتعالت أصواتهم بالهتاف له والترحيب بقدومه وأينما اتجه ببصره لا يجد سوى الاوجه المستبشرة والاصوات تتعالى من هنا وهناك: مرحبا بك يا ابن رسول الله قدمت خير مقدم على أهلك وأنصارك وشيعتك، فهاله هذا المشهد واغتاظ منه ولكنه استطاع ان يكبت غضبه وعندما أشرف على باب القصر أزاح اللثام عن وجهه وقال: شاهت الوجوه فانفرج عنه الناس وتفرقوا عنه، وبعد ان حط رحاله في القصر اجتمع اليه أنصار الأمويين وجمع من الناس فأخذ يهدد ويتوعد ويث دعاته وأنصار الأمويين في الكوفة يخوفون الناس من شره وحينما بلغت اخباره الى ابن عقيل رحمه الله غادر بيت المختار والتجأ الى دار هاني بن عروة المرادي وكان من أبرز أشراف الكوفة وزعمائها وله ولعشيرته وحليفاتها منزلة في الكوفة ليست لأحد سواهم، وكان مع ذلك من المعروفين بالتشيع والولاء لأمير المؤمنين (ع) وقد شاركه في جيمع مواقفه من معاوية وغيره كما يصفه المؤرخون وانتهت المأساة بما جرى لمسلم وهماني بن عروة وبالتالي بمصرع الحسين (ع) في كربلاء على يد أهل الكوفة من كاتبوه ومن لم يكاتبوه بقيادة ابن زياد وأنصاره.

ويبدو من اكثر المصادر القديمة ان المختار لم يشترك مع المناصرين له في كربلاء بالرغم من انه كان متحمسا للدعوة الى الحسين (ع) والظاهر انه كان يرى ان مناصرته لا تجديه نفعا وان جميع العوامل والظروف قد تجمعت لترسم تلك المأساة على صعيد كربلاء فآثر ان يتروى ليعمل للانتقام من قاتليه.

ويدعى اليعقوبي في المجلد الثاني من تاريخه ان المختار قد جمع جماعة من الشيعة واتجه بهم قاصدا نصرة الحسين (ع) فأخذته الشرطة التي كلفها ابن زياد بملاحقة الخارجين لنصرة الحسين (ع) فاعتقلته الشرطة وحينما أدخلوه على ابن مرجانة تناول قضيبا وانهال به يضربه على وجهه ورأسه فأصاب عينه وشترها ثم القاه في السجن مع من اعتقلهم من الشيعة.

ويروي ابن ابي الحديد في المجلد الاول من شرح النهج حديثاً جرى بين المختار وميثم التمار وكان معتقلا في سجن ابن زياد يومذاك، ومن بين المعتقلين عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث، وكان المختار وابن الحارث يعتقدان ان ابن زياد سيقتلهما لا محالة فجعلا يستعدان للقاء الله، ولكن ميثم التمار بما انتهى اليه من امير المؤمنين (ع) من الغيبيات التي كان النبي (ص) يختصه بها اخبرهما بما يجري لهما فقال لابن الحارث: انك ستخرج من سجن هذا الطاغية وتحكم البصرة، وقال للمختار: انك ستخرج وتتولى الثأر من قتلة الحسين وأنصاره وتطأ بقدميك على وجنتيه، بهذا اخبرني امير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) كما اخبرهما بما يجري عليه من الحجاج بن يوسف فتبدد ما كان يساورهما من الخوف وارتاحا لخبره لاسيما بعد إسناد نبوءته الى امير المؤمنين. وبقي المختار في السجن لفترة من الزمن، ولما علمت اخته زوجة عبدالله بن عمر بخبره طلبت من زوجها عبدالله ابن عمر ان يتدخل ويكلف يزيد باطلاق سراحه، فكتب عبدالله بن عمر الى يزيد ابن معاوية يطلب منه الافراج عنه فاستجاب يزيد لطلبه وكتب الى ابن مرجانة يأمره باطلاق سراحه فأطلقه من سجنه وأمره بأن يغادر العراق خلال ثلاثة ايام، وان وجده بعدها ضرب عنقه.

المختار وعبدالله بن الزبير

لقد خرج المختار من سجن ابن زياد في الكوفة الى الحجاز وهو يقول: والله لأقطعن انامل ابن زياد ولاقتلن بالحسين بن علي عدد من قتل بدم يحيى بن زكريا، وكان ابن الزبير قد رفع رأسه وعادت اليه كل أمانيه وأحلامه بخروج الحسين الى العراق ومصرعه على ثرى الطف، والحجاز هو البلد الاول الذي حمل لواء المعارضة للدولة الاموية بعد مقتل الحسين بن علي الذي أثار غضب الجماهير من اولاد المهاجرين والانصار والسجاد وعماته وأخواته يغذون روح الثورة بمواقفهم الملهبة لأحاسيس الجماهير وغضبهم فكانت ثورة المدينة من ابرز ما أنتجته تلك المواقف بالرغم من انها لم تأخذ الطابع الثاري، وتركزت معارضة الحجاز للحكم الاموي بشخص ابن الزبير الذي اصبح سيد الموقف يومذاك بعد مجزرة كربلاء التي أصبحت سلاحاً ماضياً بيده يصول به ويجول على الامويين كما كان معاوية يصول ويجول بقميص ابن عفان، وخلا له ميدان السياسة، ولم يكن المختار ممن يجهل نوايا ابن الزبير وأطماعه وحقده على البيت العلوي، ولكنه لم يجد سبيلا لمحاربة الامويين والانتقام من قتلة الحسين الا بالالتجاء الى اقوى المعارضين لدولتهم، اما العراق فمجال العمل فيه متعذر في تلك الفترة بعد تلك الصدمة العنيفة التي هزت كيانهم وقضت على أعز آمالهم وأغلى أمانيهم لا سيما وان ابن زياد في تلك الفترة كان يقبض بيد من حديد على العراق بأجمعه، واتبع سياسة القتل والتعذيب والاعتقالات بدون رحمة مما أدى بأهل العراق الى ان يخلدوا الى الهدوء ولو لفترة يستردون فيها أنفاسهم اللاهبة ويجمعون فيها شتاتهم وفلولهم الضائعة.

لقد كان المختار عميقاً في تفكيره بعيداً في نظراته الى مجاري الاحداث ونتائجها يعرف ابن الزبير أكثر من أي إنسان آخر ولكن المخطط الذي وضعه في حسابه قد فرض عليه ان يلتجيء الى ابن الزبير سيد الموقف يومذاك، لإضعاف الامويين وخلق جو من الاضطرابات والفوضى في مختلف المناطق وبخاصة العراق معقل التشيع، وذلك لا يكون بدون التحرك ولو في الحجاز ونشر الدعاة في بقية الامصار وقبل مضي بعض الوقت الذي يتهيأ فيه للعراق وللكوفة بالذات التي يمثل الشيعة غالبية سكانها ان تستعيد أنفاسها وتجمع شملها وفلولها ليثب بمن فيها على الامويين والزبيريين في صفعة واحدة ليحقق ما عاهد الله عليه من الأخذ بثار الحسين وأهل بيته وإعادة الحكم العلوي الى العراق اذا تيسر له ذلك.

لقد لازم المختار الثقفي ابن الزبير في الحجاز وحثه على الخروج وإعلان نفسه حاكماً، وأن يقود الحجاز في طريق الثورة وتعهد بمساندته، فامتنع ابن الزبير من اجابته وطلب منه التريث وظل يراقب ويتظاهر بالتقوى والزهد في الخلافة ويتباكى على الحسين ويلعن قاتليه ليستدر عطف الجماهير ويعمق الصراع بينها وبين السلطات الحاكمة في الحجاز.

وظلت الأمور تسير لمصلحته وبخاصة بعد جريمة الامويين في المدينة وما تلاها من الهجوم على مكة واستخفافهم بالكعبة، وحينما رأى ان الجماهير المسلمة قد اصبحت معبأة لمصلحته وافق على البيعة وطلب من المختار بالذات ان يبايعه وأظهر حرصه على بيعته لانه كان يعرف ميول المختار كما كان المختار يعرفه، وفي الوقت ذاته كان يرجو ان يسخره لاقناع صهره عبدالله بن عمر بالعدول عن بيعة يزيد والانضمام اليه، وبالفعل لقد طلب المختار من شقيقته صفية ان تقنع زوجها بابن الزبير ولكنها لم تنجح كما ذكرنا من قبل ووافق المختار على البيعة لابن الزبير بشروط رفضها ابن الزبير اولا، وأخيرا وافق عليها وكان من أبرزها ان لا يقضي ابن الزبير امراً دونه وأن يكون أول داخل عليه ويستعين به على أفضل أعماله، وأصبح وزيراً لابن الزبير في جميع أموره.

وحدّث ابن الاثير في المجلد الرابع من الكامل: ان المختار لازم ابن الزبير وشهد معه معاركه مع الحصين بن نمير وأبلى معه احسن البلاء وقاتل أشد قتال كما وصفه ابن كثير في البداية والنهاية بذلك وأضاف: انه كان وفياً لابن الزبير، ولكن ابن الزبير لم يف بما وعده به فحقد عليه ولكنه لم يجهر بمشاعره نحوه، وفي الوقت ذاته كان على صلة بأهل الكوفة، ولما تبين له ان الشيعة في الكوفة على استعداد

للأخذ بثأر الحسين (ع) لـو تيسر لهم الزعيم الـذي يجمعهم تحت لوائه توجه الى الكوفة وكان سليمان بن صرد ومن معه من التوابـين يستعدون لقتـال الامويـين قتلة الحسين فلم يشترك معهم وانتهت حركتهم على النحو الذي ذكـرناه وعـادت فلولهم تبحث عن زعيم جديد فـوجدت أمنيتهـا في شخص المختار فـانضموا اليـه واستمر المختار في تحركه حتى استقطب اكـثر الشيعة وكـان يترحّم عـلى سليمان بن صرد في مجالسه ويقول: لقد قضى مـا عليه وقـد توفـاه الله وجعل روحـه مع أرواح الانبيـاء والصديقين والشهداء والصالحين.

وقد جاهر المختار في الدعوة الى العلويين وأخذ البيعة لهم وجعل يتصـل بهم بين الحين والآخر ولكن اكثر المصادر تشير الى ان الامـام علي بن الحسـين قد رفض عروض المختار، فقد جاء في مروج الذهب للمسعـودي انه اتصـل بعلي بن الحسن بصفتـه من سلالـة الرسـول وابن الحسين الـذي يـطالب بثأره وكتب اليـه كتـابـا بخصوص البيعة له وأرسله اليه مـع أموال كثيرة على حـد تعبير المسعـودي، ولكن الإمام علي بن الحسين رفض عروض المختار وأموالـه فاتجـه الى محمد بن الحنفيـة، فكان جوابه: اني احب ان ينصرنا الله ويهلك من سفك دماءنـا ولست آمر بحـرب ولا باراقة الدماء، كما جاء ذلك في أنساب الاشراف للبلاذري ايضاً.

وعلى تقدير صحة الرواية فان امتناع الإمـام السجاد عن تلبيـة طلب المختار ورفضه للاموال التي أرسلها اليه يمكن ان يكون لعدم اطمئنانـه لمواقف العـراق كما يمكن ان يكون لحراجة موقفه الواقع بين عدوين من أشرس خلق الله وعلى ما بينهما من عداء وتزاحم على السلطة فكلاهما يكيدان للعلويين، والامام يعيش في الحجـاز منطلق الدعوة الزبيرية كما وان جواب ابن الحنفية الذي تمنى فيه الانتقام ممن قتلهم وأراق دماءهم، وفي الوقت ذاته تنصل من إراقـة الدمـاء والحرب لا مصـدر له الا الخوف من ابن الزبير، ومن الجائز ان يكون المختار قد أشاع في أوساط الشيعـة ان ابن الحنفية قد أرسله وزيراً أو أميراً ليجمع الشيعة عـلى مساعـدته في القضـاء على من اشترك في قتل الحسين وأصحابه.

وبعد ان استفحل امر المختار في الكوفة عزل ابن الزبير عنها عـامليه عبدالله ابن يزيد وابراهيم بن محمد بن طلحة وولاها لعبدالله بن مطيـع، ولكن ابن مطيـع لم يكن خـيرا من سلفيه فسـار في الكوفـة مسيرة اغضبتهم فحقـدوا عليه وعـلى ابن الزبير والتفوا حول المختار وما لبث ان اتسع نفوذه فأخرج منها ابن مطيع، وجاء في المرويات انه دفع اليه مائة الف درهم فخرج من الكوفة واعتزل السياسـة، وانضم

الى المختار ابراهيم بن الاشتر وخضع العراق وسائر الامصار عدا الحجاز والجزيرة وبلاد الشام للمختار الثقفي كما جاء ذلك (في ص ٣٠٠) من الاخبار الطوال للدينوري.

ودخل المختار قصر الامارة لاول مرة وبسط يده يطلب البيعة من الناس على كتاب الله والطلب بثأر أهل البيت ومناصرة من يناصرهم، وفرق ما وجده من الاموال في بيت المال بالسوية من غير ان يفرق بين عربي وعجمي مما جعل الموالي يلتفون حوله ويتفانون في طاعته، هذا بالاضافة لسياسته التي تنطوي على التودد لبني هاشم والعلويين وقد اثارت سياسته الاقتصادية غضب الاشراف عليه واعتبروا مساواتهم بالموالي اغتصابا لحقوقهم، فانتهز الاشراف ومن التف حولهم خلو الكوفة من الجند والمقاتلين الذين سرّحهم بقيادة ابراهيم بن الاشتر الى الموصل لقتال جيش الشام بقيادة ابن زياد فثاروا عليه وتكلم شبث بن ربعي مع المختار وعرض عليه مطالبهم فوعده المختار بتفضيلهم على الموالي اذا عاهدوه على قتال الامويين والزبيريين ومناصرة العلويين فرفضوا اقتراح المختار وانتهزوا فرصة وجود الجيش خارج الكوفة بقيادة ابن الاشتر فزحفوا على المختار وحاصروه في قصر الامارة واحتلوا المراكز الرئيسية في الكوفة وسيطروا على اكثر أحيائها، فبعث المختار برسول الى ابن الاشتر وكان لا يزال قريبا من الكوفة ليخبره بكل ما حدث ويأمره بالرجوع بمن معه من الجيش الى الكوفة بأقصى ما يمكن من السرعة، وفي مساء اليوم الثاني كان ابراهيم الاشتر وجيشه يجوب شوارع الكوفة وعسكر بجوار مسجدها ودارت المعركة بين الفريقين وكانت نتيجتها لمصلحة المختار خلال ساعات معدودات وقتل منهم خمسمائة وأسر نحوا من مائتين وفرّ الباقون لخارج الكوفة، وكان السبب في هذه المعركة تعصّب العرب على الموالي التي استغلها الامويون وقتلة الحسين (ع).

وجاء في الاخبار الطوال للدينوري (صفحة ٣١٦) ان الامويين وقتلة الحسين كانوا السبب في هذه الفتنة وان شمر بن ذي الجوشن وعمر بن سعد ومحمد بن الاشعث وأخاه قيس بن الاشعث كانوا قد فروا من الكوفة عندما دخلها المختار ودعا الشيعة للانتقام من قتلة الحسين وعندما بلغهم خروج الناس على المختار في الكوفة رجعوا اليها وجعلوا يحرضون الناس وقادوا المعركة مع الامويين ضده وكان مصير معركتهم الفشل كما ذكرنا[1].

(١) أنظر الخوارج والشيعة للمستشرق فلهوزن والأخبار الطوال وغيرها.

المختار وقتلة الحسين (ع)

لقد رأى المختار بعد ان تبين لـه ان الامويـين وقتلة الحسين (ع) كـانوا وراء تلك المعركة التي انتهت بانتصاره على عرب الكوفة رأى ان يعجل بالقضاء على من اشترك في مجزرة كربلاء فـأعلن الحرب عليهم وسار هو ومعه فرقة من الجيش في جهة وابراهيم بن الاشتر ومعه بقية الجيش في جهة اخرى ونادى مناديه في الكوفة: من أغلق بابه فهو آمن الا من اشترك في قتـل الحسين، وأطلق العنـان لهم لينتقموا من قتلته وقال لاصحابه: اطلبوا لي قتلة آل بيت الرسول فانـه لا يسوغ لي الـطعام والشراب حتى أطهـر الارض والمصر منهم، وتعـالى الصيـاح من كـل جـانـب: يـا لثارات الحسين، وصاح أنصار الامويين: يا لثارات عثمان، وكان هـذا النداء سبباً في تفرق بعض أنصارهم وفي مقدمة من انسحب من المعركة رفاعة بن شداد وقال: ما لنا ولعثمان والله لا أقاتل مع قوم يطالبون بدم عثمان، واستطاع المختـار ان يأسر في اليوم الاول من المعركة خمسمائة رجل ولما عرضوا على المختار وجد ان من اشترك منهم في معركة الطف مائتين وثمانية وأربعين رجلا فقتلهم عن آخرهم وأطلق سراح من بقي منهم، وذهب رجـال المختار يميناً وشمالاً يبحثـون عن بقية القتلة، وكـان كل واحد منهم قد هيأ لنفسه مخبأ واختفى فيه، ولكن الموالي كانوا يراقبون تحركاتهم وتنقلاتهم فاستخرجوهم من مخابئهم وقتلوهم وحتى ان بعض النسوة كن يخبرن عن أزواجهن، ومن هؤلاء زوجة خولي بن يـزيد الاصبحي الـذي احتز رأس الحسـين وفصله عن جسـده الشريـف، وحينـما أدخلوا الـرؤوس الى الكـوفـة ادخله عليهـا فنفرت منه وقالت: والله لا يجتمع رأسي ورأسك على وسادة واحدة، وقد اختبأ في داره في محل بعيد عن الانظار، ولما هاجم أنصار المختار داره ولم يجدوه فيهـا سألـوا

عنه زوجته فقالت: لا أدري اين هو، وأشارت لهم بيدها الى مكانه فاستخرجوه من المكان الذي أرشدتهم اليه وأقبلوا به الى المختار فردّه في بيته فقتله الى جانب أهله وهم ينظرون اليه ثم دعا بنار وأحرقه ولم يبرح المكان حتى صار رمادا، ثم قبض على عمر بن سعد وقتله واحتز رأسه ووضعه بين يديه وأحضر ابنه حفصا ووضع الرأس بين يديه، وقال له: أتعرف هذا الرأس؟ فقال: نعم ولا خير في العيش بعده، فقال له: ومن أنبأك أنك تعيش من بعده، وأمر بقتله ووضع الرأسين بين يديه وبكى، ثم قال: هذا برأس الحسين وهذا برأس علي الاكبر، والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا انملة من أنامله.[1]

وجاء في الاخبار الطوال للدينوري ان المختار أمر أبا عمرة بأن يجمع له ألف عامل من العمال ويتتبع دور من خرج لقتال الحسين (ع) ويهدمها، وكان أبو عمرة عارفا بهم فجعل يتتبعهم في أحياء الكوفة ويهدم ويقتل من وجده منهم، ومضى المختار يطاردهم حتى لم يبق منهم أحد الا فرّ او قتل، والتجأ الفارون الى ابن الزبير والى الامويين، ثم استأجر المختار نوادب من نساء الكوفة يندبن الحسين (ع) ومن قتل معه على باب عمر بن سعد ليحرك عواطف الشيعة ضد الامويين وأنصارهم ويعبئهم حوله لنيل أهدافه، وبعث المختار في طلب حكيم السنبسي وكان قد سلب العباس بن علي بعد مصرعه فقبض عليه انصار المختار وقتلوه قبل رجوعهم اليه مخافة ان يتشفع به أحدا ويسلم من القتل، وطلب زيد بن ورقاء قاتل عبدالله بن مسلم فقتلوه وأحرقوه، كما قتلوا شمر بن ذي الجوشن وقد قبضوا عليه بعد ان انهزم من الكوفة قاصداً مصعب بن الزبير، وحاول ان يقاومهم ولكنهم تغلبوا عليه وأردوه صريعا ثم أحرقوه وقبضوا على ابن أنس وكان قد انتزع برنس الحسين عنه فقال لهم المختار: اقطعوا يديه ورجليه، وتركوه يضطرب حتى مات.

وجاء في البداية والنهاية لابن كثير ان المختار كان يعاقب كل انسان حسب جريمته وبقي عليه رأس الافعى عبيد الله بن زياد، وكان قد اتجه لتحرير العراق من الزبيريين والشيعة عن طريق الموصل بقيادة جيش كبير من جند الشام قد أعده عبد الملك بن مروان لهذه الغاية، وحينما بلغت أخباره المختار جهّز جيشاً مؤلفاً من سبعة آلاف مقاتل لمقابلته قبل ان يجتاز حدود العراق، واضطر الى إرجاعه لاخماد

(١) المجلد الرابع من الطبري ص ٥٣٣.

الفتنة التي افتعلها أشراف الكوفة بسبب مواقف المختار من الموالي وإنصافه لهم كما ذكرنا، وبعد ان قضى على الفتنة كرّ راجعاً لملاقاة ابن زياد وكان قد احتل الموصل وخرج المختار مع الجيش الى المدائن وبقي فيها يتلقى أخبار المعركة ونتائجها، وعندما التقى الجيشان على ضفاف نهر الخازر في ضواحي مدينة الموصل، تقدم عمر بن الحباب السلمي أحد القادة الكبار في جيش ابن زياد من ابراهيم بن الاشتر وعرض الانضمام اليه بمن معه، وكان قيسياً حاقداً على الامويين لانهم يومذاك كانوا يقربون ويجارون الكلبيين اليمنيين ويتجاهلون أخصامهم القيسيين، وأخبر ابن الاشتر بأنه على ميسرة ابن زياد واتفق واياه على ان ينهزم بمن معه من المعركة عندما يلتقي الجيشان. ونفّذ ابن الحباب خطته عندما احتدمت المعركة بين الطرفين وذلك في مطلع سنة ٦٧ هجرية وجعل الاشتر يحرض جيشه على القتال ويذكرهم بما فعل ابن زياد بالحسين وأصحابه وأهل بيته من القتل والسبي والاسر وما الى ذلك من الجرائم.

وزحف الطرفان بضراوة بالغة واستمر القتال حتى امتلأت ساحة المعركة بالقتلى من الطرفين، وكان اكثرهم من جند الشام، واستطاع ابن الاشتر ان يهزم بجيشه جموع اهل الشام بالرغم من انهم كانوا يبلغون عشرة أضعاف جنود المختار على حد تعبير المؤرخين، وذلك بفضل مهارة القائد وحماس جنده الشيعي في غالبيته بعد ان كان خصمهم اللدود الذي تولى قتال الحسين وكانت المجزرة بتوجيهاته، في ساحة المعركة وسقط في ميدان القتال اكثر قادتهم ومنهم ابن مرجانة وفرّ الباقون بعدما شاع نبأ مصرعه ومضى جيش العراق في اثرهم أينما حلوا واتجهوا وبلغ الحال بهم انهم كانوا يلقون انفسهم في نهر الخازر على أمل النجاة من العراقيين فيموتون غرقا، وانتهت المعركة بتلك الهزيمة المنكرة التي لم يحدث التاريخ بأسوأ منها، وطلب الاشتر جثة ابن زياد واحتز رأسه وأحرقها ووزع القادة من أنصاره على المدن المتاخمة للموصل لإدارة شؤونها وملاحقة فلول الامويين ودخل المدينة فاستقبله اهلها استقبال الفاتحين وأرسل للمختار يبشره بانتصار جيشه ومصرع ابن مرجانة وأرسل الرأس ومعه بقية رؤوس القادة.

وجاء في حياة الامام زين العابدين للساعدي عن المنهال بن عمر انه قال: حججت في السنة التي ظهر فيها المختار ودخلت على الامام زين العابدين، فقال لي: يا منهال ما فعل حرملة بن كاهل؟ فقلت: تركته حياً يرزق، فرفع الامام يديه وقال: اللهم أذقه حر الحديد اللهم أذقه حر النار، ومضى المنهال يقول: فلما

رجعت الى الكوفة ذهبت لزيارة المختار وكان لي صديقاً فوجدته قد ركب دابته فركبت معه حتى اتى الكناسة فوقف ينتظر شيئاً وكان قد وجه الشرطة في طلب حرملة بن كاهل فلما وقف بين يديه قال: الحمد لله الذي أمكنني منك، ثم دعا بالجزار وأمره بأن يقطع يديه ورجليه وبحزمة قصب فقطع يديه ورجليه وأحرقه بعد ذلك، فقلت بعدما رأيت ذلك: يا سبحان الله، فالتفت الي المختار وقال: مم سبحت يا منهال؟ فقصصت عليه ما سمعته من الامام زين العابدين (ع) ودعائه على حرملة فقال لي: بالله عليك لقد سمعت ذلك، فقلت: اي والله، فنزل وصلى ركعتين وصام نهاره شكرا لله على استجابة دعاء الامام علي بن الحسين على يديه.

وجاء في تاريخ اليعقوبي وغيره ان المختار الثقفي أرسل رأس ابن زياد ورأس ابن سعد الى علي بن الحسين في المدينة وقال للرسول: اذا دخلت المدينة وبلغت دار علي بن الحسين ورأيت أبوابه قد فتحت ودخلها الناس فادخل عليه بالرأسين فانه في ذلك الوقت يوضع له الطعام ليأكل هو ومن يدخل عليه.

فأقبل الرسول نحو المدينة يجدّ السير فلما انتهى اليها مضى الى بيت الامام (ع) ولما فتحت الابواب ودخل الناس لتناول الطعام نادى بأعلى صوته: يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الوحي انا رسول المختار بن أبي عبيدة ومعي رأس ابن مرجانة وعمر بن سعد، فضج من في الدار وتعالى الصراخ منه وانتشر الخبر بسرعة في دور بني هاشم ولم تبق امرأة في دورهم الا صرخت، ثم دخل ووضع الرأسين بين يدي الامام (ع) فلما رآهما قال: أبعدهما الله الى النار، وأضاف اليعقوبي الى ذلك ان علي بن الحسين لم ير يوماً قط ضاحكا منذ قتل ابوه الا في ذلك اليوم.

وكان له ابل تحمل الفاكهة من بلاد الشام الى الحجاز فأمر بتلك الفاكهة ووزعها على اهل المدينة ثم خر لله ساجدا يدعو للمختار ولكل من ناصرهم على قتال اعدائهم.

وعندما علم ابن عباس بذلك قال: جزاه الله عنا وعن رسول الله خير جزاء المحسنين لقد اخذ بثأرنا وأدرك وترنا، كما خرّ محمد بن الحنفية ساجداً شكراً لله وقال: جزاه الله خير الجزاء لقد ادرك لنا ثأرنا ووجب حقه على كل من أولده عبد المطلب بن هاشم، ومضى يقول: اللهم احفظ ابراهيم بن الاشتر وانصره على

(١) أنظر المختار الثقفي للخرطبولي ص ٢٠٣.

الاعداء ووفقه لما تحب وترضى واغفر له في الآخرة والاولى.

وجاء عن فاطمة بنت علي (ع) كما في كتاب محمد بن الحنفية للهاشمي انها قالت: ما تخضبت امرأة من العلويات ولا أجالت في عينيها مرودا ولا ترجلت حتى بعث المختار برأس عبيد الله بن زياد الى المدينة، وأكد مضمون هذه الرواية الامام الصادق (ع) كما جاء في رواية المرزباني عنه[1].

وبلا شك فان المختار قد ادخل السرور على أهل البيت وترحّم عليه الامامان الباقر والصادق ونزّهه الامام الصادق من كل ما نسب اليه، وجاء عن عبد الله بن شريك العامري انه قال: دخلنا على ابي جعفر الباقر (ع) يوم النحر وهو متكىء وقد أرسل الى الحلاق فقعدت بين يديه اذ دخل عليه شيخ من أهل الكوفة فتناول يده ليقبلها فمنعه وقال له: من انت؟ قال: انا الحكم بن المختار وكان متباعدا من ابي جعفر (ع) فمد يده اليه حتى كاد يقعده في حجره فقال له الحكم: أصلحك الله ان الناس قد أكثروا في أبي وقالوا والقول كثير يقولون انه كذاب ولا تأمرني بشيء الا قبلته، فقال الامام: يا سبحان الله لقد اخبرني ابي أن مهر امي كان مما بعث به المختار: أولم يبن دورنا وقتل قاتلينا وطلب دماءنا رحمه الله.

ومضى يحدث عن خصائصه وقال في ختام حديثه: رحم الله اباك رحم الله اباك ما ترك لنا حقا عند أحد الا طلبه، أما ما جاء عن زين العابدين (ع) في حقه فلا مصدر له ان صح سوى التحاشي من شر الامويين والزبيريين الذين كانوا يلاحقون الشيعة وأئمتهم ويسومونهم سوء العذاب[1].

(١) أنظر رجال الكشي ص ١١٥.

موقف المختار من الزبيريين ونهايته

لقد ارتفعت أسهم المختار كثيراً في الأوساط الاسلامية وبخاصة بعد نجاحه في معركة الموصل والقضاء على ابن زياد وقادة جيشه واحتلال الموصل ومناطقها، وأصبح مستهدفاً للأمويين والزبيريين وكلاهما يحاذران من نفوذه المتزايد واتساع سلطته، ولكن الزبيريين كانوا يرونه أخطر على مطامعهم وأمانيهم من الأمويين في العراق لأنه كان يعمل من أجل الدولة العلوية وعاصمتها الكوفة، والتف حوله الشيعة والموالي جنباً إلى جنب، وهم يشكلون العدد الأكبر من سكانه، وكان ابن الزبير ينظر إلى معارك المختار مع الأمويين في الموصل بعين مليئة بالسرور، لأن الحرب الضروس التي وقعت بينهما ستؤدي في النهاية إلى أضعاف الفريقين، وأيهما كان المهزوم أو المقتول فهو من أخصامه الألداء.

وحينما علم بمصرع ابن زياد وهزيمة الأمويين قرت عينه لأن ابن زياد كان من أعظم قادتهم وأشرسهم، وأصبح الصراع بينه وبين المختار على العراق في تلك الفترة من الزمن لأن عودة الأمويين الى العراق بعد تلك النكسة التي مُنيت بها جيوشهم في الموصل ليست بالأمر اليسير الذي يمكن تجاهله.

وبالرغم من الانتصارات الواسعة التي حققها المختار في العراق على من تمرد عليه من زعماء العرب كرهاً بالموالي الذين قربّهم وساواهم بغيرهم، وعلى الأمويين في معاركه معهم في الموصل فقد كان يحاذر من الزبيريين ويراقب تحركاتهم ورأى نفسه في أمسّ الحاجة الى مهادنتهم ولو لفترة من الزمن يستعيد فيها قوته وينال فيها جنده قسطاً من الهدوء والراحة حتى لا يملّ من القتال ويدب الوهن والتخاذل في

صفوفه ويصنعوا معه كما صنعوا مع علي والحسن وابن عقيل بالأمس، لا سيما وأن فريقاً من الزعماء الذين يمثلون المعارضة لسياسته لا يزالون في الكوفة يترقبون الفرصة للوثوب عليه، والتجأ بعضهم الى ابن الزبير وانضموا الى أنصاره يعدون العدة للثورة ورأى أن يبعث برسالة الى ابن الزبير جاء فيها: فإن ترد مراجعتي ومناصحتي لك فعلت، وكان المقصود منها كما جاء في الكامل لابن الأثير أن يهادنه لاتمام ما كان يعمل لتحقيقه وانجازه وتحسباً من أن يرسل جيشاً الى الكوفة ويضطره الى حرب طاحنة ليست من مصلحته في ذلك الوقت[1].

وكان رد ابن الزبير أن أرسل عمر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام ليتأكد من صدق نوايا المختار عاملاً له على الكوفة وأعطاه أربعين ألف درهم، ولما دخل الكوفة استقر رأي المختار أن يصرفه عنها بالحسنى كما أخرج منها عبد الله بن مطيع من قبل فاستدعى زائدة بن قدامة وأعطاه سبعين ألف درهم وأمدّه بخمسمائة فارس وطلب منه أن يعرض على الوالي الجديد هذا المبلغ لقاء انصرافه من الكوفة، وإن رفض أخرجه بقوة السلاح، فتردد ابن عبد الرحمن أولاً في قبول المبلغ وأخيراً آثر السلامة عندما أحسّ بأن زائدة بن قدامة مستعد لمقاومته ورجع الى البصرة فأقام فيها إلى جانب ابن مطيع.

وعاد المختار الى محاولة ثانية لخداع ابن الزبير كما جاء في الكامل لابن الأثير فأرسل إليه يخبره بأنه قد مهّد سلطانه على العراق وطلب منه أن يقره على حكمه نزولاً عند الأمر الواقع، واقترح عليه أن يمده بمليون درهم ليستعين بهذا المبلغ على الزحف الى الشام لقتال الأمويين، ولكن ابن الزبير وكأنه قد أدرك ما يهدف اليه المختار من محاولاته هذه فرفض اقتراحه وظل المختار يترقب الفرص ليعيد على ابن الزبير طلب الهدنة، وصادفته الفرصة بعد أن أرسل عبد الملك جيشاً بقيادة عبد الملك بن الحرث لمهاجمة وادي القرى في الحجاز فاستغلها المختار وأعاد الكرّة على ابن الزبير يعرض عليه المساعدة فاضطر ابن الزبير الى الترحيب بذلك بشرط أن يأخذ له البيعة في العراق فاستدعى قائده شرحبيل بن ورس الحمداني وأمده بثلاثة آلاف جندي وأمره بالزحف الى المدينة وانتزاعها من ابن الزبير، وبما أن ابن الزبير لم يكن مطمئناً للمختار ويخاف غدره اتخذ جميع الاحتياطات لإحباط محاولاته فأعد

(١) أنظر الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ١٠٣ وأنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٤٥.

جيشاً من ألفي مقاتل بقيادة العباس بن سهل للدفاع عن المدينة وأمره بأن يستدعي البدو والأعراب ويتقدم بهم نحو المدينة وأن ينضم الى جند المختار إذا تيقن من إخلاصهم ويشتركوا جميعهم في حرب الامويين في وادي القرى، والا قاتلهم ومنعهم من احتلال المدينة، ولما وصل ابن ورس قائد المختار بمن معه المدينة والتقى بابن سهل قائد ابن الزبير طلب منه الانضمام اليه لمساعدته على الأمويين الغزاة فرفض ابن ورس طلبه واستمهله ليكتب الى المختار بهذا الخصوص فأدرك العباس بن سهل أهداف المختار من إرسال جيشه وبقي يراقب تحركاتهم بدقة وحذر شديدين كما يدعي المؤرخون، وخلال إقامة جيش المختار في المدينة نفد ما كان معهم من المؤن فاضطروا الى طلب المساعدة من الزبيريين فأمدوهم بالمؤن والأغنام وبما يحتاجون اليه وانصرف جماعة من الجند الى ذبح الأغنام وسلخها تاركين أسلحتهم وراءهم، فانتهز العباس بن سهل هذه الفرصة وفاجأهم بالهجوم عليهم على حين غفلة فانتدب شرحبيل بن ورس أصحابه فلم يجتمع إليه في تلك اللحظات أكثر من مائة منهم ودارت معركة بين الفريقين وانفرجت عن مقتل سبعين ممن كانوا مع ابن ورس ومائتين من بقية الجند، وفرّ الباقون الى هنا وهناك لا يدرون أين يتوجهون وهلك معظمهم من الجوع على حد تعبير ابن الأثير في المجلد الرابع من الكامل.

واتجه ابن الزبير بعد هذه المحاولة من المختار الى اضطهاد العلويين وبخاصة محمد بن الحنفية للتشفي من المختار ومثل أدوار الأمويين معهم بالروح والأسلوب نفسه وحصرهم في شعب رضوي وضيّق عليهم كما فعلت قريش مع الهاشميين والمسلمين الأوائل في مطلع الرسالة، واتجه المختار لنجدتهم حينما علم بذلك بواسطة جيش أرسله من الكوفة بقيادة عبد الله الجدلي فاستخرجوا العلويين وابن الحنفية من الشعب وحاولوا الاقتصاص من الزبيريين وأنصارهم فرفض ابن الحنفية ذلك تحرجاً من الفتنة وإراقة الدماء.

وظلت الأمور تتأزم بين المختار وابن الزبير وتسير من سيىء الى أسوأ وأصبح المختار بنظر ابن الزبير أشد خطراً عليهم من الأمويين، ورأى عند ذلك أن يرسل الى البصرة والياً قوياً من خلص أنصاره ومعاونيه وبعد توطيد الأمور فيها يتجه الى الكوفة وجهاتها من المناطق التي تخضع لحكم المختار، ولم يجد لهذه المهمة غير أخيه مصعب بن الزبير فأرسله الى البصرة سنة ٦٧ من هجرة الرسول (ص) وعندما دخلها خطب الناس وأعلن بحضور حشد كبير من أهلها عن انتهاء عصر الضعف

والتساهل، وهاجم المختار هجوماً عنيفاً صاعقاً ولم يترك لقباً من ألقاب السوء إلا ألصقها به، والتفت إلى أهل البصرة قائلاً: بلغني أنكم تلقبون أمراءكم وقبل ان تلقبوني فإني قد لقّبت نفسي بالجزار، واستغل شدته وقسوته الهاربون من الكوفة فالتفوا حوله يستغيثون به ويطلبون منه أن يخرج بهم لقتال المختار وبعد أن وجد الأجواء مهيأة لذلك استدعى المهلب بن أبي صفرة وكان وجهه لقتال الخوارج فهادنهم وأقبل بمن معه الى البصرة فأرسله الى الكوفة في جيش قد أعده لذلك وأحسن عدته وضم إليه اولئك الذين نزحوا من الكوفة هرباً من المختار، ولما بلغت أخبارهم المختار جمع جنده وأنصاره وولى عليهم أحمد بن شميط ولما التقى الجيشان على مشارف الكوفة وأصبحا وجهاً لوجه طلب منهم قائده الكف عن إراقة الدماء والتسليم للمختار على أن تكون الخلافة فيمن يتفقون عليه من آل الرسول (ص).

وكان من الطبيعي أن يرفض ابن الزبير هذا العرض وأمر قائده المهلب بالهجوم فهاجموهم وهم يقولون لأهل الكوفة: كفوا عن القتال ولا تقتلوا أنفسكم من أجل هؤلاء العبيد يعنون بذلك الموالي، وتقدم الزبيريون في الهجوم حتى كادوا أن يلحقوا الهزيمة بأهل الكوفة، واستعاد الموالي والشيعة نشاطهم ودبّ فيهم الحماس في تلك اللحظات وانهالوا عليهم بسيوفهم ورماحهم وسهامهم كالسيل الجارف وعاد الموقف لمصلحة المختار وجيشه وانهزم أنصار ابن الزبير ولم يثبت منهم سوى الفرسان، وكانوا لا يدركون منهزماً إلا قتلوه ولم يقبضوا على أسير إلا ألحقوه به، ولكن سرعان ما دارت الدائرة على جيش المختار واستطاع ابن الزبير أن يجمع فلول جيشه المشاة والفرسان ويهاجم بهم جماعة المختار واستولى الحماس على عرب الكوفة الذين التحقوا بابن الزبير وقاتلوا قتالاً شديداً واستمر القتال الضاري حتى ساخت الأرض بالدماء، وامتلأت أرض المعركة بجثث القتلى وكان أكثرهم من الموالي وأبدى المختار شجاعة فائقة بعد أن قُتل قائده ابن شميط، ولما أحس أنصاره بأن المعركة تسير بسرعة لمصلحة ابن الزبير وأن الهزيمة لاحقة بهم لا محالة أخذوا يتسللون الى ابن الزبير الواحد بعد الواحد يطلبون منه الأمان لهم ولأسراهم، ودخل ابن الزبير بجيشه حتى أصبح على أبواب الكوفة وأخذوا يضيّقون على المختار ويمنعون عنه المدد والمؤن، ولم يبقَ معه إلا عدة آلاف من الموالي ومئات قليلة من العرب، وكان أكثر من معه من العرب والزعماء قد تسللوا الى أسرهم واعتصموا في بيوتهم كما هي عادتهم مع العلويين وأصبحت حالة المختار تزداد

سوءاً لحظة بعد لحظة، وبلغ الحال بالناس أنهم كانوا إذا خرجوا من القصر يرمونهم من فوق السطوح بالماء والأوساخ، وكانوا يقتاتون على ما يأتيهم من النساء في منتهى التكتم والسرية.

واستمرت الحرب في الشوارع كحرب العصابات لمدة أربعة أشهر كما يدعي بعض المؤرخين، فكان يخرج بمن معه من القصر بين الحين والآخر فيصطدم بجماعة ابن الزبير ثم يرجع اليه، وعندما تقدم ابن الزبير نحو القصر وأصبح في جواره ندب المختار أصحابه وقال لهم: إن الحصار لا يزيدكم إلا ضعفاً فانزلوا بنا حتى نموت كراماً، فامتنعوا عن الخروج معه، وأخيراً خرج ومعه سبعة عشر رجلاً لا غير ومضى يضرب بسيفه حتى قتل وكان مصرعه في ١٤ رمضان من سنة ٦٧.

وجاء في مروج الذهب للمسعودي أنه خرج من القصر وركب بغلة شهباء ومضى يضرب بسيفه حتى قتل منهم جماعة ثم حمل عليه رجل من بني حنيفة فصرعه وتكاثر عليه أصحاب مصعب وقطعوه بسيوفهم، وأمر ابن الزبير بقطع كفه وسمرها بمسمار الى جانب المسجد على حد تعبير الراوي وبقيت الى أن جاء الحجاج ابن يوسف والياً عليها لعبد الملك بن مروان فأمر بنزعها، ودخل مصعب القصر فاستسلم كل من فيه من المقاتلين ونزلوا على حكمه ومع ذلك فقد قتلهم عن آخرهم ومضى يتتبع الشيعة وأنصار المختار حتى قتل في ضحوة يوم واحد سبعة آلاف من الشيعة والموالي والتقى بعد ذلك بعبد الله بن عمر فقال له: أنت القاتل سبعة آلاف إنسان في ضحوة يوم واحد؟ فقال له: إنهم سحرة كفرة، فقال له ابن عمر: لو قتلت عدتهم من غنم أبيك لكان سرفاً[1].

وجاء في تاريخ اليعقوبي أنهم كانوا قد حاصروا من في القصر ولم يتمكن ابن الزبير من احتلاله فأعطاهم العهود والمواثيق وكتب لهم كتاباً عاهد الله فيه أن لا يمسهم بسوء فمكّنوه من القصر فدخله ولما استسلموا قتلهم عن آخرهم وكانوا سبعة آلاف رجل من الشيعة والموالي ومضى يتتبع الشيعة فقتل منهم عدداً كبيراً ولم تشاهد الكوفة حتى في عهد زياد وابنه عبيد الله فترة أسوأ من تلك الفترة التي عاشتها خلال الأشهر الأولى من احتلال الزبيريين لها[2].

وبلغ به الحال أنه بعد أن قتل المختار وفتك به حاول قتل نسائه فقد

(١) أنظر ص ١٥٧ من المجلد السابع تاريخ الطبري.
(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٠ طبع النجف.

استدعاهن إليه وطلب منهنّ البراءة منه وهددهنّ بالقتل إن لم يستجبن الى طلبه، فاستجابت له إحداهنّ وتبرأت منه لما رأت السيف فوق رأسها وامتنعت اثنتان منهنّ وهما بنت سمرة بن جندب وابنة النعمان بن بشير الأنصاري وقالتا: كيف نتبرأ من رجل يقول ربي الله كان صائماً نهاره وقائماً ليله قد بذل دمه لله ولرسوله في طلب قتلة ابن بنت رسول الله (ص) وأصرتا على موقفهما فأودعهما في السجن وكتب الى أخيه بشأنهما فكتب إليه: إن رجعتا عما هما عليه وتبرأتا منه فخلّ سبيلهما وإلا فاقتلهما، ولما هددهما بالقتل تراجعت ابنة سمرة خوفاً من القتل وأصرّت ابنة النعمان بن بشير على موقفها وقالت: شهادة أرزقها في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها أنها موتة ومن ورائها الجنة والله لا أفضل على ولايتي لعلي بن أبي طالب شيئاً اللهم أشهد أني متبعة لنبيّك وابن بنته وأهل بيته وشيعته، ثم ترحمت على زوجها ولم تتبرأ منه فقتلها مصعب بن الزبير وكانت كما يقول اليعقوبي أول امرأة ضربت عنقها صبراً وقال عمر بن أبي ربيعة المخزومي في رثائها:

إن من أعجب الأعاجيب عندي قتل بيضاء حرة عطبول
قتلوها بغير جرم أتته إن لله درها من قتيل
كُتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

لقد قتل ابن الزبير سبعة آلاف في غداة يوم واحد من شيعة علي (ع) بالإضافة الى ألوف القتلى الذين صرعهم في ضواحي الكوفة وشوارعها لأنهم سحرة كفرة كما جاء في جوابه لعبد الله بن عمر حينما لامه على إسرافه في إراقة الدماء، فبأيِ شيء يعتذر عن قتله لامرأة أشهدت الله ورسوله على نفسها والسيف مسلّط على رأسها إنها على دين محمد بن عبد الله ومتّبعة له ولأهل بيته ومع ذلك لم يحترم الإسلام الذي نهى عن ترويع النساء وإن شتمن أعراض القادة وسببن الأمراء كما كان النبي (ص) يؤكد على قادة جيوشه بذلك.

لقد كان المختار ومن معه من الشيعة سحرة كفرة بنظر ابن أخت عائشة لأنهم كانوا موالين لأهل البيت وقتلوا قتلة الحسين وبنيه وإخوته وأنصاره، وكذلك زوجة المختار لأنها كانت تحمل هذه الروح البريئة الطيبة فهي ساحرة وكافرة تستحق القتل والتعذيب.

إن ابن هند وابن ميسون وجلاديهم كزياد ابن أبيه وعبيد الله وأمثالهما لم يصنعا مع الشيعة أكثر مما صنعه الجزارون الزبيريون، ولو كان الحسين في الكوفة

حينها دخلها ابن الزبير لكان ساحراً كافراً بنظره مستحقاً للقتل وأسوأ أنواع التمثيل والتعذيب.

ولا فرق بين ابن الزبير والأمويين إلا أن ابن الزبير كان يصدر الأوامر لجلاديه بقتل الصلحاء من الرجال والنساء وإبادة الشيعة من احدى زوايا الكعبة وهو متقمّص لباس العباد والزاهدين، وأولئك يصدرون الأوامر لجلاديهم بالقتل والظلم والجور من على موائد الخمر وندوات القمار ومن بين أحضان البغايا والراقصات.

لقد تنفس الشيعة خلال تلك الفترة القصيرة التي ظهر فيها المختار بن أبي عبيدة الثقفي وذاقوا طعم الراحة وأحسوا بوجودهم وبخاصة بعد أن أصابوا ثأرهم من قتلة الحسين (ع) وبنيه وأنصاره وسطع نجم المختار في جميع الأوساط الإسلامية بعد أن قتل ابن زياد ومن اشترك معه في مجزرة الطف التي هزت العالم الإسلامي على اختلاف اتجاهات المسلمين ونزعاتهم، وبرز كبطل من أبطال التاريخ الذين حاربوا الظلم والظالمين من أجل الحق والعدل وكرامة الإنسان.

لقد تنفّس الشيعة في عهد المختار بعد خمسة وعشرين عاماً من حكم معاوية وولده وأسرته وذاقوا فيها كل أنواع الأذى والشر والجور، وخيّم في أوساطهم جو من التفاؤل الحذر بعودة الحكم العلوي الى العراق بواسطة جهود المختار وتفانيه في هذا السبيل، وسرعان ما تبددت آمالهم وخيّم التشاؤم في أوساطهم محل التفاؤل بعد أن تكتلت قوى الشر والبغي من هنا وهناك لإحباط محاولاته والقضاء عليه، وطويت بمصرعه صفحة ناصعة من صفحات الانتفاضات الشيعية لتحل محلها صفحة سوداء عاتية بقيادة ابن الزبير شقيق العائذ بالبيت الحرام لا تختلف في ظلامها الدامس عن تلك الصفحات التي كانت تخيّم عليهم في عهد زياد وابنه وغيرهما من الجلادين والفراعنة.

وبغياب المختار عدو الأمويين والزبريين عن ساحة الصراع استمر الصراع بضراوة بالغة بين الأمويين بقيادة عبد الملك وريث العرش الأموي وبين الزبيريين بقيادة عبد الله بن الزبير، وكانت الأحداث تتلاحق بينهما بأقصى حدود السرعة واتجه الحزب الأموي بكل قوته لانتزاع العراق من ابن الزبير واستطاع عبد الملك بدهائه وكياسته أن يشتري زعماء العراق بالوعود والأموال كما كان يصنع أسلافه من قبله، وعندما التقى عبد الملك بمن معه من جنود الشام بمصعب بن الزبير ومن معه من

أهل العراق في دير الجاثليق القـريبة من الأنبـار واستعرت الحـرب بينهما تفـرّق عن مصعب أكثر أصحابه، وكانت ربيعـة في طليعة المنشقـين عليه وهجمـوا عليه وهـو جالس على سريره وقتلوه واجتز رأسه عبيد الله بن زياد بن ظبيان وقدمه لعبد الملك ومضى بجيشه حتى دخل الكوفة وجلس في قصر الإمارة مزهـواً ورأس مصعب بين يديه وذلك في أواخر سنة ٧٢ هجرية كما نص على ذلك اليعقوبي في تاريخه، ودخل عليه عبد الملك بن عمير اللخمي وقد أخذته نشـوة النصر والظفـر، فأراد كـما يبدو أن يضـع حداً لنشـوته وغـروره، فقال لـه: لقـد دخلت هـذا القصر ورأيت رأس الحسـين بن علي بـين يدي ابن زيـاد، ثم دخلته فـرأيت رأس ابن زياد بـين يـدي المختار ودخلته مرة ثالثة فوجدت رأس المختار بين يدي مصعب بن الـزبير وهـا أنا أرى رأس مصعب بين يديك، فارتاع عبد الملك من حديثه وبدا عليه الانفعـال ثم خرج مسرعاً منه وأمر بهدمه[1]. وبحلول سنة ٧٣ أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي في عشرين ألف مقاتل الى ابن الزبير في الحجاز واشتدت المعارك بينهما على مشارف مكة ولم يزل يرميهم الحجاج بالمنجنيق حتى تهدمت الكعبة ودبَّ التخاذل بين أنصار ابن الزبير وراحوا يتفرقون عنه ولما أيقن أن الحرب ستكـون لمصلحة جيش الشـام وأنه لم يعد يملك السيطرة على جيشه دخل على أمه واستشارها فيما يصنع، ويـروي المؤرخون أنها لم ترجح له الاستسلام ما دام يعتقد بأنه محق في مواقفه وبددت جميع مخاوفه فرجع الى المعركة ومضى يقاتل بمن بقي معه حتى قتل[2] وانتهى بمصرعـه دور الزبيريين الذي اعـترض مسيرة الـدولة الأمـوية التي أسسهـا معاويـة بن أبي سفيان لتبقى لأحفـاد أمية ينـزون على منـبر الرسـول نزو القـردة كما أخـبر عنهم الـرسـول (ص).

(١) أنظر المجلد الثالث من تاريخ اليعقوبي ص ١٢ طبع النجف الأشرف.
(٢) المصدر السابق ص ١٣ و ١٤.

موقف الحجاج بن يوسف من الشيعة

لقد انتهت معارك الأمويين مع ابن الزبير بمصرعه على يد الحجاج بن يوسف وولاه العراق وحاول عبد الملك أن يقف من العلويين موقفاً يختلف عن موقف أسلافه الأمويين فأوصاه بأن يحقن دماء بني عبد المطلب ويتجنبها ولا يسيء إليهم وقال له، كما يروي المؤرخون: إني رأيت آل أبي سفيان لما ولغوا فيها لم يلبثوا إلا قليلاً وقد اشتد البلاء على الشيعة في عهده ووصف الإمام الباقر حال الشيعة في عهده كما جاء في المجلد الثالث من شرح النهج بقوله: ثم جاء دور الحجاج فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكل ظنة وتهمة حتى إن الرجل كان يتمنى أن يقال له زنديق أو كافر ولا يقال له شيعي، وجاءه الشرطة برجلين من الشيعة فقال لأحدهما: تبرأ من علي بن أبي طالب، فقال له: وماذا فعل حتى أتبرأ منه؟ فرد عليه بقوله: قتلني الله إن لم أقتلك فاختر لنفسك قطع يديك أو رجليك، فقال له الرجل: اختر أنت لنفسك أي قتلة تريد أن تُقتل بها غداً فاقتلني بمثلها فإن الله سيجعل لي القصاص منك وسأفعل بك ما تفعله بي الآن، فأمر الحجاج بقطع يديه ورجليه وصلبه، وأمر أن تُضرب عنق الثاني بعد أن رفض البراءة من علي وآل علي (ع).

وطلب من أصحابه أن يأتوه بأحد أصحاب علي (ع) فقالوا له: لا نعلم أحداً أطول صحبة له من مولاه قنبر، فأرسل في طلبه وقال له: أنت قنبر؟ قال: نعم، فقال له: تبرأ من دين علي، فردّ عليه بقوله: إن دللتني على دين أفضل من دينه تبرأت منه، ثم قال له: اختر أي قتلة أحب إليك، فقال: أخبرني أمير المؤمنين علي (ع) بأني سأقتل ذبحاً على يد أشقى البرية، فأمرهم أن يذبحوه كما تذبح الشاة.

وطلب كميل بن زياد وكان شيخاً كبيراً ومن خواص أمير المؤمنين ففرّ منه فجعل يعاقب عشيرته وحرمهم من العطاء حتى ساءت حالتهم، فلما رأى كميل ذلك وطّن نفسه على الموت واستسلم له وقال: لقد أخبرني سيدي أمير المؤمنين بأنك قاتلي فاقضِ ما أنت قاضٍ يا عدو الله وبعد القتل الحساب، فأمر جلاديه بقتله فقتلوه.

وطلب سعيد بن جبير وكان تابعياً معروفاً بين الصلحاء بالعفة والزهد وعلم التفسير ويسمى جهبذ العلماء ولا يصلي إلا خلف الإمام زين العابدين فأخذه خالد ابن عبدالله القسري وأرسله الى الحجاج فلما رآه سأله عن اسمه قال: سعيد بن جبير، فقال: بل شقي بن كسير، ثم سأله عن أبي بكر وعمر أهما في الجنة أو النار؟ فردّ عليه بقوله: لو دخلت الجنة علمت من فيها، ولو دخلت النار ورأيت أهلها لعلمت من فيها.

فقال له: ما تقول في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل، فقال له: أيهم أحب إليك؟ فقال: أرضاهم لله، فقال: أيهم أرضى لله؟ قال: علم ذلك عند ربي يعلم سرهم ونجواهم، فأمر جلاديه بقتله.

وقال ابن الأثير في الكامل: لما سقط رأس سعيد بن جبير الى الأرض هلّل ثلاثاً أفصح بواحدة ولم يفصح بالثانية والثالثة، ومضى يقول: لقد التبس عقل الحجاج بعد قتله لسعيد بن جبير، فكان يقول: قيّدونا قيّدونا، وإذا نام يرى سعيداً في منامه آخذاً بمجامع ثوبه وهو يقول: يا عدو الله فيم قتلتني.

وجاء في مروج الذهب للمسعودي أن الحجاج بن يوسف قد زوّج عبدالله ابن هاني أحد خواصه بنت أسماء بن خارجة وابنة سعيد بن قيس الهمداني وكان دميماً شديد الأدمة مجدوراً مائل الشدق أحول العينين، فقال له الحجاج يوماً: لقد زوّجتك ابنة سيد فزارة وابنة سيد اليمانية ولست أهلاً لذلك، فقال له: إن لنا مناقب ليست لأحد من العرب سوانا، فرد عليه الحجاج بقوله: وما هي مناقبكم؟ فقال: ما سب عثمان أحد في نوادينا، فقال: منقبة والله، قال: وشهد منا مع معاوية في صفين سبعون رجلاً وما شهد منا مع أبي تراب إلا واحد، فقال الحجاج: منقبة والله، وما تزوج منا أحد من امرأة تحب أبا تراب، فقال: منقبة والله، وما منا امرأة إلا ونذرت إن قُتل الحسين أن تنحر عشر جزر، قال الحجاج: منقبة والله، ومضى يقول: وما منا رجل عرض عليه شتم أبي تراب إلا شتمه وزاد عليه الحسن والحسين وأمهما فاطمة بنت رسول الله. فقال الحجاج: منقبة والله.

وأضاف إلى ذلك المسعودي: لقد تأمر الحجاج على المسلمين عشرين عاماً وأحصي من قتله صبراً من المسلمين عدا من قتل في حروبه فبلغ مائة وعشرون ألفاً، وكان في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهنّ ستة عشر ألفاً كن مجردات عاريات، وكان يحبس النساء والرجال في حبس واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من حرارة الشمس ولا من المطر والبرد في الشتاء، وكان السجين في حبسه يسودّ ويصبح كأنه زنجي، وحبس غلاماً فجاءت أمه بعد مدة تتفقده، فلما قدم اليها أنكرته وقالت: إنه ليس بولدي، وحينها تأكدت منه شهقت وماتت كمداً لسوء حاله[1].

وكان أكثر القتلى والمساجين من الشيعة ولا ذنب لهم إلا إصرارهم على تشيعهم وموالاتهم لأهل بيت نبيهم (ص) وقد اعترف هو نفسه بهذه الحقيقة حيث قال لهم حينما أراد أن يذهب إلى الحجاز كما جاء في شرح النهج: يا أهل الكوفة إني أريد الحج وقد استخلفت عليكم ولدي محمداً وأوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ويكفي دليلاً على ذلك أن الرجل من أهل الكوفة كان يفضل أن يتهم بالكفر والزندقة ولا يوصف بالتشيع، ومن أجل تلك الفظائع التي ارتكبها مع الشيعة كان مكرماً ومعظماً عند عبد الملك والأمويين وقد ولاه بالإضافة الى العراق بلاد فارس وكرمان وخراسان وسجستان وأوصى به أولاده من بعده كما جاء في تاريخ ابن الأثير فقال لأولاده: أوصيكم بتقوى الله وإكرام الحجاج فإنه وطّد لكم المنابر ودوّخ البلاد وأذل الأعداء.

بهذا المنطق كان الحاكمون يحكمون البلاد ويقتلون العباد فابن الزبير وهو في الكعبة يتظاهر بالعبادة ويصدر الأوامر لأخيه مصعب ليقتل عشرات الألوف من الشيعة لأنهم لم يتبرأوا من علي بن أبي طالب ويأمره بقتل زوجة المختار لأنها أصرت على ولائها لعلي وآل علي ولم تكفر زوجها، وعبد الملك يفتتح وصيته لأولاده بتقوى الله ثم يأمرهم بإكرام الحجاج الذي قتل مائة وعشرين ألفاً من صلحاء المسلمين ووضع في حبسه خمسين ألفاً من الرجال وثلاثين ألفاً من النساء، فالتقوى عند الحكام والطغاة وفراعنة العصور هي أن يقتل ويسلب ويسجن ويصلب كل من أنكر عليهم جورهم وطغيانهم وإذلالهم لعباد الله واستهتارهم بالقيم والمقدسات، ومضى أولاد عبد الملك وأحفاده على الخط الذي رسمه لهم فأكرموا الحجاج وأمثاله

(١) أنظر ج ٣ من المروج ص ١٥٣ و ١٧٥ وتاريخ ابن الجوزي وغيرهما.

من الجلادين لأنهم يوطدون لهم المنابر ويقتلون ويصلبون كل من لم يبارك تصرفاتهم وجورهم ويتبرأ من علي وأبناء علي (ع).

ومع كل ذلك فلقد استمرت الانتفاضات واستهان الكثيرون من الناس بحياتهم في سبيل الحق والمبدأ والعقيدة فثاروا على الظلم والطغيان وخلعوا طاعة الأمويين وجلاديهم، كثورة عبد الله الجارود التي اشترك فيها الموالي ضد الحجاج وقادته الأمويين بالاضافة الى عدد كبير من رجالات العراق بما في ذلك الفقهاء والقراء كما جاء في المجلد الثالث من العقد الفريد لابن عبد ربه وغيره من المجاميع.

وثورة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث التي انضم اليها الشيعة والقراء والعباد وحتى الخوارج والمسيحيون كما نص على ذلك الدينوري في الأخبار الطوال وقد سمى نفسه بناصر المؤمنين وبلغ عدد المقاتلين معه مائة ألف مقاتل نصفهم من الموالي، ويظهر من الأصبهاني في الأغاني أن الكوفة خرجت معه عن بكرة أبيها ولم يبقَ من وجوههم وقرائهم أحد إلا خرج معه لكثرة ما عانوه من جور الحجاج وظلمه وكان عامر الشعبي أحد الفقهاء يومذاك وأعشى همدان أحد الشعراء ممن خرج معه وكان في شعره يمدح ابن الأشعث ويحرّض أهل الكوفة على القتال والمضي في الحرب بلا هوادة، وقد ألحقوا بالحجاج وجيشه الهزيمة وكبدوه مئات القتلى، ولولا جيش الشام الذي أمدّه به عبد الملك والمغريات التي بذلها لبعض زعماء الكوفة لقضى على نفوذ الأمويين وعلى الحجاج وجيشه، وكانت المعركة الحاسمة بين الطرفين في دير الجماجم بعد ان استغاث الحجاج بعبد الملك وأمدّه بجيش كبير من الشام لمصلحة الحجاج بعد أن تولى جند الشام إدارة المعركة ودبّ التخاذل في صفوف العراقيين، فكانت الهزيمة نقمة على الموالي وبدأت فترة جديدة من التعذيب والاضطهاد أقلقت عبد الملك واضطرته الى أن يبدي استياءه من تصرفاته ويبعث إليه يلومه ويوبخه كما جاء في مروج الذهب للمسعودي والتنبيه والإشراف للطبري.

وثورة يزيد بن المهلب وكان قد تغلّب على البصرة وانضم اليه بطبيعة الحال الموالي والمضطهدون وأعداد كبيرة من الشيعة الذين كان الارهاق والظلم يدفعان بهم الى الانضمام لكل ثائر على الأمويين وجلاديهم. وثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة التي قام بها سنة ٧٧ من الهجرة وكان قبلها والياً للحجاج على المدائن، وفي الوقت ذاته كان كما يبدو من مواقفه أشرف من أبيه المغيرة الذي كان يحابي الأمويين

على دينه وقومه ويخدمهم بكل ما لديه من الوسائل حتى النفس الأخير من حياته لقاء مصالحه الخاصة.

أما ولده مطرف فلم يستطع أن يصبر على الظلم الفادح الذي أنزله الحجاج بالمسلمين فترك المدائن وأعلن الثورة بمن معه ومن أجابه من أصحابه وكتب الى سويد بن سرحان الثقفي وبكير بن هارون البجلي: أما بعد فإنا ندعوكم الى كتاب الله وسنّة نبيه والى جهاد من انحرف عن الحق واستأثر بالفيء وترك حكم الكتاب فإذا ظهر الحق ومنع الباطل وكانت كلمة الله هي العليا جعلنا هذا الأمر شورى بين الأمة ليختار المسلمون لأنفسهم فمن قبل هذا منا كان أخانا في ديننا وولينا في محيانا ومماتنا ومن ردّ علينا ذلك جاهدناه واستنصرنا الله عليه.

وقد أراده الخوارج أن ينضم إليهم فامتنع عن ذلك ودعاهم الى كتاب الله وسنّة نبيه والثورة على الظلم والظالمين، ومضى يدعو إلى كتاب الله والثورة على الظلم والظالمين وخلع الأمويين(١)، الى غير ذلك من الانتفاضات التي كانت تحدث بين الحين والآخر منذ مجزرة كربلاء وحتى لفظت الدولة الأموية آخر أنفاسها على يد أبي مسلم وأعوانه دعاة العلويين يومذاك وكانت تلك الانتفاضات على اختلاف أهداف قادتها تقوم على سواعد الشيعة من العرب والموالي الذين يشكلون العدد الأكبر من جنودها ومقاتليها.

وبلا شك فان استجابة الجماهير المسلمة من الشيعة وغيرهم لثورة ابن الأشعث وابن الجارود وابن المهلب وابن المغيرة وغيرهم وإن لم يكن لتلك الانتفاضات الطابع الشيعي نفسه الذي كان لثورة التوابين والمختار إلا إن الباعث لاستجابة الجماهير لها لم يكن سوى تلك الروح الثورية التي ثبتتها ثورة الحسين الدامية في نفوس الجماهير لتقضي على روح التواكل والخنوع والاستسلام للحاكمين، ولتصنع من بني الانسان قوة معبأة وعلى أهبة الانفجار في وجه الظلمة والجائرين وفراعنة العصور في كل أرض وزمان، فقد قوضت عروش الأمويين وأقلقت العباسيين وبقيت مستمرة تعبّر عن نفسها في انفجارات عاصفة مرة هنا ومرة هناك ولا تزال وستبقى غنية بالعطاء والمثل وحديثاً طيباً على لسان الأجيال الى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) أنظر الطبري ثورة مطرف بن المغيرة ومروج الذهب والبداية والنهاية وغيرهما من المجاميع.

ثورة زيد بن علي بن الحسين

لقد كان زيد بن علي من الدعاة الى الحق والعدل ومحاربة الظلم والجور والتسلط فكانت دعوته امتداداً لدعوة جده الرسول (ص) وثورته قبساً من ثورة جده الحسين (ع).

لقد قال حينما خرج لجهاد الطغاة والظالمين: إني أدعوكم الى كتاب الله وإحياء السنن وإماتة البدع فإن تسمعوا يكن خيراً لي ولكم وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل.

وقال لجماعة من أصحابه: أما ترون الى هذه الثريا أترون أن أحداً ينالها؟ فقالوا له: لا يا ابن رسول الله، فقال: وددت أن يدي ملصقة بها فأقع الى الأرض أو حيث أقع وأنقطع قطعة قطعة وأن يجمع الله بين أمة محمد على الحق والهدى[1].

من أجل هاتين الخصلتين كان يعمل حفيد سيد الشهداء زيد بن علي وعلى خطى جده المصطفى وآبائه الأطهار كان يسير ليجمع أمة محمد على الحق والعدل وإماتة البدع التي حاربها الاسلام وقضى عليها لفترة من الزمن وأعادها الأمويون بأسوأ مما كانت في جاهلية هند وأبي سفيان وأبي جهل وغيرهم من طغاة قريش وبني أمية. من أجل ذلك كان يتحرك حفيد علي (ع) ويتمنى أن يصلح الله أمة محمد ويجمعها على الحق ولو بسقوطه من الثريا وتقطيع جسمه قطعة قطعة.

إن هذه الروح الخيّرة السخية بالبذل في سبيل أمة محمد ليست إلّا قبساً من

(١) أنظر تاريخ ابن كثير ومقاتل الطالبيين.

روح جده أبي الحسن علي (ع) الذي كان يقول يوم كانت قوى الشر تتكالب على اغتصاب حقه: والله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا علي خاصة، ولم يكن يعني بسلامة أمور المسلمين سوى اجتماعهم على الحق والعدل ومحاربة الظلم والعدوان، وبالحق والعدل واستقامة الأمور وانتظامها تنتظم المجتمعات ويعم الخير والأمن والسلام جميع الناس بلا استثناء ويتحقق الهدف الأسمى من رسالة محمد الذي بعث رحمة للعالمين.

ان محاولة الاصلاح هذه التي حمل عبأها زيد بن علي بن الحسين سليل العترة الطاهرة هي التي اضطرته أن يستجيب لشيعة الكوفة ليقاتل بهم أولئك الذين أحيوا البدع المستنكرة الكريهة وأماتوا السنن المشرقة النيرة، ولكن هؤلاء الذين نزل عند رغباتهم خذلوه وأسلموه وأولئك قتلوه ليذهب مع قافلة الشهداء التي خرجت من بيت علي وفاطمة لتضعضع كبرياء الحاكمين وفراعنة العصور في كل أرض وزمان.

وقبل الحديث عن ثورته وما رافقها من الجرائم لا بد من الاشارة ولو بأقصى ما يمكن من الايجاز الى نشأته ومكانته العلمية والاجتماعية التي أهّلته لأن يكون مصدراً لفرقة من فرق المسلمين لا تزال تقدّسه وتنتسب إليه مدّعية بأنه هو الذي اختط لها هذا المذهب العقائدي ووضع أصوله ومبادئه وترك مجموعة من علمه الغزير في أصول الاسلام وفروعه كما يدعون لا تزال من أوفر مصادرهم حظاً بعد كتاب الله.

لقد ولد زيد بن علي حفيد علي والحسين والبضعة الزهراء سنة ثمانين من هجرة الرسول (ص) كما يستفاد من اتفاقهم على تاريخ وفاته وعمره يوم استشهاده، فلقد أجمعوا على أنه قتل في عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ للهجرة وأن عمره يوم مصرعه اثنان وأربعون عاماً ولازم ذلك أن يكون مولده سنة ٨٠ من الهجرة.

وجاء في مقدمة المجموعة التي جمعها الواسطي من آثاره ونسبها اليه أن ولادته كانت سنة خمسة وسبعين من الهجرة ولازم ذلك أنه حين وفاته كان في السابعة والأربعين، وأضاف أنه حينما ولد جاء البشير الى الإمام السجاد يخبره بولادته فأخذ المصحف يتفاءل فيه عن مصيره فكانت الآية: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾، وفتحه مرة ثانية فكانت الآية الأولى من

الصفحة ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾، وفتحه مرة ثالثة فجاءت الآية: ﴿وفضّل الله المجاهدين على القاعدين﴾ فطواه وقال: عزائي عن هذا المولود الجديد إنه من الشهداء في سبيل الله.

أما والدته فهي سندية اشتراها المختار بن أبي عبيدة من السبي الذي غنمه المسلمون من حروبهم لتلك البلاد وأهداها الى الإمام علي بن الحسين (ع) فتزوجها وأولدت له زيداً رحمه الله، في ظل هذه الدوحة الكريمة ترعرع زيد بن علي (ع) وفي البيت الذي انتشر منه العلم وتوارثه المسلمون خلفاً عن سلف نشأ وورث العلم عن أبيه وجده وروى عن آبائه في مختلف المواضيع وظل يتابع دراسته منصرفاً بكله الى العلم حتى سطع نجمه وأصبح بعد أبيه وأخيه الباقر (ع) من أكبر المراجع في شتى الميادين وأحاط بمختلف الاتجاهات والنزعات الفقهية والعقائدية، وكان عصره بداية لانطلاقة جديدة في التفسير والمعتقدات والآراء الغريبة التي كانت وليدة اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم التي غزاها الحاكمون وأخضعوها لسلطانهم، ولازم أخاه الباقر مؤسس جامعة أهل البيت التي رحل اليها طلاب العلم والحديث من مختلف الجهات وتولت الدفاع عن الإسلام ومعتقداته وتصفيتها مما أدخله عليها أنصار الحاكمين والشعوبيين الذين وجدوا الفرصة مهيأة لهم بمساعدة الحكام لبث سمومهم وأفكارهم التي تسيء الى الإسلام ولا تخدم سوى مصالح الحاكمين، فاستفاد من علمه وأفكاره وآرائه في شتى المواضيع.

قال الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه زيد بن علي: لقد أجمع الذين عاصروه على أنه كان عالماً غزير العلم محيطاً بشتى العلوم الإسلامية كالفقه والتفسير وغيرهما وراوياً لحديث أهل البيت وغيرهم، وأضاف الى ذلك أن شيوخ الفقه في الكوفة تتلمذوا عليه بما فيهم أبو حنيفة الذي تتلمذ عليه سنتين.

وجاء في الروض النضير عن أبي حنيفة أنه كان يقول: شاهدت زيد بن علي فما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أعلم ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً وكان منقطع النظير.

وقال عبد الله بن الحسن بن الحسن السبط للحسين بن زيد وهو يعظه وينصحه بأن يسلك طريق سلفه من آبائه وعشيرته: وأنه قد توالى لك آباء وأن أدنى آبائك زيد بن علي الذي لم أرَ فينا ولا في غيرنا مثله[1]، وجاء عن الإمام الرضا

(١) مقاتل الطالبيين ص ٣٨٩.

(ع) المعاصر للمأمون أن زيد بن علي كان من علماء آل محمد (ص) وكان سفيان الثوري محدث الكوفة وواعظها كما جاء في حياة الإمام زيد لأبي زهرة إذا ذكر زيداً بكى على ما فقده العلم بفقده وعلى ما فقده التقى والفضل باصابته الى غير ذلك مما جاء عن الأئمة (ع) وغيرهم حول مكانته العلمية في جميع الأوساط الإسلامية.

وكان على اتصال بواصل بن عطاء شيخ المعتزلة يناظره في بعض أفكارهم وشطحاتهم ويجلّه ابن عطاء بصفته واسع الأفق محيطاً بأكثر الأفكار والآراء الجديدة، ولم يكن معتزلياً في آرائه وأفكاره كما يذهب لذلك بعض الباحثين والمؤلفين في الفرق والمذاهب الإسلامية ومجرد الالتقاء معهم في بعض الأفكار والآراء لا يعني أنه قد انخرط بين صفوفهم لأن زيد بن علي قد أخذ عن أبيه وأخيه الباقر وعن أجداده الذين وضعوا أصول العقائد قبل ظهور المعتزلة بآرائهم ومعتقداتهم التي تختلف في أكثرها عما تلقاه الشيعة عن أئمتهم (ع).

لقد كان زيد بن علي يتنقل في البلدان ويلتقي بعلمائها فالتقى بواصل بن عطاء في البصرة أكثر من مرة وكان لقاؤه به لقاء مذاكرة لا لقاء تلمذة ودراسة كما يدّعي بعض المؤلفين كما التقى بغيره من الفقهاء والمحدثين في البصرة والكوفة وأخذوا عنه من مختلف المواضيع.

العمل في ميدان السياسة

لقد كانت الدعوة الى العلويين في عصر زيد بن علي تنمو وتزداد في جو من التكتم والسرية بعد فشل الانتفاضات التي ظهرت في عهد عبد الملك بن مروان وخليفته يزيد بن عبد الملك واتسعت في عهد هشام بن عبد الملك، وكانت الكوفة المقر الرئيسي من بين مدن العراق للدعوة ومنها انتقلت الى خراسان وذهب إليها الدعاة متسترين بالتجارة حتى لا ينكشف حالهم لأنصار الأمويين في تلك البلاد.

وقد جاء في الكامل لابن الأثير أن ميسرة داعي الهاشميين وجّه في سنة ١٠٢ هجرية رسله إلى خراسان للدعوة الى العلويين فترامت أخبارهم الى الوالي فقبض عليهم فأنكروا التهم الموجهة إليهم وادعوا بأنهم دخلوا البلاد للتجارة ولا شأن لهم بالسياسة، ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن تعهد له جماعة من ربيعة بكل ما يصدر منهم[1].

وما كانت عين هشام بن الحكم لتغفل عن كل ما يجري في العراق وغيره من المناطق الإسلامية وقد أوصى عامله على العراق خالد القسري بأن يراقب وفود العلويين الى الكوفة بدقة بالغة وينظر إليهم نظرة الحريص المتيقظ والعدو المتربص وهو يعرف حب الناس لهم وتأثيرهم البالغ على الجماهير ولا يزال موقف وفود الحجاج في الطواف من زين العابدين يحز في نفسه ولا يكاد ينساه، فقد رآه يطوف حول الكعبة والجماهير تنشق بين يديه صفين خاشعة ليمر في طوافه بدون ازعاج ويستلم الحجر الأسود وكأن الكعبة خالية إلا منه، وهو واقف لا يستطيع الحركة

(١) الكامل ج ٥ ص ٣٨٢.

من كثرة الزحام لم يستفد من إمارته ولا من جنده وجلاوزته المحيطين به، وظلت عينه يومذاك تراقب السجاد وتنظر الى خشوع تلك الحشود لهذا البيت بألم وحقد بالغين، ولم يستطع حتى بعد أن تسنّم العرش الأموي أن ينسى تلك الصورة التي أرعبته يومذاك وأخرجته عن اتزانه ومرونته فراح يسأل عنه بلغة الحاقد الذي يمزق الحقد أحشاءه، فرد عليه الفرزدق وعرفه به في قصيدته المشهورة.

لقد كان هشام بن الحكم مطمئناً لسير الأمور في العراق بسبب الرقابة الشديدة التي فرضها ولاته في البصرة والكوفة مصدر التحركات الشيعية وعندما علم أن زيد بن علي المرموق في جميع الأوساط الإسلامية يتردد على الكوفة بين الحين والآخر، والناس يلتفون من حوله يشكون إليه ظلم الأمويين وما لاقوه من عسف وجور وتشريد من ولاتهم ويدعونه إليهم، تبدد اطمئنانه وحلّ محله الخوف والقلق وأصبح كل همه أن يراقب زيداً وتصرفاته ويتابع تحركاته وتمنى لو أنه يجد سبيلاً لالقاء القبض عليه وزجه في احد سجونه ومعتقلاته، ولكنه لم يجد سبيلا لذلك ما دام لم يتظاهر بالخروج عن الطاعة فاتجه الى التشنيع على العلويين وإثارة القالة فيهم بالمدينة ووجد سبيلا لذلك بالخلاف الحاصل بينه وبين بني عمومته على ولاية الأوقاف والصدقات.

فقد جاء في الكامل لابن الأثير أن زيداً كان بينه وبين جعفر بن الحسن بن الحسن السبط خلاف على نظارة أوقاف علي (ع) في المدينة، ولكنه لم يكن حاداً بينهما وحينما انتقل الخلاف بعد وفاة جعفر الى خلاف بين أخيه عبدالله وبين زيد بن علي (ع) انتهز خالد بن عبد الملك بن الحارث الوالي على المدينة لهشام الفرصة ليزيد النزاع احتداماً وترى المدينة الشتائم يتبادلها زيد وابن عمه وكان عليه أن يتولى الفصل بينهما في هذا الخلاف، ولما اجتمعا واحتدم النزاع بينهما اندفع عبد الله بن الحسن وقال لزيد بن علي: ما أنت وذاك يا ابن السندية، فضحك زيد وقال: قد كانت أم اسماعيل أمة ومع ذلك فقد صبرت بعد وفاة سيدها إذ لم يصبر غيرها يعني بذلك فاطمة بنت الحسين (ع) لأنها تزوجت بعد وفاة زوجها الحسن المثنى بن الحسن السبط (ع)، ثم ندم على جوابه هذا لأن فاطمة عمته وامتنع من الدخول عليها حياء منها فأرسلت إليه وقالت: يا ابن أخي إني لأعلم أن أمك عندك كأم عبد الله عنده، وقالت لابنها عبدالله: بئسما قلت في أم زيد أما والله لنعم دخيلة القوم كانت.

أما خالد بن عبد الملك فلقد أراد أن يستمر النزاع بينهما ويستحكم ويزداد

تعقيداً وطلب منهما أن يحضرا مجلسه في اليوم الثاني وقال: لست لعبد الملك إن لم أفصل بينكما، وباتت المدينة تغلي كالمرجل على حد تعبير الراوي والناس يتحدثون بهما وجلس خالد والناس من حوله فدعا بهما على أمل أن تشتد الأزمة بينهما وراح يمهد لهذه الغاية، فأدرك زيد بن علي غايته والتفت الى عبد الله بن الحسن وقال: اعتق زيد كل ما يملك أن خاصمك الى خالد بن عبد الملك، وأقبل على خالد وقال له: لقد جمعت ذرية رسول الله (ص) على أمر ما كان ليجمعهما عليه أبو بكر وعمر بن الخطاب.

لقد كان من المفروض على الوالي أن يقف عند هذا الحد بعد أن تنازل زيد عن حقه لابن عمه ولكنه بقي مصراً على موقفه من التحرش بهما ليبقى الباب مفتوحاً لقالة السوء في آل الرسول، والتفت الى الناس وجعل يحرضهم على زيد قائلاً: أما لهذا السفيه أحد؟ فتكلم رجل من أولاد الأنصار وقال لزيد: يا ابن أبي تراب ويا ابن الحسين السفيه أما ترى للوالي عليك حقاً ولا طاعة؟ فرد عليه زيد بقوله: إنّا لا نجيب مثلك، فقال له الأنصاري: ولم لا تجيبني وأبي خير من أبيك وأمي خير من أمك؟ فتضاحك زيد عند ذلك وقال: يا معشر المهاجرين والأنصار هذا الدين قد ذهب، فانبرى إليه عبد الله بن واقد وكان من ذرية عمر بن الخطاب وقال له: كذبت يا ابن القحطاني فوالله لهو خير منك نفساً وأباً وأماً، ثم أخذ كفاً من الحصى وضرب به الأرض وقال: والله ما لنا على هذا من صبر[1].

وجاء في كامل ابن الأثير في معرض حديثه عما كان يحاوله هشام بن الحكم من امتهان زيد واذلاله: إن زيد بن علي وداود بن عبد الله بن العباس ومحمد ابن عمر بن علي (ع) ذهبوا الى العراق وكان الوالي عليه خالد بن عبد الله القسري فأكرم وفادتهم وأجازهم بما لديه من الأموال كما جرت على ذلك العادة، ثم عادوا الى المدينة، ولما علم هشام بذلك عزله عن الكوفة وولاها ليوسف بن عمر الثقفي، فادعى أن خالداً ابتاع أرضاً من زيد في المدينة بعشرة آلاف درهم ثم ردها عليه فكتب هشام بن الحكم الى عامل المدينة وأمره بأن يسيّرهم إليه فاستدعاهم وطلب منهم المسير الى الشام لمقابلة هشام وكان عليهم أن يلبوا طلب الوالي حتى لا يتعرضوا للعقوبة وحينما دخلوا على هشام بن عبد الملك اعترفوا بالجائزة وأنكروا البيع الذي ادعاه ابن عمر الثقفي واستحلفهم فحلفوا له ثم

(١) الكامل ج ٥ ص ٨٥.

أرسلهم الى الكوفة لمقابلة خالد القسري بقصد التحرش بهم وإهانتهم وايذائهم فساروا على كره منهم فقابلوه ورجعوا الى المدينة.

وفي رواية ثانية أن يوسف بن عمر ادعى بأن خالد القسري قد أودعهم أموالاً من بيت المال فأحضرهم هشام بن الحكم الى الشام ثم سيّرهم الى العراق، وفي العراق قال يوسف بن عمر لزيد: إن عليك أن ترد الأموال التي استودعك إياها خالد القسري، فقال له: كيف يودعني الأموال وهو يسبّ آبائي على منبره، فأرسل الى خالد القسري وأحضره لمقابلة زيد بن علي، فقال ليوسف بن عمر: أتريد أن تجمع إثماً الى إثمك كيف أستودعه وأنا أشتم آباءه وأشتمه على المنبر وأوالي أعداءهم.

وجاء في رواية المقريزي في خططه: أن زيد بن علي أقام في الكوفة أياماً بعد أن اتضحت براءته ولم يجدوا سبيلاً عليه، وكان فيها يتصل بالشيعة وهم يناشدونه في خلواتهم أن يسير إليهم ويعدونه بالتفاني في سبيله فقفل راجعاً الى المدينة وفيما هو بالقادسية لحق به جماعة من أهل الكوفة واستجاروا به من جور الأمويين وظلمهم الذي لا يطاق وأعادوا الكرّة عليه يطلبون منه الرجوع الى الكوفة ويؤكدون له أن أربعين ألف مقاتل سيضربون بسيوفهم بين يديه حتى النفس الأخير من حياتهم وأعطوه العهود والمواثيق على ذلك، فقال لهم: إني أخاف أن تفعلوا معي كما فعلتم مع آبائي، فحلفوا له الأيمان المغلظة على أن يجاهدوا بين يديه ويسالموا من سالم فاستمهلهم ومضى في طريقه الى المدينة.

ولما اشتد ايذاء خالد بن عبد الملك له ذهب الى الشام يشكوه لهشام بن عبد الملك، وفي الشام بقي أياماً يستأذن هشاماً للدخول عليه فلم يأذن له، وكان يكتب له في أسفل الأوراق التي كان يرسلها اليه، يكتب له في أسفلها: ارجع الى خالد ابن عبد الملك في المدينة، وأخيراً وبعد الالحاح والتمني عليه وافق عى دخوله عليه فأوصى هشام بن الحكم من في مجلسه بأن لا يفسحوا له ليبقى واقفاً بين يديه يقصد بذلك إذلاله واحتقاره، وعندما رآه في مجلسه بادره بقوله: ما فعل أخوك البقرة؟ يعني بذلك الإمام محمد بن علي الباقر، فردّ عليه زيد بقوله: أنت تسميه البقرة ورسول الله قد سمّاه الباقر لشد ما اختلفتما لتخالفنه في الآخرة كما خالفته في الدنيا وسترد النار ويرد الجنة، فالتفت إليه هشام وقال: بلغني أنك تذكر الخلافة ولست هناك وأنت ابن أمة، فرد عليه زيد بحضور ذلك الحشد من أهل الشام بقوله: إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات، لقد كانت أم اسماعيل أمة لأم

إسحاق فلم يمنع ذلك أن بعث الله منها نبياً وجعله أباً للعرب وأخرج من صلبه خير الأنبياء وأخرج من إسحاق القردة والخنازير، فغضب هشام وأمر بضربه ثمانين سوطاً، ولما خرج زيد من مجلسه قال: ما أحب امرؤ الحياة الا ذل، وتمثل بالأبيات التالية:

شرده الخوف وأزرى به	كذاك من يكره حر الجلاد
منخرق الكفين يشكو الجوى	تنكيه أطراف مر حداد
قد كان في الموت له راحة	والموت حتّم في رقاب العباد
أن يحدث الله له دولة	يترك آثار العدى كالرماد

ويروي ابن الأثير أن هشام بن الحكم لما أمره بالخروج من مجلسه وشتم أمه قال له زيد بن علي: سأخرج ولا أكون إلا حيث تكره[1].



(١) أنظر تاريخ الشام لابن عساكر وكامل بن الأثير والعقد الفريد وتذكرة الخواص ومروج الذهب للمسعودي.

الإعداد للمعركة التي كانت بها نهايته

لقد خرج زيد بن علي من مجلس هشام بن عبد الملك الى العراق بعد أن أحرج وأوذي في كرامته ومروءته وأيقن أن هشاماً وجلاديه سيلاحقونه أينما ذهب ويتحدونه بكل أنواع الأذى والإهانة حتى ولو جلس في بيته وأغلق عليه بابه.

وكان قد نصحه جماعة من الهاشميين والعلويين بعدم الركون والاطمئنان لأهل الكوفة وإلى وعودهم ومغرياتهم وعهودهم وذكروه بما فعلوه مع جديه علي والحسين وعمه الحسن السبط (ع) ومع غيرهم من الثائرين، وقال له داود بن علي بن عبد الله بن العباس: يا ابن العم إن هؤلاء يغرونك من نفسك أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك جدك علياً والحسن من بعده بعد أن بايعوه، ثم وثبوا عليه وانتزعوا رداءه وطعنوه في فخذه، أوليس قد ضربوا جدك الحسين ثم خذلوه وأسلموه ولم يكتفوا بذلك حتى قتلوه فلا تأتِ الكوفة إني أخاف عليك إن ذهبت إليهم أن لا يكون أحد أشد عليك منهم.

كما نصحه غيره من العلويين بمثل ذلك ولكن تحرشات الأمويين به وملاحقتهم له من مكان إلى مكان وإصرار أهل الكوفة عليه، ومغرياتهم التي بذلوها له وعهودهم التي ألزموا أنفسهم بها كل هذه العوامل مجتمعة جعلته يستهين بالحياة في سبيل الحق والمبدأ والعقيدة كما صنع جده الحسين من قبله ويستجيب لطلبهم ويذهب إلى الكوفة لإعداد العدة لقتال الطغاة والظالمين.

لقد دخلها متخفياً وكان ينتقل من منزل لآخر والشيعة يختلفون إليه بالروح والعزيمة نفسها التي كانوا يقابلون بها مسلم بن عقيل رسول الحسين، وكما بايعوا

مسلماً للحسين (ع) على كتاب الله وسنّة نبيه وجهاد الظالمين وإنصاف المحرومين والدفاع عن المستضعفين ونصرة الحق وأهله بايعوه على ذلك أيضاً وأخذ على كل واحد منهم عهد الله وميثاقه ليفين ببيعته له بكل بنودها حتى بايعه على ذلك أربعون ألفاً في الكوفة وانضم إليهم جماعة من واسط والمدائن وغيرهما كما نص على ذلك ابن الأثير في تاريخه والأصفهاني في مقاتل الطالبيين.

وفيما هو يعد العدة للمعركة ويهيىء أنصاره لها جاءه كتاب من عبد الله بن الحسن المثنى، وكان أكبر منه سناً يقول فيه: أما بعد فإن أهل الكوفة نفخ في العلانية خور السريرة هزع في الرخاء جزع عند اللقاء تتقدمهم ألسنتهم ولا تشايعهم قلوبهم ولقد تواترت إليّ كتبهم بدعوتهم فصممت عن ندائهم وألبست قلبي غشاء عن ذكرهم يأساً منهم وإطراحاً لهم، وهم كما قال لهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: إن أهملتم خضتم وإن حوربتم خرتم وإن اجتمع الناس على إمامة طعنتم وإن أجبتم الى مشقة نكصتم[1].

ومع توالي تلك النذر والتحذيرات عليه من القريب والبعيد فلم يتراجع عن موقفه ومضى يعد العدة للمعركة ويقول: إني امرؤ سأموت إن لم أقتل مقتدياً بجدي الحسين (ع) الذي توالت عليه النذر والتحذيرات من غدر أهل الكوفة من كل جانب فرفضها وقال: لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً.

وبقي زيد بن علي يجمع الناس ويعبئهم للمعركة بضعة أشهر على حد تعبير بعض المؤرخين واتفق مع زعماء أصحابه على الخروج في مستهل صفر من سنة ١٢٢ ولكن الأنباء بعد أن توالت على هشام بن الحكم بما انتهى اليه الحال في الكوفة كتب إلى يوسف بن عمر الثقفي كتاباً جاء فيه: إنك لغافل عن زيد بن علي الغارز ذنبه في الكوفة يبايعه أهلها غير عابىء بك ولا بجندك، فإذا أتاك كتابي فألح في طلبه واعطه الأمان وإن أبى عليك فاقتله إن ظفرت به فإنه لذلك مستحق

فاتجه الوالي لطلبه والبحث عن مكانه، وكان لا بد لزيد أن يظهر ويتخلى عن تكتمه مخافة أن يؤخذ على حين غرة فدعا أتباعه الذين بايعوه بالأمس القريب على الموت ولكنهم ما ان رأوا الوالي يشتد في طلبهم وسمعوا التهديد والوعيد حتى دب الوهن والضعف والتخاذل بينهم وراحوا يتلمسون مخرجاً من بيعته ومن

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٨٧.

عهودهم التي عاهدوا الله عليها، فأثاروا عجاجة في تلك الساعات الحرجة والظروف القاسية صاغتها كما لا أستبعد عقول أناس قد اندسوا في صفوفهم لتشتيت شملهم وتفتيت تكتلهم وتضامنهم وإغراء الجهة الموالية له بأنه يرى رأي المعتزلة فيمن سبق جده من الخلفاء.

إن أهل الكوفة يعرفون جيداً رأي زيد بن علي وآبائه في الصحابة وأبي بكر وعمر بالذات ويعرفون أنه ليس من أخلاقهم الاساءة الى زعماء الصحابة بالقول أو الفعل وقد أقام بينهم مدة من الزمن ولم يتحدثوا معه في هذه النواحي الجانبية، ويعلمون أن الذين يقاتلهم زيد ويقاتلونه والذين قاتلهم من قبله جده الحسين ليسوا كأبي بكر وعمر، ولم يقف منهم هذا الموقف من أجل الخلافة والسلطة بل من أجل الحق والعدالة والمستضعفين ومن أجل كرامة المسلمين التي داسوها بأقدامهم.

لقد اجتمعوا عليه وهو في أحرج الظروف وأدقها يسألونه عن أبي بكر وعمر ابن الخطاب وما عساه أن يقول فيهما يومذاك والعالم الإسلامي يجلّهما ويقدس سيرتهما بعد أن وجد من الأمويين ما وجده ولاقى من ظلمهم وجورهم واستئثارهم ما لاقاه، وكل كلمة تصدر منه بحقهما يستغلها الأمويون للتشنيع عليه وتبرير مواقفهم المعادية له ولآبائه وأجداده.

لقد كان رحمه الله متزناً وحكيماً في أجوبته لهم وهم يلحون عليه لانتزاع كلمة منه تسيء إليهما فقال لهم: إني ما سمعت أحداً من آبائي يتبرأ منهما وأشد ما أقوله فيمن ذكرتم: إنّا كنا أحق الناس بهذا الأمر ولكن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا كفراً وقد تولوا فعدلوا وعملوا بالكتاب والسنّة وأن هؤلاء الذين نقاتلهم ليسوا كأولئك، وإني أدعوكم إلى العمل بالكتاب وإحياء السنّة وإماتة البدع فإن تسمعوا يك خيراً لي ولكم وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل، فرفضوه ونقضوا بيعته[1].

هذا الإحراج لزيد بن علي في تلك الساعات الحرجة وسيوف الأمويين مشهورة فوق رأسه يبدو كما ذكرنا أنه كان مقصوداً لتفتيت الجبهة الموالية له إذا رفض تكفير الخليفتين أو تفسيقهما وإن استجاب لطلبهم استغل جوابه الأمويون

(١) أنظر ابن الأثير وابن كثير ج ٥ ص ٣٣٠، ومن أجل ذلك كان الرفض من صفات الشيعة عند غلاة السنة ولا يزالون يصفونهم بالرفض لأنهم رفضوا الانقياد لزيد.

وأنصارهم لتبرير ملاحقته وقتله، لأن الرأي العام الإسلامي وإن كان إلى جانبه ولا يساند الأمويين فلا يتحمل الطعن في الخليفتين والاساءة اليهما.

ومهما كان الحال فلقد كان هذا الموقف المشين من أصحابه والعدو متأهب للمعركة بجنود الشام والموالين للأمويين من أهل العراق هو الذي اضطر زيداً الى مقابلة القوم قبل الموعد الذي كان قد عيّنه للثورة ودعا الذين بايعوه على الموت الى الخروج وأخذ مناديه ينادي: يا منصور يا منصور وهو الشعار الذي كان قد اتفق عليه مع الشيعة فلم يستجب لدعوته من الأربعين ألف سوى ٢١٨ رجلاً وقيل أربعمائة وجعل أنصاره ينادون: يا أهل الكوفة اخرجوا من الذل الى العز والى الدين والدنيا فإنكم لستم في دين ولا دنيا، فلم يسمعوا لهم وبقي زيد بن علي بمن معه في ساحة المعركة لم يتضعضع وهو يقول: لقد فعلوها حسينية أما والله لأقاتلن حتى الموت.

وتقدم حفيد علي (ع) بهذا العدد اليسير الذي لا يساوي عدد أصحاب جده في معركة بدر الى مقارعة تلك الحشود التي أرسلها هشام من الشام لقتاله فاقتتلوا قتالاً شديداً وثبت لهم زيد بن علي وأنصاره حتى هزموهم وقتلوا منهم سبعين رجلاً وأخيراً تجمعت فلولهم المنهزمة وجعلوا يرمونهم بالسهام والحجارة كما فعل أسلافهم مع جده الحسين في كربلاء، وبينما زيد يطاردهم بمن معه اذ انفصل رجل من أصحاب يوسف بن عمر من بني كلب وتقدم من زيد حتى أصبح قريباً منه فشتم علياً والزهراء فاطمة بضعة المصطفى فغضب زيد وبكى حتى ابتلت لحيته الكريمة والتفت الى من كان معه وقال: أما فيكم أحد يغضب لفاطمة بنت محمد، فالتفت سعيد بن خيثم الى مولى له كان معه سيف صغير يستره تحت ثيابه فأخذه منه ومضى يتستر خلف النظارة[1] حتى أصبح خلف الكلبي، وكان قد تحول عن فرسه وركب بغلة على حد تعبير الراوي فجرد السيف وضربه على عنقه فسقط رأسه بين يدي البغلة، فلما رأى ذلك أصحاب زيد حملوا على القوم واستنقذوه من أيديهم وجاءوا به سالماً فقبّله زيد بن علي بين عينيه وقال: جزاك الله خيراً لقد أدركت ثأرنا ونلت شرف الدنيا والآخرة وذخرهما.

وسار زيد بمن معه وهو يقول: والله لو كنت أعهد عملاً أرضى لله من قتال هؤلاء لفعلته وقد كنت نهيتكم أن تتبعوا مدبراً وتجهزوا على جريح وتفتحوا باباً،

(١) النظارة فرقة من الجيش كانت تسمى بهذا الاسم.

ولكني بعد أن سمعتهم يسبون علياً فاقتلوهم من كل وجه وحيث وجدتموهم فوالله لا ينصرني رجل عليهم اليوم إلا أخذت بيده وأدخلته الجنة.

لقد وعدهم زيد بن علي (ع) بذلك بعد أن سمع الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري يروي عن النبي (ص) أنه كان يقول: إن زيداً بن علي وأصحابه يتخطون رقاب الناس يوم القيامة ويدخلون الجنة بغير حساب.

واستمر القتال يشتد بين الفريقين وأصحاب زيد على قلة عددهم وكثرة عدوهم يكرون على تلك الحشود فيفرون من بين أيديهم وزيد رحمه الله في مقدمة أصحابه يتمثل بقول القائل:

أذلّ الحياة وعزّ الممات وكلا أراه طعاماً وبيلا
فإن كان لا بد من واحد فسيري إلى الموت سيراً جميلا

وفيما هو يقاتل ويشد عليهم وينهزمون بين يديه أصابه سهم في جبهته ونفذ فيها فتراجع هو وأصحابه وظن أصحاب يوسف بن عمر الثقفي أنهم أرجأوا القتال الى الليل فأدخله أصحابه بيتاً من بيوتهم واستدعوا له طبيباً يقال له شقير كان يعالج الجرحى فقال له: إن نزعت السهم من رأسك أخاف عليك الموت، فرد عليه زيد بن علي قائلاً: الموت أهون عليّ مما أقاسيه من الآلام، فلما انتزع السهم من جبهته فاضت روحه الكريمة وانتهت المعركة بوفاته.

لقد استشهد زيد رحمه الله في المعركة ومات في ميدان القتال ومرمى السهام شجاعاً أبياً من أجل الحق والمستضعفين وكرامة الانسان وإحياء السنن وإماتة البدع واختار الموت على الحياة مع الظالمين ونال بذلك درجة لا ينالها إلا الصديقون والشهداء المقربون، وساهم مصرعه في نجاح الدعوة التي قضت على الأمويين بعد عشرين عاماً من مصرعه كما كان لجده الحسين الدور الأكبر في كل ما حدث بعد مجزرة كربلاء من ثورات وانتفاضات أقضت مضاجع الظالمين من أمويين وعباسيين.

لقد كانت ثورة زيد بن علي ثورة الفقهاء والقراء والمحدثين وأهل التقوى والصلاح على حد تعبير الشيخ أبو زهرة في كتابه الإمام زيد بن علي، وأضاف إلى ذلك أن بعض المؤرخين يقول: إن الذين قاتلوا مع زيد بن علي كانوا من القراء والفقهاء، وكان أبو حنيفة يقول: لقد ضاهى خروجه خروج جده رسول الله (ص) يوم بدر، ولما قيل له: لماذا تخلفت عنه ما دمت ترى أن ثورته كانت بهذا

المستوى أجاب: لقد حبستني عنه ودائع الناس، لقد عرضتها على ابن أبي ليلى فلم يقبل فخفت أن أموت وتضيع الودائع على أصحابها.

وفي رواية ثانية عنه أنه قال: لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا جده لخرجت معه وقد أعنته بمالي وأرسلت إليه عشرة آلاف درهم[1].

وجاء في مقاتل الطالبيين أنه أرسل مع أحد الفقهاء الذين خرجوا مع زيد رسالة لزيد وقال له: قل لزيد لك عندي معونة وقوة على جهاد عدوك لتستعين بها أنت وأصحابك في الكراع والسلاح[2].

كما جاء في مقاتل الطالبيين حول مدفنه أن أصحابه كانوا في حيرة من ذلك وأخيراً اتفقوا على دفنه في جدول ماء يعرف بالعباسية فانطلقوا به إليها ودفنوه بها وأجروا عليه الماء وكان معهم عبد سندي فأخبر الحكم بن الصلت بذلك وانتهى الخبر الى يوسف بن عمر فبعث الحجاج بن القاسم في جماعة الى ذلك المكان فاستخرجوا منه زيداً ووضعوه على ظهر بعير وحملوه الى القصر فلما وصلوا إليه ألقوه عن ظهره فخرَّ كأنه جبل على حد تعبير الراوي، فصلبه يوسف بن عمر بالكناسة بعد أن فصل رأسه عن بدنه وأرسل الرأس الى الشام لهشام بن عبد الملك فصلبه هشام على مدخل قصره كما صلب معاوية بن اسحاق وزياد الهندي ونصر بن خزيمة العبسي وبقي مصلوباً الى أيام الوليد بن يزيد، فلما ظهر يحيى بن زيد بالجوزجان كتب الوليد بن يزيد الى يوسف بن عمر كتاباً يقول فيه: إذا أتاك كتابي فانظر عجل أهل العراق فاحرقه وانسفه في اليم نسفاً، فأمر يوسف بن عمر فأنزله عن الجذع وأحرقه ثم حمل رماده في سفينة وذراه في الفرات وصدقت فيه نبوءة جده رسول الله حيث روى الرواة عنه انه قال: يقتل رجل من أهل بيتي ويصلب لا ترى الجنة عين رأت عورته، كما روى الرواة عن علي (ع) أنه أخبر عنه ووصف مصرعه وما يجري عليه بعد القتل وما أعده الله له ولأنصاره يوم القيامة من الأجر العظيم والدرجات الرفيعة[3]

(١) مناقب أبي حنيفة لابن البزازي ج ١ ص ٥٥.
(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٤٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٩٧ و ٩٨ وص ٨٨.

انتفاضة يحيى بن زيد

يقول السيد عبد الرزاق في كتابه «زيد بن علي» أن زيداً لم يتخلف إلا بأربعة أولاد، هم يحيى وأمه ريطة بنت أبي هاشم، وعيسى أمه أم ولد نوبية واسمها سكن والحسين ذو الدمعة ومحمد وهو أصغرهم، وريطة أم يحيى هي التي عناها أبو ثميلة الأنباري بقوله وهي تتلهف على ولدها بعد أن اختفى على أثر مصرع أبيه:

فلعل راحم أم موسى والذي نجاه من لجج خضم مزبد
سيسر ريطة بعد حزن فؤادها يحيى ويحيى في الكتائب مرتدي

لقد اتفق الرواة على أن يحيى حين مصرع أبيه كان شاباً في مطلع شبابه ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره وهو أكبر إخوته الأربعة كما يبدو من ترجمة أبيه وقد اشترك مع أبيه في معاركه مع الأمويين في الكوفة وحينما قتل أبوه ضاقت عليه الكوفة واشتد به الوجد والألم من موقف أهلها مع أبيه فعزم على الخروج ولم يبقَ معه من أهل الكوفة سوى عشرة، فقال له سلمة بن ثابت: النجاة قبل الصبح.

ومضى سلمة يقول: فخرجنا من الكوفة قبل مطلع الفجر، فلما تجاوزنا الكوفة سمعنا الأذان فأسرعنا في السير مخافة أن يدركنا الطلب وكنت كلما استقبلت قوماً استطعمتهم فيطعموني الأرغفة فأطعمه وأصحابه إياها، ومضى يحيى بمن معه من المدائن وهي إذ ذاك طريق الناس الى خراسان ويلغ ذلك يوسف بن عمر فسرح في طلبه جيشاً بقيادة حريث بن أبي جهم الكلبي وخرج منها يحيى متجهاً الى الري قبل أن يدركه الطلب، وانتقل من الري الى سرخس فنزل ضيفاً على يزيد بن عمرو التيمي وأقام عنده نحواً من ستة أشهر، واجتمع إليه أناس من الخوارج

يسألونه أن يخرج بهم لقتال بني أمية ووجد من تصميمهم على القتال ما يشجعه على موافقتهم لولا أن يزيد بن عمرو التيمي نهاه عن ذلك وقال له: كيف تقاتل بقوم تريد أن تستظهر بهم على بني أمية وهم يبرأون من جدك علي وأهل بيته، فرفض طلبهم وردهم رداً جميلاً وخرج من سرخس الى بلخ ونزل فيها على الحريش بن عبد الرحمن الشيباني وبقي عنده الى أن هلك هشام بن عبد الملك وتولى السلطة من بعده الوليد بن يزيد وعندما علم يوسف بن عمر بتحركات يحيى كتب الى عامله على خراسان وطلب منه أن يرسل الى الحريش لاعتقال يحيى وقتله، فأرسل نصر بن سيار عامل خراسان الى عقيل بن معقل الليثي وهو عامله على بلخ أن يأخذ الحريش ولا يفارقه حتى تزهق نفسه أو يأتيه بيحيى بن زيد، فاستدعاه عقيل بن معقل وضربه ستمائة سوط وقال له: والله لأزهقن نفسك أو تأتيني بيحيى، فرد عليه بقوله: والله لو كان تحت قدمي هاتين ما رفعتهما عنه، فاصنع ما أنت صانع، فوثب قريش بن الحريش وقال لعقيل بن معقل حينما وجد منه التصميم على قتل أبيه: لا تقتل أبي وأنا آتيك بيحيى، فوجه معه جماعة فدلهم عليه وكان في بيت في جوف بيت فاعتقلوه واعتقلوا معه يزيد بن عمرو ومولى لعبد القيس كان قد رافقه من الكوفة وأرسلهم عقيل بن معقل لنصر بن سيار فوضعه في السجن مقيداً بسلسلة من الحديد، ولما أطلق سراحه نصر بن سيار اجتمع جماعة من مياسير الشيعة الى الحداد الذي فك القيد من رجليه وسألوه أن يبيعهم الحديد الذي كان مقيداً به وتنافسوا على شرائه حتى بلغت قيمته عشرون ألف درهم ففصله قطعة قطعة ووزعه عليهم فاتخذوه خواتيم يتبركون بها.

واستدعى نصر بن سيار يحيى إليه بعد أن أطلق سراحه وأوصاه بتقوى الله وحذره من الفتنة، فقال له يحيى: وهل في أمة محمد (ص) فتنة أعظم مما انتم عليه من سفك الدماء وأخذ ما لستم له بأهل؟ فلم يجبه ابن سيار بشيء وأمر له بألفي درهم ونعلين وطلب منه أن يلتحق بالوليد بن يزيد في الشام.

وخرج يحيى من خراسان قاصداً سرخس ومنها الى ايرشهر ومنها الى بيهق ورجع منها يحيى الى ايرشهر ومعه سبعون رجلاً من أصحابه وفيها حصلت معركة بينه وبين أنصار الأمويين بقيادة عمرو بن زرارة كما جاء في مقاتل الطالبيين اشترك فيها عشرة آلاف مقاتل وخرج إليهم في سبعين فارس فهزمهم بهذا العدد اليسير وقتل قائدهم ابن زرارة وغنم كل ما كان في معسكرهم ومضى في طريقه الى

الجوزجان، فأرسل نصر بن سيار سلم بن أحوز في ثمانية آلاف من جيش الشام لقتال يحيى وأصحابه وعلى الجوزجان يومذاك حماد بن عمر السعدي والتحق بيحيى ابن زيد أبو العجارم الحنفي والخشخاش الأزدي، واحتدمت المعارك بين الطرفين لمدة ثلاثة أيام بلياليها حتى قتل أصحاب يحيى بأجمعهم وأصيب يحيى بنشابة في جبهته أردته صريعاً وجاءه سورة بن محمد أحد القادة في جيش الأمويين فاحتز رأسه وصلب يحيى على باب مدينة الجوزجان وبقي مصلوباً حتى خرج أبو مسلم الخراساني فأنزلوه وكفّنوه ودفنوه وتتبع أبو مسلم قتلته ولم يدع أحداً قدر عليه ممن حضر مع ذلك الجيش يومذاك إلا قتله. أما رأسه فقد أرسل إلى نصر بن سيار وأرسله ابن سيار الى الوليد بن يزيد في الشام، فأرسله الوليد الى أمه ريطة في المدينة فصاحت حينها نظرت قائلة: شرّدتموه عني طويلاً وأهديتموه إليّ قتيلاً، وكادت أن تموت كمداً وغماً وكان مصرعه سنة ١٢٥ بعد مضي ثلاث سنوات على مصرع أبيه وفي تلك السنة التي قتل فيها لم يولد مولود في خراسان وجهاتها إلا وسُمي بيحيى ولما تقلّص ظل ابن سيار عن خراسان أقام نسوتها النياحة عليه لمدة سبع أيام[1].

(١) أنظر زيد بن علي لعبد الرزاق المقرم ومقاتل الطالبيين للأصفهاني وعمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب وينابيع المودة ومروج الذهب في أخبار الوليد بن يزيد.

ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر وأبي مسلم الخراساني

لقد جاء في تاريخ ابن واضح اليعقوبي أن زيد بن علي لما قتل في الكوفة وكان من أمره ما كان تحركت الشيعة بخراسان وظهر أمرهم وكثر من يأتيهم ويميل معهم وجعلوا يذكرون للناس أفعال بني أمية وجرائمهم وما نالوا من آل الرسول (ص) حتى لم يبقَ بلد إلا فشا فيه هذا الخبر وظهر في كل مكان واتسع بمصرع ولده يحيى بن زيد وظهر الدعاة في كل بلد لأهل البيت[1] وظهر على المسرح السياسي أحد أحفاد أبي طالب وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار وقاد الشيعة ضد الأمويين.

لقد دخل الكوفة حفيد جعفر الطيار هو وأخوته سنة ١٢٦ ليطلب العطاء من واليها يوسف بن عمر، وأقام في الكوفة مدة من الزمن وتزوج بابنة حفيد شبث بن ربعي التميمي، وانتهز شيعة الكوفة اضطراب شؤون الخلافة في الشام بعد وفاة يزيد بن الوليد بن عبد الملك فاجتمعوا على عبد الله بن معاوية وبايعوه كما بايعه سائر أهل الكوفة وخرجوا معه بعد ذلك لقتال أهل الشام الذين كانوا مع يوسف ابن عمر في الحيرة وذلك في شهر المحرم سنة ١٢٧ كما جاء في تاريخ الطبري، وحينما نشب القتال بين الطرفين واشتدت المعارك تخلى أكثرهم عنه ولم يثبت معه سوى ربيعة وجماعة ممن اشتركوا في المعارك مع زيد بن علي فقاتلوا بشجاعة وبسالة عدة أيام في شوارع الكوفة الى أن جاءهم الأمان من يوسف بن عمر وأذن لعبد الله

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٦٦ طبع النجف.

ابن معاوية بالانسحاب من الكوفة، فارتحل عنها ماراً بالمدائن الى بلاد فارس وانضم إليه جماعة من الموالي والعبيد من الكوفة وغيرها واستقر به المقام أولاً في أصفهان، ثم ارتحل عنها سنة ١٢٨ الى اصطخر في اقليم فارس وسيطر على منطقة واسعة وتجمّع حوله جماعات مختلفة الميول والاتجاهات كالشيعة والعباسيين والخوارج وحتى من الأمويين الطامعين في عطائه، ولكن دولته هذه صاحبة الجنسيات المختلفة ما لبثت أن انهزمت أمام جنود مروان الثاني آخر حكام الأمويين في معركة جرت بين الطرفين في سنة ١٣٠ وفرّ هو الى كرمان ومنها الى هراة وهو يأمل أن يجد ترحيباً من أبي مسلم الخراساني ولكن أبا مسلم أمر بالقبض عليه ومن معه فأرسل إليهم وهم نيام من وضع على وجوههم غطاء وضغط عليه حتى ماتوا وكان له في هراة قبر يزوره الناس كما يدعي فلهوزن في كتابه أحزاب المعارضة السياسية[1].

وجاء من بعد جميع تلك الثورات الفاشلة شيعية كانت أو غيرها التي سفكت فيها دماء الشيعة، جاء العباسيون ليجنوا فوائدها وثمارها على حساب العلويين بمنتهى السرعة والسهولة.

لقد كان العباسيون يطمحون الى الحكم ويهيئون الجماهير للثورة عندما بدأ الضعف والانهيار يدب في جسم الدولة الأموية من جراء تلك الثورات المتلاحقة وجرائمهم التي أنهكت الشعوب وشحنتها بالكراهية لهم والحقد عليهم ولكن دعاتهم لم يجدوا المجال مهيأ لهم بدون الشيعة فحاولوا استمالة الشيعة من العرب والموالي الى جانبهم فأعلنوا أنهم لا يسعون الى الخلافة ولا يطمعون بها وأنهم يعملون للتخلص من الحكم الأموي واعادة الخلافة لأحد أفراد البيت النبوي وكانوا يرمزون الى ذلك بالرضا من آل محمد (ص) فاستجاب لهم الشيعة، واختار الموالي لنشر دعوتهم خراسان وجهاتها لعدم ثقتهم بشيعة العراق بعد غدرهم بعلي والحسن والحسين وزيد بن علي والمختار الثقفي وغيرهم، هذا بالإضافة الى أن موالي خراسان كانوا أكثر تضامناً واتحاداً من شيعة العراق، وكانت منطقة خراسان من أهم مواطن الموالي في عهد الأمويين ومن أكثر المناطق تذمراً من الحكم الأموي وتطلعاً الى منقذ يخلصهم مما يعانون من ظلم وجور واستغلال وأصبحت تلك المنطقة من بلاد فارس كالهشيم المهيأ للاشتعال بين لحظة وأخرى.

(١) أنظر أحزاب المعارضة السياسية في صدر الإسلام عن تاريخ الطبري وابن الأثير.

وقد انتهز هذه الفرصة الحارث بن سريج فقام بثورة عنيفة سنة ١٢٦ وانضم إليه كثير من الموالي وجعل يدعو الى العمل بالكتاب والسنّة ومناهضة الأمويين ويتظاهر بأنه صاحب الرايات السود والمنقذ المنتظر، وأدرك نصر بن سيار خطورة الموقف فأرسل إليه يعرض عليه أن يمنحه خمسمائة رأس من الغنم ومائتي بعير بالإضافة الى الأموال والسلاح مقابل التزامه السكينة، ولكنه رفض هذا العرض لأن أنصاره كانوا جادين في ثورتهم ولم يتمكن من إقناعهم، وعاد ابن سيار ليعرض عليه أن يوليه ما وراء النهر ويدفع له ثلاثمائة ألف درهم فأصر على موقفه، وتناظر هو وابن سيار واتفقا على تحكيم مقاتل بن حيان والجهم بن صفوان ليفصلا بينهما فحكما على نصر بأن يعتزل ويترك الأمر للمسلمين شورى ليختاروا لأنفسهم، ومن غير المعقول أن يخضع نصر بن سيار لحكمهما وجهز جيشاً لقتاله وانتهت حركته بقتله سنة ١٢٨[1].

وكان من نتائج هذه الثورة انقسام العرب على أنفسهم وإثارة روح العصبية القبلية بالإضافة الى أنها بعثت الآمال في نفوس الموالي بالقضاء على الأمويين فازداد نشاطهم في هذا السبيل.

وكان انتشار العصبية القبلية بين عرب خراسان من العوامل التي ساهمت في إضعافهم مما شجع الموالي على المضي في الثورة، فقد تولى نصر بن سيار الحكم في خراسان وكان مضرياً وظل أربع سنين لا يستعمل في خراسان إلا المضريين ويقرّبهم إليه فأثار تصرفه هذا حقد اليمنيين عليه ومساعدتهم لكل ثائر، وفي وسط هذه الصراعات والتقلبات ظهر أبو مسلم الخراساني فقام بالدعوة لآل البيت متخذاً من هذه الدعوة ستاراً يخفي من ورائها آماله الفارسية وإرجاع مجدهم بالانتقام من العرب كما يدّعي بعض الباحثين وإن كنت في شك من ذلك وأرجح أنه كان يعمل للعلويين، ومهما كان الحال فلقد سارع موالي خراسان الى الانضواء لحركته منذ البداية، وكان من أقطاب دعوته قحطبة بن شبيب الطائي أحد الدعاة للهاشميين فخطب في موالي خراسان بقصد إثارتهم على الأمويين وتحريك النعرة الفارسية ضد العرب، فقال: يا أهل خراسان هذه البلاد بلادكم وكانت لآبائكم فكانوا ينتصرون على عدوهم بعدلهم وحسن سيرتهم فلما غيّروا وبدّلوا وضلّوا سخط الله

(١) أنظر العراق في ظل العهد الأموي للخربوطلي ص ١٨٦ عن الطبري ج ٨ ص ٢١٩ وج ٩ ص ٧٦ وص ٧٣ المصدر نفسه.

عليهم وانتزعها منهم وسلّط عليهم أذلّ أمة كانت عندهم فغلبوهم على بلادهم واستنكحوا نساءهم واستعبدوا أولادهم وكانوا يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم، فلما غيّروا وبدّلوا وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة الرسول (ص) سلّطكم عليهم لينتقم منهم بكم ولينالوا جزاء ما جنته أيديهم بسيوفكم ورماحكم.

وهذه المبادرة من قحطبة تؤكد أن الذين حملوا لواء الثورة كانوا من الموالي الشيعة ولو كانوا من غيرهم لما خاطبهم بهذه اللغة ولا بهذه القسوة الجارحة، وفي الوقت الذي ظهرت فيه الثورة في خراسان الداعية الى آل بيت النبي (ص) لقيت تأييداً وقبولاً من موالي العراق لأن زعيمها أبا مسلم من الموالي ويرجع أصله الى بلدة بسواد الكوفة كما يدعي أبو الفداء في كتابه المختصر في أخبار البشر[1]، والكوفة كانت قبل ظهوره مركزاً لجميع الانتفاضات الشيعية الداعية الى العلويين ضد الحكم الأموي لأنها لاقت من جورهم ما لم تلاقه أي بلد غيرها وظلت مصدراً لجميع الانتفاضات حتى لفظت الدولة الأموية آخر أنفاسها في معركة الزاب في جمادى الآخرة سنة ١٣٢، وكان لحركة الشيعة في أواخر العصر الأموي أكبر الأثر في زوالها، وأصبحوا يركنون الى كل ثائر ويبايعونه على إعادة الخلافة للعلويين بعد الصدمات العنيفة التي اعترضتهم بمصرع الحسين وأصحابه وفشل التوابين والمختار الثقفي ومصرع زيد وغيره من الثائرين.

وكان زعماء الثوار على ما بينهم من خلاف في النزعات والاتجاهات يتخذون آل بيت النبي (ص) رمزاً أو ستاراً لحركاتهم وانتفاضاتهم التي كانت تقوم على سواعد الشيعة من العرب والموالي، كما فعل آخر الدعاة أبو مسلم الخراساني الذي استطاع بهم أن يمهد الطريق لثورته ويسيطر على خراسان وجهاتها بمن معه من الموالي وشيعة العراق الذين أخرجوا من العراق قسراً في عهد زياد والحجاج وغيرهما من الولاة الذين أخرجوهم ليتخلصوا من جميع العناصر التي كانت تشكل خطراً عليهم بالإضافة الى من فروا من الظلم والجور الى تلك البلاد.

لقد استطاع أبو مسلم أن يتغلب على بلاد خراسان وأن يهزم ابن سيار هذا ونصر بن سيار يكاتب مروان الملقب بالحمار ويستنجده وهو لا يجيبه لأنه كان في شغل عنه بالحروب والفتن التي انتشرت هنا وهناك، وظل يلح بأن يمده بالجيش

(١) أنظر الكتاب المذكور ج ١ ص ٢٠٨.

حتى أجابه بجواب بدت عليه دلائل اليأس، فعاد ابن سيار يستنجد بعمر بن هبيرة الفزاري عامل مروان على العراق، فلم يجبه عمر على كتابه وكان في شغل عنه بأحداث العراق، فاضطر ابن سيار أخيراً الى التخلي عن خراسان وانسحب بما بمن معه قاصداً بلاد الري ومنها الى ساوه بين همدان والري فمات فيها كمداً على حد تعبير المسعودي في مروجه وسلّمت بلاد ايران لأبي مسلم.

ولما اطمأن أبو مسلم الى نجاح تحركاته وخلت البلاد من الأمويين وأنصارهم عيّن الولاة في المناطق التي احتلها واتجه الى العراق وكان شعاره الطلب بدم الحسين ودماء أهل بيته والدعوة الى الرضا من آل محمد (ص) ويخفي وراء دعوته هذه الدعوة الى العباسيين على حد تعبيرهم لأنه كان على يقين من أنه لو تجاهر بما كان يخفيه لكان مصير دعوته الإخفاق والفشل كغيرها من الانتفاضات كما يدعي بعض الباحثين، هذا وأبو سلمة الخلال أحد قادة الثورة الكبار كان يعمل باخلاص للعلويين وفوجىء حينما وقف أبو مسلم يبايع لأبي العباس الملقب بالسفاح وكان مختفياً بالكوفة ولم يظهر إلا بعد أن نضجت الدعوة وأينعت ثمارها وتمت البيعة في العاشر من المحرّم والشيعة يحتفلون بمصرع الحسين (ع) يومذاك كما جاء في الأخبار الطوال للدينوري[1]، ووقف داود بن علي بن عبد الله بن العباس يلقي خطابه على حشود الشيعة الذين يعملون ويجاهدون لمصلحة العلويين لا للعباسيين، يقول: يا أهل الكوفة لم يقم فيكم بعد رسول الله (ص) إلا علي بن أبي طالب (ع) وهذا القائم بينكم يعني بذلك أبا العباس السفاح كما خدع أبو مسلم ورفاقه من القادة والموالي أيضاً ودهشوا لهذه المفاجأة لأن ولاءهم لآل بيت النبي (ص) هو الذي حرّكهم وجعلهم يتفانون في حروبهم مع الأمويين، وراح العباسيون ودعاتهم بعد أن تكشّفت نواياهم يتظاهرون بخدمة العلويين وأنهم سيردون الحق لأهله من آل بيت النبي خوفاً من تراجع الشيعة من العرب والموالي قبل القضاء على الأمويين مما يسّر لهم إقبال الموالي والشيعة على تأييدهم من غير أن يفكّروا بأنهم يناصرون قوماً سيضطهدون العلويين ويلاحقونهم بكل أنواع الأذى في كل صقع كما فعل الأمويون معهم من قبل، وأصبح الشيعة يعتقدون اعتقاداً راسخاً كما يقول فلهوزن

(١) وعندما نجحت الثورة كان أول ما قام به أبو العباس هو ملاحقة القادة الكبار الذين يعملون لمصلحة العلويين وكان أبو سلمة الخلال الضحية الأولى من أولئك القادة، قتله مزار بن أنس الضبي بأمر السفاح وأخيه المنصور كما قتلوا أبا مسلم لهذه الغاية كما لا أستبعد.

في كتابه أحزاب المعارضة السياسية في صدر الإسلام أن إرجاع الحق لأصحابه الشرعيين لا يمكن أن يكون ويتم إلا في المضي بالثورة الى نهايتها وأن الحق لا بد وأن يرجع لأهله، وفي الوقت ذاته كانوا يرون أن العباسيين أهون عليهم من الأمويين الذين كانوا يحكمون بروح أبي جهل وأبي سفيان وغيرهما ممن وقفوا للدعوة منذ أن بزغ فجرها بقيادة محمد بن عبد الله (ص) بالمرصاد ولم تكن تلك الحركة التي كان البعض من قادتها يضمرون غير ما يظهرون بنظر الشيعة إلا حلقة جديدة في سلسلة الحركات الشيعية التي كانوا يؤازرونها منذ مطلع العهد الأموي وحتى ذلك التاريخ.

ومهما كان الحال فلقد قامت ثورة أبي مسلم على سواعد الشيعة لاعادة الحق لأصحابه والانتقام ممن قتل الحسين وبنيه وأصحابه وروع نساءهم وأطفالهم وأباد الألوف من شيعتهم وأصحابهم لا لشيء إلا لولائهم لعلي وآل علي (ع) وكان هذا الشعار يمدها بالزخم والعزيمة الصادقة حتى بعد أن تكشفت نوايا قادتها واستمرت المعارك بين الشيعة بقيادة أبي مسلم وغيره من الدعاة، وبين فلول الأمويين تتلاحق والهزائم تتوالى على الأمويين في جميع الجبهات، وخلال تلك الفترة استطاع مروان ابن محمد الحاكم الأموي الملقب بالحمار أن يعتقل ابراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله الملقب بالإمام بعد أن عثر على كتاب منه لأبي مسلم الخراساني يحثه على المضي في الثورة والإسراع في الإجهاز على من بقي من الأمويين وقادتهم فوضعه في سجنه لفترة قصيرة مع بعض الهاشميين، وأخيراً وضع على رؤوس الهاشميين الوسائد وأجلس عليها جماعة من جلاديه إلى أن ماتوا، أما ابراهيم بن محمد فقد وضع رأسه في جراب فيه نورة مسحوقة وظل يضطرب الى أن خمدت أنفاسه وفارق الحياة على حد تعبير المسعودي في مروجه.

وكانت معركة الزاب بعد سلسلة من المعارك آخر محاولة قام بها الأمويون وحشدوا لها جميع ما لديهم من عدد وعتاد سنة ١٣٢ ولكنها لم تكن أنجح من غيرها وانفرجت عن هزيمة مروان بن محمد بمن بقي معه هزيمة لم يحدّث التاريخ بأسوأ منها.

ولنستمع الى المسعودي وابن واضح اليعقوبي وهما يتحدثان عن تلك الهزيمة التي كانت بها نهاية دولة بنيت عروش حكامها بدماء العلويين ومن كان يدين بالولاء لهم من صلحاء المسلمين وانهارت بسيوف شيعتهم لتحل محلها دولة مثلت مع أحفاد علي وشيعتهم ومحبيهم الأدوار نفسها التي مثلها الحزب الأموي الحاكم

مع علي والحسنين وشيعتهم وأنصارهم من قبل.

فقد جاء في مروج الذهب وتاريخ اليعقوبي وغيرهما أن مروان بن محمد قد انهزم في معركة نهر الزاب بعد أن قُتل أكثر من معه من الجيش وغرق في نهر الزاب خلق كثير ممن كانوا معه وكان فيمن غرق من بني أمية ثلاثمائة غير من غرق من سائر الناس، واتجه مروان فيمن بقي معه نحو الموصل فمنعه أهلها من دخولها فاتجه الى حران وكانت داره بها وعياله يقيمون فيها.

ومضى المسعودي يقول: أنه حين أزيل لعن علي بن أبي طالب عن المنابر في يوم الجمعة كما كانت العادة أصر أهل حران على سبّه ولعنه وقالوا: لا صلاة إلا بلعن أبي تراب، وأقاموا على ذلك الى أن كانت هزيمة الأمويين وظهور المسودة، وأضاف الى ذلك أنه خرج مع أهله ونسائه وسائر بني أمية من حران الى نهر أبي فطرس من بلاد فلسطين وعبد الله بن علي يسير في أثره، وفي طريقه حاصر دمشق وفيها الوليد بن معاوية بن عبد الملك في خمسين ألف مقاتل ففتحها وأسر جماعة من أحفاد عبد الملك بن مروان وأرسلهم الى أبي العباس في الحيرة فقتلهم وصلبهم فيها كما قتل من بني أمية وغيرهم خلقاً كثيراً على حد تعبير المسعودي في مروجه، ومضى في طريقه الى نهر أبي فطرس فقتل جماعة ممن كانوا مع مروان الحمار وأسر من بني أمية بضعاً وثمانين رجلاً وكان قد جمعهم في مكان خاص وأمرهم بالدخول عليه وأعد لكل رجل منهم رجلين يحملان العمد، وحينما دخلوا عليه أطرق ملياً فقام أحد الشعراء وأنشد أبياتاً جاء فيها:

أما الدعاة الى الجنان فهاشم　　وبنو أمية من كلاب النار

وكان النعمان بن يزيد بن عبد الملك جالساً الى جانب عبد الله بن علي، فالتفت الى الشاعر وقال: كذبت يا ابن اللخناء، فرد عبد الله بن علي قائلاً: بل صدقت يا أبا محمد أمضِ لقولك، ثم التفت عبد الله بن علي الى الأمويين وجعل يذكّرهم بمقتل الحسين وبنيه واخوته وأنصاره وما جرى لأهل بيته من الإهانة والسبي والإذلال وصفق بيديه فضرب القوم رؤوس الأمويين بالعمد التي أعدوها لذلك فماتوا عن آخرهم فناداه رجل من أقصى القوم:

عبد شمس أبوك وهو أبونا　　لا نناديك من مكان بعيد
فالقرابات بيننا واشجات　　محكمات القوى بعقد شديد

فقال له عبد الله: هيهات هيهات لقد كان ذلك ولكن قطعه قتل الحسين بن

علي وسبي نسائه وأطفاله، ثم أمر بهم فسحبوا وطرحت عليهم البسط وجلس بمن معه عليها ودعا بالطعام فأكلوا وقال: يوم كيوم الحسين ولا سواء، ثم دعا بذلك الرجل الذي أنشد البيتين وقال:

ومدخل رأسه لم يدنه أحد   بين الفريقين حتى لزه القرن

وأمر بضرب عنقه.

وجاء في البداية والنهاية لابن كثير أن عبد الله بن علي عندما احتل دمشق أباح القتل فيها ثلاث ساعات وأنه قتل جمعاً كبيراً من الأمويين يقدر بعشرات الألوف عند نهر بالمرملة وبسط عليهم الأنطاع ومد عليها سماطاً وأكل هو ومن معه وهم يختلجون تحتها وتتبع قبور حكامهم فنبشها وأحرق ما وجده فيها من العظام غير أنه لم يجد في قبر يزيد شيئاً من العظام وغيرها سوى خط أسود على مساحة القبر كأنه خط بالرماد ووجد جسد هشام بن الحكم على حاله وكان قد طُلي بمعدن خاص يحفظه من الاهتراء فجلده ثمانين جلدة ثم أحرقه، ويعلل بعض المؤرخين جلده بأنه فعل ذلك به لأنه كان قذف أم زيد بن علي بالزنا حينما وقف بين يديه وقال له: أُخرج يا ابن الزانية، وقيل إنما فعل به ذلك انتقاماً لأبيه علي بن عبد الله لأن هشاماً كان قد جلده ثمانين سوطاً.

وجاء في تاريخ اليعقوبي عن عبد الله بن علي أنه قال: لقد كان أبي يصلي في بعض الأيام وعليه إزار ورداء فسقط الرداء عن ظهره فرأيت في ظهره آثار السياط فلما فرغ من صلاته قلت له: يا أبت جعلني الله فداك ما هذا الذي أراه في ظهرك؟ فقال: إن الأحول يعني هشاماً أخذني ظلماً وعدواناً وجلدني ستين سوطاً، ومضى عبد الله يقول كما يدعي الراوي: فعاهدت الله إن ظفرت به أن أضربه بكل سوط سوطين[1].

وكان مروان قد انسحب من نهر أبي فطرس باتجاه مصر فمضى في أثره صالح ابن علي بن عبد الله فأدركه في قرية بوصير من بلاد مصر وجرت بين الفريقين معارك طاحنة كانت بها نهاية مروان وأكثر من كان معه من الأمويين وغيرهم.

وجاء في تاريخ اليعقوبي أن ولديه عبيد الله وعبد الله ليلة قتل توجها مع

(١) أنظر المجلد الثاني من تاريخ اليعقوبي طبع النجف ص ٩٢ و٩٣ والمجلد الثاني من مروج الذهب.

جماعة من أنصارهما والأمويين نحو الصعيد ومنه الى بلاد النوبة فأكرمهم ملك النوبة ولكنه لم يوافق على بقائهما في بلاده فخرجا منها باتجاه اليمن وفيما هم يسيرون اليها ومعهم بعض عائلات الأمويين ضلا عن الطريق ومات أكثرهم من الجوع والعطش، حتى كان الرجل يبوّل في كفيه ويشرب من بوله ولم يبقَ على النساء ما يستر أجسامهن، الى غير ذلك مما جاء في تاريخ اليعقوبي وغيره في وصفه للحالة السيئة التي اعترضت مسيرتهم وكانت بها نهايتهم، ومضى عامر بن اسماعيل أحد القادة الذين كانوا مع صالح بن علي يتتبع فلول الأمويين وعائلاتهم فأسر نساء مروان وبناته ومن كان معهن من الأمويات والجواري وأرسلهن لعبد الله بن علي ابن عبد الله بن العباس، وعندما دخلن عليه طلبت منه ابنة مروان الكبرى العفو والصفح فأخذ يستعرض لهنّ جرائم الأمويين مع الهاشميين والعلويين ماراً بجريمتهم مع ابن أخيه ابراهيم الإمام وزيد بن علي وولده يحيى بن زيد ومسلم ابن عقيل حتى انتهى الى الحسين بن علي فأسهب في عرض جرائمهم معه ومع أبنائه وبني إخوته وعمومته وأنصارهم وسبي نسائهم من كربلاء الى الكوفة ومنها الى الشام وما جرى لهنّ من تحقير وتعذيب واستخفاف وإذلال وما الى ذلك من الإهانة والإساءة لجدهم الرسول الأمين (ص).

وأضاف الى ذلك: لو أردنا أن نعاملكم بأعمالكم لا نستبقي منكم أحداً صغيراً كان أو كبيراً، فبكى بنات مروان وطلبن العفو عما مضى فعفا عنهنّ وردهنّ الى حران حيث كانت مقراً لمروان بن محمد الملقب بالحمار[1].

وتقلّص بمصرع مروان الحمار ظل دولة أسسها معاوية بن أبي سفيان قبل تسعين عاماً لتبقى إرثاً لأحفاد أمية، ويدعي بعض الرواة أن الآية من سورة القدر ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ تشير الى الزمان الذي تعيشه تلك الدولة التي لم تترك حرمة من حرمات الإسلام إلاّ وداستها ووطئتها بأقدامها ولا لوناً من ألوان التعذيب والتنكيل بالعلويين والأبرياء من صلحاء المسلمين إلا ومارسته، وحققت لأبي سفيان وحزبه جميع ما كان يحلم به ويعمل من أجله ولكن الله الذي يمهل أحياناً ولا يهمل كان لهم بالمرصاد.

لقد تقلّص ظلها بعد تسعين عاماً على إنشائها لتحل محلها دولة كان قادتها

(١) أنظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٤٥ والمصادر السابقة.

ودعاتها يلبسون المسوح ويتباكون على الاسلام وآل بيت الرسول (ص) ليستقطبوا الجماهير ويحققوا أكبر الانتصارات وتم لهم ذلك على حساب العلويين وحينما استتبت لهم الأمور مثلوا الأدوار نفسها وأسوأ منها مع الإسلام ومقدساته، ومع آل الرسول بالذات الذين كانوا يتباكون عليهم ويتظاهرون بالدعوة اليهم وينادون في معاركهم يا لثارات الحسين، وكاد الناس أن يتجاهلوا جور الأمويين وظلمهم بجانب ما لاقوه من الظلم والجور والاستهتار بالقيم والمقدسات وتقتيل العلويين ومطاردتهم حتى قال قائلهم:

يا ليت جور بني مروان دام لنا … وليت عدل بني العباس في النار

ومنه سبحانه نستمد التوفيق والعون لإخراج الحلقة الثانية من الانتفاضات الشيعية إنه قريب مجيب.



مصادر الكتاب

القرآن الكريم

مجمع البيان للطبرسي

تفسير الميزان للقمي

تفسير الرازي

الكامل لابن الأثير

تاريخ ابن الأثير

تاريخ الطبري

تاريخ المسعودي

تاريخ اليعقوبي

مقاتل الطالبيين للأصفهاني

البداية والنهاية لابن كثير

الإمام الحسن للقرشي

سيرة الأئمة الاثني عشر للمؤلف

العراق في ظل العهد الأموي للدكتور علي الخرطبولي

المختار الثقفي من سلسلة أعلام العرب

وعاظ السلاطين للدكتور علي الوردي

المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة

الحكم والإدارة في الإسلام للشيخ محمد مهدي شمس الدين

الفرق بين الفرق للبغدادي

الحركات السرية في الإسلام — لمحمود اسماعيل
حجر بن عدي الكندي — للسيد محمد جواد فضل الله
مناقب أبي حنيفة — لابن البزازي
ينابيع المودة
أنساب آل أبي طالب
الأخبار الطوال — للدينوري
أحزاب المعارضة السياسية — في صدر الاسلام
بلاغات النساء — لطيفور
صبح الأعشى
الإمامة والسياسة — لابن قتيبة
ثورة الحسين — للشيخ محمدمهدي شمس الدين
الشيعة والحاكمون — للمرحوم الشيخ محمد جواد مغنية
زيد الشهيد — للسيد عبد الرزاق المقرم
بين التصوف والتشيع — للمؤلف
حليف مخزوم — لصدر الدين شرف الدين
أدب الشيعة — للدكتور عبد الحسين طه
الحضارة الإسلامية — للمستشرق آدم متز
زينب الكبرى — لعبد العزيز سيد الأهل
وفاة زينب — للشيخ فرج القطيفي
ضحى الإسلام — لأحمد أمين
الإمام زيد بن علي — لأبي زهرة
الخطط — للمقريزي
ميزان الاعتدال — للذهبي
المدخل الى علم أصول الفقه — لمعروف الدواليبي
تاريخ الفقه الإسلامي — للدكتور محمد يوسف موسى
المستصفى — للغزالي
حياة أبي حنيفة — لأبي زهرة
أهل البيت — لتوفيق أبو علم
تاريخ التمدن الإسلامي — لجرجي زيدان

للمؤلف

١ ـ عقيدة الشيعة الإمامية	طبعة ثانية
٢ ـ تاريخ الفقه الجعفري	طبعة ثالثة
٣ ـ المبادىء العامة للفقه الجعفري	طبعة ثالثة
٤ ـ الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة	طبعة ثالثة
٥ ـ نظرية العقد في الفقه الجعفري	طبعة ثانية
٦ ـ دراسات في الكافي للكليني والصحيح للبخاري	طبعة ثالثة
٧ ـ المسؤولية الجزائية في الفقه الجعفري	طبعة ثالثة
٨ ـ الأحاديث الموضوعة	طبعة ثالثة
٩ ـ الولاية والشفعة والإجارة من الفقه الإسلامي	طبعة ثالثة
١٠ ـ سيرة المصطفى	طبعة خامسة
١١ ـ سيرة الأئمة الإثني عشر	طبعة خامسة
١٢ ـ بين التصوف والتشيّع	طبعة ثالثة
١٣ ـ أصول التشيّع	طبعة ثالثة
١٤ ـ الوصايا والأوقاف وإرث الزوجين	طبعة ثانية
١٥ ـ الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ	طبعة رابعة
١٦ ـ من وحي الثورة الحسينية	طبعة ثالثة
١٧ ـ نظرات جديدة في الفرق والمذاهب الإسلامية	
١٨ ـ أصول الفقه الجعفري	
١٩ ـ صور مشرقة من وحي الاسلام	طبعة ثانية